



227

موجز تاريخ علم اللغة

(في الغرب)

تأليف: ر. هـ. روبنز

ترجمة: د. أحمد عوض

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

227

موجز تاريخ علم اللغة

(في الغرب)

تأليف: ر. هـ. روبنز

ترجمة: د. أحمد عوض



المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

تصدير المترجم

يقدم المؤلف في هذا الكتاب وصفا موجزا لتاريخ الدراسات اللغوية، حتى بداية النصف الثاني من هذا القرن، ويركز وصفه ـ أساسا ـ على تاريخ علم اللغة في أوروبا، ولكنه في نفس الوقت لا يتجاهل المساهمات التي تلقاها هذا العلم من خارج القارة.

وإذا كان المؤلف يهدف من هذا الكتاب لسد حاجة المدرسين والدارسين في هذا الميدان، لتعميق فهمهم لما قد أنجز في دراسة اللغة، ولاقتراح مجالات مفيدة لأبحاث أخرى في نفس الوقت، فإننا نرى أن هذا الكتاب يهم المثقفين والقراء العرب عموما، فالمثقف العربي بشكل عام قد يكون ـ إضافة لتخصصه ـ على دراية بدرجة أو أخرى، بالفلسفة والتاريخ والسياسية والاقتصاد والفنون...إلخ، ولكنه فيما يتعلق بعلم اللغة قد لا يكون على دراية كافية، وقد يكون مفهومه عن اللغة وطبيعتها وعلاقتها بالمجتمع وبالفكر، أقرب إلى المفهوم الأسطوري أو الفلكلوري. وفي هذه الحالة فإن مواقفه تجاه لغته ولغات الآخرين، وبالتالي نحو الآخرين ونحو العالم لن تكون صحيحة تماما، أو ناقصة أو مشوهة في أحسن الأحوال. وقد يسهم هذا الكتاب في سد هذه الحاجة لدى المثقف والقارئ العربيين.

والكتاب ـ في الحقيقة ـ ليس سهل القراءة، بسبب ما يضمه من مصطلحات فنية متخصصة وغير مألوفة لغير المتخصصين، خاصة فيما يتعلق

بالمصطلحات الصوتية. من هنا رأينا ضرورة التعريف ببعض المصطلحات اللغوية تعريفا بسيطا بقدر الإمكان، مع التركيز على المصطلحات الصوتية، وهذا بهدف مساعدة القارئ العادي على الاستفادة بأكبر قدر ممكن من هذا الكتاب.

١ ـ المرفيم: هو الوحدة المميزة الصغرى في التحليل القواعدي، وهو ذو أهمية مركزية في الصرف بشكل خاص. وهو المفهوم العلمي البديل لمفهوم الكلمة، لأن المفهوم الأخير يصعب التعامل به في هذا الصدد، فضلا عن أن الكلمة يمكن أن تكون بنية مركبة من الناحية القواعدية، من هنا فالمرفيم ينظر إليه باعتباره الوحدة الوظيفية الصغرى في تركيب الكلمات.

ولعل ذكر بعض أمثلة من العربية يساعد على فهم هذا الكلام المجرد، فكلمات مثل «رجل» و «حصان» و «قط» و «في» و «على».. إلخ يمكن النظر إليها باعتبارها كلمات ومرفيمات في نفس الوقت. ولكن كلمة مثل «عقولنا» يمكن تحليلها إلى ثلاثة مرفيمات هي: عقل + مرفيم الجمع + نا، وعندما نضع هنا «مرفيم الجمع» بدلا من الواو، فإن هذا على اعتبار أن المرفيم وحدة مجردة لها تحققات على مستوى النطق الفعلي يطلق عليها morphs أو allomorphs أو مغايرات مرفيمية، وبهذا ينظر للواو باعتبارها مغايرا مرفيميا، وكذلك الأمر مع واو جمع المذكر السالم أو الألف في بنات أو مدارس.. إلخ.

والمرفيم قد لا يتحقق في الكلام المنطوق، وفي هذه الحالة يطلق على هذا الوضع المغاير المرفيمي «صفر» أو الفارغ، ويمكن التمثيل لهذا بكلمة «شمس» التى لا تتصل بها علامة تأنيث، فالتحقق المرفيمي هنا يكون صفرا، وتحلل كالآتي «شمس + تأنيث f»، والتركيب اللغوي يعوض تحقق مرفيم التأنيث في هذه الحالة، كما في قولنا «شمس مشرقة» أو «الشمس غربت».

والمرفيم ينقسم إلى مرفيم حر ومرفيم مقيد، والأول هو الذي يمكن أن يقع مستقلا في الكلام مثل «رجل» أو «ولد» أو «حصان»... إلخ، أما الثاني فلا يرد في الكلام إلا مرتبطا بغيره مثل مرفيم التعريف (أل) أو مرفيم الجمع، أو التأنيث، والضمائر الشخصية المتصلة... إلخ.

وقبل تعريف بعض المصطلحات الصوتية نود أن نصحح أمرا يلتبس

عند كثير من الناس، حتى بعض العاملين في ميدان علم اللغة، هذا الأمر يتعلق بما يسمى «اللغة المكتوبة»، وهو تعبير لا يمكن قبوله إلا على سبيل المجاز من وجهة نظرنا، فاللغة ـ علميا ـ ذات طبيعة صوتية، وهو ما فهمه عالم لغوي مثل ابن جني وغيره منذ قرون. أما «اللغة المكتوبة» فهي ليست نوعا آخر من «اللغة الطبيعية»، إنما الأمر عبارة عن رموز بصرية (ناقصة وملبسة في كثير من الأحوال) للرموز الصوتية، مهما كان نوع هذه الرموز البصرية صوريا أو مقطعيا أو فونيميا، فاللغة شيء والكتابة شيء آخر، وعدد اللغات في العالم ـ بخلاف اللهجات ـ يقدر بما بين أربعة وخمسة آلاف لغة، ولكن عدد أنظمة الكتابة يعد على أصابع اليدين، وأشهرها النظام اللاتيني والسيريلي (المطور عن اليوناني) والعربي (شبه فونيمي) والأمهري (مقطعي) والصيني (صوري أساسا). والنظام اللاتيني والسيريلي تكتب بهما مئات اللغات في العالم. والإيطالي الذي لا يعرف الهوسا أو الفولا أو السواحلية، لا يمكنه أن يفهم عبارة من هذه اللغات مع أنها مكتوبة بالحروف اللاتينية، وهذه اللغات كانت تكتب من فترة بالحروف العربية، والعربي الذي لم يدرس هذه اللغات لا يمكنه أن يفهم شيئا من نصوص هذه اللغات المكتوبة بالحروف العربية، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الأردية والفارسية والتركية قبل العشرينيات من هذا القرن.

ولو رجعنا للغة العربية ذاتها وخلطنا بينها وبين نظامها الكتابي، لكان لدينا عدد من اللغات العربية بعدد أنواع الخطوط، كالرقعة والنسخ والفارسي والثلث والديواني... إلخ.

ومع هذا الخلط، ليس غريبا أن نسمع بعض أهل الموسيقى والغناء يقولون ـ عند مدح بعض المغنين أو المغنيات ـ «إنه يتقن مخارج الحروف». ولا نظن أن هناك مغنيا ـ أو مغنية ـ يغني حروفا، فالغناء مادته الصوت، وإذا كان هذا يقال على سبيل المجاز فهو مجاز غير مقبول في مجال العلم.

بعد هذه الملاحظة يمكن تقديم بعض المفاهيم الصوتية بشكل مبسط:

2 ـ الفونيم : هو الوحدة الصغرى في النظام الصوتي للغة معينة حسب النظريات التقليدية. وهو قد يتحقق في اللغة بأكثر من صوت يطلق عليه ألوفون أو فون أو مغاير variant أو تحقق، وهو الصوت الفعلي الذي ينطق في الكلام. وأوضح مثال لهذا في العربية هو فونيم النون /n/ الذي يتحقق

بوصف [n] في السياقات غير المشروطة في كلمة مثل نـامَ (na:ma) فيكون الصوت لثوي المخرج، ولكنه قد يكون غاريا في سياق مثل «من يعمل [mal ؟ man Ja]» أو طبقيا في سياق مثل «من كان [man ka:na]»، وقد ينقلب إلى صوت شفوي كما في [أنباء؟ ?anba:?]. وهذه المغايرات ينظر إليها باعتبارها مغايرات مقيدة أو مشروطة. ولكن هناك مغايرات حرة مثل الاختلافات في نطق الجيم، فهذا الفونيم يكون (g) في نطق القاهريين وجنوب اليمن و (J) في الفصحى التراثية و (ʒ) في معظم مناطق الشام.

والوظيفة اللغوية للفونيم هي التفريق بين معاني المرفيمات، فالذي يفرق بين معنى «مات» و «بات» هو الفونيم الأول في كل كلمة.

وفي هذا السياق نلفت نظر القارئ إلى أن الرمز بين شرطتين مائلتين /-/ كما سيرد في الكتاب يشير للفونيم، أما عندما يرد بين قوسين مربعين [-] فإنه يشير للنطق الفعلي أو المغاير.

والنوع السابق من الفونيمات يطلق عليه الفونيمات الجزئية segmental، وهناك نوع آخر من الفونيمات يطلق عليها الفونيمات فوق الجزئية suprasegmental، وهي عناصر صوتية سياقية تقوم أيضا بالتفريق في المعنى معجميا أو صرفيا مثل الطول والنبر والنغمة، فالكلمتان «كتب ـ كاتب» تتفقان في الأجزاء نوعا وعددا وترتيبا، ولكن الذي يفرق بينهما صرفيا ودلاليا هو الفرق في طول الصائت الثاني في كل منهما (الفتحة ـ الألف على الترتيب). أما النبر أو درجة البروز فتفرق في المعنى بين نطقين لكلمة subject التي تنطق ببروز قوي على المقطع الأول عندما تعني «موضوع»، والعكس (بروز أو نبر أقوى على المقطع الثاني) عندما تعني «رهن لـ...». أما النغمة فتعني الفروق في طبقة الصوت، ولها دور مشابه لدور النبر، والحديث عنها قد يثقل على القارئ، لذلك نتوقف عنه.

3 ـ الملمح المميز : مصطلح يستعمل في التحليل اللغوي على مستوى الفنلجيا والدلالة والقواعد، ورغم أن نشأته الأولى كانت في أحضان فنلجيا مدرسة براغ، فإن مفهومه الأوضح كان في الخمسينيات على يد ياكوبسون أحد أعضاء هذه المدرسة، ولهذا ظل استعماله الأساسي والأكثر نجاحا في التحليل اللغوي، ظل في ميدان الفنلجيا، وهو ما تهمنا الإشارة إليه.

وإذا كانت للتحليل الفونيمي للغات قيمة نظرية وعملية في مجال التعليم،

أو وضع أنظمة كتابة ملائمة للغات غير المكتوبة أو إصلاح القائم منها، فإن التحليل لملامح مميزة ذو قيمة نظرية أعظم في التحليل الفنلجي للغات، وقد تكون له تطبيقات أهم في مجال الاتصال.

وإذا كان الفونيم ـ في أحد تعريفاته ـ هو الوحدة المميزة الصغرى، فإن الملمح المميز قد صار هو الوحدة المميزة الصغرى، والفونيم بهذا الشكل يصبح مفهوما مركبا من هذه الوحدات. وبهذا يصبح المفرق بين كلمتي «مات» و «بات» ليس كل فونيم /m/ وكل فونيم /b/، ولكن ملمح «الأنفية» المتحقق في الأول والغائب في الثاني، وبنفس الطريقة فالذي يفرق بين «سار» و «زار» هو ملمح «الجهر» (اهتزاز الطيات الصوتية) في /z/ وغيابه في /s/، أما المميز بين «سار» و «صار» فهو ملمح «الإطباق» (التفخيم) الموجود في /$/ والغائب في /s/ وهكذا.

والهدف والمقام لا يسمحان بالحديث أكثر عن قيم هذه الملامح أو طبيعتها عند علماء الفنلجيا، فهذا مجاله الكتب الأكثر تخصصا في المجال.

4 ـ الهائية : مصطلح صوتي يشير ببساطة إلى نطق ما يشبه الهاء القصيرة مع بعض أصوات لغة معينة. وقد يكون لهذا العنصر الصوتي دور في التفريق بين صيغ الكلمات في بعض اللغات كما في بعض اللغات في شبه الجزيرة الهندية، ولكنه قد يكون مرتبطا فقط ببعض السياقات الصوتية كما في الإنجليزية.

وتبقى ملاحظتان بسيطتان هما :

1 ـ هناك كلمات كتبت إملائيا بشكل غير معتاد مثل «فُنُلجيا وبيلجيا ومرفيم.. إلخ» هذا الأمر مقصود من باب كتابة مثل هذه الكلمات المقترضة بإملاء يناسب الإملاء العربي.

2 ـ الكلمات الموضوعة بين قوسين مربعين] ـ [من وضع المترجم زيادة في التوضيح، أما الرموز الصوتية بين هذين القوسين فهي من أصل النص.

وفي النهاية أتمنى أن تحقق هذه الكلمة ما كتبت من أجله.

المترجم

من تصدير الطبعه الأولى

لقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم وصفا موجزا لتاريخ الدراسات اللغوية حتى وقتنا الحاضر، وللأسباب المذكورة في الفصل الأول فقد تركز هذا الوصف على تاريخ علم اللغة في أوروبا، ولكنني آمل في القيام بلفت النظر اللازم للمساهمات التي تلقاها هذا العلم من الأعمال التي ظهرت خارج القارة الأوروبية.

والاهتمام الحالي الذي يبديه علماء اللغة بالتطورات الماضية لعلمهم ولتاريخه المبكر، يعتبر في حد ذاته علامة من علامات نضج علم اللغة بوصفه علما أكاديميا، بغض النظر عن أي تطبيقات عملية للعلوم اللغوية. وأرجو أن يكون هذا الكتاب بمنزلة خطوة نحو سد حاجة المدرسين والدارسين في هذا الميدان، لتعميق فهمهم لما قد أنجز في دراسة اللغة ولاقتراح مجالات مفيدة لأبحاث أخرى في نفس الوقت.

وفي المجازفة بتأليف كتاب له هذا الهدف فإن المرء يكون على وعي في نفس الوقت بعدد من الصعوبات، ففي المقام الأول لا يمكن لشخص بمفرده أن ينجز أمرا كالذي يتطلبه منه مثل هذا المشروع، وهو أن يكون على درجة متساوية من الاطلاع على المؤلفات اللغوية في الحقل كله، وفي المقام الثاني، فإن نطاق مادة المصادر وطبيعتها ووضعها الراهن يختلف ويتنوع بشكل كبير من فترة لأخرى، فهناك ثغرات تثير الأسف في معرفتنا

ببعض الرواد الأوائل في علم اللغة، بينما المشكلة - في التاريخ المعاصر للاتجاهات الحالية - مشكلة معكوسة، تتمثل في جهد الاختيار من المقدار الضخم للمواد المنشورة التي يرجح أن تكون ذات أهمية تاريخية دائمة. وهذه الحدود الخارجية توجد بينها اختلافات كبيرة فيما يتعلق بتوافر النصوص الأساسية وسهولة الحصول عليها وحالة طباعتها.

وإذا نظر المرء خارج أوروبا، إلى الثقافة اللغوية التي اعتمد عليها الأوروبيون بشكل كبير ومفيد جدا، فإن الحاجة لم تزل ماسة إلى كتابات وتفسيرات جديدة، فقد تمت في الواقع دراسة كثير من المؤلفات اللغوية الصينية والعربية والهندية بشكل واسع النطاق، ولكن هذه الدراسة كانت إلى حد كبير، من زاوية مكانة هذه المؤلفات في التاريخ الثقافي والأدبي لهذه الشعوب نفسها، ولكن المعالجة العلمية التي تربط الكتابات المتفردة في هذا الميدان بالنظرية اللغوية الحالية وتطبيقاتها، سوف تسد ثغرة واسعة في فهمنا لتاريخ العالم الثقافي.

ولهذه الأسباب، إضافة إلى نقص معرفة المؤلف وقدراته فيما يتعلق بهذه المهمة التي فرضها على نفسه، فمن المرجح أن القراء سوف يجدون أسسا قوية للخلاف مع ما هو مسطر هنا ولخيبة الأمل فيه. ولكن إذا ما أثار هذا الكتاب الدافع لبحوث أخرى أكثر تفصيلا في مصادرنا لتاريخ علم اللغة، فإنه يكون قد حقق بعض أغراضه.

تصدير الطبعه الثالثه

خلال عشر السنوات الماضية منذ نشر الطبعة الثانية لهذا الكتاب، ظهرت دراسات كثيرة تتصل بتاريخ علم اللغة، واعترافا بتاريخ علم اللغة بوصفه جزءا مهما من علم اللغة العام، وبوصفه مكونا له قيمته في الدورات الدراسية في علم اللغة على المستوى الجامعي، فقد أصبح له مكانة في المناهج الدراسية في الدرجة الجامعية الأولى وفي الدراسات العليا، في كثير من الجامعات في أوروبا وأمريكا وأماكن أخرى، أما في بريطانيا فقد تحدد بوضوح منصب رسمي لمحاضر في تاريخ علم اللغة.

ويمكن النظر لتعاظم الاهتمام بهذا الفرع من علم اللغة، من زاوية مختلفة بعض الشيء باعتباره توسيعا لمعرفتنا بتاريخ العلم، أو بشكل أعم بتاريخ الأفكار، وليس مدهشا في هذا السياق أن يظهر عدد من الجمعيات والمنظمات التي غايتها خدمة تاريخ علم اللغة، فمنذ عام 1978 يعقد كل ثلاث سنوات المؤتمر الدولي حول تاريخ علوم اللغة International Conference on the History of the Language Sciences، ثم تنشر أبحاثه بعد ذلك، كما أن جمعية تاريخ علوم اللغة ونظرية معرفتها Sociéte d'Histoire et d'Epistémologie des sciences du langage التي أسست أيضا عام 1978 تعقد حلقات دراسية وندوات منتظمة، وتنشر الأبحاث المقدمة فيها بعد ذلك أيضا، وحديثا جدا فإن جمعية هنري سويت (1984) في بريطانيا، وجمعية شمال أمريكا لتاريخ

علوم اللغة (1987) في أمريكا، تعقدان الندوات لتبادل نتائج البحوث ومخططاتها، وللتعرف على الاهتمامات المختلفة في أحد ميادين البحث الفكرية لإقامة الاتصال بالتاريخ الثقافي والتاريخ العام، كما أن دورية Historiographia Linguistica (1974) مازالت مستمرة في تقديم خدماتها القيمة، بوصفها مكانا لنشر المقالات المتخصصة والمقالات النقدية في ميدان الدراسات برمته. ولسنا في حاجة إلى القول: إن هذا النشاط يتطلب بالضرورة إعادة للنظر في كثير من الآراء التقليدية عن المؤلفات اللغوية في العصور والأماكن المختلفة، كما يستلزم إعادة النظر في عدد من المسلمات idées reçues عن تطور التفكير اللغوي خلال العصور، ويجب علينا الترحيب بإعادة النظر تلك، لأنه من دونها لا تعدو جملة محاولات الدراسة أكثر من قائمة ثابتة وغير قابلة للنقاش ، من أسماء الأشخاص والمدارس وأنماط التفكير التي يتصل بعضها ببعض في تتابع غير مدروس. وقد بذلت جهدي في الطبعة الحالية كي ألفت النظر للاتجاهات الرئيسية المخالفة للآراء التقليدية، تلك الاتجاهات التي ظهرت في العقد الأخير.

وهذا لا يعني بالضرورة موافقتي على استنتاجات أنصار هذه الاتجاهات، ولكن ما أرجوه هو أن أخلق لدى القراء الميل والوسيلة لمتابعة الأدبيات المتصلة بالموضوع، لكي يصلوا لاستنتاجات خاصة بهم. وفيما عدا هذا فقد أبقيت الموضوع - مخطئا أو مصيبا - على الوضع الذي رتب به في طبعة 1967. في مقدمة الطبعة الأولى (1967) توجب علي الاعتراف عن طيب خاطر بالمساعدة الدؤوبة التي قدمتها زوجتي شيلا من دون مقابل في كثير من نواحي إعداد هذا الكتاب. وقبل التمكن من الشروع في إعداد الطبعة الحالية انتهت حياتها على هذه الأرض، وكان علي أن أبذل أقصى طاقتي من دون إرشادها الجوهري ومساعدتها الجاهزة.

ولو أنها بقيت على قيد الحياة لاستفاد القارئ من مساعدتها كما استفاد المؤلف. وبما أن هذا غير ممكن الآن، فإنني أهدي هذا الكتاب بصورته الحالية لمن يستحقه، أي لذكراها المشمولة بالمودة والعرفان الدائم بالجميل.

لندن 1989

ر. هـ. روبنز

١ مقدمة

في معظم مراحل حياتنا نتقبل استعمالنا للغتنا الأصلية وفهمنا لها دون وعي أو تعليق أو تساؤل. وقد تدفعنا أحيانا ذكريات الطفولة المبكرة وخبرة تربية الأطفال للتفكير في مدى تعقيد المقدرة اللغوية لدى كل شخص طبيعي، كما أن تعلم المرء للغة أجنبية أو أكثر بعد تمكنه من لغته الأولى أو الأصلية، يكشف لنا عن مدى ما تتطلبه مقدرة النوع الإنساني على التواصل عن طريق اللغة.

وعلى الرغم من هذا التقبل العام لموهبة الكلام المنطوق، فإن معظم الثقافات في العالم قد أوجدت لدى بعض أعضائها فهما معينا لمجال اللغة وقدرتها، كما أن الوعي بالذات اللغوية قد يكون أثاره في البداية الاحتكاك بمتكلمين أجانب، أو وجود الانقسام اللهجي وإدراكه داخل الجماعة اللغوية، أو قد تكون أثارته نزعة معينة من نزعات حب الاستطلاع الأصيل، والخالي من الغرض عند الإنسان لمعرفة نفسه ومعرفة العالم من حوله. وقد نشأ عن هذا المصدر «علم لغة شعبي Folk Linguistics»، أو وجهات نظر تخمينية، أو آراء دجماتية عن أصل اللغة، أو عن أصل لغة المرء الخاصة وعن مكانتها في حياة الجماعة. وهذه

الآراء قد تأخذ أشكال انتقاد يزدري اللهجات واللغات الأخرى. ولكن هناك ثقافات كثيرة تشتمل على أساطير تفسيرية تدعي أنها تصف أصل اللغة ككل، أو تصف على الأقل أصل لغة الشعب الأثيرة لديه. واللغة بوصفها هبة خاصة من الله، عبارة عن تصور وجد في كثير من الثقافات المختلفة وغير المتصلة بعضها ببعض، وهذا التصور ذاته ذو دلالة على التبجيل الذي أضفاه بحق الأشخاص المولعون بالتأمل، على هذه المقدرة الإنسانية النفيسة[1].

وفي بعض الثقافات، تلك التي يصدق عليها لسبب أو لآخر لقب الحضارات، فإن حب الاستطلاع وإدراك الإنسان لمحيطه قد استطاعا أن يصبحا علما، أي دراسة نظامية لموضوع معين، أو لمجال من مجالات الظواهر، وقد اعتنى بهذا الموضوع أو المجال، ونقله من جيل لآخر أناس عرفوا بمهارتهم ومعرفتهم بنشاط معين من هذا النوع. والجنس البشري كله مدين بدين عظيم لتلك الثقافات التي رعت تطور العلوم بطريقة أو بأخرى.

من بين العلوم التي ظهرت بهذه الطريقة، فإن علم اللغة الشعبي قد تطور في مناطق مختلفة من العالم المتحضر إلى العلم اللغوي، والمصطلح «علم» في التركيب «العلم اللغوي» يستعمل هنا بشكل مقصود، ولكن ليس بشكل حصري، فالعلم في هذا السياق ليس متمايزا عن العلوم الإنسانية، فمزية الدقة والانضباط العقلي الذاتي من جانب، والحساسية والخيال من جانب آخر، كلها شروط مطلوبة للعمل في أي دراسة مرضية للغة.

وعلوم الإنسان - التي تضم علم اللغة - كان باعثها هو نشوء الوعي بالذات لدى الإنسان، ولكن هذه العلوم بشكل متساو، أو الممارسين لها بتعبير أدق قد يصبحون واعين بأنفسهم بفضل ما يقومون به، أو بفضل ما قاموا به. وعندما يضم هذا الوعي العلمي بالذات اهتماما بأصل العلم وبتطوره الماضي، فإننا نعترف بمولد ذلك الفرع المعين من المعرفة المعروف بتاريخ العلم. وفي السنوات الأخيرة فإن التطور السريع والمذهل أحيانا في علم اللغة بوصفه موضوعا أكاديميا، سواء في عدد العلماء المنغمسين فيه، أو في مجال أنشطتهم، هذا التطور أدى إلى تطور مماثل في اهتمام اللغويين بالتاريخ الماضي للموضوع. وقد يعزى هذا جزئيا إلى الشعور بأن فهما ما وتقديرا ما، لمشكلات وإنجازات الأجيال السابقة قد يكونان مصدرا

للاستقرار خلال فترة تغيرات سريعة، بشكل غير مسبوق في النظرية والمنهج والتطبيق.

وعلم اللغة اليوم، مثله مثل فروع العلم والمعرفة الإنسانية الأخرى، ومثل كل مناحي الثقافات الإنسانية، عبارة عن نتاج لماضيه، وعبارة عن مادة لمستقبله. والأفراد يولدون وينمون ويعيشون في بيئة تتحدد فيزيقيا وثقافيا بماضيها، وهم يشتركون معا في هذه البيئة، ويكون البعض منهم ذوي فعالية في إحداث تغيرات بها، وهذا هو أساس التاريخ الإنساني. والعلم (بالمعنى الواسع) له تاريخه، شأنه في ذلك شأن الناس، وشأن المفاهيم العقلية والأخلاقية. والعلماء في كل جيل لا يبدأون من فراغ، ولكنهم يعملون من خلال وعلى أساس الوضع الذي ورثه علمهم، وورثه العلم بوجه عام، في ثقافتهم وفي عصرهم. والتفكير التاريخي عن العلم أو عن أي شيء آخر في الأمور الإنسانية يكمن في دراسة التسلسل الزمني للأشخاص والوقائع، وفي دراسة العلاقات السببية والتأثيرات والاتجاهات، التي يمكن اكتشافها في تلك الوقائع، والتي يمكن أن يلقى الضوء عليها.

إنه لأمر مغرٍ ومرضٍ للكبرياء عند معاصرينا أن ينظروا لتاريخ العلم بوصفه اكتشافا متناميا للحقيقة، وبوصفه وصولا للمناهج الصحيحة، وهذا شيء يشبه ما يسمى «تاريخ ويج Whig history» في فن كتابة التاريخ السياسي[2]. ولكن هذا عبارة عن اعتقاد خاطئ، فأهداف العلم تختلف مع مجرى تاريخه، والبحث عن معايير موضوعية نحكم بها على أهداف الفترات المختلفة بحث جدير بأن يكون بحثا محيرا، «فالوقائع والحقيقة» لا تسلم نفسها مقدما مثلما هو الشأن في حل لغز الكلمات المتقاطعة التي نتوقع الوصول لاكتشافها. والعلماء أنفسهم يقومون بالكثير من أجل تحديد ميدان الوقائع والظواهر، والعمليات التي تقع في نطاق علمهم، كما أنهم هم أنفسهم يصنعون ويعدلون إطار المفاهيم الذي من خلاله، يجعلون ما يهتمون به مصوغا صياغة دالة على مجالات علمهم.

والعروض التاريخية المختصرة لموضوع ما مثل تلك التي تضمها الكتب الدراسية التمهيدية، تنظر حتما إلى الماضي من خلال عيون الحاضر، مركزة على تلك الجوانب من الأعمال المبكرة التي تبدو متصلة على نحو خاص بالمقاربات approaches الحالية، أو تبدو على الجانب الآخر غير متصلة

بها بشكل صارخ. وهذا صحيح تماما، وهو في الواقع يكاد يكون حتميا في مثل هذه الإشارات الموجزة. ولكن هذا يحمل في طياته خطر تقييم كل الأعمال السابقة في موضوع معين من وجهة النظر المتحيزة للحاضر، كما يحمل خطر التصور لتاريخ علم معين بوصفه تقدما مطردا حينا، وغير مطرد أو منحرفا أحيانا، نحو هدف محدد سلفا من قبل الوضع الراهن للعلم.

وهذا لا يعني أنه يجب على المرء أن يستبعد تقييم الأعمال السابقة في مقابل الإنجازات المتأخرة، وفي مقابل الوضعية الراهنة لنفس المضمار، عندما يكون هناك مسوغ لرؤية تقدم واضح في هذا المضمار. وهذه المقارنات في الواقع قد تكون مفيدة في كونها تظهر أي مناحي العلم كانت أكثر إيثارا في ظروف خاصة، وفي فترات ومناطق حضارية معينة. والمطلوب هو محاولة رؤية جذور الماضي في الحاضر، ورؤية الأوضاع المتغيرة للعلم في بيئاته الثقافية المختلفة. والمرء عليه أن يجاهد من أجل تجنب الاختيار المتعمد لتلك الأقسام، التي يمكن أن تدخل وحدها - من بين الأعمال السابقة - في علاقة خاصة مع الاهتمامات الراهنة.

وإذا ما كان التاريخ أكثر من مجرد تدوين حولي للماضي، فإن حكما ذاتيا معينا يكون حتميا في ترتيب الحوادث وتفسيرها. من هنا نشأت المقولة الكلاسيكية القائلة بأنه لا يمكن أن يكون هناك تاريخ غير متحيز. وفي تاريخ العلم، وفي الحالة الراهنة لتاريخ علم اللغة، فإن هناك عنصرا ذاتيا آخر مطلوبا في تحديد أي النشاطات والأهداف من جانب المؤلفين الأوائل، سوف تعتبر داخلة في نطاق علم اللغة، وبالتالي يمكن أن تنتمي لتاريخه. وحتى لا نفرض معايير علم اللغة المعاصر في الحكم على ما نسمح بدخوله من الماضي بوصفه عملا لغويا، فإننا قد نتفق على أن الدراسة التي تعتبر جزءا من تاريخ علم اللغة، هي أي دراسة نظامية تتناول جانبا أو جوانب معينة من اللغة، ينظر إليها بوصفها أهدافا مهمة وجديرة في حد ذاتها بمثل هذه الدراسة.

هناك عدد من العوامل يحدد التحولات والتطورات في علم معين، فكل علم من العلوم ينمو من خلال ماضيه، كما أن الوضع الذي وصل إليه العلم في الجيل السابق يقدم نقطة البداية للجيل التالي. وليس هناك علم يتواصل

في فراغ دون ارتباط أو اتصال بالعلوم الأخرى، ودون ارتباط بالمناخ العام الذي يشجع العلم أو يسمح به في ثقافة معينة. والعلماء وأهل المعرفة هم أيضا أبناء عصرهم، وهم يشاركون في الثقافة التي يعيشون في إطارها، ويعملون من خلالها. وكما يتأثر تقدم العلم بماضيه فإنه يتأثر أيضا بالمحيط الاجتماعي لمعاصريه، وبالمقدمات الفكرية السائدة بينهم. كما أن تطبيقات العلم واستخداماته في الأغراض العملية وما ينتظره الناس منه، قد تكون محددا مهما لاتجاهات تطوره وتحولاته. وفي علم اللغة كما في غيره من المجالات فإن التطبيقات الفعلية والمتصورة، والغايات العملية المطلوب من علم اللغة إنجازها، قد سبقت غالبا صياغة الافتراضات النظرية التي اعتمدت عليها بشكل ضمني تلك التطبيقات والغايات.

وليس كل العلماء متساوين في القدرة والدافع والإلهام، وكل ممارس لمهنة عليه أن يتعلم مهنته، وأن يستوعب المستوى الذي وصل إليه علمه عندما يشرع في ممارسته. وإذا كان للعلم أن يتواصل فإن على بعض الناس أن يعلموه بدورهم لآخرين. وقد يكون من المفروض على معظم العلماء أن يقنعوا بعدم القيام بأكثر من هذا، ولكن كل فرع مثير من فروع المعرفة يجذب إليه قلة من الأشخاص، ذوي العزم الواضح القادرين على الاستجابة بشكل إيجابي، للتحديات التي ورثها الحاضر عن الماضي، هؤلاء الأشخاص يفكرون بشكل أعمق، كما ينظرون بارتياب للنظريات المسلم بها، كما أن ممارستهم العلمية تكون أكثر دقة. وهؤلاء الأشخاص تكون الحاجة إليهم ضرورية عندما لا تكون الثقافة جامدة تماما. ومن حسن الحظ في تاريخنا الأوروبي أن اليونان القديمة في العصر الكلاسيكي، قد قدمت رجالا على هذه الشاكلة لم يسبقوا - عددا ونوعا - حتى ذلك الحين، في الكثير جدا من مجالات التفكير والنشاط الإنسانيين.

وعندما تتحقق الريادة لبعض الأشخاص فإن آخرين يتبعونهم، والرواد والمبدعون في علم معين عندما تتاح لهم الظروف المواتية، أو عندما يخلقون هم لأنفسهم ظروفا مواتية، فإنهم يصبحون مؤسسين لمدارس، ويصبح لهم أتباع ومريدون يواصلون الاستفادة من طرق التفكير والممارسة التي تجلت عند المؤسس أو الرائد، والتحولات في التفكير العلمي والمواقف العلمية قد تنشأ من خارج أو من داخل العلم الذي يكون تاريخه قد تشكل. والوضع

القائم لعلم معين ونقطة البداية لأي تحول، عبارة عن محصلة لعوامل خارجية وتاريخية، والمحيط الفكري والاجتماعي العام والمعاصر، سواء أكان يفضل الجمود أم يشجع التغير، يعتبر إلى حد كبير عاملا خارجيا بالنسبة للعلم المعين نفسه، على الرغم من أن كل علم وكل فرع من فروع المعرفة، يعتبر جزءا من المحيط الكلي إلى جانب العلوم والفروع الأخرى، وإلى جانب الموقف الثقافي العام من العلم.

وعندما يستجيب المبدعون المبرزون في علم معين لتحدي وضع يتطلب تغييرا في الممارسة، فإن هذا قد يأخذ عدة أشكال، وقد تنشأ عنه مدارس متنافسة حول رواد يستجيبون استجابات مختلفة تجاه وضع معين، وقد تتعزز هذه المنافسة وتستمر عن طريق استعمال كتب دراسية نموذجية، في تعليم الوافدين الجدد للمجال. وأي علم يتطلب موضوعه دراسة إمبريقية للمادة الملاحظة (وعلم اللغة ـ تحت أي تفسير ـ يندرج تحت هذا النوع من العلوم)، يجب أن يكون قادرا على معالجة الظواهر الخاصة به. وحالما يتم التسليم بأي ملاحظة باعتبارها متصلة بهذا العلم، فإن نظريته وأنماط وصفه وتحليله يجب أن تكون قادرة على التعامل مع هذه الملاحظة، وأن تتعامل معها بكفاءة علمية تقوم قواعدها على الشمول والاتساق والاقتصاد. والمادة الجديدة أو امتداد نطاق علم معين لمجالات جديدة، لكنها متصلة به، قد يتطلب مزيدا من الإحكام والترابط للنظرية القائمة، إلى جانب طرق مشابهة لتلك الطرق التي اتبعت في الماضي، والتي كانت تقتضيها النظرية بشكل منطقي. ومن ناحية أخرى قد يتطلب الأمر إعادة صياغة جذرية للنظرية القائمة، ولأنماط الوصف الموجودة. والكون الكوبرنيكي الذي مركزه الشمس مثال كلاسيكي لإعادة الصياغة للنظرية القائمة عندما أصبحت غير قادرة على التعامل باقتصاد مع بعض الحقائق الفلكية التي تمت ملاحظتها حديثا، وبنفس الصورة فإن المعطيات التي تعتبر متصلة بعلم معين وبمناهجه في التعامل مع المعطيات، قد تغيرها بشكل جوهري الاستجابة التي يقوم بها واحد أو أكثر من رواد هذا العلم، نحو ما يسلم هو به بوصفه الوضع السائد الذي يعمل فيه، أو قد تغيرها استجابته للحاجات الفكرية والعلمية التي يعتقد أن إنجازها هو مهمة علمه. ويمكننا أن نرى ـ على امتداد تاريخ علم اللغة ـ فاعلية كل هذه العوامل في عصور مختلفة

وبين جماعات مختلفة، ولهذا مر علم اللغة بتحولات في أهدافه ومناهجه وافتراضاته النظرية.

والعناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى نشأة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته. وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالتراث اللغوي الأوروبي وساهم فيه. ويصعب الاعتقاد في بعض الجوانب المهمة بأن علم اللغة الأوروبي كان سيصبح في الوضع الذي هو عليه الآن، دون الأفكار التي رفدته بها الأعمال اللغوية من خارج أوروبا، خاصة مؤلفات اللغويين الهنود القدماء عن قواعد اللغة السنسكريتية ونظامها الصوتي. ولكن مادام العلم الأوروبي في العصر الحاضر قد أصبح علما عالميا ـ وعلم اللغة ليس استثناء هنا ـ فإننا يمكننا أن نتتبع عدة تيارات للدراسات اللغوية التي صبت في التراث الأوروبي، وأصبحت جزءا منه في فترات مختلفة، وبالتالي كونت علم اللغة كما يعرفه العالم اليوم.

وقد يقدم هذا العرض ويسوغ لنا الإطار الذي على أساسه نقيم تاريخ علم اللغة، وإقامة هذا التاريخ على تاريخ علم اللغة في أوروبا لا يعني مطلقا الادعاء بالتفوق الأوروبي في الحقل اللغوي، فالواقع أنه في كثير من جوانب النظرية الصوتية phonetic والنظرية الفنلجية phonological، وفي جوانب معينة من التحليل القواعدي فإن المعرفة الأوروبية كانت أدنى بشكل واضح من معرفة الهنود القدماء، ولكننا ـ في التراث الأوروبي ـ في وضع يسمح بتتبع خط متواصل يبدأ من أصول الموضوع في اليونان القديمة، بينما لا نعرف إلا القليل عن النشأة والمراحل المبكرة التي تكمن وراء طبيعة المؤلفات السنسكريتية للهنود. وقد اقتبست روما الثمار النظرية والعملية لعلماء اللغة اليونانيين (مع ثمار أخرى للحياة الفكرية اليونانية)، وانتقلت هذه الثمار إلى العصور الوسطى عن طريق روما، وعلى أيدي علماء القواعد اللاتين، ليتسلمها منهم العالم الحديث بدوره أثناء عصر النهضة وما بعده، وهذا إلى جانب المساهمات الحيوية من خارج أوروبا. ولم توجد في أي فترة من الفترات ثغرة تصل لحد الانقطاع في تراث علم اللغة الأوروبي. ولقد وقعت بشكل متكرر تحولات في النظرية والأهداف والمناهج والمفاهيم، وهذه هي مادة تاريخ علم اللغة، بل لقد كانت ـ لدى كل جيل من أجيال

علماء اللغة الأوروبيين ـ معرفة بحياة سابقيه وببعض أعمالهم.

من هنا يكون معقولا أن نجعل تاريخ علم اللغة الأوروبي أساسا لتاريخ علم اللغة ككل. وهذا النهج لا يقوم على أي تقييم يفاضل بين مزايا المؤلفات الأوروبية والمؤلفات غير الأوروبية، ولكن هذا النهج يحدد الساحة التي سوف يلقى فيها علماء اللغة من خارج أوروبا العناية. وسوف نتحدث عنهم وعن إنجازاتهم في تلك الفترة التي تركوا فيها أول أثر واضح لهم في علم اللغة الأوروبي، وبالتالي دخلوا في التيار الذي أفضى إلى علم اللغة العالمي الراهن.

وفي تاريخ أي علم ـ كما هو الشأن في الدراسات التاريخية الأكثر عمومية ـ هناك إغراء قوي لرؤية واستخلاص أفكار رئيسية themes شائعة، أو أنماط يتضمنها ويثبتها تعاقب الوقائع والنشاطات. وهذه الأفكار الرئيسة والأنماط حيثما تكشف بوضوح فإنه يمكنها أن تثبت التفسيرات الواعية لروايات المؤرخين، كما أن هناك ارتباطات محددة شديدة الوضوح تعبر عن نفسها، وعلى سبيل المثال فإن إخفاق العصور القديمة في الغرب في تطوير نظرية مناسبة لعلم اللغة التاريخي، على الرغم من الافتتان الواضح بدراسة الاشتقاق قد يكون مرتبطا بإخفاق المؤرخين القدماء، في تصور حقيقة التغير بوصفها أكثر من مجرد ظهور ما هو موجود دائما بالفطرة، في النظام السياسي أو في شخصية الإنسان[3]، فكل أطروحات اللغة والفكر والواقع الموضوعي المتضمنة في «القواعد التأملية speculative grammar» للعصور الوسطى المتأخرة، تبدو بوصفها مظهرا لأطروحات العلم والمعروفة في اللاهوت الكاثوليكي الذي ميز العصر المدرسي (السكولاستي).

ولكن أهدافنا يجب أن تكون أكثر حداثة على الأقل في المرحلة الراهنة لمعرفتنا بمعظم تاريخ علم اللغة وبحثنا فيه. وأهمية تاريخ أي علم هي أنه يساعد على وضع الحاضر في وضعه الصحيح. وعلماء اللغة اليوم ليسوا وحدهم في إنجازاتهم ونقاشاتهم ومشكلاتهم، وهم ورثة أكثر من ألفي عام من التساؤل الذي لم تخفق في إثارته في العقول المدققة المتسائلة، غرابة الكلام الإنساني وجماله وأهميته[4].

مراجع إضافية

ثبت مراجع هذا الفصل سوف يضم بالضرورة مواد تتصل بالكتاب ككل، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ مؤلفات أخرى في تاريخ علم اللغة ودراسات عامة في هذا المجال.

2 ـ دراسات نظرية وتطبيقية في كتابة التاريخ وفي تاريخ العلم، تمس النقاط المثارة في هذا الكتاب.

3 ـ مجموعة مقالات وفصول تعالج بتفصيل أكبر نقاطا محددة في أكثر من فصل من فصول هذا الكتاب.

(1) مؤلفات

T. A. AMIROVA, B.A. OL'CHOVIKOV, and JU.V. ROZDESTVENSKIJ, "Abriss der Geschichte der Linguistik", Leipzig, 1980.

هذا الكتاب المترجم عن الأصل الروسي يقدم تاريخا شاملا وتفصيليا بعض الشيء لعلم اللغة في 484 صفحة يصل إلى فوسلر Vossler والمدرسة الجمالية، ولكن علم اللغة في القرن العشرين لم يتلق إلا معالجة مختصرة.

H. ARENS, "Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart", freiburg/Munich (second edition) 1969.

هذا الكتاب يغطي تاريخ علم اللغة ككل، أساسا من خلال مقتطفات لكتاب يمثلون كل فترة، مع شروح وتعليقات. وقد خصص أرنز معظم المساحة لمؤلفات علم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي في القرن التاسع عشر، ولكنه يغطي مؤلفات علم اللغة الوصفي في القرن العشرين حتى الستينيات.

W. AYRES BENNETT, "Linguistic historiography", Linguistic abstracts 3 (Oxford, 1987), 113-25.

A. BORST'S exhaustive "Der Turmbau von Babel", Stuttgart, 1957-63.

يعالج هذا المؤلف بتفصيل كبير تاريخ أفكار ومعتقدات الناس في مناطق مختلفة من العالم، عن أصل اللغات والشعوب واختلافها، في علاقتها بالآراء الدينية والفلسفية الحالية.

K. GROTSCH, "Sprachwissenschafts geschichtsschreiburg: ein Beitrag zur Kritik und zur historischen und methodologischen Selbstvergewisserung der Dizziplin", Goppingen, 1982.

E. HOVDHAUGEN, "Foundation of western linguistic" Oslo, 1982.

هذا العمل يقدم عرضا تمهيديا لتطور علم اللغة في أوروبا منذ اليونان وحتى عام 1000م، مع ترجمات مطولة من النصوص الأصلية، وتغطية جيدة للمؤلفات اللغوية في النصف الأول للعصور الوسطى.

G. MOUNIN, "Histoire de la linguistique", Paris, 1970.

P. SCHMITTER, "Untersuchugen zur Historiographie der linguistik", Tübingen, 1982.

P. A. VERBURG, "Taal en functionaliteit", Wageningen, 1952.

هذا العمل يعالج الفترة من العصور الوسطى وحتى بداية القرن التاسع عشر، مع دراسة المواقف المتغيرة تجاه توظيف اللغة في حياة الإنسان.

(2) دراسات

H. BUTTERFIELD, "The Whig interpretation of history", London, 1950.

R. G. COLLINGWOOD, "The idea of history", Oxford, 1946.

W. C. DAMPIER, "A history of science and its relations with philosophy and religion", Cambirdge, 1948.

T. S. KUHN, "The structure of scientific revolutions", Chicago, 1962.

S. F. MASON, "A history of the sciences", London, 1953.

G. SARTON, "A guide to the history of science", Waltham, mass., 1962.

C. SINGER, "A short history of science", Oxford, 1941.

H. AARSLEFF, et al. (eds), "Papers in the history of linguistics",†Amsterdam,†1987Æ

SÆAUROUX et al. (eds), "Matériaux pour une histoire des theories linguistiques", Lille, 1984.

H. E. BREKLE, "Einführung in die Geschiche der sprachwissenschaft", Darmstadt, 1985.

هذا المؤلف ليس دراسة تمهيدية للموضوع بالمعنى المعتاد للمصطلح، ولكنه عبارة عن مجموعة من المقالات الممتعة بشكل كبير عن موضوعات متصلة بالفترات المتتابعة في تاريخ علم اللغة.

T. BYNON and F. R. PALMER (eds), "Studies in the history of western linguistics", Cambridge, 1986.

K. D. DUTZ (ed.), "Speculum historiographiae linguisticae", Münster, 1989.

D. HYMES, (ed), "Studies in the history of linguistics: tradition and paradigms", Bloomington, 1974.

E. F. K. KOERNER (ed.), "Progress in linguistic historiography", Amsterdam, 1980.

___ "Practising linguistic historiography: selected essays", Amsterdam, 1989.

H. J. NIEDEREHE and E.F.K. KOERNER (eds.), "History and historiography of linguistics", Amsterdam, 1990.

H. PARRET (ed.), "History of linguistic thought and contemporary linguistics", Berlin, 1976.

T. A. SEBEOK (ed.), "The historiography of linguistics", "Current trends in linguistics" 13 (1975).

هذا مصنف شامل يقع في مجلدين، ويتألف من فصول، وهو حافل بقوائم المراجع التي تقدم كشفا بالمؤلفات والمواد المنشورة حتى 1975 في علم اللغة في مناطق مختلفة من العالم خلال القرون. وفي الفصول التالية سوف تكون الإشارة لهذا المصنف تحت اسم «Sebeok, Historiography of linguistics».

P. SCHMITTER (ed.), "Geschichte der sprachtheorie 1:Zur Theorie und Methode der Geshichtsschreibung der linguistik", Tubingen, 1987.

في السنوات الخمس والعشرين الماضية أوجد تاريخ علم اللغة لنفسه مكانا متميزا ومعترفا به في التدريس والبحث داخل علم اللغة العام، وقد خصص له مكان في نظام الدرجات العلمية لعلم اللغة في الجامعات الأوروبية والأمريكية، ويظهر مكانه بشكل منتظم بين المحاضرات التي تقدم

في المعاهد اللغوية والمدارس الأخرى المشابهة، وله قسمه الخاص به في CIPL Bibliographie Linguistique.

ومنذ 1978 يعقد مؤتمر دولي حول تاريخ علوم اللغة (ICHoLS) كل ثلاث سنوات، وتنشر أعماله.
أما الجمعيات التالية فقد كرست جهودها تحديدا لدراسة تاريخ علم اللغة وهي: جمعية تاريخ علوم اللغة ونظرية معرفتها La Sosiété d'Histoire et d'Epistemologie des Sciences du Langage (SHESL, 1978) وجمعية هنري سويت لتاريخ الأفكار اللغوية The Henry Sweet Society for the History of Linguistic Ideas (Hss, 1984) والجمعية الأمريكية الشمالية لتاريخ العلوم اللغوية The North American Association for the History of the Language Sciences (NAAHoLS, 1987)

وقد نشر عدد كبير من الكتب، أدرج بعض منها في قوائم المراجع في فصول هذا الكتاب، وتظهر مقالات عن تاريخ علم اللغة ومقالات نقدية لكتب في معظم دوريات علم اللغة، ولكن السلاسل التالية يمكن اعتبارها أكثر السلاسل تخصصا في هذا المجال، ويمكن أن يرجع إليها هؤلاء المعنيون عناية خاصة بهذا الفرع من علم اللغة :

Studies in the history of linguistics (Volume 32 and after, Studies in the history of the language sciences)

(Amsterdam studies in the theory, and history of linguistic science III, 1973).

Historiographia linguistica (1974).

Histoire epistemologie, langage (1979).

ملاحظات

قوائم المراجع للأعمال المنشورة تحت عنوان «مراجع إضافية for further consultation» في نهاية الفصل ترد بترتيب اسم المؤلف متبوعا بتاريخ العمل المذكور، أما المراجع الأخرى فترد كاملة البيانات في المرة الأولى، ولكنها عند ذكرها مرة أخرى خلال الفصل فإنها ترد بشكل أكثر اختصارا.

1 - cp. BORT, 1957-63, Vulume I.

2 - cp. BUTTERFIELD, 1950.

3 - cp. COLLINGWOOD, 1946, 42-5.

4 - L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935 VII.

2 اليـــــونـــان

بالنظر للمسوغات المذكورة في الفصل السابق يكون من المناسب أن نبدأ تاريخ الدراسات اللغوية بإنجازات اليونان القدماء، ولا نقوم بهذا في الأساس بسبب مزايا أعمالهم ذات الأهمية الكبيرة، ولا بسبب نواحي النقص فيها التي أشار إليها الدارسون في العصور المتأخرة، بشكل مسوغ عند نظرتهم إلى الوراء من زاوية النظر المحددة لهؤلاء القائمين عند الطرف القصي لتراث طويل، ولكننا ببساطة نقوم بهذا لأن المفكرين اليونان الذين فكروا في اللغة وفي المشكلات التي تثيرها البحوث اللغوية، قد استهلوا في أوروبا الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها العلم اللغوي بمعناه الأوسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء وحتى العصر الحاضر في تتابع متصل للمعرفة، بحيث إن كل من عمل في المجال كان على دراية بأعمال سابقيه وكان متفاعلا معها بطريقة معينة.

وهذا لا يعني إنكار أو تجاهل الأعمال المهمة في مجال علم اللغة التطبيقي (إذا استعملنا مصطلحا متأخرا) التي تم إنجازها في الشرق الأدنى، خلال القرون التي سبقت إنجازات اليونان،

فالكتابة التصويرية أو الكتابة الأبجدية قد تم ابتكارها أصلا في مصر، وفي مناطق أخرى من العالم بشكل مستقل كما في الصين وأمريكا الوسطى، أما أشكال الكتابة المقطعية التي أصبحت فيما بعد مصدرا للأبجدية اليونانية[1]، فمن المحتمل أن تكون قد نشأت عن الكتابة المصرية التي عدلت تدريجيا.

إن أي تطوير لنظام من نظم الكتابة بحيث يمكن له أن يدون بصريا لغة معينة كما تنطق وتفهم، لهو إنجاز عظيم في التحليل اللغوي التطبيقي أو الموجه تحديدا نحو أغراض عملية جدا، وهذا يتم عادة خلال عدة أجيال. ولكن بصرف النظر عن ابتكار الكتابة السابق وما نتج عنه، فإن لدينا نماذج من نصوص قواعدية قديمة من بلاد بابل، ترجع لحوالي عام 1600 ق.م وما بعده، ومكتوبة على ألواح بالخط المسماري الذي نظم بطريقة تظهر تصريفات الضمائر والأفعال، والأنواع الأخرى للكلمات السومرية مع مقابلاتها في اللغة الأكاديمية (البابلية). وكان الغرض من هذا العمل هو الاحتفاظ بمعرفة اللغة السومرية التي كانت في طريقها للزوال، ولكنها كانت اللغة التي كتب بها كثير من بواكير الأدب البابلي[2].

ومع ذلك ففي اليونان القديمة كانت النشأة الأوروبية لعلم اللغة النظري، وكان هذا إلى حد ما بفضل المتطلبات العملية، وهناك فقط توافرت لدينا أولى المدونات في التفكير اللغوي الناشئ عن علم اللغة الشعبي والتطبيقات العملية، وهو التفكير الذي كان متجاوزا لهذه التطبيقات بدرجة كبيرة.

وقد مرّ التراث الأوروبي في علم اللغة بمراحل كثيرة مختلفة، وغير دافعه الرئيسي واتجاهه عدة مرات، متأثرا بكل من التطورات الداخلية والظروف الخارجية، وكان خلال تاريخه على اتصال بالمساهمات الرئيسية لطوائف العلماء اللغويين، الذين انطلقوا في أعمالهم من خارج التراث الأوروبي، وطوروا أفكارهم بشكل مستقل عنه، وقد استفاد علم اللغة الأوروبي كثيرا من هؤلاء. ومن دونهم في الواقع فإن علم اللغة الأوروبي الراهن (وهذا يعني حتما الآن علم اللغة الراهن في العالم ككل) سوف يكون أفقر في المحتوى، وأقل تقدما في التقنية مما يحق لنا أن نعتقد. وبالبدء من اليونان وتتبع مسار الدراسات اللغوية في أوروبا، يمكننا أن نضم أعمال العلماء من خارج أوروبا في الفترة التي أصبحت فيها هذه الأعمال معروفة

لدى الأوروبيين، وبذلك دخلت الموضوع وأثرته بالشكل الذي يعرفه به العالم في الوقت الراهن.

في الوقت الذي صارت لدينا فيه أي مدونة عن العلم اللغوي في اليونان، أي بداية العصر الكلاسيكي في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، كان اليونانيون قد استقروا لعدة أجيال في المناطق القابلة للسكنى من أرض اليونان الرئيسية، والمناطق الساحلية الغربية لآسيا الصغرى وجزر إيجه والشواطئ الشرقية لجزيرة صقلية، وأماكن قليلة في جنوب إيطاليا وفي أماكن أخرى. واستيطان اليونانيين لليونان كان نتيجة للموجات المتتابعة من الغزاة القادمين من الشمال، والذين انحدروا إلى أرض اليونان، ومنها انتشروا إلى الخارج. وكانت آخر موجات هؤلاء الغزاة هي وصول الدوريين، وربما كان هذا حوالي نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، وهؤلاء الدوريون حطموا الحضارة اليونانية المبكرة «للعصر الميسيني»، تلك الحضارة التي أقامتها الجماعات الأخرى من متحدثي اليونانية، الذين استوطنوا اليونان الرئيسية وبعضا من الجزر في القرون السابقة.

وبالطبع لم يكن اليونانيون هم الرواد الأوروبيين في علم اللغة وحده، فالحياة الفكرية لأوروبا ككل، أي تفكيرها الفلسفي والأخلاقي والسياسي والجمالي، تجد أصلها في أعمال المفكرين اليونانيين، وإلى الآن يمكن للمرء أن يعود مرة بعد أخرى لما أخذناه من نشاط اليونانيين في مجال الفكر من أجل إثارة الحافز والتشجيع، فالإنسان المعاصر يشعر بوشيجة فكرية لا تنكر مع اليونانيين لا يشعر بمثلها تجاه حضارة أخرى قديمة أو معاصرة. ولن نعرف على وجه اليقين ما هي الظروف البيئية والثقافية والبيلجية، التي أدت لهذا الازدهار الرائع لعبقرية الإنسان الفكرية والفنية في اليونان في العصر الكلاسيكي، ولا يمكننا إلا أن نكون شاكرين أن هذا كله قد حدث.

لم يكن اليونانيون هم أول جماعة طرقت الموضوع من بين الجماعات المتحضرة في المنطقة، فقد استفادوا كثيرا من الحضارات القائمة التي اتصلوا بها في الطرف الشرقي للبحر المتوسط، وفيما حوله وفي «الهلال الخصيب» لآسيا الصغرى مهد الإنسان المتحضر في الغرب، ولكن عند اليونانيين وفي الحضارة اليونانية ظهرت هناك لأول مرة في التاريخ

الإنساني، رغبة نهمة لاستطلاع العالم المحيط واستطلاع أوضاع الناس في هذا العالم. فاليونانيون كان من بينهم هؤلاء الذين تمسكوا بالبحث في أشياء فشل الآخرون في ملاحظتها، أو في أن تثير اهتمامهم، فالبابليون الذين لاحظنا بالفعل علاقتهم بعلم اللغة التطبيقي، قد استعملوا الهندسة في مسح الأراضي، والحساب والفلك في عمل تقويم للوقت، ولكننا في اليونان وجدنا أن الفلك والحساب والهندسة كانت تدرس بوصفها علوما مجردة مستقلة لأول مرة، وتقام على أساس من الملاحظة النظامية ووضع الفروض والقواعد، وفي مجال الإشارة إلى إنجازات اليونانيين في علم اللغة، يقول بلومفيلد عن عبقريتهم الفكرية المتميزة: «كان لدى اليونانيين القدماء موهبة الاندهاش إزاء الأشياء التي أخذها الآخرون مأخذ التسليم»[3].

من بين العوامل التي لاحظناها في الفصل السابق، باعتبارها العوامل التي أدت إلى الاهتمام باللغة بوصفها جانبا من جوانب الحياة الإنسانية، فإن اليونانيين في العصر الكلاسيكي كانوا بالفعل على وعي بوجود شعوب تتحدث لغات أخرى غير الإغريقية، وبوجود انقسامات لهجية بين السكان المتحدثين باليونانية، ولابد أنه كان هناك احتكاك لغوي كبير بين اليونانيين في مجال التجارة والدبلوماسية، وفي كثير من نواحي الحياة اليومية في «المستعمرات» اليونانية، ومستوطنات اليونانيين على الأطراف الساحلية في المناطق المتحدثة بغير اليونانية في آسيا الصغرى وفي إيطاليا، ومن المدهش ألا نعرف إلا القليل عن ذلك، وقد أورد هيرودوت وآخرون بعض الكلمات الأجنبية وناقشوها، كما سلم أفلاطون بإمكانية الأصل الأجنبي لبعض المفردات اليونانية. كما أننا على علم بوجود متحدثين ثنائيي اللغة ووجود مترجمين محترفين، ولكن ليس لدينا دليل على وجود اهتمام جدي لدى اليونانيين باللغات ذاتها، وتسمية اليونانيين للمتحدثين الغرباء بكلمة بربر Barbaroi (التي منها الكلمة الإنجليزية barbarian)، أي الناس الذين يتحدثون دون فهم. وهذه التسمية قد تكون ذات دلالة على موقفهم.

أما وعي اليونانيين بانقساماتهم اللهجية فقد كان مختلفا تماما، فاللغة اليونانية في العصور القديمة كانت منقسمة بوضوح إلى لهجات مختلفة اختلافا شديد الحدة، أكثر من انقسام اللغات الأخرى، وهذا يرجع إلى

استيطان موجات الغزاة المتتابعة للمناطق المتحدثة باليونانية، وإلى الانفصال إلى جماعات مستقلة وصغيرة نسبيا، هذا الانفصال الذي فرضته عليهم التضاريس الجبلية لمعظم أرض اليونان الرئيسية والجزر المتناثرة في البحار المجاورة، ولكن كون هذه اللهجات عبارة عن لهجات لغة واحدة، وكون امتلاك هذه اللغة قد وحد اليونانيين في شعب واحد رغم الحروب التي نشبت دون توقف تقريبا، بين مختلف «الدول المدن» في عالم اليونانيين، هو أمر شهد عليه مؤرخ واحد على الأقل هو هيرودوت في حديثه عن الإنجاز الكبير لليونان الموحدة - ولو مؤقتا - في مواجهة الغزاة الفرس في مستهل القرن الخامس قبل الميلاد، فقد أورد هيرودوت على لسان المبعوثين اليونانيين قولهم: إنه كان من بين روابط وحدة اليونانيين في مقاومة البرابرة «أن المجتمع اليوناني بأكمله تربطه صلة الدم الواحد واللسان الواحد»[4].

ولم تكتب اللهجات كلها، ولكن مع العصر الكلاسيكي كانت اللهجات الرئيسية قد كتبت، ولدينا منها شواهد مكتوبة تعطينا معرفة أكثر تفصيلا عن وضع اللهجات اليونانية القديمة مما هو متاح في أي مكان آخر في العصور القديمة. وبصرف النظر عن اللهجات المنطوقة فإن اليونانيين المثقفين، كانوا على وعي بأن لغة القصائد الهومرية - الإلياذة والأوديسّا - لم تكن تتطابق بدقة مع أي لهجة حية من لهجات ذلك العصر. وهذه القصائد قد شغلت مكانا خاصا في التعليم اليوناني، فقد كانت تلقى على الجماهير، وتبجل ويستشهد بها في مصادر التعاليم الأخلاقية، «والمعرفة الهومرية Homeric Scholarship» أي إيجاد نصوص مقبولة للقصائد ونقدها قد بدأ في أثينا في القرن السادس (ق. م).

الإنجاز الأول للمعرفة اللغوية في بلاد اليونان، وهو أساسا جزء من «علم اللغة التطبيقي»، هذا الإنجاز قد تم بالضرورة قبل ظهور المدونات، ففي وقت مبكر من الألف الأولى قبل الميلاد كان قد استُنبط نظام أبجدي لكتابة اللغة اليونانية، وهذا النظام الذي كان بمنزلة أساس للأبجدية اليونانية للهجة الأزتكية (الأثينية) الكلاسيكية واللهجات الأدبية الأخرى، إضافة للأبجدية الرومانية التي اشتقت من الصورة اليونانية الغربية للأبجدية اليونانية، قد أصبح بمنزلة الأب لطرق الكتابة الأكثر انتشارا في العالم اليوم[5]. ونحن نعرف الآن أن الكتابة قد ظهرت في بلاد اليونان في فترتين

منفصلتين، ففي الألف الثانية قبل الميلاد استعمل الميسينيون نظام كتابة مقطعية يشتمل على بعض اللوججرامات (رموز لكلمات مفردة)، وقد عرف هذا بالنظام الخطي Linear B، وقد بقيت شفرته دون حل لفترة طويلة، ومثله مثل الكتابة السومرية المبكرة يبدو أن استعماله قد اقتصر إلى حد كبير على الإدارة والمحاسبة. والتمكن من قراءة هذا النظام من الكتابة والتحديد شبه الموثوق به، للغة التي دونت به بوصفها صورة مبكرة للغة اليونانية، يشكلان واحدا من الأحداث البارزة في مجال المعرفة الكلاسيكية الراهنة، وهو حدث ذو أثر بالغ على معرفتنا اللغوية والتاريخية لليونان القديمة.

ولكن أثناء العصور المظلمة التي صاحبت غزوات الدوريين قد ضاعت معرفة الكتابة، أما الأبجدية اليونانية كما نعرفها اليوم فقد نشأت بشكل مستقل عن صورة معدلة للكتابة الفينيقية، ولسنا متأكدين مما إذا كان هذا ذا علاقة ـ تاريخيا ـ بطريقة الكتابة المصرية الأصلية، التي كانت ـ مثلها مثل الكتابة الصينية القديمة (والحديثة) ومثل الكتابة الأزتكية، في شكل مجموعات من الحروف أو العلامات أو اللوججرامات التي تمثل إلى حد ما في شكل صور، وتشير إلى كلمات أو مرفيمات مفردة.

ونظام الكتابة الفينيقي عندما استخدمه اليونانيون، كان إلى حد كبير عبارة عن مجموعة من علامات الصوامت، أما الصوائت فقد كانت عموما يستمدها القارئ من خلال فهمه لما هو مكتوب. وليس باستطاعة اليونانيين أن يدعوا ابتكار الكتابة، ولكن باستطاعتهم أن يدعوا أنهم استنبطوا أبجدية بالمعنى الحديث للمصطلح، أي أبجدية تمثل بشكل مستقل لكل الأجزاء المميزة، أي الصوائت بالإضافة للصوامت. ويمكن لليونانيين أن ينسبوا لأنفسهم تقدما ملحوظا في مجال تطبيقهم للعلم اللغوي، وما فعله اليونانيون في الأساس هو استعمالهم لعلامات صوامت معينة في نظام الكتابة العبري، تشير لأصوات صوامت لا تستعمل بشكل تمييزي في اللغة اليونانية، لتمثيل أصوات الصوائت اليونانية، ومن هنا فإن الرمز 𐤀 (ألف) الذي يشير إلى / (a) ? / في الفينيقية قد أصبح هو الحرف اليوناني A (ألفا) الذي يشير إلى الفونيم الصائت /a/. ولقد سُجل هذا الحدث التاريخي شديد الأهمية بشكل أسطوري: فقد زعم أن قدموس هو الذي أتى بالكتابة من وراء

البحار، وهو اعتراف بالأصول الأجنبية للأبجدية اليونانية التاريخية.

بشكل عام كانت الأبجدية اليونانية أبجدية فونيمية، ولكنها لم تكن فونيمية بشكل كامل، وليس هناك أبجدية تكون كذلك، ومن هنا كانت الحاجة إلى الكتابات transcriptions الفونيمية. وبشكل خاص فإن الملامح فوق الجزئية لطبقة الصوت pitch المميزة (درجات النبر the accents)، وللمفصل التي تمت ملاحظتها ووصفها فيما بعد، مع درجات النبر التي مثلت في الكتابة، هذه الملامح لم تكن لها رموز في الفترة الكلاسيكية. ولكن استنباط أبجدية معينة للفونيمات الجزئية للغة اليونانية قد اعتمد على تحليل فونيمي غير واع للغة (أو للهجاتها). ولا نعرف إلا قليلا عن الخطوات التي أنجز بها هذا الأمر، ولكن ظهور الحرف ♀ في بعض النقوش ممثلا للفونيم /k/ قبل الصوائت الخلفية (وهو الحرف الفينيقي الذي يشير للفونيم /q/، وهو فونيم متميز في الفينيقية) يشير إلى مرحلة من مراحل التحليل الفونيمي الناقص، مادام في اللغة اليونانية تكون كل تنوعات وضع الطبق التي تعتمد على طبيعة الصوائت المجاورة، عبارة عن ألوفونات (مغايرات) لنفس الفونيم /k/ الذي يكتب k في الأبجدية الكلاسيكية(6).

واعتبار نشأة الكتابة واستعمالها هي أولى مراحل المعرفة اللغوية في بلاد اليونان يشهد عليه تاريخ الكلمة grammatikós (γραμματικός)؛ فمنذ هذا الوقت وحتى عصر أفلاطون وأرسطو كانت الكلمة تعني ببساطة الشخص الذي يفهم ويستعمل الحروف gràmmata (γραμματα)، ويستطيع القراءة والكتابة، وكان تعبير téchné grammatiké (τέχνη γραμματική) يعني مهارة القراءة والكتابة(7). وإن التوسع المتأخر في معنى هذه الكلمة وفي المصطلحات المرتبطة بها بشكل أساسي، يتبع التطور المتنامي للعلم اللغوي على يد الأجيال التالية في مجال القواعد تحديدا.

في العصر الكلاسيكي للأدب اليوناني وما بعده، يمكننا أن نتتبع ارتقاء التفكير اللغوي الواعي كما عكسه الناس على طبيعة لغتهم واستعمالها، فإذا نظرنا إلى الوراء في التاريخ فإننا نظن أنه يمكننا تتبع تطور أحد جوانب العلم اللغوي نحو غاية متصورة سلفا، ولكن من وجهة نظر كل جيل من أجيال المفكرين نرى ما فعله هؤلاء الذين جاءوا من بعد بما وجدوا

أسلافهم قد تركوه لهم، دون أي تصور جوهري مؤسس في الذهن بشكل نظامي، فمصطلح grammatiké لم يكن في البداية يعني أكثر من فهم الحروف، وإن كثيرا مما يعتقد المرء اليوم أنه من المسائل اللغوية المبكرة يندرج تحت العنوان العام philosophia (φιλοσοφία) الذي يغطي في اليونان القديمة مجالا أوسع بكثير مما تغطي كلمة «فلسفة philosophy» في الوقت الحالي، وهو عنوان يضم فعليا كل مجالات المعرفة الإنسانية.

وتوجد ملاحظات عن اللغة ـ والإشارة دائما للغة اليونانية ـ في المدونات التي لدينا والتي ترجع إلى الفلاسفة السابقين لسقراط، وإلى بلاغيي القرن الخامس ق.م. وإلى سقراط، وإلى كتابات أفلاطون وأرسطو. ولكن كان على المرء أن ينتظر حتى عصر الرواقيين حتى يجد التمايز الواضح للدراسات اللغوية، داخل إطار المجال شديد الاتساع للفلوسفيا philosophia.

ومعرفتنا عن السابقين لسقراط والبلاغيين الأوائل معرفة مجزأة ومأخوذة من مصادر ثانوية، ومنذ نهاية القرن السادس ق . م فإن الفلاسفة في أيونيا وفي أماكن أخرى، قد امتد مجال اهتمامهم ليغطي الفلك والفيزياء والرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا، كما ضموا اللغة لمجال اهتمامهم. وفي القرن الخامس أصبح البلاغيون معروفين جدا في المجتمع اليوناني، ومن بينهم جورجياس الصقلي. وقد درس هؤلاء الأشخاص البلاغة دراسة احترافية، وقد سافر بعضهم للتعليم بأجر، وكتابة الكتب في موضوعهم، وقد كونوا جزءا من تلك الجماعة من المتعهدين الجوالين، لكل أنواع التعليم الذين عرفوا بالسفسطائيين.

كما أن معرفتنا بسقراط معرفة غير مباشرة، فهو لم يترك لنا أي كتابات كتبها بنفسه، ولكن مناقشاته ووجهات نظره قد وردت في بعض كتابات زينوفون Xenophon، وفي محاورات أفلاطون الأكثر شهرة على الرغم من أن هناك سؤالا مفتوحا دائما، بالنسبة لمحاورات أفلاطون وهو: إلى أي مدى يكون ما لدينا مأخوذا عن سقراط بشكل مباشر؟ وإلى أي مدى هو أفكار أفلاطون عبر عنها بوصفها أحاديث سقراط؟ ومن المؤكد أن سقراط كان رمزا للنقد الشجاع وللحرية الكاملة في التعبير، وقد دفع حياته ثمنا لمثالياته، وفي الدولة الاستبدادية نوعا التي رسمها أفلاطون في «جمهوريته» والتي وصفها على لسان سقراط، كان يمكن لسقراط نفسه أن يواجه القمع

أو الطرد بسرعة.

وقد خصصت إحدى المحاورات وهي محاورة كراتيلوس للمسائل اللغوية، على الرغم من أنها في بعض النواحي مخيبة للآمال في مضمونها، كما توجد إشارات للغة وتحليل لها في عدة محاورات أخرى لأفلاطون، وسقراط هو المتحدث الوحيد فيها، وعلى الرغم من أن أفلاطون لم يجمع ملاحظاته المتفرقة معا، فقد نسب إليه جزئيا بدء الدراسات القواعدية في بلاد اليونان، وهو ما فعله الكاتب المتأخر ديوجينس لايرتيوس الذي يقول: إن أفلاطون هو أول من بحث إمكانيات القواعد[8].

وقد عرف أرسطو (384 ـ 322ق . م) أعمال أفلاطون، وعلى أساس هذه الأعمال طور أفكاره الخاصة به، وربما كانت أفكار أرسطو هي أكثر الأفكار لفتا للنظر في العالم القديم، فقد وقعت في حيز تفكيره تقريبا كل مجالات المعرفة الإنسانية المعروفة عندئذ، وامتد نطاق كتاباته من الأخلاق والسياسة والمنطق إلى الفيزياء والأحياء والتاريخ الطبيعي، وفي مسح أشكال الحياة سبق في بعض النواحي نموذج شجرة التطور، لعالم الأحياء في القرن التاسع عشر[9].

وكما هو الشأن مع أعمال أفلاطون، فإننا يجب أن نجمع أفكار أرسطو اللغوية من أقواله المتناثرة، في أعمال مختلفة عن البلاغة والمنطق حيث ترد هذه الأقوال بشكل عرضي وفي سياقات أخرى. وهذا يجعل من الصعب عرض موقف أرسطو عرضا تفصيليا دقيقا، ومن المرجح أن تبقى بعض المسائل موضع خلاف، ومع ذلك فإن حدود علم اللغة الأرسطي حدود واضحة تماما، ويمكن النظر إلى ما قام به أرسطو على أنه تطوير متميز للافتراضات التي توصل إليها أفلاطون.

حددت الفترة التي عاش فيها أرسطو نهاية عصر من عصور التاريخ اليوناني، فقد عمل أرسطو معلما خصوصيا للإسكندر الفتى المقدوني، وإذا كانت تعاليمه السياسية قد انعكست في كتابته السياسية، فإنه يكون قد علم تلميذه مزايا «الدولة المدينة» اليونانية المستقلة الصغيرة، باعتبارها كانت دولة نموذجية لعدة قرون، ولكن فتوحات الإسكندر التي أخضعت في الواقع كل آسيا الصغرى ومصر وكذلك بلاد اليونان للحكم المقدوني، قد غيرت المجتمع اليوناني بشكل نهائي. ورغم أن إمبراطورية الإسكندر قد

قسمت بين خلفائه الذين كثيرا ما حارب بعضهم بعضا، فإن الحكم اليوناني والأفكار اليونانية تم بسطها على منطقة شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى، كما أن تنوعا من تنوعات اللهجة الأتيكية المعروف بوصفه koine (dialektos)، (κοινή διαλεκτος) أو اللهجة العامة، قد أصبحت هي اللغة النموذجية] الفصحى [للحكومة والتجارة والتعليم في كل المنطقة، مزيحة بالتدريج اللهجات المحلية للفترات السابقة.

والإسكندر نفسه ومعظم الحكام المقدونيين للولايات التي تركها، قد سوغوا حكمهم ووضعهم المتميز عن طريق دفاعهم عن الثقافة والحضارة اليونانيتين، اللتين كانوا يفرضونهما على البقايا المتحضرة للإمبراطورية الفارسية، وقد تم تعزيز التعليم اليوناني على كل المستويات. وبما أن اليونانية كانت عند ذلك هي لغة الإدارة العليا والمهن ولغة الرقي الاجتماعي، فإن تعليم اللغة اليونانية لغير اليونانيين (أي «اليونانية بوصفها لغة أجنبية»)، أصبح لأول مرة نشاطا واسع الانتشار له أساليبه ومتطلباته. كان هذا كله جزءا من العملية التي عرفت بوصفها عملية الهَلْيَنَة، وقد أطلق «العصر الهليني» على الفترة التي تلت الفتوحات المقدونية. وفي مدن مثل «برجا موم» في آسيا الصغرى و «الإسكندرية» في مصر، فإن الحكام المقدونيين قد أنشأوا وشجعوا الجامعات يونانية اللغة التي تضم مكتبات ينفقون عليها، وعلماء يحصلون على رواتب، وفي هذه الجامعات باشر العلماء التعليم العالي والبحث في الأدب اليوناني ولغة هومير اليونانية الكلاسيكية، ولغة الشعراء الأثينيين وكتاب النثر في القرنين الخامس والرابع ق . م، وفي نفس الوقت ظلت أثينا هي المركز الأكاديمي للعالم اليوناني.

بين المدارس الفلسفية التي ظهرت في أثينا بعد أرسطو، فإن أكثر المدارس أهمية في تاريخ علم اللغة هي المدرسة الرواقية التي أسسها زينون (حوالي 300 ق . م)، وقد عمل الرواقيون في عدد من المجالات التي عمل بها أرسطو، ولكنهم - في بعض نواحي الفلسفة والبلاغة - كانت لهم مناهجهم وأفكارهم الخاصة.

وقد أحرز علم اللغة في ظل الرواقيين منزلة واضحة داخل الإطار العام للفلسفة، فقد عولجت المسائل اللغوية بشكل واضح في أعمال مستقلة خصصت للجوانب اللغوية، كما عولجت بطريقة منظمة. ووضع اللغة في

نظام الرواقيين يمكن إجماله في ثلاثة شواهد: «في البداية يأتي الانطباع، وبعد ذلك يعبر العقل بالكلمات - مستفيدا من الكلام - عن التجربة الناشئة عن الانطباع»، «وكل الأشياء يمكن إدراكها من خلال الدراسة الجدلية»، «ومعظم الناس متفقون على أنه من الصحيح أن نبدأ دراسة الجدل من جزئه ذاك الذي يبحث في الكلام»[15].

لقد صاغ الرواقيون ثنائية الصيغة والمعنى مميزين في اللغة بين «الدالّ» و «المدلول»، اللذين يذكراننا بشكل لافت للنظر باصطلاحي دي سوسير «الدال signifiant والمدلول signifie». أما النصوص المرتبطة بالموضوع فيصعب تفسيرها، ولكن يبدو أن المدلول لم يكن صورة ذهنية بشكل كامل، بل كان شيئا ما في ذهن المتكلم والمستمع يقابل نطقا معينا في اللغة، وهذا يشبه إلى حد ما توحيد سوسير للصوت والفكرة عن طريق اللغة la langue[11].

لقد قدموا معالجات مستقلة لكل من الصوتيات والقواعد والإتملجيا التي أعطوها اهتماما كبيرا، ولكن مساهمتهم الأكثر بروزا، كما هو الشأن في علم اللغة الغربي كله في العصور القديمة، كانت في مجال القواعد الذي يمكننا أن نتتبع فيه تطورا متصاعدا في أكثر من مرحلة من مراحل النظرية والمصطلح.

وعلى الرغم من أن علم اللغة، أي grammatiké (γραμματική) قد حصل على الاعتراف المستقل به بين الدراسات الفلسفية لأول مرة عند الرواقيين، فمن الصعب الآن أن نعيد بناء الكثير من تفاصيل نظريتهم اللغوية بأي درجة من اليقين، فلم يبق لدينا من كتابات عصرهم إلا بعض النصوص المتناثرة، ولكننا على معرفة بالمؤلفين وبأسمائهم من خلال كتاب لاحقين، وعلى الأخص من خلال ديوجينس لايرتيوس (حوالي القرن الثالث الميلادي)، الذي صنف ثبتا موسوعيا يحتوي على سرد مختصر عن حياة وأعمال الفلاسفة اليونانيين البارزين (Vitae philosophorum)، ويضم عددا من الرموز البارزة للمدارس الرواقية المبكرة. وتجب الإشارة إلى أنهم وضعوا نظرية للنحو أو تركيب الجملة، تقوم على تحليل أنواع الإسناد المختلفة الموجودة في النظام الفعلي للغة اليونانية كالإسناد بالفعل المتعدي أو اللازم أو المبني للمجهول، كما في metamélei Sócratei (μεταμελει Σωκράτει) أي «يعتذر سقراط»، ولكن بعضا من المسائل المحتاجة إلى التفسير تظل باقية[12].

استمرت المدارس الفلسفية الرواقية والمذهب الرواقي في الفلسفة عموما، وفي علم اللغة طوال العصور القديمة، وقد أثرت المدارس الرواقية في تفكير المدارس الأخرى. ولكن بقدر ما يتعلق الأمر بعلم اللغة، فإن الرواقيين لم يكونوا مقبولين بوصفهم جزءا من المجرى الرئيسي للتراث، ولهذا السبب وكذلك بسبب ضياع كتاباتهم المبكرة، فإننا أقل علما بتفاصيل أعمالهم من علمنا بتفاصيل أعمال علماء الإسكندرية، الذين كان لهم تأثير فعال على اتجاه علم اللغة خاصة في القواعد طوال العصرين اليوناني والروماني والعصور الوسطى.

لقد تأسست المدرسة الرواقية في العصر الهليني، أي ما قبل العصر الإسكندري، وقد أشرنا من قبل لملامح ذلك العصر. ومن الناحية اللغوية فإن هذه الفترة قد تميزت أكثر من القرون السابقة بالاتصال الوثيق بشكل زائد، بين متحدثي اليونانية ومتحدثي اللغات الأخرى (في هذا العهد تمت أول ترجمة للعهد القديم وهي الترجمة السبعينية)، كما تميز هذا العهد أيضا بتباعد اللغة اليونانية المنطوقة المتداولة «الكوينية Koine»، عن لغة المؤلفين الأثينيين الكلاسيكيين، وهي الفصحى الأدبية لكل المتعلمين اليونانيين بصرف النظر عن لغة هومير. ويعتقد بعض الناس أن الاهتمام الذي أعطاه الرواقيون للمسائل اللغوية ووجهة نظرهم التي قدموها، في تحليل دلالة نظام الزمن الفعلي في اليونانية (ص63, 64 فيما بعد)، قد يعزى جزئيا إلى أن زينون مؤسس الرواقية كان هو نفسه ثنائي اللغة، وكانت لغته الأولى لغة سامية، وقد تعلم اليونانية في وقت متأخر من حياته.

حتى هذه الفترة فإن المحيط الذي نشأ فيه علم اللغة كان هو محيط البحوث الفلسفية، وعلى الأخص البحوث المنطقية، وقد شكل العلم اللغوي عند الرواقيين جزءا من نظامهم الفلسفي العام، على الرغم من كونه جزءا متميزا ومترابطا ومتسقا، ولكننا منذ ذلك الوقت وما بعده بدأنا نلمس دافعا آخر في علم اللغة القديم، وهو دراسة الأسلوب الأدبي، فأولا: كانت هناك عناية بالقواعد والنطق اليوناني «الصحيح»، أي العناية باليونانية الكلاسيكية في مقابل كثير من نواحي «الكوينية» المتداولة، والتغيرات التي نتجت عن الاكتساب واسع النطاق للغة اليونانية من طرف المتحدثين السابقين بلغات أخرى، وثانيا: بسبب الدراسة واسعة الانتشار للأدب الكلاسيكي

وأعمال هومير، فإن كثيرا من القراء في البلاد المُهَلَّيَنة Hellenized حديثا كانوا في حاجة إلى شروح عن اللغة والمضمون، وقد وجد هناك عدد من مسارد الكلمات المشروحة للهجات غير أثينية مختلفة، وهذه المسارد تنتمي للفترة الهلينية، وهي شاهد على الدراسة النظامية للاختلافات بين تنوعات اللغة اليونانية التي كان لها نظام كتابة يمثلها تمثيلا نموذجيا.

وعلامات النبر المكتوبة في الكتابة اليونانية، التي يرجع تاريخها إلى العصر الهليني بوصفها دليلا للنطق السليم للكلمات، ووصف الملامح النبرية والمفصلية الممثلة كتابة، عن طريق حدود الكلمات وعلامات الترقيم تحت العنوان العام للبرسوديات prôsodiai (προσωδίαι) كانت جزءا من الحركة الهادفة للضبط والصحة أو الهلينية Hellénismós (Ελληνισμος) كما أطلق عليها. وقد وصلت دراسة هومير لمرحلة متقدمة أثناء العصر الهليني، وهناك عدد من علماء القواعد المهمين المنشغلين بالبحث اللغوي، كانوا معروفين جيدا بسبب عملهم في تحقيق النصوص الهومرية الصحيحة وشرحها.

إذا أردنا إلقاء النظر على العلماء البارزين المختصين في المراحل الأولى لعلم اللغة اليوناني، فقد يكون علينا أن نعود لإمعان النظر في الاتجاهات الرئيسية التي كتبوا فيها وطوروها، وسوف نحاول مرة أخرى أن ننظر لهذا، ليس بوصفه سلسلة من خطوات السبق التجريبية لما نعرف أنه أصبح ذروة التفكير اللغوي اليوناني، ولكن بوصفه انتقالات متتابعة من المواقع التي وصلوا إليها، بوصفها حدودا للتفكير وأنماطا مختبرة من العرض امتدت لمادة جديدة، وتم تعديلها في ضوء التجربة.

وجدنا منذ البداية أن الأسئلة حول اللغة التي تركزت بشكل كامل على اللغة اليونانية، قد تم التفكير فيها في إطار مسألتين خلافيتين ومترابطتين نوعا ما، في المقام الأول كانت هناك تلك الدعاوى المتصارعة التي قدمت لمصلحة الطبيعة physis (φυσις)، في مقابل العرف nomos (νόμος) أو thésis (θέσις)، وفي المقام الثاني كانت هناك الدعاوى المطروحة لمصلحة الاطراد أو القياس analogia (αναλογία)، في مقابل عدم الاطراد أو الشذوذ anomalia (ανωμαλία) في التحكم في الكلام الإنساني وفي فهمنا الصحيح لعملياته. وقد مثلت هاتان الثنائيتان وجهتي نظر متعارضتين، استحسن

بعضهم إحداهما، واستحسن آخرون الأخرى، بدلا من إجراء مناقشات متصلة مع أنصار وجهة النظر المخالفة بشدة، والمتحصنين بحجج ثابتة.

ويبدو أن مسألة أو ثنائية الطبيعة ـ العرف كانت هي المسألة الخلافية الأولى، وهي الخلاف بين أنصار القياس وأنصار الشذوذ الذي استمر طوال العصور القديمة، رغم أن شدة هذا الخلاف أصبحت أقل مع مرور الزمن. وقد وضع الطرفان كلاهما المسائل اللغوية في إطار خلافات أوسع مجالا، وقد استمد كل طرف سندا واضحا من وقائع القضية.

كان هناك موضوع بحث رئيسي عند الفلاسفة السابقين لسقراط وعند السفسطائيين المتأخرين، وهو الموضوع الذي ظهر في عدة محاورات لأفلاطون، هذا الموضوع هو: إلى أي مدى كانت المعايير والأعراف والأحكام المقبولة لما هو صحيح أو خاطئ، وعادل وظالم، وهلم جرا، قائمة في طبيعة الأشياء وإلى أي مدى هي أساسا عبارة عن نتاج للعرف الضمني أو حتى نتاج للتشريع المحدد. لقد كان موضوع محاورة «كراتيلوس» عبارة عن جدال حول أصل اللغة وحول العلاقة بين الكلمات ومعانيها: هل هي علاقة قائمة على صلة طبيعية بين صيغة الكلمة وبين معناها، أم هي نتيجة للعرف والاتفاق؟[13] وقد حظي الرأيان كلاهما بعناية كافية على لسان المشاركين في الحوار دون الوصول لنتيجة محددة. وكما هو ضروري فقد اعتمدت حجة الطبيعيين على أهمية المحاكاة الصوتية onomatopoeia في مفردات معينة، وعلى الرمزية الصوتية الأعم في التركيب الصوتي phonological لبعض الكلمات، وقد بذل قدر كبير من التصرف مع مجموعة من الأصول المفترضة لبعض الكلمات اليونانية، على أمل إرجاعها لمصدر «طبيعي» يحتج به، نظرا لأنه كان مقبولا من جانب الطبيعيين أن الزمن قد أحدث تغيرات في الصيغ «الأولى للكلمات»[14]، أما أنصار العرف أو العرفيون فقد أشاروا إلى أن المفردات يمكن أن نغيرها عندما نشاء، وأن اللغة تكون كفؤة بشكل متساو بمجرد قبول هذا التغيير[15].

ويبدو أن مناقشة ثنائية الطبيعة ـ العرف نفسها لم توضع في إطارها الصحيح، أو أنها كانت مثمرة كثيرا فيما يتعلق باللغة، فاللغة عبارة عن مقدرة عامة لكل إنسان طبيعي، ومن ناحية التركيب الإجمالي والنظام والكفاءة الثقافية، فليس هناك وسيلة صالحة لترتيب اللغات حسب مقياس

معين، أو انتقاء بقايا بدائية مزعومة فيها، وبهذا المعنى فإن القدرة على الاتصال عن طريق اللغة بالمعنى الدارج (langage عند دي سوسير)، قدرة طبيعية، ولكن معرفة لغات مختلفة أكثر مما كان يعرف اليونانيون الأوائل، تظهر مدى محدودية الدور الذي تلعبه المحاكاة الصوتية والرمزية الصوتية، وأنه في الجزء الأكبر من المفردات في أي لغة (langue) معينة، فإن الاعتباطية والطبيعة العرفية للعلاقة بين الصيغة والمعنى (l'arbitraire du signe)(*) هي الغالبة، رغم أن العرف هنا ليس عرفا صريحا بل ضمنيا، كما هو الحال في العقد الاجتماعي الذي يطرح بوصفه أساس التنظيم الاجتماعي. والنظر فيما إذا كانت اللغة في أصلها قائمة على المحاكاة الصوتية أكثر كثيرا، مما هي عليه في أي مرحلة معروفة يبقى دائما أمرا لا يمكن إثباته، وقد كان هذا الأمر بحق موضوعا للنقد الساخر من طرف ماكس مولر Max Muller في القرن الماضي[16].

ومن الناحية التاريخية فإن أهمية هذا الخلاف تنبع من دوره في النشأة المبكرة للنظرية اللغوية، ومن الدافع الذي وفره لمزيد من الدراسة المفصلة للغة اليونانية، وقد أدى دفاع كل جانب عن حجته ونقده لحجة الجانب الآخر، إلى أن يدرس الناس بمزيد من الدقة تراكيب ومعاني الكلمات وأنماط الصيغ الموجودة فيها، وفي مثل هذه الدراسات تكمن بداية التحليل اللغوي الدقيق.

لقد اتخذ علماء متأخرون مواقف أكثر تحديدا مما نجد عند أفلاطون، فأرسطو قد اتخذ وجهة نظر عرفية بشكل حازم: «فاللغة نتاج العرف، مادامت الأسماء لا تنشأ بشكل طبيعي»[17]، والمحاكاة الصوتية لا تحتم نقض هذا الرأي، نظرا لأن صيغ المحاكاة الصوتية تختلف من لغة لأخرى، وهي قليلة في فنلجيا كل لغة على حدة. ورأي أرسطو في اللغة ملخص في بداية De interpretatione كالتالي: «الكلام تمثيل للخبرات العقلية، والكتابة تمثيل للكلام»[18].

أما أبيقور (341 ـ 270 ق . م) فقد اتخذ موقفا وسطا معتقدا أن صيغ الكلمات قد نشأت بشكل طبيعي، ولكنها تغيرت عن طريق العرف. وبشكل أكثر أهمية في تاريخ علم اللغة فإن الرواقيين قد تحيزوا للأساس الطبيعي

(*) حرفيا اعتباطية العلامة.

للغة، معولين إلى حد كبير على المحاكاة الصوتية والرمزية الصوتية: «فالأسماء في رأيهم قد صيغت بشكل طبيعي، أي من الأصوات الأولى التي تبدو مثل الأشياء التي تطلق عليها»[19]. وهذا الموقف يتفق في الواقع مع تأكيدهم الأعم على الطبيعة بوصفها مرشدا للحياة الإنسانية اللائقة، وفي بحثهم عن أصول الكلمات فقد أعطوا أهمية كبيرة «للصيغ الأصلية» للكلمات protai phonai (πρώται φωναί) التي زعم أنها كانت محاكاة صوتية، ولكنها فيما بعد خضعت لتغيرات من أنواع مختلفة[20].

هذان الرأيان المتعارضان لكل من أرسطو والرواقيين رأيان مهمان، لأنهما قادا إلى الخلاف اللغوي الثاني للعصور القديمة، وهو القياس مقابل الشذوذ، وهذا الخلاف لم يظهر بشكل جوهري، وبحجج منظمة يعارض بعضها بعضا، قبل المعالجة الموسعة التي قدمها للمسألة الكاتب اللاتيني فارّو Varro في القرن الأول قبل الميلاد، ويجب على المرء ألا ينظر للرأيين بوصفهما معتقدين مقصورين على أنصار متعارضين بشكل حاد ودائم، ولكن على النقيض بوصفهما موقفين من اللغة، كل منهما في حد ذاته مسوغ بشكل معقول بجزء من الشواهد، وكل موقف انحاز له بعض الأفراد وبعض الجماعات.

ويبدو واضحا أن أرسطو قد انحاز للقياس، وأن الرواقيين قد انحازوا للشذوذ بوصفه السمة المسيطرة في اللغة، وقد مال القياسيون المتأخرون للتركيز على المسائل اللغوية، من أجل غايات النقد الأدبي والحفاظ على معايير الصحة (Hellénismos)، أما اهتمامات الرواقيين فقد قامت على منطلقات أكثر اتساعا، ولعل الانقسام قد صار حادا بسبب التنافس بين الإسكندرية وبرجاموم، تحت الحكم المقدوني بوصفهما مركزين رئيسيين للعلم، وقد سيطر القياسيون على الإسكندرية، وسيطر الرواقيون على برجاموم، وقد كتب كرسيبوس Chrysippus رسالة عن الشذوذ اللغوي[21].

كما أنه قد يكون هناك شعور بأن هذا الخلاف قد صور في شكل لا يحتاج المرء للرجوع إليه اليوم، ولكن هذا، مثله مثل خلاف الطبيعة ـ العرف، كان جزءا من السياق الذي أجريت فيه البحوث المفصلة عن قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية. وإن حاجتنا إلى معرفة التأثير التاريخي قد تظهر ـ عند هؤلاء الذين يصرفون عنها النظر، كما فعل كلاسن Classen ـ بوصفها

أمرا لا يستحق العناء[22].

ومن المهم عند النظر لهذين الخلافين كليهما، أن نتذكر أنهما بشكل كبير قد وقعا قبل نشر أي كتب للقواعد أو أي معاجم للغة اليونانية واللغة اللاتينية. لقد كانا في الواقع جزءا من الطريقة التي بها كان هؤلاء الذين يفكرون في اللغة، يطورون أفكارهم في المناقشات والخلافات مع زملائهم المفكرين، بحيث تشكَّل موضوع علم اللغة الوصفي والنظري بشكل تدريجي. ومن الناحية التاريخية كان هذان الخلافان جزءا من سياق البحث اللغوي المبكر، أما تجاهل كلاسن الفظ لهذا فقد حدث في ظل خلفية مختلفة جدا في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، عندما كانت النظريات القواعدية قد وضعت منذ وقت طويل وتم بسطها، وعندما كانت قواعد ومعاجم اليونانية واللاتينية ولغات أخرى متاحة بيسر.

وبشكل واضح دار خلاف القياس ـ الشذوذ إلى أن وصل إلى المدى الذي سيطر فيه النظام، وخاصة الاطراد التناسبي في اللغة اليونانية وفي اللغة ككل بشكل ضمني، ولمدى معين ميزته حالات عدم اطراد أو حالات شذوذ anomalies. وحالات الاطراد التي نشدها القياسيون كانت هي تلك الحالات ذات التصريفات الشكلية formal paradigms، حيث يكون لكلمات نفس الحالة القواعدية نفس النهايات الصرفية ونفس التركيب النبري، وهي تلك الحالات التي تستلزم العلاقة بين الصيغة والمعنى، والتي عن طريقها يمكن أن نتوقع للكلمات المتشابهة صرفيا أن تحمل معاني متشابهة «قياسية analogical» والنقيض بالنقيض، وهذه الأنواع من القياس تقع في مكان اللب من الصرف، ومن دونها فإن تصريفات أقسام classes الكلمات المختلفة وأنواعها الفرعية (تصريفات الأسماء وتصريفات الأفعال اليونانية واللاتينية)، التي فيها تتلخص النماذج المتكررة، لن يمكن اكتشافها، كما أن أنواع القياس تلك هي الأساس لأي محاولة تصنيف دلالي للفئات القواعدية، مثل المفرد والجمع وحالات الاسمية، وإلى هذه الدرجة، وكما أشار القواعدي المتأخر ديونسيوس ثراكس فإن المحتوى الصرفي للقواعد يتكون من «عمل القياس»[23].

وقد استعملت حجج القياس أحيانا لتفضيل صيغة لكلمة على صيغة أخرى لها بوصفها الصيغة اليونانية الصحيحة، كما استعملت لإثبات النص الصحيح لبيت ما من أشعار هومير[24]. وقد ذهب بعض القياسيين لأبعد

من هذا فحاولوا إعادة صياغة التصريفات اليونانية غير المطردة، لمصلحة اطراد القياس (عملية جرت طواعية في بعض النواحي أثناء الانتقال من اليونانية الأتيكية الكلاسيكية، إلى اللغة اليونانية الحديثة عبر اليونانية «الكوينية» واليونانية البيزنطية)، فالصيغ Zeós و (Ζεός) و Zei (Ζεί) و Zéa (Ζέα)... إلخ قد اقترحت بدلا من الصيغ الحقيقية الشاذة Zénós... الخ، باعتبار الأخيرة حالات منحرفة للكلمة Zeus (Ζευς). وقد هاجم سكستوس إمبريكوس هذه المواقف، وهو الذي كتب في القرن الثاني الميلادي عندما اتفق القواعديون في الرأي مع القياسيين معترضا على مجمل أعمالهم، متهما إياهم باختلاق صيغ «قياسية غير معروفة مثل kyonos (κυωνος) بدلا من kynós (κυνός) من kyón (κυων) «كلب»، وقد أدى هذا بكاتب لاتيني متأخر إلى الشكوى من أن الحديث باللاتينية والحديث حسب القواعد هما الآن أمران مختلفان[25].

وبينما يمكننا الآن أن نرى مجمل أسس الوصف الاقتصادي لصرف اللغة اليونانية، يقوم على إدراك وتنظيم حالات القياس الأساسية، فإن أنصار الشذوذ لا تعوزهم الأمثلة المضادة التي يدافعون بها عن أطروحاتهم، فمعظم الأشكال التصريفية للاسم والفعل تسمح بالاستثناءات والأشكال غير المطردة ، التي لا يمكن حذفها من اللغات استجابة لإرادة القواعديين، فالعلاقات الدلالية التناسبية بين الفئات الأساسية ومعانيها الجنسية، تضطرب بأنواع من الشذوذ كما في أسماء المدن المفردة التي تطلق عليها أسماء جمع شكليا Athenai (Ἀθῆναι) أثينا، و thêbai (Θήβαι) طيبة، وكما في الحالات أو الصفات الموجبة مثل «الخلود» التي يشار إليها بكلمات ذات سوابق نفي (athànatos ἀθανατος ، وهي الكلمة اللاتينية immortalis). وقد حدد سكستوس في هجوم عبقري على القواعديين بوصفهم طائفة، كثيرا من أنواع الشذوذ الدلالي في الجنس، غير مشير فقط إلى جنسي الأسماء المذكرة والمؤنثة، التي تدل على الجمادات والمجردات، واستعمال الأسماء المفرد المذكر أو المؤنث (والمحايد أحيانا) ليدل على كلا الجنسين لكائن حي، بل مشيرا أيضا إلى تنوع لهجي في جنس بعض الأسماء[26].

ظهرت حالة الشذوذ بقوة في البداية عندما لم يتم تمييز مناسب بين الإعراب والاشتقاق في تنوعات صيغة الكلمة القواعدية، وإنها سمة من

سمات اللغة اليونانية ومن سمات معظم اللغات في الواقع، وهي أن التصريفات الإعرابية فيها تكون أكثر اطرادا، وتنطبق على أنواع السيقان بأسرها، بينما تكون التشكيلات الاشتقاقية أكثر شذوذا، فكل الأسماء (المفرد والجمع) في اللغة اليونانية لها تقريبا صيغ لخمس حالات، ولكن اللواحق الاشتقاقية مقصورة على سيقان أسماء محددة، ومن هنا نجد patér (πατήρ) «أب»، pàtrios (πάτριος) «أبوي»، ولا نجد صيغة مماثلة métrios (μήτριος) مع métér (μήτηρ) «أم». والإنجليزية كذلك تشتق الأسماء من الصفات بتشكيلات مختلفة مثل true، truth و happiness happy و hot heat و height high و possible possibility. وبعض المتحدثين يترددون بين (un)grammaticality و (un)grammaticalness.

والرواقيون - ناقلين تحليلهم الدلالي خطوة أبعد - يشيرون أيضا إلى خطأ أي تطابق واضح بين الصيغة الواحدة والمعنى الواحد في اللغة اليونانية، وفي أي لغة أخرى ضمنيا، فأحيانا نتيجة لعملية التشعب التاريخية، فإن صيغة كلمة واحدة قد أدى بها الأمر لأن تحمل عدة وظائف دلالية مختلفة جدا، وقد أشار أوجسطين، معبرا عن آراء الرواقيين، إلى المعاني المختلفة للكلمات اللاتينية aciés militum (جنود) خطوط القتال و ferri (سيف) حافة النصل الحادة، و oculórum (عيون) حدة البصر[27].

إن اتفاق الموقف القياسي من اللغة مع الموقف الفلسفي العام لأرسطو من السهل توضيحه، فالتناسب (analogia, analogon) يظهر في عدة مواطن في أعماله، بوصفه مبدأ مرشدا في التدليل والتعليل[28]، وفضلا عن هذا فإن الأمر كان مرتبطا بشكل منطقي مع وجهة النظر العرفية في اللغة التي اعتنقها، حيث إن الاطراد الأكثر الذي يجب أن يوجد في أي نظام اعتباطي عرفي للاتصال، سوف يجعل هذا النظام أكثر كفاءة.

لكن الرواقيين نظروا للغة بوصفها مقدرة إنسانية طبيعية يجب قبولها كما هي بكل شذوذها المميز لها، ولقد اتخذوا رأيا أكثر وضوحا من القياسيين فيما كان يونانيا صحيحا (Hellénismós)، وكانوا معنيين بالمسائل اللغوية ليس باعتبارهم نقاد قواعد ونصوص، بل كانوا فلاسفة تعتبر اللغة بالنسبة إليهم تعبيرا عن الفكر والشعور، كما أن الأدب في نظرهم يحتوي على معان وأفكار عميقة تكمن في الأسطورة، والقصة الرمزية allegory (الكلمة

اليونانية allégorikós (άλληγορικος´) «رمزيا»، كان أول استعمال معروف لها على يد الفيلسوف الرواقي كلينثس Cleanthes)[29].

وعلم اللغة، مثله مثل العلوم الأخرى في العصور القديمة، قد خضع للتأثير العام للمنهج العلمي الأرسطي، ولكن المرء يرى في الاتجاهات المغايرة للفلاسفة الرواقيين ونقاد الأدب السكندريين، يرى التناقض بين الاعتبارات الفلسفية والاعتبارات الأدبية بوصفها العوامل المحددة لتطور علم اللغة، وفيما يتعلق بالتطور الخصب القديم للقواعد اليونانية فإن الاهتمامات الأدبية كانت هي المسيطرة، ولكن في العصور القديمة والوسطى فإن هذا الخلاف المبدئي، وهو خلاف ضمني ومثار جدال بشكل واضح الآن، يمكن ملاحظته بوصفه ملمحا متكررا في تاريخ التفكير اللغوي والممارسة اللغوية.

كانت الجوانب الرئيسية الثلاثة للدراسة اللغوية التي تلقت عناية خاصة عند علماء اليونان الأوائل، هي علم الإتملجيا والصوتيات (النطق) والقواعد، وقد أثار العلم الأول أي الإتملجيا كثيرا من الحماسة والبحث والتأمل، وكان الحافز وراء ذلك هو خلاف الطبيعة ـ العرف حول أصل وتطور اللغة، ولكن المصطلح «إتملجيا etymology» قد فهم، والبحوث الإتملجية قد أجريت في إطار أفكار عن الموضوع مختلفة عن تلك الأفكار السائدة في الوقت الحاضر، وقد كان المدى الزمني لأي دراسة تاريخية للغات أقصر كثيرا مما هو متاح لدينا، فالناس، وبالتالي لغتهم الإنسانية، ترجع ـ عبر قرون قليلة ـ إلى أسلافهم من الأبطال والآلهة والإلهات في الأساطير المسلم بها، وقد اتجهت الجهود أساسا إلى الإجابة عن السؤال: كيف أمكن لمجموعة محدودة من الكلمات الأولية المتوافقة صوتيا والتي منحتها أو علمتها الآلهة في البداية أن تتضاعف، لتنتج الأعداد الهائلة من كلمات معجم اليونانية أولا ومعجم اللاتينية بعد ذلك، لتواجه متطلبات المدنية ذات الثقافة الرفيعة؟ والتعريف اليوناني لكلمة «إتملجيا etymologia (έτυμολογια) يوضح هذا المفهوم: «فهو تفتح الكلمات الذي من خلاله تبدو معانيها الأصلية جلية»[30].

اتجه البحث في أصول الكلمات منذ البداية نحو محاولات إرجاع صيغ الكلمات إلى صيغ كلمات أخرى، عن طريقها ـ كما كان يعتقد ـ يمكن تفسير معاني الكلمات الأولى، وقد أنتج هذا الأمر الأصول العجيبة التي اقترحت بكل جدية، والتي ظهر بعضها في محاورة «كراتليوس»

لأفـلاطـون، وعلـى سـبيل المثـال فـإن كلمـة ànthropós (ἄνθρωπος) «إنسـان» أرجعـت إلـى anathrôn hà ópopen (ἀγαθρών ά όπωπεν) أي المتطلع فيمـا يـرى، وكلمـة poseidôn (ποσειδών) أرجعـت إلـى posi demós (ποσίδεσμός) معاق القدمين (في مشيه في الماء على ما يبدو، باعتبار بوسيدون هـو إلـه البحر)، ولكن من الإنصاف أن نضيف أن أفلاطون قد عالج بعضا من هذه الأصول المقترحة بشيء من الهزل.

وقد تواصلت الجهود المشابهة لتميز علم الإتملجيا خلال العصور القديمة والعصور الوسطى، وبسبب هذا الفهم المختلف - أساسا - للإتملجيا قبل عصر النهضة فإن هذا الجانب من البحث اللغوي في العصور القديمة والعصور الوسطى قد تم الانصراف عنه في سخرية، وقد امتد هذا الانصراف أحيانا، وبشكل جائر كثيرا، إلى علم اللغة اليوناني - الروماني ككل، ويجب علينا ألا ننسى أن علماء اللغة في العصور القديمة والوسطى أنفسهم قد أدركوا السهولة، التي يمكن بها أن ينتقل هذا النوع من الإتملجيا المصطعنة etymologizing إلى مجرد تصورات مضحكة، والاشتقاق الهزلي جدا لكلمة cadàver «جثة» بوصفها ca(ro) da(ta) ver(mibus) مثال معروف جيدا أيضا[31].

وعلما الصوتيات والفنلجيا اليونانيان، بقدر ما يمكن تمييزهما بشكل مناسب بالرجوع لهذه الفترة، قد قدما على أساس الوحدة المركبة من الكتابة والنطق، فالعنصر الأساسي للكلام المنطوق وهو «الجرما gramma» (γράμμα)، قد نظر إليه إلى حد كبير باعتباره حرفا من الأبجدية، علاوة على قيمته الصوتية.

وقد تمت بعض محاولات التصنيف النطقي، وعرض المقطع بوصفه وحدة بنائية من وحدات الوصف الفنلجي. وفي عصر الرواقيين تم إدراك صورة أولية للكلام بوصفه الأثر الناتج للتدخل النطقي عن طريق الهواء الخارج من الرئتين. وقد درست اللغة اليونانية، ولكن لم يظهر أحد من العلماء اهتماما بالأصوات الأجنبية أو بالنظم الصوتية غير اليونانية. وقد كان الإطار الوصفي لصوتيات اليونانية هو الأبجدية اليونانية، وقد أخذ أسلوب العرض شكل وصف نطق الحروف في هذه الأبجدية.

وهناك اعتراض واحد على مثل هذه المقاربة القائمة على وصف الحروف

في الصوتيات، وهو أن هذه المقاربة قد أعاقت التعرف على الفروق الألفونية في فونيمات اللغة اليونانية، والمفسرون يشيرون للتحققات الموحدة المتميزة للصوائت مع حالات النبر accent المختلفة، ومع الهائية aspiration والطول ومن دونها، ولكنهم لا يشيرون للنوعيات المختلفة للأصوات الصوائت vowel sounds نفسها برغم أن هذه الاختلافات الصوتية يجب أن تصحب السياقات الصوتية الجزئية segmental وفوق الجزئية suprasegmental المختلفة[32]، كما لم توصف الفروق الصوتية بين اللهجات ما عدا تلك الفروق التي تمثلت في أنواع الهجاء المختلفة، وبشكل أكثر خطرا قُبل قياس خاطئ بين علاقة الحروف المتميزة في نص معين، وبين علاقة الأصوات المتميزة ادعاء في قول منطوق. وهذا القياس الخاطئ لم يُعترض عليه. وهذا يظهر بوضوح عند برشيان Priscian في العصر الكلاسيكي الذي كتب عن اللاتينية «إنه تماما مثلما تجتمع الذرات لتكون كل الأشياء المادية، فإن أصوات الكلام تكون الكلام المنطوق كما لو كان وجودا ماديا من نوع ما»[33]. والعلاقات تكون بطريقة أخرى كما يلي: الحروف تكون بالفعل الجمل المكتوبة، أما الكلام فيمكن أن يحلل إلى أصوات كلامية.

وقد أقام أفلاطون عددا من التمييزات بين أنواع من الفونيمات الجزئية في اللغة اليونانية، واضعا الصوائت في مجموعة تقابل مجموعة الصوامت، ومميزا في الأخيرة بين الاستمراريات والوقفيات، والأخيرة غير قابلة للنطق دون صوت صائت مجاور، وقد كان أفلاطون على وعي أيضا بالفروق في النبر في الكلمات التي لها تتابعات متشابهة من الأجزاء أو الحروف، وقد قارن بين Diiphilos (Διί φίλος) «صديق الإله» وبين الاسم Diphilos (Δίφιλος) فيما يتعلق باختلاف تتابعات طبقة الصوت pitch فيهما[34].

وخطا علم الصوتيات خطوات أخرى للأمام على أيدي الرواقيين الذين عرفوا دراسة أصوات الكلام باعتبارها جانبا متميزا من دراسة اللغة، فقد ميزوا بين ثلاثة جوانب للجراما، مؤكدين في ذلك على وحدتها الصوتية الإملائية، فقيمتها الصوتية تكون على سبيل المثال [a] وصورتها المكتوبة تكون α ، والاسم الذي يطلق عليها هو «ألفا alpha»[35]. وقد استمر التمييز بين هذه الخصائص الثلاث خلال العصور القديمة حيث كانت أسماؤها اللاتينية هي: potestas (قوة) figura (صورة) nómen (اسم).

وقد درس الرواقيون البنية المقطعية في اللغة اليونانية، وميزوا تمييزا ثلاثيا بين التتابعات الصوتية التي تقع بالفعل في الكلام بوصفها أجزاء دالة، وبين التتابعات التي يمكن أن تقع وفقا لقواعد تركيب المقطع، ولكنها لا تقع بالفعل (مثل blityri (βλίτνρι)) وبين التتابعات المستبعدة بوصفها غير ممكنة فنلجيًا في اللغة[36].

وقدم العلماء القدماء عددا من الملاحظات الدقيقة والصحيحة عن صوتيات اللغة اليونانية، وهي ملاحظات ذات قيمة كبيرة في إعادة بناء نطق هذه اللغة (وكذلك الأمر بالنسبة للوصف الصوتي للقواعديين اللاتين المتأخرين)، ولكن يبقى عدد من أنواع الإغفال الخطير لملاحظات حقيقية، مع انعدام النظرية الوصفية الملائمة. وفي تاريخ علم الصوتيات فإن مؤلفات علماء اليونان والرومان ليست بذات أهمية أساسية، فقد عبروا بشكل خاص عن تصنيفاتهم ووصفهم بمصطلحات أكستيكية انطباعية، لم يكن لديهم علم مصطلح فني مناسب لها، بدلا من التعبير بمصطلحات نطقية مثلما فعل العلماء الهنود القدماء والعلماء العرب بنجاح أما علم الصوتيات في القرن التاسع عشر الذي شهد تقدما سريعا في هذا الجانب من علم اللغة، فيدين بانبعاثه الرئيسي للتكنيك الوصفي للعلماء الهنود، ومنهجية الملاحظة في التراث الإمبريقي للقرون الثلاثة السابقة.

وأفضل الأعمال التي قام بها اليونان (والرومان) كانت في ميدان القواعد، وهي ذات التأثير الأكثر فعالية وبقاء في المستقبل، وفي هذا الميدان لانرى البناء الهادف والمثمر الذي أضافته الأجيال المتأخرة إلى نتائج أسلافهم فقط، بل نعرف بعضا من الكتب الموثوقة التي كتبت عن القواعد اليونانية واللاتينية، ومازال كثير من هذه الكتب باقيا، كما أن الوصف القواعدي المقدم بها قد احتفظ به التراث المستمر في العصور الوسطى والعصر الحديث، ليصبح أساسا للقواعد المعيارية لهاتين اللغتين اليوم، إضافة لهذا فإن النظريات والمقولات والمصطلحات التي ابتدعها العلماء القدماء فيما يتعلق بقواعد لغاتهم هم، قد أصبحت جزءا من الأدوات القواعدية العامة للغويين الوصفيين في وقتنا الحاضر.

كان إطار الوصف القواعدي في العالم الغربي القديم هو الكلمة ونموذج جدول التصريف paradigm[37]، وعلى الرغم من ثراء الصرف الكلاسيكي

فإن نظرية المرفيم لم يتم التوصل إليها، كما أن التعبيرات القواعدية الكلاسيكية تظهر لنا نواحي القوة ونواحي الضعف في الصرف القائم على أساس الكلمة. وكما أن الفنلجيا اليونانية قد قامت على أساس نطق الحروف في الأبجدية اليونانية فإن القواعد اليونانية قد ركزت على اللغة المكتوبة، وعلى اليونانية الأتيكية للمؤلفين الكلاسيكيين في معظم الأحيان، ولو أن ذلك كان دائما مع عناية خاصة بتضمين النطق في القراءة بصوت مرتفع.

تتطلب القواعد القائمة على أساس الكلمة ثلاثة إجراءات رئيسية، وهي: تمييز الكلمة بوصفها كيانا مفردا، وتأسيس مجموعة من أقسام الكلمات لتمييز وتصنيف الكلمات في اللغة، وإيجاد فئات قواعدية مناسبة لوصف وتحليل صرف الكلمات، الداخلة في جداول تصريف الصيغ المترابطة وفي العلاقات النحوية التي تسود بين الكلمات في تركيب الجمل.

وعلى الرغم من وجود حجج قواعدية عامة لمصلحة النظر للعلاقات النحوية باعتبارها المكون المركزي للقواعد (هكذا نظر إليها على سبيل المثال في القواعد rules السابقة للقواعد التي تغطي صرف الكلمة في القواعد التوليدية)، ففي تاريخ النظرية القواعدية الغربية يبدو أن الصرف هو الذي تم تشكله أولا، فأول وصف باق لدينا للصرف اليوناني يسبق أول وصف باق لدينا للنحو اليوناني بقرنين، والأخير يقوم على السابق في أساليب عرضه.

وقد يجادل المرء على نحو منطقي في أنه في استنباط القواعد القائمة على أساس الكلمة فإن المرء عليه أن يبدأ أولا بالتمييز الشكلي formal لوحدة الكلمة، ثم بأقسام الكلمات، وأخيرا بالفئات المتصلة بها. وهذا - في الواقع - هو نظام المعالجة في القواعد اليونانية المنسوبة لديونسيوس ثراكس. ومع ذلك فمن الناحية التاريخية نجد أن ما اعتبر فيما بعد جزءا من نظام الفئات النحوية، قد تمت مناقشته أولا بشكل متقطع في القرن الخامس على أيدي السفسطائيين، وقد درس بروتاجوراس الفئة الاسمية للجنس في اليونانية، وقد روى أنه كان يرغب في أن تكون الكلمتان mênis (μῆνις) «غضب» و pélex (πήληξ) «خوذة» مذكرتين بدلا من كونهما مؤنثتين، ربما على أساس ارتباط دلالي مع خصائص وأنشطة الذكور أكثر مما هو مع الإناث[38]. وربما يكون سقراط نفسه قد ناقش هذه الفئة لأن

أرستوفانس قد سخر منه في ملهاته «السحب»، بسبب اقتراحه كلمات جديدة مؤنثة شكليا مثل alektryaina (ἀλεκτύαινα) «دجاجة» بدلا من استعمال (αλεκτρυών) لجنس المذكر والمؤنث كليهما، أي «للديك» و «الدجاجة»، ولانزعاجه من كلمات مثل kàrdopos (κάρδοπος) «حوض»، وهي واحد من التصريف الثاني للاسم الذي ينتهي بـ os، وهو مؤنث[39].

وقد أظهر بروتاجوراس أيضا الأنماط المختلفة للجملة التي ترتبط فيها وظيفة دلالية عامة، بتركيب قواعدي معين مثل التمني والاستفهام والتقرير والأمر[40]. وهذا يقع في مجال البلاغة، ولكنه قدم لنا المادة لتحليل نحوي أكثر شكلية لتراكيب الجملة على أيدي الأجيال المتأخرة.

أشار أفلاطون وأرسطو إشارات متفرقة للقواعد، ولكنهما لم يتعاملا معها بشكل متصل أو بوصفها موضوعا متميزا، ومع هذا يمكن القول، إن أفلاطون كان أول من أخذ الأمر مأخذا جديا، حيث نقابل في محاوراته تقسيما أساسيا للجملة اليونانية إلى مكون اسمي nominal ومكون فعلي verbal، أي ónoma و rhêma (ὄνομα و ῥήμα)، وقد بقي هذا هو التمييز القواعدي الرئيسي المتضمن للتحليل النحوي وتصنيف الكلمات في الوصف اللغوي في المستقبل كله[41].

وقد أبقى أرسطو على هذا التمييز، ولكنه أضاف إليه نوعا ثالثا من المكونات النحوية، وهو «السند سموي» syndesmoi (συνδεσμοι)، وهو نوع يغطي ما أصبح يميز فيما بعد بوصفه الروابط conjunctions (وربما الحروف، رغم أن هذا غير واضح من الأمثلة الواردة) والأداة والضمائر[42]. وهذا التحليل الثلاثي للجملة ربما قصد به تمييز مكونات العبارة الإخبارية apophantikós lógos (αποφαντικός λόγος)، التي كان أرسطو أكثر اهتماما بها بوصفه منطقيا والتي اتخذها قاعدة أساسية. وإضافة لهذا قدم أرسطو تعريفا شكليا للكلمة بوصفها وحدة لغوية، فهي عنصر من عناصر الجملة mêros lógou (μέρος λόγου) له معنى في ذاته، ولكنه غير قابل للانقسام إلى وحدات أخرى ذات معنى[43]. ولم يذكر أفلاطون بوضوح ما إذا كان المصطلحان ónoma و rhema يرجعان للكلمات أم للعبارات أم لها جميعا. ومن اللافت للنظر أن تعريف أرسطو للكلمة يشبه تعريف مييه Meillet لها، بأنها «ارتباط معنى معين بمجموعة معينة من الأصوات لها القدرة على

الاستخدام القواعدي»[44]. وليس هذا التعريف أو ذاك تعريفا كافيا مادامـا لم يضعا المرفيم morpheme في الاعتبار، وهو نفسه دائما «القادر على الاستخدام القواعدي»، وكثيرا ما يحمل معنى مفردا بشكل كاف. والجملة (lógos) بالنسبة لأرسطو تتضمن الخبر أو تنفيه، أو تعين حالة وجودية[45]، كما عرف المكون الفعلي rhêma بوصفه ـ بشكل إضافي (أي على خلاف المكون الاسمي ónoma) ـ يشير إلى دلالة الزمن، وبوصفه ممثلا للخبر[46]. وهذا الجزء الثاني من التعريف سمح له مثل أفلاطون بأن يضم صفات مثل leukós (λενός) «أبيض»، و dikaios (δίκαιος) «مضبوط» إلى المكون الفعلي rhémata[47]، مادامت كثيرا ما تعمل في اليونانية بوصفها أخبارا (leukós ho hippos (λευκός ό ππος) الحصان أبيض)، ومع الفعل الرابط esti (πτώσις) «يكون»، المفهوم ضمنا، والمتاح حشره دائما، يمكن أن نقول إن الصفات تحمل معنى الزمن أيضا. ولهذا السبب فإن ترجمة ónoma و rhêma «باسم» و «فعل» في هذه المرحلة من تطور النظرية القواعدية اليونانية، قد تكون ترجمة مضللة.

وأرسطو ـ مثله مثل بروتاجوراس ـ قد تعرف على فئة الجنس في الأسماء وذكر عددا من النهايات النموذجية المميزة للجنس[48]، ولكنه عالج فروقا شكلية أخرى في أشكال الكلمة تحت فئة الـ ptôsis، وهذا المصطلح في الاستعمال الأرسطي يغطي عددا من التغيرات المتصلة قواعديا، بالصيغة الأساسية للكلمة بشكل وصفي مثل حالات غير الرفع (الأبلكية) للأسماء، وصيغ صفات التفضيل العادية والعليا superlative، والظروف غير النعتية deadjectival في os ـ مثل dikaios (δικαίως) «على وجه الضبط»، والأزمنة الفعلية غير المضارع، كما أن التصريفات الأخرى للأفعال كلها عبارة عن ptoseis شكلت من الصيغة الأساسية للكلمة المتصرفة المعنية[49].

ومن السهل إدراك عدم ملاءمة أطر المرجعية القواعدية لأفلاطون وأرسطو، ولكن الأكثر أهمية هو ملاحظة الطور الأول الذي بدأه بصياغة ما وراء لغة metalanguage فنية، لوصف اللغة اليونانية وتحليلها من المصادر المعجمية للغة التي لم يكن مطلوبا منها حتى الآن أن تعمل بهذه الطريقة. وكان هذا جانبا من افتتان أنصار هذه القواعد بالتطور المتوالي لأدوات الوصف عند علماء القواعد اليونانيين، فكلمة ónoma في طريقها لتصبح

ترجمة للكلمة الإنجليزية اسم noun كانت أصلا تعني «اسم علم name» ، وكلمة rhêma التي كانت تعني «خبرا predicate» ثم «فعلا» فيما بعد، قد استعملت لتعني «قولا saying أو مثلا proverb»[50]، وكلمة ptósis التي تعني حرفيا «يسقط fall» ذات الاشتقاق الفني غامض الأصل، قد استعملها أرسطو بوصفها مصطلحا منطقيا بالإضافة إلى استعمالها مصطلحا قواعديا شديد العمومية[51]، وهذا المصطلح كان لابد أن يكون له تاريخ طويل جدا، فقصره على معنى الكلمة الإنجليزية case والكلمة اللاتينية casus، كان أحد مظاهر التقدم التي ميزت النظرية التي قدمها علماء القواعد الرواقيون[52].

وقد أنجزت الأجيال المتعاقبة من الفلاسفة الرواقيين مقدارا كبيرا من القواعد، والواقع أن بعض العلماء قد يقولون إن القواعد بالمعنى الحديث لم تبدأ إلا بهم، ولكن الأعمال التي درسوها جيدا قد أمدتهم بنقطة انطلاقهم، فالرواقيون الذين قادهم موقفهم الفلسفي لأن يعيروا اللغة اهتماما كبيرا، قد ساهموا مساهمة مهمة في تطور التحليل الوصفي للغة اليونانية، وفي تحسين المفاهيم القواعدية من أجل هذا الغرض عندما بدأوا أعمالهم التي تظهر في الكتابات المتخصصة المختلفة، التي أشرنا إليها بالفعل، والتي طورها إلى حد بعيد علماء القواعد المتأخرون في مدرسة الإسكندرية التي كانت لها السيادة[53].

على الرغم من أن إنجازات الرواقيين قد احتلت المكان الثاني في التيار الرئيسي للتراث السكندري فمن المهم أن نشير إلى الخطوط الرئيسية لهذه الإنجازات.

لقد قام الرواقيون بتوضيح النظام الأرسطي لتصنيف الكلمات والفئات القواعدية توضيحا أكبر في اتجاهين: فقد زادوا عدد أقسام الكلمة، كما قدموا تعريفات أكثر دقة وفئات قواعدية إضافية لتغطي الصرف وتغطي جزءا من نحو تلك الأقسام للكلمة. ولقد نظر كتاب متأخرون لتطور نظام أقسام الكلمة بوصفه تقسيما فرعيا للنظام السابق[54]. ويبدو أن الرواقيين قد ساروا في ثلاث مراحل، أولا: من بين «سند سموي» أرسطو فإن الأعضاء المتصرفة (الضمير والأداة فيما بعد)، قد فُصِلت معا بوصفها «أرثرا arthra» (ἄρθρα) عن الأعضاء الجامدة غير المتصرفة التي استعمل لها وحدها

مصطلح سند سموس syndesmos (حروف الجر والروابط فيما بعد)، ثانيا: أونما ónoma أرسطو قد انقسمت إلى اسم العلم proper noun الذي استعمل له مصطلح ónoma والاسم العام proségoria (προσηγορία)، ثالثا: قد انفصل عما سبق نوع الظروف وأطلق عليها mesótés (μεσότης)، وتعني حرفيا «هذه التي في الوسط» وربما كان هذا بسبب انتمائها نحويا للأفعال، ولكنها تكون غالبا مرتبطة صرفيا بسيقان stems الأسماء.

وقد تبنى الكتاب المتأخرون كل أقسام الكلمات تلك عند الرواقيين عدا الـ proségoria، الذي أعيد توحيده مع «الأونما» بوصفهما قسما واحدا تحت تعريف واحد، مع الاعتراف بالبرسيجوريا بوصفه قسما فرعيا فقط من «الأونما». ولقد عرف الرواقيون الفرق بين قسمي الأسماء عندهم على أساس دلالي، عن طريق الرجوع إلى النوع المفرد (سقراط) في مقابل النوع العام (حصان). وهذا أمر مهم منطقيا ودلاليا، ولكن هذا التمييز ليس تمييزا صرفيا، وإن محاولات تحديد صيغ صرفية مختلفة للاسم العام واسم العلم لم تؤيدها حقائق اللغة اليونانية، على الرغم من أن التحليل النحوي الدقيق قد يمدنا بأساس شكلي لقسم فرعي لأسماء العلم[55].

والحالة case في الاستعمال الحديث بوصفها الفئة التصريفية للأسماء، والكلمات الأخرى التي تتصرف مثلها كانت من إبداع الرواقيين، وبعد ذلك استعملت كلمة «كليسس klisis» (κλίσις) على نحو مشترك لما يتعلق بالتغير القواعدي لصيغة الكلمة. وبقصر كلمة ptôsis على الأسماء والكلمات المتصرفة بطريقة مماثلة، استطاع الرواقيون أن يجعلوا تصريف الحالة، هو التقسيم الرئيسي fundamentum divisionis بين الأونما ónoma والريما rhéma، وهو التقسيم الذي ظل باقيا (مع نتيجة اعتبار الصفات في اليونانية (واللاتينية) قسما فرعيا من الأسماء، وهو الـ onómata من الآن فصاعدا)، وأن يجعلوه التقسيم الرئيسي بين الأرثرا àrthra (الحالة المتصرفة) وبين السندسموي syndesmoi (غير المتصرف). وفي هذه الفئة وسعوا استعمال المصطلح ليغطي كل صيغ الكلمات متصرفة الحالة، وقسموها إلى ptôsis eutheia (εὐθεία) أو othe (ὀρθή) أي حالة الرفع nominative (في اللاتينية càsus rectus)، وبتوسس plàgiai (πλάγιαι) أي حالات غير الرفع oblique (وهي في اليونانية حالات المفعولية accusative والإضافة genetive والمفعولية

غير المباشرة dative).

ووضع النداء في نظام الرواقيين وضع غامض، كما لوحظ أن حالة الرفع ـ مثل حالة المسند إليه ـ في اتفاق العدد مع الفعل متغير الصيغة finite، تقابل حالات غير الرفع الثلاث، والتي يتركب كل منها مع الأفعال في علاقات نحوية مختلفة، ومع حروف الجر، كما تتركب حالة الإضافة مع الأسماء الأخرى.

وقصر كلمة «بتوسس» على الكلمات الاسمية قد احتاج إلى مصطلحات مستقلة للفئات الفعلية، وفي الوقت نفسه قد زودنا بمعايير استعمالها، فالأفعال المتعدية المبنية للمعلوم (rhémata orthà) والمبنية للمجهول hyptia (ὑπτία) والأفعال المحايدة neutral (اللازمة) (oudétera (οὐδέτερα))، قد عرف كل منها عن طريق تركيبها ـ على التوالي ـ مع حالات غير الرفع (حالة المفعولية عادة)، ومع الـ hypo (ὑπό) والإضافة ومع غير هاتين الحالتين[56]. والمصطلحان المشتركان جزئيا، وهما ptôsis orthé و rhéma orthón لم يكن اشتراكهما عرضيا، فنحو الأفعال المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول في اللغات الكلاسيكية، كان وثيق الصلة باختلافات الحالة[57]. وقد ظهرت في نظام الرواقيين فئات وتمييزات فعلية أخرى، ولكن مساهمتهم الكبرى في تحليل الفعل في اللغة اليونانية، كانت هي تجريد معاني الزمن ووجهة الحدث الموجودة في صيغ الزمن. ودلالة الزمن التي ميزها أرسطو عبارة عن جزء فقط من الوظيفة الدلالية لأزمنة الفعل في اليونانية. وكما هو الشأن في كثير من اللغات هناك بعدان متضمنان، وهما الإشارة للزمن والإشارة لتمام الحدث في مقابل عدم تمامه أو استمراره، وفيما يتعلق بهذين التمايزين الفئويين يمكن ترتيب أربعة أزمنة فعلية كالتالي :

وجهة الحدث / الزمن:

	مضارع	ماض
غير تام	مضارع مستمر gráphei (γράφει) is writing	ماض مستمر égraphe (ἔγραφε) was writing
تام	مضارع تام gégrapha (γέγραοα) has written	ماض تام égegráphei (ἐγεγράφει) had written

والمستقبل (méllon (μέλλων gràpsiei ،γράψει، سوف يكتب) والماض ي aorist (aoristos (ἀόριστος égrapse ،ἔγραψε ، كتب) يقعان خارج هذا النظام السمتري، ولهذا السبب نظر إليهما بوصفهما غير محددين، mellon فيما يتعلق بالمستقبل، و aóristos فيما يتعلق بالماضي، ولعل التشابه الصرفي في الساق stem في كثير من صيغ المستقبل والماضي قد عزز هذا التفسير الدلالي(58). وقد نظر إلى المستقبل التام في اليونانية باعتباره ملمحا خاصا باللهجة الأتيكية إلى حد كبير، ولا يستعمل فيها كثيرا(59).

تواصلت المؤلفات اللغوية الرواقية بين أعضاء المدارس الفلسفية الرواقية، ولكن في تاريخ علم اللغة فإن التغييرات التي أجراها علماء الإسكندرية في الافتراضات الرواقية قد دفعت بالموضوع ـ بشكل أخص في جوانبه القواعدية ـ إلى الحالة التي اقتبسه عليها علماء القواعد اللاتين، ومن خلالهم اقتبسه التراث الأوروبي.

وعلى خلاف الرواقيين الذين كان اهتمامهم باللغة من خلال وجهة النظر الفلسفية أساسا، فإن اللغويين الذين عملوا في الإسكندرية أو اتصلوا بها كانوا غالبا معنيين باللغة بوصفها جزءا من الدراسات الأدبية، وكانوا من أنصار النظرية القياسية، وقد طبقوا مبادئ القياس في تنقيح النصوص وفي تحديد معايير الصحة (hellénismos)، وقد تلقت الدراسات الهومرية اهتماما خاصا في الإسكندرية، وأحد علماء الإسكندرية الأكثر شهرة وهو أرسترخوس Aristarchus (القرن الثاني ق.م) قد اعتبر مؤسسا للدراسة الهومرية العلمية، ويرجع إليه الفضل أيضا في عدد من جوانب التطور في القواعد، وكان معلما لديونسيوس ثراكس (حوالي 100 ق.م)، الذي يرجع إليه الفضل في إبداع أول وصف دقيق باق للغة اليونانية.

و «التخني جراماتيكي téchné grammatiké (τέχνη γραμματικη)» الباقي حسب العنوان الذي أطلق عليه يبلغ خمس عشرة صفحة مطبوعة، وينقسم إلى خمسة وعشرين قسما، ويشتمل على وصف موجز لبنية اللغة اليونانية، وإهماله الرئيسي كان في عدم التعرض لنحو اليونانية، على الرغم من أن نظام أقسام الكلمات والتحليل الصرفي المعروضين فيه بشكل منظم، قد شكلا أساس العروض النحوية المتأخرة. وكان هذا الكتيب عملا سكندريا بشكل أساسي، ولكن مؤلفه كان واعيا بوضوح بالدراسات اللغوية الرواقية،

وقد اكتشفت فيه بعض علامات التأثير الرواقي.

وقد أثيرت بعض الشكوك حول صحة النص كما هو لدينا في العصور القديمة المتأخرة، وقد أثيرت هذه الشكوك مرة أخرى في العصور الحديثة. وهذه الشكوك لا يمكن استبعادها بسهولة، مع أنها بأي حال شكوك مقبولة عموما. ومن المؤكد أنه كان هناك قواعدي يدعى ديونسيوس ثراكس، وهو تلميذ أرستارخوس، وكان يعمل ويدرس بالإسكندرية وبأماكن أخرى حوالي عام 100 ق.م، وهو المؤلف لكتاب مختصر عن قواعد اليونانية الكلاسيكية، والقسم الأول من «التخني» ـ كما هو لدينا الآن ـ وذو الأهمية الكبرى من الناحية التاريخية قسم أصيل بشكل واضح، ونظرا لأن سكستوس إمبريكوس Sextus Empiricus (القرن الثاني ب. م) قد ذكر ديونسيوس بالاسم واقتبس من عمله، كما أن الجزء الأول من تعريفه قد ترجمه معاصره المتأخر فارو Varro (116 ـ 27 ق. م) مع إضافة واحدة صغيرة، كما تشير شواهد من برديات قواعد يونانية في مصر ترجع إلى وقت مبكر من العصر المسيحي، إلى أن قواعد اليونانية كانت ـ منذ ذلك الوقت ـ تقدم وتدرس بشكل منتظم بالطريقة المعروضة بها في نص «التخني»، وقد استعمل أبولونيوس دسكولوس Apollonius Dyscolus أقسام الكلمات والفئات القواعدية المقدمة في «التخني»، دون تغيير في مؤلفاته النحوية (القرن الثاني ب. م)، ولذلك يبدو أن شيئا ما يشبه قواعد اليونانية كما هي معروضة في نص «التخني» الذي لدينا، كان في الواقع يدرسه أعضاء مدرسة الإسكندرية في القرن الأول ق. م، بالصورة التي كان عليها في الكتاب المدرسي المختصر الذي ألفه ديونسيوس. والواقع لو أن الأمر كان من الشيوع بالقدر الذي تدل عليه الشواهد القديمة والحديثة، فمن المرجح إلى حد بعيد أن نسخا متتالية تشتمل على تغييرات وتعديلات مختلفة (كما هو الشأن في الطبعات الجديدة للكتب الحديثة) قد ظهرت، وإنه لأمر مسوغ أن قدرا كبيرا من النص الحالي الذي لدينا يرجع لعصر متأخر، قد يصل في تأخره للقرن الثالث أو الرابع (ب. م)، وقضية تأليف نص «التخني»، وصحته في صورته الحالية عبارة عن قضية من قضايا الفنلجيا الكلاسيكية، ولا يمكن الانهماك فيها أكثر من هذا في كتاب تمهيدي، ويمكن الرجوع للمواد المنشورة المتصلة بالقضية المذكورة في الملاحظات[60].

والوصف المعروض في «التخني» قد نظر إليه - في الحقيقة - باعتباره وصفا نهائيا، وقد تمت ترجمته إلى اللغة الأرمنية واللغة السريانية في وقت مبكر من العصر المسيحي، وكان موضوعا لمقدار كبير من التعليق والشرح من قبل النقاد والشراح البيزنطيين، وقد ظل عملا رفيع المستوى لمدة ثلاثة عشر قرنا، وقد صرح أحد الكتاب المحدثين بأن كل كتاب من كتب القواعد في الإنجليزية يحمل دليلا على دين ما لثراكس[61]. ونظام الكتيب وإيجازه ووضوحه جعله يستحق بحق الدراسة الجادة من أي شخص على علم باليونانية القديمة، سواء من وجهة نظر علم اللغة العام أو من وجهة نظر الدراسة الكلاسيكية، وفي أي تاريخ لعلم اللغة تخصص ملاحظات موجزة عن ملامحه الرئيسية.

يبدأ ديونسيوس «التخني» بمقدمة عن محيط الدراسات القواعدية كما كان يراها علماء القواعد السكندريون، فهو يكتب: «القواعد هي المعرفة العملية باستعمالات كتّاب الشعر والنثر للألفاظ، وتشتمل على ستة أقسام: الأول عن القراءة الصحيحة (بصوت مرتفع) مع وجوب مراعاة الأوزان العروضية، والثاني عن تفسير التعابير الأدبية في المؤلفات، والثالث عن تقديم الملاحظات حول أسلوب ومادة الموضوع، والرابع عن اكتشاف أصول الكلمات etymologies، والخامس عن استنباط أنواع الاطراد القياسي، والسادس عن تقدير قيمة التأليف الأدبي، الذي هو أشرف أقسام القواعد. وقد قصد من هذا التعريف الشامل أن يوضح تماما دور القواعد، وفي الواقع دور الدراسات اللغوية ككل، ولماذا يجب إجراء مثل هذه الدراسات. وهذا التعريف بقي دون اعتراض عليه، سواء باعتباره أمرا مفروغا منه أو ترديده بشكل جزئي في القواعد المتأخرة لليونانية واللاتينية في المجرى الرئيسي للتراث، وقد وضع هذا التعريف بصمته على التوجه العملي والأدبي للدراسات اللغوية في أوروبا، في مقابل المفهوم الفلسفي حتى ظهور القواعد التأملية في الفترة السكولاستية scholastic، وإننا نلاحظ أن أبولنيوس قد عرض هذا المفهوم في بداية رسالته عن النحو بوصفه «مفهوما أكثر جوهرية لتفسير الأعمال الشعرية»[62].

ونلاحظ أن موقف ديونسيوس كان موقفا قائما على الملاحظة، فالمادة مستمدة من النصوص المكتوبة للكتاب المسلم بصحة لغتهم، والذين تسوغ

استعمالاتهم للألفاظ أحكامه الوصفية. ومثل هذا الموقف الإمبريقي يجد اليوم كثيرا من المؤيدين، ولكن بعض المعلقين المتأخرين يشعرون بالاستياء من استعماله كلمة empeirià (ἐμπειρία) «المعرفة العملية»، فهم يعتمدون على ميزان للبراعة متدرج ومقبول يبدأ بـ peira (πεῖρα) «مهارة»، وهي الأخفض، مرورا بـ empeira و téchné «علم» حتى epistémé (επιστήμη) «الإدراك» وهو الأعلى، وهم يشكون من كونه قد أنقص من قدر الموضوع الذي يدرسه(63). وربما يكون هذا الخلاف الذي بينه السكولاستيون قد فهم باعتباره واحدة من الرميات الأولى، في الجدل المتواصل والفعال جدا حتى اليوم بين (أ) هؤلاء الذين ينظرون إلى علم اللغة أساسا بوصفه التسجيل الصحيح والتحليل الدقيق للغات، كما تظهر في كلام المتكلمين الأصليين native وكتابتهم، و (ب) هؤلاء الذين يبحثون بشكل أعمق عن نظرية للغة تكون قادرة على تفسير وتسويغ الوجود الحقيقي لأنظمة القواعد، وتفسير مقدرة البشر على اكتساب لغتهم الأصلية واستعمالها، وأن تكشف ـ جزئيا ـ طبيعة وعمل العقل أو المخ (psyché (ψυχη) في المصطلح الرواقي) الإنساني(64).

ونرى ـ إضافة لهذا ـ كيف أن القواعد بمعناها الدقيق كانت جزءا من مخطط أوسع للدراسات التمهيدية التي تؤدي إلى التقدير الصحيح لأدب اليونانية الكلاسيكية. والقسم الخامس فقط، أي استنباط الاطرادات في اللغة أو القياس هو الذي يغطي ما نظر إليه عندئذ، وفيما بعد بوصفه الوظيفة المركزية للقواعد، وهذا هو القسم الوحيد الذي لقي توسيعا مفصلا في النص. والصياغات الأولى الباقية لقواعد اليونانية، والنموذج لمئات من الأعمال المتأخرة يمكن النظر إليها بالتالي بوصفها محصلة للجدال بين القياسيين والشذوذيين.

يبدأ الوصف ببيان القيم الصوتية لحروف الأبجدية اليونانية، فالحروف gràmmata (γραμματα) عرفت بوصفها عناصر stoicheia (στοιχεία)، وهو مصطلح رهن الاستعمال بالفعل يدل على المكونات النهائية للعالم الطبيعي(65)، وقد حددها لغويا أحد الكتاب (حوالي عام 20 ق. م) بوصفها العناصر الأولية غير المنقسمة للكلام المنطوق(66)، وهو تعريف متفق مع تعريف «الجرما» المقدم من قبل (ص 54 و 55 من قبل)، ويضاهي التعريفات

المبكرة للفونيم في قرننا الحالي. كان هذا هو إطار الدراسات الصوتية والفنلجية اليونانية حتى ذلك الوقت، وقد اعتمد مؤلف التخني كثيرا على أعمال سابقيه، وحصر نفسه في وصف الفونيمات الجزئية وتمييز الطول في الصوائت والمقاطع، على الرغم من الإشارة للملامح البروسودية، وهو الموضوع الذي شرع في معالجته شراح متأخرون، وهذه الأقسام تقدم شواهد قيمة لإعادة بناء نطق اليونانية القديمة، ولكن لم تتم الإشارة إلى الفروق الألوفونية، ولكن أحد الشراح المتأخرين، بالرجوع إلى التمييز الثلاثي للصوت والشكل والاسم (ص 55 من قبل) الذي قام به الرواقيون بالفعل، أشار إلى أن هناك أكثر من نطق لشكل الحرف الواحد[67]، ففي كل من الأتيكية الكلاسيكية واليونانية الهلينية فإن تتابعات حروف الصوائت المكتوبة ei (ει) و ou (ου) تمثل بشكل مؤكد تقريبا، صوائت مفردة [e :] ([i :] فيما بعد) [o :] ([u :]، فيما بعد)[68] ولكن لم يشر لشيء من هذا في «التخني». ولكن أحد الشراح فيما بعد أوضح أن ei (ει) و «رموز الصوائت السفلية» التي يكتب فيها الحرف i تحت حرف الصائت. ε و α و η و ω تنطق بنفس النوعية التي يشار إليها بالحروف ε و α و η و ω[69].

ويعين المؤلف الثلاثيات الصامتة في اليونانية b,ph,p و d,th,t و g,kh,k، بوصفها تتقاسم نفس مجموعة التمييزات النطقية لكل ثلاثي، وقد ميز الأعضاء الهائية aspirated وغير الهائية unaspirated باعتبارها «خشنة» daséa) (δασέα)) و «ناعمة» أو «عارية» (psilà (ψιλά))، وهكذا يربط الملمح المفرق بالفرق بين البداية الصائتية الهائية والبداية الصائتية غير الهائية كما في heis (εἷς) «واحد»، و eis (εἰς) «في»، وقد أشار بشكل مبهم إلى الأعضاء المجهورة للثلاثيات بوصفها «متوسطة» (mésa (μέσα))، والمعنى الدقيق لهذا المصطلح معنى مشكوك في أمره ولكن يبدو واضحا أنه هو وشراحه المتأخرين، لم يفهموا الأساس النطقي للفرق بين المجهور والمهموس، وقد بقي المصطلح mediae (litterae)، وهو الترجمة اللاتينية لـ mésa (gràmmata) في «التخني»، بقي يتردد في بعض كتابات القرن التاسع عشر للإشارة للصوامت المجهورة، والتسمية المعاصرة «سائل» الصوتية ـ الجمالية على ما يبدو، لنماذج الصوتين [l] و [r] [يمكن إرجاعها إلى استعمال «التخني» لكلمة hygrà (ὑγρά) «سائل» للإشارة للأصوات اليونانية l (λ) و r (ρ)

و m (μ) و n (ν).

وقد ابتكر علماء الإسكندرية علامات الكتابة الإضافية ذات الاستعمال العام حاليا في كتابة اليونانية الكلاسيكية، من أجل الإشارة لدرجات النبر أو طبقات الصوت الثلاث المتميزة في اليونانية وهي: الحادة (المرتفعة)، والرزينة (المنخفضة)، والعلامة التي تشير إلى الطبقة (العالية الهابطة لأسفل). وقد أدرجت هذه العلامات في الكتابة دون شرح أو تعليق، ولكن هناك تفصيلا أكثر بهذا الشأن في ملاحظات العلماء المدرسيين (السكولاستيين)(70).

وبالانتقال للأقسام القواعدية بشكل محدد نجد أن «التخني» قد أنشأ وحدتين أساسيتين للوصف هما: الجملة (lógos (λόγος))، وهي أعلى حد للوصف القواعدي، والكلمة (léxis λέξις))، وهي - في العصور القديمة في الغرب - أصغر وحدة للوصف القواعدي(71). وقد عرفت الجملة على نحو نظري بوصفها «تعبر عن فكرة تامة»(72).

والمصطلح méros lógou (μέρος λόγου)، والذي منه المصطلح الحديث «قسم الكلام part of speech، يتكرر في جدولة الأقسام القواعدية المختلفة للكلمات، وكان أفلاطون - بقدر ما هو معروف - هو أول من استعمل هذا المصطلح، حيث يشير به إلى مكونات الجملة. ومع تزايد عدد أقسام الكلمات التي ميزها اللغويون اليونانيون، مع هذا التزايد فقط أخذ التعبير معناه الأخير وهو «قسم الكلمة word class».

وقد ميزت ثمانية أقسام للكلمات، ظل عددها - مع تغيير واحد حتمه غياب الأداة في اللاتينية - ثابتا حتى نهاية العصور الوسطى في الوصف القواعدي لليونانية واللاتينية، كما ظل ذا أثر ملحوظ في التحليل القواعدي لكثير من اللغات الأوروبية الحديثة. وهذا النظام لأقسام الكلمات قد نظر إليه بوصفه إحدى الدعاوى الرئيسية التي فرضها ديونسيوس على ذاكرة الأجيال التالية»(73). وقد أعيد توحيد الاسم العام واسم العلم الرواقيين في قسم واحد هو الـ ónoma، وفصل البرتسبل metoché (μετοχή)) ليصبح قسما واحدا بذاته، وقد انقسم كل من الـ syndesmos والـ (àrthron الرواقيين إلى الـ syndesmos «الرابطة»، والـ próthesis (προθεσις) «حرف الجر»، وإلى الـ àrthron «الأداة»، والـ antonymia (άνσωνυμία) «الضمير»، على التوالي.

أما الظرف فقد أعيدت تسميته بالـ epirrhéma (ἐπίρρημα) بدلا من التسمية الرواقية mesótés. وأسماء الأقسام الثمانية جديرة بإيرادها هنا مع تعريفاتها، كمثال على موجزية المصطلحات التي أنجزها هذا العصر وعلى تطبيق المناهج الأرسطية في التصنيف على علم اللغة:

ónoma (الاسم): هو قسم من الكلام يتصرف حسب الحالة، ويدل على كيان حسوس أو مجرد.

rhêma (الفعل): وهو قسم من الكلام لا يتصرف حسب الحالة، ولكنه يتصرف حسب الزمن والشخص والعدد ويدل على نشاط أو عملية تنجز أو ينفعل بها.

metoché (البرتسبل): وهو قسم من الكلام يشترك في ملامح الفعل والاسم.

àrthron (الأداة): هي قسم من الكلام يتصرف حسب الحالة ويسبق الأسماء أو يليها[(74)].

antónymia (الضمير): هو قسم من الكلام يستبدل بالاسم، ويتميز بالإشارة للشخص.

próthesis (حرف الجر): هو قسم من الكلام يقع قبل كلمات أخرى في تأليف وفي تركيب الجمل.

epirrhéma (الظرف): هو قسم من الكلام من دون تصريف، يقيد الفعل أو يضاف إليه.

syndesmos (الرابطة): هي قسم من الكلام يربط أجزاء الحديث معا ويملأ الفجوات في تفسيره[(75)].

سوف نرى أن التحسينات في معايير التمييز قد استخدمها علماء الإسكندرية من أجل تقديم عدد أكبر من التمييزات، وأن بعض الملامح المستخدمة قد لاحظها الرواقيون، ولكنهم لم يصوغوها بوصفها الأساس لأقسام كلام منفصلة. وهناك تعارضان أساسيان يظهران بين نظام علماء الإسكندرية وبين نظام التمثيلات الحالي للقواعد اليونانية، أولهما هو أن التمييز المنفصل للبرتسبل participle الذي أثار النقاش في العصور القديمة، حيث إن كل جذور الفاعلية أو المفعولية عبارة عن جذور فعلية والنقيض بالنقيض، هذا التمييز المنفصل يرجع إلى المنزلة العالية التي أعطيت ـ منذ

عصر الرواقيين ـ لتصريف الحالة بوصفه التقسيم الأساسي fundamentum divisionis، فالقسمان الأساسيان للكلام ـ الاسم والفعل ـ قد فرق بينهما عن طريق وجود هذا الملمح وعن طريق غيابه، ولكن البرتسبل يتصرف مع الحالة ومع الزمن tense، ويشترك (metéchei (μετέχει) «مشتركات partakes (participat اللاتينية)) في العلاقات النحوية مع الأسماء والأفعال معا، ثانيهما هو أن الصفة التي يشبه صرفها ونحوها صرف ونحو الأسماء في اللغة اليونانية واللغة اللاتينية كلتيهما أكثر مما هو الأمر في الإنجليزية، قد ضمت إلى قسم الـ ónoma (الاسم)، ويظهر هذا التقسيم في المصطلحين اسم حقيقي noun substantive واسم وصفي noun adjective اللذين مازلنا نقابلهما أحيانا في الاستعمال الجاري. وكل قسم معرف من أقسام الكلام كان يتبع ببيان للفئات التي ينطبق عليها، والمصطلح الوارد في التخني لهذه الفئات هو parepómean (παρεπόμενα) «خاصيات مترتبة»، واستعمال هذه الكلمة يمكن مقارنته باستعمال أرسطو لكلمة symbebékóta (συμβεβηκότα) «الأعراض» في المنطق[76]. والـ parepómena ترجع إجمالا إلى الفروق وثيقة الصلة قواعديا في صيغ الكلمات، وتشمل معا الفئات التصريفية والاشتقاقية، و «البربومنات» الخمس التي ينطبق عليها قسم الاسم تكفي مثالا للتوضيح:

1 ـ Génos (γένος) الجنس: مذكر أو مؤنث أو محايد.

2 ـ Eidos (είδος) النمط: أصلي أو مشتق، فالصفة gaiéos (γαηιός) «من الأرض» تقدم بوصفها مثالا للاسم المشتق والتي ترجع إلى الاسم الأصلي ge (gaia أيضا) «أرض». وفي الأقسام الفرعية الأخرى للأسماء المشتقة تم إيراد صيغ التفضيل العادية comparative والعليا superlative (على سبيل المثال andreióteros (ἁνδρειότερος) «أشجع من»، و andreiótatos (ἁνδρειότατος) «الأشجع»). من هنا فإن الصيغ التي كان يمكن أن تستخدم معيارا لتمييز الصفات بوصفها قسما مستقلا هي نفسها التي عينت وضعها المحدد ذاته داخل قسم الاسم.

3 ـ Schéma (σχήμα) الصيغة: وهي إما بسيطة أو مركبة، بناء على إمكانية مطابقة جذور أكثر من اسم لساق اسم واحد، ويمكن إعطاء أمثلة لذلك من أسماء الأعلام، وعليه فإن Mémnón (Μέμνν) يكون

بسيطا، أما Philódémos (φιλόδηρος) فهو مركب (Philo + démos).

4 ـ Arithmós (άριθμός) العدد: وهو مفرد أو مثنى أو جمع. والصيغ المتميزة للمثنى في كل من الأسماء والأفعال والموروثة من أسرة اللغات الهندوأوروبية، كانت ذات استعمال محدود في العصور الكلاسيكية، وقد اختفى استعمالها في النهاية.

5 ـ Ptôsis (πτώσις) الحالة: وهي حالة الرفع أو النداء أو المفعولية أو الإضافة أو المفعولية غير المباشرة. وقد سجلت الحالات الخمس للاسم (والصفة) في اللغة اليونانية، وسميت بأسمائها بالرجوع إلى جزء من وظيفتها الدلالية (على سبيل المثال dotiké (δοτική) مفعول به غير مباشر (معط لـ). ومن المهم أن نلاحظ أن المصطلح اللاتيني càsus accusativus والمصطلح الإنجليزي accusative case ناشئان عن الترجمة الخاطئة للمصطلح اليوناني aitiàtike ptosis، «أي حالة المفعول به» الذي يشير إلى المتلقي لفعل معين له علة حدوث (aitià αίτία) علة). ويبدو أن فارو ـ الذي كان مسؤولا عن المصطلح اللاتيني ـ قد ضلله المعنى الآخر لكلمة aitià، وهو الاتهام أو التهمة[77].

أما «بربومنات» الفعل فهي الصورة mood، والبناء للمعلوم أو المجهول voice، والنوع type، والصيغة form، والعدد، والشخص، والزمن، والتصريف. وتنظيم الأزمنة في اليونانية في «التخني» يختلف بعض الشيء عن تنظيم الأزمنة عند الرواقيين، فقد تم تمييز ثلاث دلالات أساسية للزمن هي المضارع والماضي والمستقبل، والزمن الماضي وحده ـ من بين هذه الأزمنة ـ قد حدد له أكثر من صيغة واحدة للزمن، بل في الواقع أربع صيغ هي: التناقص imperfect والتام]البعيد[perfect والتام]القريب[pluperfect والماضي البسيط aorist. والأزمنة الستة إضافة لهذا قد تم ربطها في ثلاثة أزواج:

المضارع	الماضي الناقص
التام (البعيد)	التام (القريب)
الماضي (البسيط)	المستقبل

والارتباطان الأولان (syngeneiai (συγγενεíαι)) هما نفس الارتباطين بوصفهما زوجين متصلين في الأزمنة، من خلال وجهتي التمام وعدم التمام اللتين قدمهما الرواقيون، على الرغم من اختلاف المصطلحات عند المدرستين

اختلافا جزئيا، أما الماضي البسيط والمستقبل فقد ربط بينهما الرواقيون أيضا بوصفهما كليهما زمنين غير محددين. ومن الناحية الصرفية فإن صيغ الأفعال القياسية في اليونانية تظهر تماثلا (analogiai) نسبيا، فالزوج الأول قد بني على ساق المضارع، والثاني قد بني على ساق التام، أما الزوج الثالث فكل طرف فيه يحتوي على ساق «سيجمية» [أو سينية] (ـ S ـ)، رغم أن الطرفين ربما لا يكونان متصلين من ناحية أصل الاشتقاق(78). ورغم التشابهات بين النظامين فإن هذا الإخفاق في تقديم تمييز صحيح لبعد الوجهة في التركيب الدلالي للأزمنة في اليونانية، يجب اعتباره نقصا واضحا في الإدراك. وضغط معاني الزمن في اليونانية في بعد واحد للزمن قد أدى لمحاولات قام بها شراح متأخرون لتمييز المعنى في الزمنين التام البعيد والتام القريب، على سبيل المثال عن طريق البعد في زمن الحدث، عن المضارع الذي لا يتواءم معه تماما، في حين يتواءم معه التمييز بين تمام الحدث في الزمن المضارع وتمامه فيما يتعلق بزمن سابق: فصيغة gégrapha (γέγραφα) "I have written" يمكن أن يكون الحدث فيها قد وقع منذ خمس سنين أو أكثر، بشرط أن تكون مرجعيته للوضع الحالي: «During my lifetime I have written ten novels»، أما الصيغة egegràphein (ἐγεγράφειν) I had written فيمكن أن يكون الحدث فيها قد وقع من خمس دقائق "I had written a note to you when your letter was brought to me"، وبدرجة متساوية فإن المعنى الأساسي للزمن الماضي الناقص égraphon (ἔγραφον) «كنت أكتب»، هو أنه رغم إشارته للماضي فهو أيضا يشير إلى عمل معين غير منته: «كنت أكتب لك عندما تلفنت لي»(79).

إن أقسام الكلام الخمسة المتصرفة قد عرفت ووصفت أولا، أما أقسام الكلام الثلاثة الباقية غير المتصرفة أو غير المتغيرة فقد ميزت على أساس نحوي، على الرغم من أن وظائفها النحوية لم تعالج على نطاق أوسع، فالظرف قد أطلق عليه epirrhéma (الذي منه المصطلح اللاتيني adverbium والإنجليزي adverb) من خلال ارتباطه النحوي الأساسي بالأفعال (يبدو أن علماء القواعد اليونانيين قد تجاهلوا إمكانية أن يكون مكونا مباشرا مع أعضاء أي قسم آخر من أقسام الكلام، رغم أن هذا شائع كثيرا في اليونانية)، أما المصطلح الرواقي mesótés الذي لم يستعمل طويلا لهذا القسم، فهو

يظهر في «التخني» بوصفه اسما لقسم فرعي من الظروف هي بالتحديد تلك التي تكون بشكل غير نعتي بالـلاحقة os .. هناك مؤلف متأخر في قواعد اليونانية أخذ شكل تطور مستمد من الوصف اللغوي المجمل في «التخني» ومن التعليقات على فقرات محددة فيه، ومن وجهة نظر علم اللغة الحديث فإن أهم ما أغفل فيه هو عدم وجود أي قسم يعالج النحو، على الرغم من أن مصطلح نحـو syntaxis (συνταξις) قد استعمل، وأن تحليلا نحويا قد افترض مسبقا بشكل جزئي في بعض التعريفات التي عرضت في «التخني». ولكن النحو قد درس بشكل واسع في كتابات أبولونيوس ديسكلوس A. Dyscolus في الإسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد، فقد كتب عددا كبير من الكتب لم يبق إلا بعضها، ويبدو أنه على الرغم من الكتابات المبكرة عن نحو اليونانية، فإن ما كتبه أبو لونيوس كان هو المحاولة الأولى في مجال الوصف والتحليل النحوي الشامل للغة اليونانية، وأهمية أبولونيوس مع أهمية «التخني» قد أدركها خلفاؤه بوضوح، وعالم القواعد اللاتيني العظيم برشيان يشير إليه بعد حوالي ثلاثة قرون باعتباره «أعظم مرجع موثوق به في القواعد»، وقد طبق برشيان بوضوح مناهج أبولونيوس في وصفه الشامل للغة اللاتينية[80].

لقد تعامل أبولونيوس مع مادة استمدها من «التخني»، ومن الملاحظات النحوية للكتاب الأوائل، هذه الملاحظات التي ترجع للدراسات البلاغية، واستفاد من نفس مجموعة أقسام الكلام الثمانية كما هي واردة في «التخني»، ولكنه أعاد تعريف بعضها، ليستفيد أكثر بشكل أخص من المصطلحات النظرية notional، ولتحديد معنى عام لكل قسم من أقسام الكلام[81]. لقد عرف الضمير ليس بوصفه بديلا للاسم فحسب كما هو الشأن في «التخني»، بل إضافة لهذا بوصفه ممثلا لجوهر ousià (ουσία) من دون خصائص، وهي المقولة التي رددها برشيان وذات الأهمية الكبيرة فيما بعد في التفكير اللغوي للعصور الوسطى [82].

ورغم أن أبولونيوس كان يعمل على أساس الوصف الصرفي للغة اليونانية الذي وضعته مدرسة الإسكندرية، فإن نظرته العامة للمسائل اللغوية كانت نظرة أكثر عقلية من نظرة علمائها، وخاضعة إلى حد معين للتأثيرات الرواقية، وقد ميز بوضوح بين الصيغة والمعنى (σχήμα (schêma) و énnoia

(ἔννοια) في اصطلاحاته)، وسوغ التصنيفات القواعدية بالرجوع للمضمون مفضلا ذلك على الرجوع للصيغة الصرفية[83].

وتماما مثلما كانت المكونات الاسمية والفعلية في الجملة اليونانية هي التي عرفت أولا بوصفها مكونات متميزة، ونظر إليها دائما بوصفها القسم الأكثر أساسية في قواعد اللغة، فإن أبولونيوس قد بنى وصفه النحوي بشكل واضح على علاقات الاسم والفعل، أحدهما بالآخر، وعلى علاقات بقية أقسام الكلام بهما[84]. وقد عول في وصف هذه العلاقات على حالات الكلمات المتصرفة اسميا في ترابطاتها المختلفة بعضها ببعض وبالأفعال، وعلى أقسام الفعل الثلاثة: المبني للمعلوم (المتعدي) والمبني للمجهول والمحايد (اللازم) بعلاقاتها المستقلة بصيغ الحالة الاسمية، والمرء يجد تحت الأفعال المتعدية عبارة أنها تشير إلى حدث «يتجاوز إلى شيء أو شخص آخر»، ويمكن القول إن المصطلح اللاتيني verbum transitivum والإنجليزي transitive verb يرجعان لهذا التعريف[85].

وقد آذنت هذه التطورات بتمييز المسند إليه subject والمفعول به object، ومفاهيم لاحقة مثل التحكم (التحكم النحوي rection) والاعتماد dependency. ولكن يبدو أن هذا لم يكن جزءا من أدوات الوصف عند أبولونيوس، فهو قد أعطى عناية كبيرة لعلاقات التوافق (katallélótés (καταλληλότης) akolouthà (ἀκολουθία)) التي تربط مثلا بين صيغة الفعل غير المصدري finite وبين حالة رفع الاسم أو الضمير فيما يتعلق بالعدد والضمير، ولكن ليس بين الفعل غير المصدري وبين صيغة حالة غير الرفع oblique[86]. وفيما يتعلق بالعلاقات النحوية الأكثر تجريدا كتلك التي يمكن أن تؤسس لكل اللغات، وليس فقط تلك اللغات الشبيهة صرفيا باللاتينية واليونانية، يشير إلى علاقات تركيب المكون (paralambànesthai (παραλαμβάνεσθαι) تؤخذ معا) ليشير إلى تركيب البرتسبل والفعل الرئيسي في الجملة، أو تركيب الاسم أو الضمير والفعل[87]. ويحدث الاستبدال (anthypàgesthai (ἀνθνπάγεσθαι)) عندما يمكن أن تستعمل كلمة من قسم معين كالضمير بدلا من كلمة من قسم آخر كالاسم مثلا[88]. وفي استعماله لـ sumparalambànesthai (συμπαραλαμβάνεσθαι) أي «تؤخذ معا بالإضافة» فإنه يبدو من الممكن لنا أن نتصور ما يشبه المفهومات الحديثة

للمكونات المباشرة والترتيب الهرمي، كما يلاحظ في أحد تحليلاته للجملة tachy elthón paidion ónesén hémas (ταχύ έλθόν παίδιον ώνησεν ήμά) «متقدما بسرعة، صبي ساعدنا»، فالظرف tachy «بسرعة» في هذه الجملة يرتبط مباشرة باسم الفاعل] البرتسبل "elthon having come" [متقدما] توا[، الذي يرتبط بدوره بالفعل الرئيسي ónésen «ساعد»[89].

ولكن القدر الكبير من مناقشة أبولونيوس للمسائل القواعدية لم يكن موجها نحو تطوير نظرية للوصف النحوي، فيما يتعلق بمحاولات شرح الملامح الخاصة بتركيبات اللغة اليونانية. من هنا فحقيقة أن الفعلين اللذين يعنيان «يحب philein (φιλείν) و eran (εράν) يأخذان على التوالي حالة المفعولية وحالة الإضافة، ترجع لتعليل العاطفية الأشد، وبناء عليه للطبيعة الأقل تحكما في شعور الحب المتضمن في eran[90]، والتفسير الصحيح للتوافق الخاص باليونانية، وهو توافق الفعل المفرد مع اسم الجمع المحايد المفعول به (gràphei tà paidia) (γράφει τά παιδία) أي «الأولاد يكتبون») قد فاته تماما، وهو في الحقيقة توافق ناشئ تاريخيا ـ كما هو معروف الآن ـ عن أصل نهاية حالة الجمع المحايد المرفوع المأخوذ من اسم الجمع [المفرد الجمعي][91].

والمرء عموما يحصل على تصور من قراءة أبولونيوس صاحب الوصف المفصل والمجتهد لنحو اللغة اليونانية، ولا يحصل على نظرية عامة للنحو ممثلا في اليونانية، ولمثل هذه النظرية العامة (ممثلة في اللاتينية) يجب على المرء أن ينتظر حتى العصور الوسطى المتأخرة.

وهيروديان بن أبولونيوس هو المعروف جيدا بسبب مؤلفه عن النبر accentuation والترقيم في اليونانية، الذي يعطي مجال البرسوديا prósodiai، الذي أشار إليه ديونسيوس ثراكس. والبرسوديا قد وصفها شراح متأخرون بشكل أكثر تفصيلا، وأصبحت تضم مستويات طبقة الصوت pitch المميزة، التي يرمز لها بعلامات النبر فوق الكلمات المكتوبة، والطول والقصر في الصوائت والكمية في المقاطع، والهائية وعدم الهائية للبداية الصائتية في بداية الكلمات (تنفس خشن ـ وتنفس ناعم)، وتلك الظواهر المفصلية مثل إسقاط الصائت وتغيرات طبقة الصوت في تركيب الكلام، وعلامات حدود الكلمات حدود الكلمات مثل النموذج الذي يميز esti Nàxios (έστι Νάζιος)

«هو ناكسي» من estin àxios (εστιω αζιος) «هو فاضل» (ربما يشبه هذا الملامح الموجودة في الإنجليزية لتميز بين a notion و an ocean). ومن اللافت للنظر أن نلاحظ أن كلمة prosodia اليونانية تغطي إلى حد كبير مجال الظواهر الصوتية التي يطبق عليها مصطلح prosody في التحليل الفنلجي الحديث لفيرث(92).

والقياسات analogiai الصرفية المعروضة في «التخني» قد وجدت اكتمالها النهائي في قوائم التصريف الاسمي والتصريف الفعلي المعروفة بالقوانين canons (kanónes (κανόεσ)) والتي على أساسها صيغت تصريفات متأخرة، والقائمة المعروفة أكثر من غيرها هي القائمة القابلة لكل الصيغ المتاحة نظريا للفعل typtein (τύπτειν) «يضرب»، والتي مع ذلك لم يكن يستعمل منها بالفعل في اليونانية الكلاسيكية إلا عدد محدود.

شكل «التخني» ومؤلفات أبولونيوس النحوية أساس المعرفة اللغوية في المجتمع البيزنطي، وبتعبير آخر في النصف الشرقي متحدث اليونانية من الإمبراطورية الرومانية التي كانت موحدة من قبل، والذي كانت عاصمته بيزنطة التي أعيدت تسميتها بالقسطنطينية constantinople (استانبول Istanbul حاليا) بعد إعادة تأسيسها وافتتاحها في عام 330م. والإمبراطورية البيزنطية ـ كما كانت تسمى ـ استمرت طوال ألف عام من المحن الداخلية والخارجية، وهي تخسر أجزاء من أراضيها لحساب العرب والأتراك والغزاة من الغرب، حتى السقوط النهائي للقسطنطينية في يد الأتراك عام 1453م.

والمعرفة البيزنطية ـ بعيدا عن الكتابات اللاهوتية ـ تكونت من الدراسة والتدريس المستمرين للمؤلفين اليونانيين الكلاسيكيين، ومن هومير بالطبع، ومن قواعد اليونانية الكلاسيكية التي كانت تتشعب منها بشكل مطرد، اللغة اليومية لمعظم الناس في طريقها لتصبح اللغة اليونانية الحديثة. ولقد دعم «التخني» الموجز بمقدار كبير من الشروح (schólia) لمحاولة بسط أسلوبه المركز. ونجد في بعض هذه الشروح معلومات وتفسيرات ذات قيمة غير موجودة في غيرها. ولأن أعمال أبولونيوس النحوية كانت مطولة وشاملة، فقد أعدت ملخصات وخلاصات كثيرة لكتاباته من أجل الغرض التعليمي، وكان بعض هذه الملخصات والخلاصات ـ مثل بعض نظيراتها اللاتينية الغربية ـ في شكل تعليمي بطريقة السؤال والجواب. كان هذا هو نوع

المعرفة التي ظلت نشيطة في بيزنطة، بينما انقرضت تقريبا معرفة اليونانية ودراستها في العصور الوسطي المبكرة بين الأمم الغربية في عصر النهضة من أن تعيد بسرعة تدريس اليونانية في المدارس والجامعات بوصفها جزءا رئيسيا من التعليم العقلي.

وعلماء بيزنطة ينتمون للعصر بعد الكلاسيكي، وبالاعتراف العام فإن النتاج الفكري لعصرهم، لا يصل لمستوى العصور الكلاسيكية المزدهرة لليونان سواء في التنوع أو العفوية أو العمق. وفي العصر البيزنطي، مع استبعاد الجدل اللاهوتي، فإن الدراسات الأدبية قد تركزت على الماضي إلى حد كبير، وفي هذه الناحية فإن المعرفة اللغوية كانت نتاجا فعليا للعصور الماضية، وقد شكل وصف علماء القواعد والشراح وتحليلهم وشروحهم، جانبا من هيكل أكبر للتعليم المكرس لدراسة الأعمال الأدبية المبكرة. كان هذا هو عصر المعاجم ومسارد المفردات الصعبة glossaries والشروح، وعصر دراسة إبداعات الماضي وليس عصر إبداع جديد.

وقيمة الأعمال اللغوية والأدبية البيزنطية قيمة معترف بها، بوصفها كانت أعمالا أساسية للحفاظ على استمرار المعرفة الكلاسيكية، وبوصفها قامت بحفظ النصوص اليونانية الكلاسيكية ونسخها، لتقوم دور الطباعة في عصر النهضة الغربية في النهاية بإعادة إنتاجها. ولكن المؤرخين قد أنكروا بشكل عام على بيزنطة فضل التفكير الأصيل فيما عدا بعض مسائل اللاهوت. ومن الصحيح بوجه عام أن علماء بيزنطة ومعلميها كانوا ملخصين وشراحا وحفاظا، ولم يكونوا روادا ومطورين. ولكن في بعض جوانب النظرية القواعدية اليونانية يبدو أن بعض رجالهم البارزين، قد توصلوا لنظرات جديدة في بعض الفئات مثل حالة الرفع والتحليل الدلالي لنظام الزمن الفعلي verbal tense.

لقد واصل العلماء البيزنطيون دراسة نظام الحالة في اليونانية. والتحليل الدلالي للحالات الذي قام به مكسيموس بلانيودس planudes (حوالي 1260 - 1310م) الذي أثنى عليه يلمسليف كثيرا في دراسته لهذه الفئة، هذا التحليل كان أحد الأفكار اللغوية التي انتقلت لأوروبا عصر النهضة من بيزنطة في نهاية العصور الوسطى، وأصبح ذا تأثير في تطور نظريات الحالة في أوروبا الحديثة[93].

وأساس تحليل الحالات عندهم كان هو نظرية «الموقعية» التي تؤكد افتراض أن العلاقات المكانية spatial أو الموقعية local للتحرك إلى أو التحرك من، والوقوع عند أو الوقوع في، هي المعاني الأساسية والأصلية لحالات غير الرفع، وأن المعاني الأخرى الأكثر تجريدا والوظائف القواعدية مشتقة من تلك المعاني. وفي تحليل الأزمنة الفعلية يبدو أن مقاربة شبيهة بالنظام الرواقي ذي البعدين قد أنجزت على الرغم من بقائها في إطار معايير المرجعية المقبولة لعصر التراث الأرسطي - السكندري. ويمكن القول دون تحيز إن الخلاف لا يزال يحيط بهذه التقييمات للمعرفة اللغوية البيزنطية(94).

وليس من الصعب اكتشاف نواحي نقص وتحريف في ذلك الجزء من قواعد اليونانية المجملة في «التخني»، وفي المساهمات المتأخرة لأبولونيوس ديسكولوس وخلفائه، وبينما يبدو هذا الانتقاد - للوهلة الأولى - إطراء للمعرفة الحديثة، فهو أقل ملاءمة من أن يكون نظرة مقدرة للإنجازات العظيمة للعلماء اليونانيين في ابتداع وتنظيم مصطلحات أساسية لوصف اللغة اليونانية الكلاسيكية كما كانت تكتب وتقرأ بصوت مرتفع (ولم يتطلعوا لأكثر من هذا)، هذه المصطلحات التي أصبحت - عن طريق ترجمتها وتطويعها للاتينية - هي الأساس للنظرية القواعدية ولتدريس ودراسة اليونانية واللغات اللاتينية لما يقرب من ألفي سنة. ومن بين مصادر اللغة التي لا تحتاج إلى صياغة مقولات وآراء لغوية محددة فإن اليونانيين قد ابتدعوا - خلال مراحل يمكننا استرجاعها إلى حد كبير - معجما فنيا واضحا ومفصلا للوصف القواعدي(95).

ومن السهل - بالرجوع للوراء - عرض هذه العملية بوصفها حركة مطردة في مسار واحد، وباعتبار أن كل جيل قدم مساهمته في الهيكل المتنامي للنظرية والمنهج والمادة الموصوفة بشكل نظامي، وهناك كثير يجب أن يقال فيما يتعلق بهذا في خطوط عريضة، ما دام كل عالم من العلماء المتعاقبين على وعي بأعمال سابقيه، وقد استجاب لها مطريا أو ناقدا، ولكن المراحل المبكرة لم تمح أو تنس كلها تماما، فالنظرية القواعدية الرواقية - كما نعرف - قد استمرت بوصفها جزءا من الفلسفة الرواقية، على الرغم من أنها لم تشكل جزءا من التراث الرئيسي للدراسة اللغوية اليونانية ثم اللاتينية فيما

بعد. وفي محاولة تحديد الاتجاهات الرئيسية يجب ألا تفرض عن غير قصد نمطا أو سياقا أكثر اطرادا للحوادث مما هو مرجح أن يكون قد وقع في التتابع الفعلي لسير الأمور، لأن كثيرا من الأشخاص قد حاولوا أن يقدموا مساهمتهم في إطار الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه، أو الموقف الذي وجدوه ملائما للعمل. وهذا بالطبع ليس أقل انطباقا في الميادين الأخرى لكتابة التاريخ الفكري.

ونجاح اليونانيين في التحضر الفكري كان عظيما في ميادين كثيرة جدا، وللإشارة فقط لبعض الموضوعات فإن مؤلفاتهم في المنطق وعلم الجمال والسياسة والبلاغة والرياضيات ترد على الذهن في وقت واحد. وإنجازهم في ذلك القسم من اللغويات الذي كانوا أقوى فيه، أي النظرية القواعدية والوصف القواعدي، هذا الإنجاز إنجاز قوي بالدرجة الكافية لاستحقاق وتحمل الفحص النقدي، وهو أيضا ما يدفعنا للإقرار لهم بالفضل والإعجاب.

مراجع اضافية

H. ARENS, Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/Munich (second edition) 1969. 3-30.

M. BARATIN and F. DESBORDES, L'analyse linguistique dans l'Antiqité classique, 1, Les théories. Paris. 1981.

K. BARWICK, 'Probleme der stoischen Sprachlehre und Rhetorik', Abhandlungen der sächsischen Akademie der Wissenschaften zu Leipzig, philologisch-historische Klasse 49.3 (3957).

F. H. COLSON, 'The analogist and anomalist controversy', Classical quarterly 13 (1919), 24-36.

E. EGGER, Apollonius Dyscole: essai sur l'histoire des théories grammaticales dans l'antiquité, Paris, 1854.

H. KOLLER, 'Die Anfänge der griechischen Grammatik', Glotta 37 (1958), 5-40.

J. LALLOT (ed.), 'Etudes sur les grammairiens grecs', Histoire epistétomolie Language 7.1 (1985).

A. A. LONG (ed.), Problems in Stoicism, London, 1971.

B. MATES, Stoic logic. Berkeley, 1953 (UCP Phil. 26).

M. POHLENZ, 'Die Begründung der abendländischen Sprchlehre durch die Stoa', Nachrichien von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, philologisch-historische Klasse Fachgruppe I Altertumswissen-schaft, N. F. 3.6 (1939).

J. RIST (ed.), The Stoics. Berkeley, 1978.

R. H. ROBINS, Ancient and mediaeval grammatical/ theory in Europe. London, 1951, chapter 1.

'The Techné grammatiké of Dionysus Thrax in its historical perspective', in P. SWIGGERS and W.. VAN HOECHE (eds.). Mots et parties du discours, Leuven, 1986, 9-37.

J. E. SANDYS, History of classical scholarship (third edition), Cambridge. 1921, volume 1.

T. A. SEBEOK, Historiography of linguistics, 69-126..

H. STEINTHAL, Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Römern (second edition). Berlin, 1890.

D. J. TAYLOR (ed.), The history of linguistics in the classical period, Amsterdam. 1987 (= Historiographica Linguistica 13.23, but with different pagination).

A. TRAGLIA, 'La sistemazione grammaticale di Dionisio Trace', Studi classici ed orientali 15 (1956), 38-78.

K. VERSTEEGH, 'The Stoic verbal system, Hermes 108 (1980) 33X-55.

ملاحظات ومراجع

١- يبدو أن أول نظام كتابة معروف، وكان نصويريا في البداية، هو نظام كتابة السومريين (حوالي 3000 ق. م. في ميسوبوتاميا بين النهرين). ويرى بعض العلماء أن هناك صلة بين أصل هذه الكتابة والكتابة المصرية القديمة وكذلك الكتابة الصينية، رغم أن هذا لم يرجح فيما بعد. والكتابة السومرية لم تستعمل في البداية إلا في مجالات محدودة كالأغراض الإدارية، وليس في مجال الأدب أو الاتصال العام. والكنها فيما بعد اتسع مجال استعمالها. انظر أيضا:

D. DIRINGER, The alphabet, New York, 1968; I. J. GELD, A study of writing, Chicago, 1969; G. SAMPSON, Writing systems, Stanford, 1985.

2. See also G. MOUNIN, Histoire de la linguistique, Paris, 1970, 51-61; T. JACOBSEN, ‘Very ancient linguistics: Babylonian grammatical texts’, D. HYMES (cd.), Studies in the history of linguistics: traditions and paradigms, Bloomington, 1974, 41-62; J. A. BLACK, ‘The Babylonian grammatical tradition: the first grammars of ‘Sumerian’. TPS 87 (1989). 75-99.

3. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, 4.

4. HERODOTUS 8.144.2. On interpreters in antiquity, H.S. GEHMAN, The interpreters of foreign languages among the ancients, Lancaster, Pa, 1914.

5. C. D. BUCK, Comparative grammar of Greek and Latin, Chicago, 1933 68-78.

6. BUCK, OP. cit., 68-74; The Greek dialects, Chicago, 1928, 16.

7. e.g. PLATO, Theaetetus 207 B, Philebus 17 B, 18 D.

8. DIOGENES LAERTIUS, Vitae philosophorum 3.25.

9. W. D. ROSS: Aristotle, London, 1923, 116-17; c. SINGER. A short history of science. Oxford, 1941, 40-1.

10. DIOGENES 7.49

11. DIOGENES 7.62;BARWICK, 1957, chapter 1; LONG, 1971, chapter 5; F. DESAUSSURE’Cours de linguistique générale (fourth edition), Paris. 1949, 156-7.

12. STEINTHAL. 1890, volume 1, 305-7; V. EGLI, ‘Stoic syntax and semantics’, TAYLOR, 1987, 107-32.

13. PLATO, Cratylus 384 D. On this dialogue see further J. C. RIJLAARSDAM, Platon über die Sprache: ein Kommentar zum Kratylos Utrecht, 1978.

14. ibid., 399 C, 414 C, 421 D, 423 B. 426 C-427 D.

15. ibid., 384 D.

16. Lectures on the science of language. London. 1862, lecture 9.

17. ARISTOTLE, De interpretatione.

18. ibid., 1.

19. ORIGEN, Contra Celsum 1.24.
20. ibid., 1.24; BARWICK, 1957, chapter 4.
21. DIOGENES 7.192.
22. 'vix tanto hiatu digna esse videtur', J. CLASSEN. De grammaticae Graeccae primordiis, Bonn, 1829, 80.
23. I. BEKKER, Anecdota Graeca, Berlin, 1816, volume 2, 629.
24. ep. COLSON, 1919.
25. SEXTUS EMPIRICUS, Adversus grammaticos 195; QUINTILIAN, Institutio oratoria 1.6.27.
26. SEXTUS, OP. cit., 148 - 53.
27. STENTHAL., 1890, volume 1, 360.
28. cp. ARISTOTLE, 1131 a 29, 1131 a 31, 1096 b 28, 1106 a 36.
29. DIOGENES 7.59; SANDYS, 1921, 149.
30. G. UHLIG, Grammatici graeci, volume 1.1, Leipzig,
1883, 14.
31. L. KUKENHEIM, Contributions à l'histoire de la grammaire grecque latine et hébraique à l'époque de la Renaissance Leiden, 1951, 80.
32. BEKKER, Anecdota Graeca. volume 2, 774-5.
33. PRISCIAN 1.2.4: Sicut enim illa (se. elementa mundi) coeuntia omne perficiunt corpus, sic etiam haec (se. elementa vocis) literalem vocem quasi corpus aliquod componunt.
34. Cratylus 424 C; Theaetetus 203 B; Cratylus 399 A-B.
35. DIOGENES 7.56; BEKKER, Anecdota Graeca. volume 2, 773.
36. DIOGENES 7.57.
37. cp. e. F. HOCKET, 'TWO models of grammatical description', Word 10 (1954). 210-34.
38. ARISTOTLE, De sophisticis elenchis 14.
39. ARISTOPHANES, Clouds 660 - 80.
40. DIOGENES 9.53 - 4. On Greek phonetic description W. S. ALLEN, 'The Greek; contribution to the History of phonetics' in R. W. ASHER and E. HENDERSON (eds.), Towards a history of phonetics, Edinburgh, 1981, 115-22.
41. Cratylus 399 B, 425 A; Sophistes 262 A-263 D.
42. Rhetorica 3.5, 3.12.
43. De interpretatione 2-3.
44. A. MEILLET, Linguistique historique et Linguistique générale. Paris, 1948, 30
45. De interpretatione 3-6.
46. op. cit. 3:
47. op. Cit. t; 10; cp. PLATO, Cratylus 399 B.
48. De sophisticis elenchis 14.
49. De interpretatione 2, 3; Topica 1.15, 5.7.

50. PLATO, Protagoras 342 E, 343 A - B.
51. Analytica priora 42 b, 30; Analytica posteriora, 94 a 12.
52. L. HJELMSLEV, La catégorie des cas Aarhus, 1935,. 1-70.
53. J. VON ARNIM, Stoicorum veterum fragmenta, Leipzig, 1905-24, volume 2, 206 a; Diogenes 7.192; LONG, 1971, chapters 4 and 5; MATES, 1953,, chapter 2; M. FREDE, 'Principles of Stoic grammar', RtST 1978, chapter 2. F.P. DINNEEN, On the Stoic contribution to grammatical theory', Historiographia linguistica 12 (1985), 149-64; H. E. BREKLE, Einführung in die Geschichte der Sprachwissenschaft Darmsteter, 1985, 44-67.
54. e.g.. Dionysius of Halicarnassus, De compositione verborum 2.
55. DIOGENES 7.57 - 8; BEKKER, Anecdota Graeca, volume 2, 842; cp BLOOMFIELD, Language 205.
56. DIOGENES 7.64; STEINTHAL, 1890, volume t, 299.
57. HJELMSLEV, Cas 7.
58. BEKKER, Anecdota Graeca, volume 2, 890-1' STEINTHAL, 1890, volume 1, 307 - 17; BARWICK, 1957, 51 - 3.
59. BEKKER op. cit.. 891 - 2. c. H. M. VERSTEEGH, 1980, 338 - 57, gives recent concise review of the linguistic analysis of the Greek verbal system of tenses by the Stoics with critical appraisals of earlier interpretations and a comparison with Varro and the mainline Latin grammatical tradition in regard to the Latin verb.
60. The text of the Téchné is given in BEKKER, op. Cit., 62743, and in G. UHLIG, Crammatici Graeci 2. 1, Leipzig, 1883. Translations in French and in English are available in J. LALLOT, 'Denys le Thrace: Téchné grammatiké Archives et documents de la Société d'histoire et d'épistémologie des sciences du langage 6 (1985), 1-104 (with notes), and in A. KEMP, 'The Techné Grammatiké of Dionysius Thrax: English translation with introduction and notes`, TAYLOR, 1987, 169-89. The genuineness of the modern text was first effectively challenged by v. DI BENEDETTO, 'Dionisio Trace e la Téchné a lui attribuita', Annali della Scuola Normale Superiore di Pisa, serie 2, 27 (1958), 169-210, and 28 (1959) 87-118. For the progress of the controversy since then see J. PINBORG, 'Classical antiquity: Greece, SEBEOK, Historiography of linguistics, 69126; A. WOUTERS, The grammatical papyri from GraecoRoman Egypt. Contributions to the study of the ars grammatica in Antiquity. Brussels, 1979; ROBINS,, 1986, 9-11.
61. P. B. R. FORBES,, 'Greek pioneers in philology and grammar', Classical review 47 (1933), 112 .
62. BEKKER, Op. cit., 629: APPOLONICES DYSCOLUS, syntax 1.1 (G. UHLIG, Grammatici Graeci 2.2, Leipzig, 1883 3-4 .
63. BEKKER, op. Cit., 656 732.
64. cp. ROBINS, 'Theory-orientation versus data-orientation: a recurrent theme in linguistics,' Historiographia linguistica 1 (1973). 11-26.
65. e.g. PLATO, Theaetetus 201 E; ARISTOTLE, Metaphysics 983 b 12, 1014 a 26-9.

66. Dionysus OF HALICARNASSUS, De compositione verborum 14, 1-2.
67. BEKKER, op. Cit., 774.
68. BUCK, Comparative grammar § 89, 92; W.S. ALLEN, Vox Graeca, Cambridge, 1968, 66-7, 71-2.
69. BEKKER, op. Cit., 804.
70. BEKKER, Op. Cit., 754 - 7; ALLEN, Op. Cit., 80-2.
71
72.
73. BEKKER,, Op. cit., 676:
74. The Téchné included the relative pronoun in the class of árthron. The position of relative clauses normally following their antecedent noun and the similar morphology of the article and the relative pronoun allowed him to refer to this as a post posed article.
75.
76. e.g., De sophisticis elenchis 168 b 28-31, Topica 117 a 7, 128 a 38, 131 a 27. The Latin grammarians translated paremómena by, accidentia.
77. De lingua Latina 8.66-7.
78. BUCK, Comparative grammar § 389.
79. A. HILGARD (ed.), Grammatici Gracci 1.3, Leipzig, 1901, 250.
80. PRISCIAN II.I.I: 'Maximus auctor artis grammaticae'. The text of Apollonius's works is to be found in R. SCHNEIDER and G. UHLIG (eds.), Grammatici Gracci 2, 12 Leipzig. 1878, 1910. An English translation of Apollonius's four books on syntax is available in F. W. HOUSEHOLDER (tr.), The Syntax of Apollonius Dyscolus. Amsterdam, 1981.
81. e.g. Syntax 1.39 (Gram. Graec. 22, 35).
82. De pronomine 33 b; PRISCIAN 13.6.29, 13.6.31.
83. De adverbio, BEKKER, Anecdota Graeca volume 2, 259; Syntax 1.39 (Gram. Graec. 2.2, 35) De pronomine 85 a.
84. Syntax 1.36 (Gram. Graec. 2.2, 33).
85. ibid. 3. 14-8 (Gram. Graec. 2.2, 395).
86. ibid. 3. 14-8 (Gram. Graec. 2.2, 280, 282-3).
87. ibid. 2. 43-7 (Gram. Graec. 2.2, 156-60).
88. ibid. 1.36 (Gram. Graec. 2.2, 33).
89. ibid. 1.55-6 (Gram. Graec. 2.2, 47-8) An alternative analysis of this sentence envisaged by Apollonius treats as a neuter adjectival phrase linked with, 'a quick boy coming up helped us', with a different immediate constituent structure; cp. STEINTHAL 1890, volume 2, 342; HOUSEHOLDER, op. cit., 40.
90. ibid. 3.172 (Gram. Graec. 2.2, 418-19). 'Being in love admits to being affected by one's beloved', and therefore the verb properly constructs with the genitive case, the case used of the agent in passive sentences.

91. BUCK, Comparative grammar, § 240; J. WRIGHT, Comparative grammar of the Greek language, London. 1912, § 326.
92. ROBINS, 1986, 18.
93. HJELMSLEV, Cas, 12. Maximus Planudes showed more originality of thought than is generally credited to Byzantine grammarians (Robins, 'The case theory of Maximus Planudes', Proc. of the eleventh International Congress of Linguists, Bologna, 1974, 107-11).
94. A full historical account and discussion of the 'localist' theory and of rival theories can he found in HJELMSLEV, Cas. For a contrary ViCW SCC L. L. BLANK, 'Apollonius and Maximus on the order and meaning of the oblique cases', TAYLOR 1987, 67-83. Several articles on both topics are printed in LALLOT, 1985, with bibliographic references to earlier publications. To these may be added ROBINS, 'Ex Oriente lux: a contribution of the Byzantine grammarians', S.. AUROUX et al. (eds), Matériaux pour une histoire des théories linguistiques, Lille,, 1984, 217-25, and 'Text and textual interpretation in ancient Greek linguistics', Semiotica 70 (1988), 331-44.
95. See D. J. TAYLOR, 'Rethinking the history of language science in classical antiquity', TAYLOR, 1987, 1-16, in which some revisions of the earlier accepted presentation of the course of the history of linguistics are proposed, with several of the questions raised being referred to in this chapter and in chapter 3.

3 رومـــــا

بالانتقال من اليونان إلى روما ندخل عالما شديد الاختلاف، ويمكن للمرء أن يتحدث بحق عن العصر اليونو ـ روماني باعتباره عصر حضارة موحدة حول منطقة البحر المتوسط، ولكن الدورين الخاصين بكل من اليونان وروما كانا دورين متباينين ومتكاملين، فمساهمة أي منهما دون الآخر في الحضارة الأوروبية كانت ستصبح أقل أهمية وأقل خصوبة.

كان الرومان لفترة طويلة على اتصال ممتع بالثقافة المادية والمفاهيم العقلية اليونانية من خلال المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا، وقد تعلموا الكتابة من اليونان الغربيين، ولكن خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد سقط العالم اليوناني بالتدريج تحت حكم روما سيدة إيطاليا كلها في ذلك الوقت. وكان توسع الحكم الروماني قد اكتمل تقريبا مع العصر المسيحي، والإمبراطورية الرومانية ـ كما كانت في ذلك الوقت ـ قد وصلت إلى وضع مستقر نسبيا، وهذا الوضع ـ مع تغيرات طفيفة إلى حد ما في بريطانيا، وعلى الحدود الشمالية والشرقية ـ ظل في مأمن من الحروب الخطيرة لأكثر من قرنين. والنصف الثاني من هذه الفترة

يستحق الإطراء المشهور لجيبون: «إذا ما طلب من شخص أن يحدد فترة من تاريخ العالم كان فيها حال الجنس البشري أكثر سعادة وازدهارا، فإنه من دون تردد سوف يحدد تلك الفترة التي انقضت منذ مصرع دومتيان Domitian حتى اعتلاء كومودوس للعرش» (أي 96 ـ 180م)[1].

وبالسيطرة على العالم الهليني ضم الرومان تحت حكمهم الشعب اليهودي وأرض العهدين القديم والجديد، فكانت الخلفية الفكرية لليونان ويهودا Judaea والوحدة السياسية وحرية الاتصال التي وفرها استقرار الدولة الرومانية، هي الظروف التي ظهرت فيها المسيحية وانتشرت لتصبح في القرن الرابع الميلادي هي دين الدولة في الإمبراطورية الرومانية. وأوروبا الحديثة، وكثير من العالم الحديث كله، مدينة بأصول تحضرها الفكري والأخلاقي والسياسي والديني لهذه الشعوب الثلاثة: الشعب اليوناني والشعب الروماني والشعب اليهودي(*).

وقد اعترف الرومان عن طيب خاطر بالإنجازات الفكرية والفنية الرفيعة لليونانيين منذ اتصالهم المبكر بهم، وقد انعكس هذا لغويا في اللغات العامة المختلفة بالنسبة للأقاليم الشرقية والأقاليم الغربية، ففي النصف الغربي للإمبراطورية حيث لم يتم اتصال بحضارة متميزة، أصبحت اللاتينية هي لغة الإدارة والأعمال والقانون والتعليم والرقي الاجتماعي. وفي النهاية حلت اللاتينية المنطوقة (غير مطابقة بالتأكيد للاتينية الأدبية الكلاسيكية) محل اللغات السابقة لمعظم الأقاليم الغربية، وأصبحت من خلال التطور اللغوي هي اللغات الرومانية الحديثة، أو اللاتينية الجديدة، وهي لغات أوروبا المعاصرة(**)، ولكن في الشرق الذي كان إلى حد كبير بالفعل تحت الإدارة اليونانية منذ العصر الهليني، احتفظت اللغة اليونانية بالوضع الذي وصلت إليه بالفعل، وكثيرا ما تعلمها الموظفون الرسميون الرومان واستعملوها أثناء أداء أعمالهم، كما نال الأدب اليوناني والفلسفي اليونانية قدرا عاليا من الاحترام. وهذا الانقسام اللغوي تم الاعتراف به سياسيا في النهاية

(*) لا يمكن التسوية في هذا المجال بين اليهود والشعبين اليوناني والروماني، وفي نفس الوقت لا يمكن إنكار مساهمات اليهود في الحضارة الإنسانية خاصة الغربية، ولكن بوصفهم مواطنين أفرادا ينتمون لحضارة الشعوب التي يعيشون في أوطانها.

(**) لا ينطبق هذا إلا على فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا وجزء من سويسرا وبلجيكا، أما بقية لغات أوروبا فتنتمي لأصول لغوية غير لاتينية (المترجم).

بانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية الغربية والامبراطورية الشرقية مع العاصمة الشرقية الجديدة في كنستانتينوبل أي القسطنطينية (بيزنطة) التي بقيت بوصفها رأس الدومينيونات البيزنطية - رغم انكماش حدودها - حتى عصر النهضة الغربية.

والرأي المقبول في العلاقة بين الحكم الروماني والحضارة اليونانية ربما يصوره خير تصوير ، التعبير الموجز لفرجيل عن مكانة روما وواجبها : دع الآخرين (اليونان) يتفوقوا في الفنون إن رغبوا، بينما تحافظ روما على سلام العالم[2].

أثناء السنين التي حكمت فيها روما العالم الغربي المتحضر، كان لابد أن يكون هناك اتصال بين متحدثي اللاتينية وبين متحدثي اللغات الأخرى، في كل الأماكن وعلى كل المستويات، وكان لابد أن يكون الطلب شديدا على المترجمين، وكان لابد أن يكون تعليم وتعلم اللاتينية (واليونانية في الأقاليم الشرقية) محل اهتمام الأشخاص من كل نوع، في كل من البيوت الخاصة والمدارس المنظمة. وقد كثرت الترجمات، وكانت أول ترجمة للعهد القديم للغة اليونانية (الترجمة السبعينية) من عمل علماء يهود في العصر الهليني، ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد كان الأدب اليوناني يترجم إلى اللاتينية بشكل منتظم. ولقد تغلبت مكانة الكتابة اليونانية كثيرا لدرجة أن الشعر اللاتيني قد تخلى عن أوزانه الأصلية، وأصبح يؤلف خلال المرحلة الكلاسيكية وما بعدها في أوزان تم تعلمها من الشعراء اليونانيين، وتكييف الأوزان اليونانية هذا للغة اللاتينية يظهر في أوجه في شعر فرجيل سداسي التفعيلة وفي مراثي أوفيد العصماء. ومن المدهش أننا لا نعرف إلا قليلا جدا عن تفاصيل كل هذا النشاط اللغوي، وأن كتابات قليلة عن الجوانب المختلفة للاتصال اللغوي قد حفظت لنا، أو لدينا معرفة بوجودها، وقد كان الرومان ينظرون للتعدد اللغوي بوصفه مأثرة عظيمة، ويحدثنا أولوس جليوس عن ميثرداتس العظيم ملك بونتوس Pontus (120 - 63 ق.م) بأنه كان قادرا على الحديث مع أي أحد من رعاياه الذين ينتمون لأكثر من عشرين جماعة لغوية مختلفة[3].

لم تكن التجربة الرومانية في العلم اللغوي استثناء من الوضع العام لعلاقاتهم مع النتاج الفكري اليوناني، فعلم اللغة الروماني كان إلى حد كبير

تطبيقا للتفكير والجدل والمقولات اليونانية على اللغة اللاتينية، وقد سهل هذا النقل ما وراء اللغوي التشابه النسبي للتراكيب الأساسية في اللغتين اليونانية واللاتينية، وكذلك وحدة الحضارة التي قامت في العالم اليو-روماني.

ودخول الدراسات التاريخية لروما يرجع الفضل فيه لحكاية من تلك الحكايات الرائعة التي تضفي البهجة على روايات المؤرخين، فقد حضر إلى روما الفيلسوف الرواقي والقواعدي «كراتس» في وفد سياسي في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وأثناء فرجته على بعض المعالم سقط في مصرف مفتوح، فبقي فترة في الفراش برجل مكسورة، وقضى فترة استشفائه في إعطاء محاضرات عن موضوعات أدبية لجمهور مقدر لما يتلقاه تقديرا كبيرا.

ومن الممكن أن يكون كراتس بوصفه رواقيا قد قدم المذهب الرواقي أساسا في تدريسه، ولكل المفكرين اليونانيين والتعليم اليوناني عموما قد دخل العالم الروماني بشكل متزايد في هذه الفترة، ومع عصر «فارو» (116-27 ق.م) أصبحت آراء السكندريين وآراء الرواقيين معروفة وموضع نقاش. وفارو هو أول كاتب لاتيني جاد في المسائل اللغوية من الذين لدينا مدونات لهم، لقد كان كاتبا موسوعيا، غطت اهتماماته مجال الزراعة وبروتوكول مجلس الشيوخ، والشؤون الرومانية القديمة، وقد حظيت كتاباته باختفاء معاصريه، ومؤلفه De lingua latina الذي بسط فيه آراءه اللغوية يتألف من خمسة وعشرين مجلدا، وقد بقيت منه الكتب من الخامس حتى العاشر وبعض الأجزاء من الكتب الأخرى.

أحد الملامح الرئيسية للمؤلف اللغوي لفارو هو شرحه الطويل، وصياغته للآراء المتعارضة في الجدال بين القياس والشذوذ (صص 49 - 53 من قبل)، ويظهر مقدار كبير من وصفه وتحليله للغة اللاتينية في علاجه لهذه المشكلة، وهو في الواقع يعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية لمعرفة تفاصيلها، وقد يزعم البعض أنه حرفها على أساس أن المسألة مسألة هجوم أكاديمي دائم وهجوم مضاد له، وليس على أساس الوجود الأكثر احتمالا للنزعات والمواقف المتعارضة[4].

وقد وُجِّه النقد لأسلوب فارو باعتباره أسلوبا غير جذاب، ولكن ربما

كان فارو أكثر أصالة في المسائل اللغوية من كل العلماء اللاتينيين، وقد كان متأثرا بشكل كبير بالتفكير الرواقي بما في ذلك تفكير أستاذه ستيلو Stilo، كما كان - بنفس الدرجة - على اطلاع واسع بالمذهب السكندري، وعبارته القصيرة التي تحفظ تعريفه للقواعد بأنها «المعرفة النظامية لاستعمال معظم الشعراء والمؤرخين والخطباء»[5] تبدو كأنها نسخ حرفي لتعريف ثراكس (ص 67 من قبل)، ويبدو أنه من ناحية أخرى قد استفاد من سابقيه ومعاصريه اليونانيين بدلا من مجرد تطبيق معرفتهم على اللغة اللاتينية بأدنى تعديل، كما دعم مقولاته واستنتاجاته بالبراهين والشروح وبالبحث المستقل في المراحل المبكرة للغة اللاتينية. وقد أعجب به الكتاب المتأخرون في علم اللغة ونقلوا عنه، ورغم ذلك ففي إطار التيار الرئيسي للنظرية اللغوية لم تترك معالجته لقواعد اللاتينية تأثيرا على علماء العصور الوسطى، الذين اعتنوا أكثر بالاشتقاق مثلما فعل «برشيان»، هؤلاء العلماء الذين نصبوا أنفسهم لوصف اللاتينية، من خلال الإطار الذي وضع لليونانية في «التخني» وفي مؤلفات أبولونيوس النحوية.

وتقييمنا لمؤلف فارو عن اللغة تعوقه حقيقة أنه لم يبق إلا ستة كتب من بين الخمسة والعشرين كتابا من De lingua latina، ولكن لدينا تقسيمه الثلاثي للدراسات اللغوية إلى الإتملجيا والصرف والنحو syntax[6]، وكذلك المادة التي نحكم منها على القسمين الأول والثاني.

رأي فارو أن اللغة ناشئة عن قائمة أصلية محدودة من الكلمات الأولية التي فرضت على الأشياء لكي تشير إليها، وهذه الكلمات عملت بشكل مثمر بوصفها مصدرا لأعداد ضخمة من الكلمات الأخرى عن طريق تغيرات متلاحقة في الحروف أو في صيغتها الصوتية (الطريقتان في الوصف تعنيان نفس الشيء بالنسبة له)[7]. وهذه التغيرات في الحروف قد حدثت على مر السنين، وقد تم الاستشهاد بالصيغ المبكرة بوصفها أمثلة على ذلك، مثل كلمة duellum للكلمة الكلاسيكية bellum بمعنى «حرب». وفي نفس الوقت تتغير المعاني، فمعنى hostis على سبيل المثال هو «غريب» فيما مضى، ولكن معناها في عصر فارو وفي اللاتينية الكلاسيكية واللاتينية المتأخرة هو «عدو»[8]. والعلم الحديث يؤيد هذه المقولات الإتملجية، ولكن قدرا كبيرا من الإتملجيا عنده قد اتبع نفس الخط وخدم نفس الغايات،

كما كان الشأن في المؤلفات اليونانية في هذا المجال (صص 26 ـ 55 من قبل)، والكلمات anas بمعنى «بطة» من nàre بمعنى «يسبح»، و vitis بمعنى «كرمة العنب» من vis بمعنى «قوة»، و cura بمعنى «قلق» من urere†cor بمعنى «يحرق القلب»، عبارة عن نماذج من مؤلفه ومن الدراسات الإتملجية اللاتينية بشكل عام[9].

إننا نرى جهلا أساسيا في إشارات فارو للغة اليونانية، فالتشابهات في صيغ الكلمات التي تحمل معاني متشابهة في اللاتينية واليونانية هي أمر واضح، وبعض هذه التشابهات عبارة عن نتيجة للاقتراض التاريخي في فترات مختلفة، عندما أقام المجتمعان اتصالات غير مباشرة ثم اتصالات مباشرة بينهما، أما التشابهات الأخرى فهي الكلمات المشتركة المنحدرة من صيغ هندوأوروبية قديمة يمكن استنتاجها، ويمكن لمدى معين «إعادة بناء» أشكالها عن طريق مناهج علم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، ويمكن توضيح هذا بمثالين: فالكلمة اليونانية phéró واللاتينية fero بمعنى «أحمل»، كلتاهما عبارة عن انعكاس للفعل الهندوأوروبي bher المعاد بناؤه، أما الكلمة اللاتينية feretrum بمعنى «نعش» فهي عبارة عن اقتراض مباشر من الكلمة اليونانية phéretron، ولكن فارو ـ مثل بقية القدماء ـ لم يكن لديه تصور عن هذا الأمر، فقد نظر لمثل هذه الكلمات كلها بشكل مشترك باعتبارها كلمات مقترضة مباشرة من اليونانية. وفي التاريخ القريب للاتينية شوه وضع هذه الكلمات وبولغ فيه، نتيجة لشعور الرومان بالدين الثقافي لليونان، ولحقيقة أن أبجديتهم قد اشتقت مباشرة من أحد أنواع الأبجدية اليونانية، وللمشاركة الأسطورية لأبطال اليونان في قصة إنشاء روما.

وفارو في تصوره عن تنامي المفردات عن طريق التغيرات التي تحدث لصيغ الكلمات الأولية يوحد بين اعتبارين هما: الإتملجيا التاريخية والتشكيل التزامني للاشتقاقات والتصريفات، كما أن بعض الأفراد المقبولة من سلسلة كلمات مترابطة تصريفيا قد نظر إليها باعتبارها أولية، ونظر لكل الكلمات الأخرى باعتبارها ناشئة عن «الانحدار» (déclinatio) أي عمليات التغير في الشكل[10]، وقد أعطى فارو عناية خاصة للسوابق الاشتقاقية في الفصل الثامن والثلاثين من الكتاب السادس.

ومن واجب المرء أن يلتمس العذر لفارو في إخفاقه في التمييز بين

هذين البعدين من الدراسة اللغوية، لأن ملاحظاته الوصفية التزامنية ـ شأنه شأن اللغويين الآخرين في العصور القديمة ـ كانت أكثر علما وإدراكا من محاولاته في الإتملجيا التاريخية. وكمثال على الوعي الظاهر بالتمييز يلاحظ المرء قوله إن equitatus «خيالة» في اللاتينية، و eques (الساق equit) «خيال»، يمكن ربطها وإرجاعها وصفيا إلى equus «حصان»، ولكن لا مكان لتفسير آخر على نفس الخط بكلمة equus[11]، فهي كلمة أولية في اللاتينية، وأي تفسير لصيغتها ومعناها يحتاج إلى بحث تعاقبي في المراحل المبكرة للأسرة الهندوأوروبية وفي الصيغ ذات الأصل المشترك في لغات أخرى غير اللاتينية.

في مجال تغيرات صيغ الكلمات التي تكون جذرا واحدا؛ التغيرات الاشتقاقية والتصريفية سواء بسواء، يكرر فارو الحجج المؤيدة للقياس والشذوذ والمضادة لهما، مستشهدا بأمثلة من اللاتينية عن الاطراد وعدم الاطراد، ويخلص بدرجة كافية من المعقولية إلى أن كلا المبدأين يجب الاعتراف بهما، وقبولهما في صياغة الكلمات في اللغة وفي المعاني المرتبطة بها[12]. وفي مناقشة حدود الاطراد في صياغة الكلمات تلاحظ الطبيعة البرجماتية للغة ومفرداتها، التي تكون أكثر تميزا في المناطق المهمة ثقافيا من المناطق الأخرى، هنا فإن كلمة equus «حصان» وكلمة equa «فرس» لهما صيغتان مستقلتان للحيوان المذكر والحيوان المؤنث لأن التمايز في الجنس أمر مهم للمتكلمين، ولكن كلمة corvus «الغراب الأسحم» لا تفرق في الصيغة بين المذكر والمؤنث لأن التفريق بينهما ليس مهما للناس، وكان هذا في السابق صحيحا بالنسبة للحمام الذي كان يطلق عليه من قبل الاسم المؤنث columba، ولكن منذ أن دجن قد ابتدعت له صيغة مذكرة قياسية مستقلة هي columbus[13]. وعلاوة على ذلك يسلم فارو بالإمكانيات المفتوحة ـ خاصة في الأسلوب الشعري ـ لصيغ خاصة (غير قياسية)، تختلف عن تلك الصيغ المقبولة في استعمال الغالبية، وهذا التصور ليس بعيدا عن التصور السوسيري للغة langue والكلام parole.

كانت إحدى ملاحظات فارو الأكثر ذكاء في هذا السياق هي التمييز بين الصياغة الاشتقاقية والصياغة التصريفية، وهو تمييز لم يحدث عادة في العصور القديمة، وأحد الملامح التي تتميز بها التصريفات هو عموميتها

العظيمة جدا، فجداول التصريف لا تحتوي إلا على قليل من الحذف، وهي غالبا عند كل متحدثي لهجة معينة أو عند كل متحدثي لغة معيارية معترف بها. وهذا الجانب من الصرف يطلق عليه فارو «التغير الطبيعي (déclinatio naturalis) لصيغة الكلمة»، وبتحديد الكلمة ونوعها التصريفي يمكننا استنتاج كل صيغها الأخرى[14]. وبالمقابل تختلف الاشتقاقات التزامنية في الاستعمال والمقبولية من شخص لآخر، ومن جذر كلمة معينة لجذر كلمة أخرى (قارن ص 51 من قبل)، فمن ovis «غنم» و sus «خنزير» تصاغ ovile «حظيرة غنم» و suile «حظيرة خنازير»، ولكن bovile من bos «ثور» ليست مقبولة من فارو على الرغم من أن الصيغة كما يقال قد استعملها كاتو (الكلمة اللاتينية المعتادة لحظيرة الثيران كانت هي bubile)[15]. والصياغة الأقل انتظاما والتي تعتمد على الملكة في هذا الجانب من الصرف والتي تعطي اللغة كثيرا من مرونتها، يميزها فارو باستعماله مصطلح «التغير التلقائي لصيغة الكلمة» (déclinatio voluntaria).

أظهر فارو أصالة مماثلة في تصنيفه الصرفي المقترح للكلمات اللاتينية المتصرفة، وعمله فيما يتعلق بالفئات الصرفية يظهر الكيفية التي فهم بها مصادره اليونانية وكيفية استفادته منها دون أن ينقل عن عمد نتائجهم، فقد ميز - كما ميزوا - بين الحالة والزمن بوصفهما الفئتين المتميزتين الأساسيتين، للكلمات المتصرفة في اللغات الكلاسيكية، وأقام نظاما رباعيا من أربعة أنواع متباينة تصريفيا:

أقسام ذات تصريف حالة	الأسماء (بما فيها الصفات)
أقسام ذات تصريف زمن	الأفعال
أقسام ذات تصريف حالة وزمن	البرتسبل
أقسام دون تصريف حالة أو زمن	الظروف

وهذه الأقسام الأربعة قسمت تقسيما فئويا آخر على أساس وظائفها النحوية والدلالية: فالأسماء تسمى، والأفعال تقوم بالإفادة، والظروف تعزز (أي تركب مع الأفعال وتكون تابعة لها)، والبرتسبل يقوم بالربط (يشترك في كثير من صرف ونحو الأفعال والأسماء، وهو وسيلة رئيسية لربط أو تثبيت عبارة في أخرى مثل puer legit "the boy is reading"، و "I saw the boy puerum vídí، و "I saw the boy puerum legentem vídí reading"[16]. وفي الفقرات

التي تعالج هذه الأقسام فإن الأمثلة الظرفية عبارة عن كل الصيغ المشتقة صرفيا مثل docté «علميا» و lecté «اختياريا». وتعريف فارو ينطبق بشكل متساو في الواقع على الظروف وحيدة المرفيم غير المتصرفة في اللاتينية مثل mox «حالا» و tunc «عندئذ»، ولكن هذه الظروف تذكر في أماكن أخرى بين الكلمات غير المتصرفة وغير المتغيرة (الجامدة) invariable أو العقيمة «barren» (sterile)[17]. والتصنيف الكامل للكلمات غير المتغيرة في اللاتينية يتطلب التمييز بين الأقسام الفرعية المحددة نحويا مثلما فعل «التخني» لليونانية، ومثلما قام به علماء القواعد اللاتين المتأخرون للغة اللاتينية، ولكن من خلال أمثلة فارو يبدو واضحا أن محل الاهتمام الأول عنده هو سلسلة الكلمات المختلفة قواعديا التي يمكنها أن تكون جذرا واحدا مشتركا (مثل legó «أنا أختار، أنا أقرأ»، و lector «قارئ»، و legens reading الشخص الذي يقرأ و lecté «اختياريا». وكل هذا البحث، إلى جانب بحثه عن أصول الكلمات etymologies، كان جزءا من سعيه من أجل وصف الطريقة التي يمكن بها لأصل الكلمة في لغة معينة، أن ينمو خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن سمح بها العالم القديم لخدمة حاجات الحضارة المتقدمة.

ويظهر فارو في معالجته للفئة الفعلية للزمن اتفاقه مع المذهب الرواقي الذي يتم التمييز فيه بين وظيفتين دلاليتين لصيغ تصريفات الزمن، وهما دلالة الزمن ووجهة الحدث (صص 63 ، 64 من قبل) ففي تحليله للأزمنة الإخبارية الستة، فإن صيغ المبني للمعلوم والمبني للمجهول، وانقسام الجهة، والتام وغير التام كانت هي الصيغ الأكثر أهمية بالنسبة له، على أساس أن كل صيغة وجهة تشترك بانتظام في نفس صيغة الساق، وأن أزمنة الوجهة التامة في المبني للمجهول تتكون من كلمتين، على الرغم من أن فارو يدعي أن معظم الناس لا يراعون - خطأ - إلا بعد دلالة الزمن[18].

وضع فارو صيغ الزمن «التام perfect» اللاتينية didici... إلخ في مكان المضارع التام المناظر لمكان صيغ الزمن التام في اليونانية. وفيما لدينا أو فيما نعرف من كتابات فارو لايبدو أنه وضع في الاعتبار أحد الفروق الرئيسية، بين تصريفات الزمن في اليونانية وتصريفاته في اللاتينية، أي أنه في الزمن «التام» في اللاتينية هناك اتفاق لمعنى الماضي البسيط (I did) ومعنى التام (I have done) موازيا لمعنى الماضي والتام في اليونانية على

التوالي. وصيغ الزمن «التام» في اللاتينية تلائم وجهتي الحدث كلتيهما، وهي النقطة التي بينها برشيان بوضوح فيما بعد في تقديمه لتحليل مماثل لأزمنة الفعل في اللاتينية[19].

وجهة الحدث	الزمن		
	ماضٍ	مضارع	مستقبل
المبني للمعلوم غير التام	discébam, I was learning	discó, I learn	discam, I shall learn
التام	didiceram, I had learned	didici, I have learned	didiceró, I shall have learned
المبني للمعلوم غير التام	amábar, I was loved	amor, I am loved	amábor, I shall be loved
التام	amátus eram, I had been loved	amátus sum, I have been loved	amátu eró, I shall have been loved

المستقبل التام في اللاتينية كان أكثر شيوعا في الاستعمال من نظيره المستقبل التام في اليونانية "الأتيكية"

إذا ما بدا أن الفرق في الاستعمال والمعنى بين صيغ الزمن التام في اليونانية واللاتينية، قد ندّ عن انتباه فارو فإن التباين الأكثر وضوحا بين نظام الحالة الخماسي في اليونانية، ونظام الحالة السداسي في اللاتينية قد فرض نفسه عليه، كما يحدث لأي إنسان آخر يعرف كلتا اللغتين، فاللاتينية تميز بشكل أساسي حالة لمفعول أداة (أبلتية)، يشرحه فارو بقوله: هو «الذي به يؤدى الفعل»[20]. وهو يشترك في عدد من المعاني والوظائف النحوية مع صيغ حالة الإضافة والمفعول غير المباشر dative في اليونانية، ولهذا السبب أطلق على حالة الأبلتية «الحالة اللاتينية» أو «الحالة السادسة»[21]. وقد اتخذ فارو صيغ الرفع باعتبارها الصيغ المعيارية canonical للكلمة التي نشأت عنها حالات غير الرفع، وهو ـ مثل أسلافه اليونانيين ـ أقنع نفسه باختيار معنى نموذجي أو علاقة نموذجية باعتبارها علاقة محدِّدة لكل حالة (إساءته الواضحة في ترجمة الكلمتين اليونانيتين aitiatiké ptosis بـ casus accusativus قد تمت الإشارة إليها بالفعل (ص 74 من قبل).

ربما كان فارو أكثر الكتاب الرومان استقلالية وأصالة في الكتابة عن الموضوعات اللغوية[22]، ويمكننا بعده أن نتتبع مناقشات المسائل التي أثارها عدد من المؤلفين دون مدعاة قوية للاهتمام، فقد خبا النقاش شيئا فشيئا حول القياس والشذوذ، واستعمل برشيان analogia بمعنى التصريف المطرد للكلمات المتصرفة دون الإشارة لكلمة anómalia، والمصطلح anómalia (الذي منه الكلمة الإنجليزية anomalous = شاذ، باعتبارها مصطلحا فنيا يستعمل أحيانا في القواعد) كان يظهر أحيانا عند علماء القواعد المتأخرين[23]. وعند تقييم تفكير فارو اللغوي بقدر ما يمكن الحصول عليه من خلال النصوص الباقية، يجب أن نضع نصب أعيننا أنه في حدود علمنا لم يكن هناك حتى ذلك الوقت كتب قواعد أو معاجم متداولة للغة اللاتينية.

أشرنا إلى أفكار فارو عن تصنيف الكلمات اللاتينية، ولكن نظام تصنيف الكلمات الذي وضع في التراث اللاتيني محفوظ باحترام في أعمال برشيان، أما علماء القواعد اللاتين المتأخرون فكانوا أقرب إلى التصنيف المطروح في «التخني»، فقد بقي عدد أقسام الكلمات عند الثمانية مع تغير وحيد، فقسم الكلمات المناظر لأداة التعريف اليونانية to, he, ho «أل» قسم غير موجود في اللاتينية الكلاسيكية، أما أدوات التعريف في اللغات الرومانسية فقد نشأت فيما بعد عن صيغ مضعفة لأسماء الإشارة illa, ille و illud «ذلك». أما اسم الموصول في اليونانية فقد كان من الناحية الصرفية مماثلا لأداة التعريف، وقد ضم معها في التصنيف من قبل «التخني» ومن قبل أبولنيوس[24]. واسم الموصول في اللاتينية qui, quod, quae «من، ما» يشبه من الناحية الصرفية اسم الاستفهام quid, quis «من؟ ما؟»، وكلاهما قد صنفا معا سواء مع الاسم أو مع الضمير[25].

وبدلا من أداة التعريف نظر علماء القواعد اللاتين لأداة التعجب باعتبارها قسما مستقلا من الكلمات، بدلا من معاملتها بوصفها قسما فرعيا من الظروف كما فعل «التخني» وأبولنيوس[26]، وقد نظر برشيان لوضعية أداة التعجب المستقلة باعتبارها عرفا شائعا بين العلماء اللاتين، ولكن أول كاتب عرف بمعاملته لها بهذا الشكل كان رميوس بليمون Remmius Palaemon، عالم القواعد والأدب في القرن الأول الميلادي، والذي عرفها بوصفها كلمة ليس لها معنى محدد، ولكنها تعبر عن الانفعال[27]، وقد شدد

برشيان كثيرا على استقلالها النحوي في تركيب الجملة.

كان كونتليان Quintilian (القرن الأول الميلادي) الناقد الأدبي وعالم التربية تلميذا لبليمون، وقد كتب عن التعليم بشكل مكثف، وفي مؤلفه Institutio oratoria الذي شرح فيه آراءه تناول القواعد بإيجاز معتبرا إياها أمرا تمهيديا، من أجل فهم الأدب فهما دقيقا في التعليم العقلاني، ومعرفا لها بأسلوب يشبه الأسلوب الذي استعمله ثراكس في بداية «التخني» (ص 67 من قبل). وقد ناقش كونتليان تفصيلا تحليل نظام الحالة في اللاتينية، وهو المضارع المسيطر دائما على عقول العلماء اللاتين الذين درسوا اليونانية، واقترح فصل الاستعمال الأداتي instrumental لحالة الأبلتية (gladio بالسيف) بوصفه حالة سابعة، مادام لا يشترك دلاليا مع المعاني الأخرى لحالة الأبلتية[28]. وتوجد صيغ مستقلة لحالة مفعول الأداة في اللغة السنسكريتية، وقد يستدل من هذا على وحدة الأصل الهندوأوروبي، على الرغم من أن اليونان والرومان لم يعرفوا شيئا عن هذا. لقد كان شائعا (ومازال) تسمية الحالات بالرجوع لأحد معانيها (dative «إعطاء»، ablative «نقل»... إلخ)، ولكن تحديدها الاصطلاحي بوصفها أعضاء لستة مصطلحات تصريف يقوم على معناها، أو بشكل أعم على معانيها إلى جانب وظائفها النحوية المرتبطة بصيغة متميزة صرفيا على الأقل في بعض أفراد أقسام الكلمات متصرفة الحالة، وهذا ما فهمه برشيان، فبالنظر لعدم وجود ملمح صرفي يميز الاستعمال إلا من صيغ حالة الأبلتية عن استعمالاتها الأخرى، فقد استنكر مثل هذه الإضافة إلى القواعد الوصفية للاتينية بوصفها أمرا فائضا (supervacuum)[29].

إن مؤلفات فارو وكونتليان وآخرين أثناء العصر الكلاسيكي لروما، تظهر انهماكهم في النظرية والمناقشات والمقولات اللغوية اليونانية في تطبيقهم على اللغة اللاتينية، ولكن الثقافة اللغوية اللاتينية تُعرف معرفة جيدة، عن طريق صياغة قواعد لاتينية وصفية وتعليمية أصبحت أساس التعليم كله، في العصور القديمة المتأخرة وفي العصور الوسطى، وفي قسم من التعليم التقليدي في العصر الحديث. والقواعد اللاتينية للعصر الحاضر تنحدر انحدارا مباشرا من تصانيف القواعديين اللاتين المتأخرين، كما يُظهر التفحص السريع لمؤلف برشيان Insitutiones grammaticae.

ومؤلف برشيان في القواعد (حوالي 500م) الذي يتألف من ثمانية عشر كتابا، والذي يصل لما يقرب من ألف صفحة إذا ما نشر اليوم، يمكن أن يتخذ ممثلا لمؤلفاتهم، وهناك في الواقع عدد من الكتاب في قواعد اللاتينية ـ والذين عملوا في أماكن مختلفة من الإمبراطورية الرومانية ـ معروفون لدينا منذ القرن الأول الميلادي فصاعدا[30]، ودناتوس (القرن الرابع) وبرشيان من بينهم هما الأكثر إلماما بالموضوع. وبالرغم من اختلافهم في بعض التفاصيل فإن كل هؤلاء القواعديين على العموم، يبدأون من نظام أساسي واحد للوصف القواعدي ويسيرون عليه، وفي معظم الأحوال لا يظهرون إلا قليلا من الأصالة، باذلين أقصى جهدهم، من أجل تطبيق مصطلحات ومقولات علماء القواعد اليونان على اللغة اللاتينية، فقد ترجموا المصطلحات الفنية اليونانية ترجمات ثابتة بأقرب كلمة لاتينية متاحة لديهم: nómen = ónoma، pronomen = antónymià، coniunctió = syndosmos... وهكذا. وشجعهم على هذا النهج العالم السكندري الكبير ديديموس Didymus (النصف الثاني من القرن الأول ق. م) الذي قرر أن كل ملمح في قواعد اليونانية يمكن أن يوجد في اللغة اللاتينية[31]. وكان يتبع نظام أقسام الكلمات الرواقي الذي كان يضم أداة التعريف والضمائر الشخصية في قسم واحد (ص 62 من قبل)، من هنا فإن عدم وجود صيغة لكلمة لاتينية تطابق أداة التعريف اليونانية لم يكن ليفسد تصنيفه[32]. ومن بين علماء القواعد اللاتين فإن ماكربيوس Macrobius (حوالي عام 400م) قدم وصفا «للاختلافات والتشابهات» بين الفعل في اليونانية والفعل في اللاتينية[33]، ولكن هذا الوصف لم يكد يتعدى عمل قوائم متوازية لصيغ الأفعال دون أي بحث عميق للنظام الفعلي في اللغتين.

وسلسلة علماء القواعد اللاتين الذين بهم اكتمل الوصف القواعدي المقبول للغة ووصل للعصور الوسطى، امتدت على طول القرون الخمسة الأولى للعصر المسيحي. وهذه الفترة تغطي مرحلة السلام الروماني Pax Romana والحضارة اليو. رومانية الموحدة للبحر المتوسط، التي استمرت طوال القرنين الأولين، والتي تبعها انهيار السلام الإمبراطوري في القرن الثالث، ثم الانهيار النهائي للأقاليم الغربية بما فيها إيطاليا في القرنين الرابع والخامس، عن طريق الغزو من خارج الحدود القديمة للإمبراطورية.

ومن الناحية التاريخية فإن هذه القرون قد شهدت حدثين لهما أهمية دائمة في حياة العالم المتحضر. في المقام الأول فإن المسيحية التي بدأت ـ من وجهة نظر علمية ـ باعتبارها عقيدة لطائفة صغيرة خارجة من اليهود شديدي الحماسة، قد انتشرت ومدت نفوذها على طول الإمبراطورية وعرضها، حتى تم الاعتراف بها بوصفها العقيدة الرسمية للدولة على يد الإمبراطور قنسطنطين في بداية القرن الرابع، بعد اضطهاد طويل ومتكرر ومحاولات لقمعها. وبالتالي تأكدت عند ذلك سيطرتها على الفكر الأوروبي وعلى كل فروع العلم لمدة ألف سنة تالية، ولم تستطع أن تصد تقدمها أو توقفه بجدية الانشقاقات المذهبية أو الهرطقات أو مروق أحد الأباطرة. وبقدر ما سيطرت المسيحية وجذبت إليها رجال العلم فإن ثقافة المرحلة تعكس الصراع بين المعايير الوثنية الآفلة للعصور الكلاسيكية القديمة، وبين الأجيال الصاعدة من أنصار المسيحية وفلاسفتها ومؤرخيها، الذين كانوا يؤولون تراث الماضي ويكيفونه في ضوء مفاهيمهم ومتطلباتهم.

أما الحدث الثاني فقد كان حدثا أقل تدرجا، وهو انشطار العالم الروماني إلى شطرين: شطر شرقي وآخر غربي. وبعد قرن من الاضطراب المدني ومن ضغط البرابرة، توقفت روما في ظل ديوكلتيان (284 ـ 305م) Diocletian عن كونها العاصمة الإدارية للإمبراطورية، أما خليفته المتأخر قنسطنطين، فقد قام بنقل حكومته إلى مدينة جديدة بنيت مكان بيزنطة القديمة، ومن بعده أطلق عليها اسم القسطنطينية. ومع نهاية القرن الرابع انقسمت الإمبراطورية رسميا إلى دولة شرقية وأخرى غربية، حكم كلا منهما إمبراطورها الخاص بها، وهذا الانقسام قد تطابق تقريبا مع فصل المنطقة الهلينية القديمة التي استولت روما عليها ـ ولكنها بقيت يونانية الثقافة واللغة ـ عن إيطاليا والأقاليم التي نهضت من همجيتها بسبب التأثير الروماني والحروف الرومانية. أما القسطنطينية فكان يُغار عليها من الغرب والشرق، وبقيت لمدة ألف سنة بوصفها رأس الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية)، حتى سقطت في أيدي الأتراك عام 1453م. وقد بقيت روما أثناء انهيار الإمبراطورية الغربية وبعدها عاصمة للكنيسة الرومانية، بينما تطورت المسيحية تدريجيا في الشرق في اتجاهات أخرى لتصبح الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

من الناحية الثقافية يلاحظ المرء مع مرّ السنين بدءا بما يسمى «العصر الفضي» (نهايات القرن الأول الميلادي)، يلاحظ المرء انحدارا في القيم الأدبية، واستهلاكا تدريجيا للموضوعات القديمة، ونشاطا متناقصا في تطوير موضوعات جديدة، وفيما عدا الجماعات المسيحية الصاعدة فإن العلم كان ينظر إلى الوراء آخذا شكل المعرفة الواسعة، المكرسة للمعايير المقبولة من الماضي. وفي الغرب اللاتيني كما هو الشأن في الشرق اليوناني، كان هذا هو عصر الشروح والتلخيصات والمعاجم. وعلماء القواعد اللاتين الذين كانت وجهة نظرهم تشبه وجهة نظر علماء الإسكندرية اليونان، وجهوا اهتمامهم مثلهم إلى لغة الأدب الكلاسيكي، أي إلى الدراسة التي تخدمها القواعد بوصفها المدخل والأساس، أما التغيرات التي وقعت في اللاتينية المنطوقة واللاتينية المكتوبة غير الأدبية، المحيطة بعلماء القواعد فلم تثر لديهم إلا قليلا من الاهتمام، فمؤلفاتهم استمدت أمثلتها إلى حد كبير من النصوص، وكانت كلها مأخوذة من كتاب الشعر والنثر للعصر الكلاسيكي، ومن سلفيهم قبل الكلاسيكيين بلوتس وتيرنس.

ويمكن معرفة درجة الاختلافات التي أصبحت عليها اللاتينية المكتوبة المقبولة، عن طريق مقارنة قواعد وأسلوب ترجمة القديس جيروم للإنجيل (الترجمة اللاتينية المعتمدة في الكنيسة الكاثوليكية Vulgate)، التي ورد فيها مسبقا كثير من الملامح القواعدية للغات الرومانية، مقارنتها باللغة اللاتينية التي حفظها ووصفها علماء القواعد الذين كان أحدهم - في الواقع - أستاذا للقديس جيروم، وهو دوناتوس Donatus الذي يعتبر الثاني في الصيت بعد برشيان.

إن مزاج علماء القواعد اللاتين المتأخرين وإنجازاتهم، يمكن تقديرها جيدا من خلال دراسة مؤلف برشيان ممثلهم الأعظم، الذي كان يدرس القواعد اللاتينية في القسطنطينية في بداية القرن السادس، ورغم أنه استقى كثيرا من أسلافه اللاتين، فإن هدفه مثل أهدافهم كان هو نقل النظام القواعدي «للتخني» وكتابات أبولنيوس إلى اللاتينية بقدر ما يستطيع، وإعجابه بالعلم اللغوي اليوناني واعتماده على أبولنيوس وابنه هيرديان Herodian بوجه خاص،«أعظم الثقاة في القواعد»، أمر واضح في فقراته التمهيدية وعبر مؤلفه عن القواعد[34].

لقد تناول برشيان موضوعه بشكل نظامي، وهو وصف لغة الأدب اللاتيني الكلاسيكي، فالنطق وتركيب المقطع قد غطاهما بوصف الحروف (literae) مترجما الـ gràmmata اليونانية المعروفة بوصفها الأجزاء الصغرى للكلام المنطوق، والتي من خواصها اسم الحرف nómen، وشكله المكتوب figura وقيمته الصوتية potestas. وكل هذا قد تم تقديمه بالفعل فيما يتعلق باللغة اليونانية (ص 56 من قبل)، وكان الوصف الصوتي للحروف باعتبارها أجزاء منطوقة والوصف الصوتي لتركيب المقطع يتبع المصطلحات التي صكها اللغويون اليونان. وهذا الوصف يقدم لنا شواهد جزئية على نطق اللغة اللاتينية[35].

وينتقل برشيان من الصوتيات إلى الصرف معرفا الكلمة (dictió) والجملة (oratió) بنفس المصطلحات التي يستعملها «التخني»، بوصفهما الوحدة الصغرى لتركيب الجملة، والتعبير عن فكرة تامة على التوالي[36]. وكما هو الحال مع بقية لغويي العصور القديمة فإن النموذج القواعدي عند برشيان هو الكلمة والتصريف، وهو ينكر بوضوح أي أهمية لغوية للتقسيمات الأقل من الكلمة فيما يسمى اليوم بالتحليل المرفيمي[37]. وفي أحد مداخله النادرة في هذا المجال أساء فهم التركيب المرفيمي لكلمات تحتوي على سابقة النفي in- (indoctus «غير متعلم».. إلخ) بمساواته بحرف الجر in «في»[38]. وهذان المرفيمان ـ in الذي للنفي و ـ in حرف الجر المستعمل كسابقة، هما في الحقيقة بمعنيين مختلفين في الكلمتين: invisus «غير مرئي» و invisus «كره» (حرفيا نظر (شزرا)).

بعد استعراض موجز للنظريات المبكرة للغويين اليونان، يعرض برشيان النظام الكلاسيكي لأقسام الكلمة الثمانية المعروض في «التخني» وعند أبولنيوس، مع تجاهل أداة التعريف والاعتراف المستقل بصيغ التعجب التي تمت الإشارة إليها بالفعل. وقد عرف كل قسم من أقسام الكلمات، وتم وصفه بالرجوع لفئاته الأساسية المتصلة به (accidentia accidents) التي منها مصطلح accidence الذي يعني الصرف (morphology)، وقد مثل لكل هذا بكثرة بأمثلة من النصوص الكلاسيكية، وهذا كله يشغل ستة عشر كتابا من الكتب الثمانية عشر، أما الكتابان الأخيران فمخصصان للنحو. وبرشيان الذي كان يكتب في مدينة تتحدث اليونانية كان يخاطب قراء يعرفون

اليونانية، لذلك استعمل أمثلة يونانية بشكل واسع، وأجرى مقارنات مع اليونانية في كثير من النقاط، والصفحات المائة الأخيرة (18 , 20 , 157 وما بعدها) كلها مليئة بالمقارنة بين تراكيب مختلفة في اللغتين. وبالرغم من أن القسطنطينية كانت مدينة يونانية في منطقة يونانية، فإن اللاتينية قد أعلنت لغة رسمية عند تأسيس المدينة الجديدة بوصفها عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، ولذلك فإن أعدادا من متحدثي اليونانية بوصفها لغة أولى قد احتاجوا إلى التعلم اللاتينية، رغم أنها لم تكن معروفة أو مستعملة إلا قليلا بعد القرن الثامن.

أقسام الكلام الثمانية (أقسام الكلمات) في قواعد برشيان يمكن أن تقارن بتلك الأقسام في «التخني» لديونسيوس ثراكس. والرجوع إلى التعريفات الموجودة عند أبولنيوس، واعتماد برشيان الواضح عليه يسمحان لنا بأن نستنتج أن تعريفات برشيان هي في الواقع تعريفات أبولنيوس، وحسب تعبيره فإن كل قسم مستقل يعرف عن طريق محتواه الدلالي[39].

nómen (الاسم ويضم كلمات تصنف الآن باعتبارها صفات): خاصية الاسم هي أن يدل على جوهر substance وكيفية quality، وهو يعين صفة عامة أو خاصة لكل شخص أو شيء[40].

verbum (الفعل) : خاصية الفعل هي أن يدل على حدث أو مطاوعة، وله زمن وصيغة، ولكنه ليس فيه تصريف للحالة[41].

participium (البارتسبل): قسم من الكلمات يمكن دائما أن يعزى اشتقاقيا للأفعال، ويشترك مع فئتي الأفعال والأسماء في (الزمن والحالة)، ولذلك فهو يتميز عنهما. وهذا التعريف يتفق مع المعالجة اليونانية لهذه الكلمات (ص 71 من قبل)[42].

prónómen (الضمير): خاصية الضمير هي إمكانية استبداله باسم العلم، وإمكانية تحديده للشخص (الأول أو الثاني أوالثالث)[43]. وربطه بأسماء الأعلام. على الأقل بقدر ما يتعلق الأمر بضمائر الشخص الثالث. يتناقض مع واقع اللغة اللاتينية. وفي مكان آخر يعيد برشيان قول أبولنيوس بأن الخاصية المحددة للضمير هي أن يدل على جوهر دون كيفية[44]. وهي طريقة لتفسير انعدام التقييد المعجمي للأسماء التي يمكن أن ترجع إليها الضمائر بالإحالة النحوية anaphorically.

adverbium (الظرف): خاصية الظرف هي استعماله في تركيب مع فعل يكون (الظرف) تابعا له نحويا ودلاليا[45].

praepositio (حرف الجر): خاصية حرف الجر هي أن يستعمل بوصفه كلمة مستقلة قبل كلمات مصرفة الحالة، وأن يستعمل مركبا قبل كلمات مصرفة الحالة وغير مصرفة الحالــة معا[46]. وبرشيان ـ مثل التخني ـ اعتبر الجزء الأول من كلمات مثل própconsul «حاكم مقاطعة رومانية» و intercorrere «يخلط»، اعتبره حرف جر.

interiectio (تعجب): قسم من الكلمات مستقل نحويا عن الأفعال، ويدل على شعور أو حالة عقلية[47].

coniunctió (الرابطة): خاصية الروابط هي أن تربط نحويا بين عضوين أو أكثر من أي قسم آخر من الكلمات، وتدل على علاقة بين هذه الأعضاء[48].

عند النظر لمؤلف برشيان ككل يلاحظ المرء أنه في السياق الذي كان يكتب فيه، والشكل الذي قدم فيه وصفه للغة اللاتينية، أنه لم تكن هناك ضرورة لتقديم تعريف للقواعد ذاتها. وعندما قام علماء القواعد اللاتين الآخرون بتعريف المصطلح، لم يقوموا بأكثر من اختصار التعريف المطروح في بداية «التخني» لثراكس. ومن الواضح أن مكانة القواعد ومكانة الدراسات اللغوية بشكل عام في التعليم كانت هي نفسها كما عرضت بدقة وتبصر في «التخني»، وقد كررها كونتليان بشكل مختصر. أما إغفال برشيان لها فهو دليل على الاستمرار الطويل للأوضاع والأهداف المسلم بصحتها طوال هذه القرون.

نظم برشيان الوصف الصرفي لصيغ الأسماء والأفعال وصيغ الكلمات المتصرفة الأخرى عن طريق تحديد الصيغ الأصلية أو الأساسية، وهي في الأسماء صيغة المفرد المرفوع، وفي الأفعال صيغة المضارع الإخباري المبني للمعلوم للشخص الأول المفرد، ومن هذا انتقل للصيغ الأخرى عن طريق سلسلة من تغييرات الحروف. والحرف عنده كما هو عند بقية القدماء الغربيين يعني معا وحدة الكتابة الصغرى والوحدة الفنلجية الصغرى(*)، والخطوات المستخدمة في هذه التغييرات ذات علاقة ضعيفة أو دون علاقة

(*) الوحدة الفنلجية الصغرى ـ دون تعقيدات نظرية ـ هي الفونيم في حالتنا، والوحدة الكتابية الصغرى هي ـ غالبا ـ الحرف الكتابي المعبر عن الوحدة الفنلجية الصغرى (المترجم).

بالتحليل المرفيمي، ولكنها تسير في الطريق المطلوب لصياغة القواعد الصرفية في القواعد القائمة على الكلمة كما سادت في العصور القديمة[49] .

والتصريفات accidents أو الفئات التي صنف فيها برشيان الأشكال المختلفة في الصيغة للكلمات المتصرفة أو المتغيرة شملت كلا من مجموعتي الكلمات الاشتقاقية والمتصرفة، وهو في هذا يتبع تطبيق اليونانيين في عدم التمييز بين المجموعتين، ولم يلتفت لوجهة نظر فارو المهمة، ولكن برشيان كان ملما بشكل واضح بنظرية إقامة الفئات وباستعمال الأوصاف الدلالية لتعيينها، فالأفعال قد عرفت بالرجوع إلى الحدث أو المطاوعة، ولكنه أشار إلى أنه على مستوى نظرة أعمق ("si quis altius consideret") فإن مثل هذا التعريف سوف يحتاج إلى تحديد أكبر، وأسماء الحالات في معظم الأحوال قد أخذت من مجرد استعمال واحد متكرر نسبيا، من بين عدد من استعمالات ينطبق على الحالة المعينة المسماة [50]. وقد يكون هذا أكثر حكمة ـ وإن يكن أقل إثارة ـ من البحث المستمر عن معنى مشترك أو أساسي يوحد كل الوظائف الدلالية المرتبطة بكل مجموعة مفردة من صيغ الحالة المتطابقة صرفيا. ووضع الحالات الست للأسماء اللاتينية يتضح لبقية الاستعمالات، ليس على أساس صيغ الحالات المختلفة فعليا لأي اسم أو لأي تصريف واحد للأسماء، ولكن على أساس الوظائف الدلالية والنحوية المرتبطة بشكل نظامي بالاختلافات في الشكل الصرفي عند نقطة معينة في الجداول التصريفية لنوع الاسم ككل، وعلاقات الكثير بالواحد - many one الموجودة في اللغة اللاتينية (كما في لغات أخرى)، بين الصيغ والاستعمالات وبين الاستعمالات والصيغ تؤخذ في الاعتبار على نحو صحيح في التحليل[51] .

تبنى برشيان في وصف صرف الأفعال في اللغة اللاتينية النظام الذي وضع في «التخني» لأفعال اللغة اليونانية (صص 73, 74 من قبل) مميزا بين الفعل المضارع والماضي والمستقبل، مع تقسيم دلالي رباعي للفعل الماضي إلى غير التام والتام والبسيط (aorist) والأسبق pluperfect، مسلما باندماج معاني التام والبسيط في صيغ الزمن التام في اللاتينية[52] . وباستثناء إدراك برشيان للوضع القواعدي الكامل لصيغ الزمن التام في اللاتينية، فإن تحليله القائم على تحليل «التخني» يعتبر أدنى مستوى بشكل واضح من

التحليل الذي قام به فارو تحت تأثير الرواقيين، فالتمييز بين وجهة الحدث التام ووجهة الحدث غير التام المرتبطين باختلافات في صيغة الساق، والذي أولاه فارو عناية كبيرة، هذا التمييز مفتقد، على الرغم من أن برشيان يعترف بالفرق الصرفي بين صيغتي الساق اللتين تقوم عليهما الأزمنة الستة[53]. ويبدو أن برشيان قد أساء - بشكل غريب - فهم استعمال ومعنى المستقبل التام في اللاتينية والذي يسميه المستقبل الشرطي subjunctive، رغم أن صيغة الشخص الأول المفرد التي استشهد بها (مثل «I shall have written سأكون قد كتبت لتوي») هي بالضبط الصيغة التي تميز تصريفها عن تصريف الشرطي التام (scripserim «كتبت»)، وفي الواقع هي تميز نفسها عن أي صيغة فعل للشرط، فليس هناك صيغة للشخص الأول تنتهي بالنهاية ó -، ويبدو هذا مدهشا تماما لأن الصيغ اليونانية المماثلة مثل «tetypsomai (I shall have beaten myself) سأكون قد تفوقت على نفسي توا»، قد حددت بشكل صحيح[54]. وربما كان عذره هو أن أسلافه اليونانيين قد استبعدوا المستقبل التام من مخططهم للأزمنة، بما أن هذا الزمن لم يكن يستعمل كثيرا في اليونانية، كما كان هناك شعور بأنه من خواص اللهجة الأتيكية (ص 64 من قبل). ومثل هذا الاعتماد على إطار التصنيف اليوناني، ربما يكون قاده للتسليم بكل من صيغة الشرط (التابعة) وبصيغة التمني (المستقلة التي تعبر عن الرغبة) في الفعل اللاتيني، رغم أن اللاتينية - عكس اليونانية - لا تميز صرفيا بين الصيغتين، وبما أن برشيان في الواقع يسلم بهذا فإن هذا يدحض إقراره الأول الصريح، بوضع فئة قواعدية أساسية (صص 17 - 103 من قبل)[55].

ورغم أن مثل هذه التحريفات التي تعزى أساسا للثقة المفرطة بقابلية «التخني» للتطبيق بكل تفصيلاته، والثقة في إمكانية تطبيق تنظيم أبولنيوس لليونانية على اللغة اللاتينية، فإن الصرف عند برشيان صرف مفصل بشكل نظامي، ومحدد بدقة في معظم الأحوال. ولكن معالجته للنحو في الكتابين الأخيرين تعتبر أدنى من ذلك كثيرا، وإن عددا من الملامح المنظمة التي نجدها في القواعد الحديثة للاتينية ملامح مفتقدة في وصفه، وهذه الملامح قد أضافها علماء العصور الوسطى وعلماء عصر النهضة إلى الأساس الصرفي لبرشيان. والثقة بنظرية برشيان النحوية نادرا ما تزيد

عند قراءة جزمه بأن نظام الكلمات الأكثر شيوعا في اللاتينية، وهو الاسم المرفوع أو الضمير (المسند إليه أو الفاعل subject) المتبوع بالفعل، هو النظام الطبيعي، لأن الجوهر substance أسبق من الفعل الذي يقوم به[56]، وهذه هي أخطار التفلسف على أساس غير مناسب للواقع الملاحظ empirical.

صنف برشيان الأفعال في الوصف النحوي للاتينية على أساس نفس المخطط الذي وضعه علماء القواعد اليونانيون للغة اليونانية، وتتقسم الأفعال على أساسه إلى مبني للمعلوم (متعد) ومبني للمجهول، ومحايد neutral (لازم)، مع إشارة وافية للأفعال مجهولة الصيغة معلومة المعنى deponent، المبنية للمجهول في صيغتها الصرفية، ولكنها مبنية للمعلوم أو لازمة في المعنى والنحو، ودون أزمنة مقابلة مبنية للمجهول[57]، والأفعال المتعدية هي تلك الأفعال التي ترتبط بحالة غير الرفع (laudó té «أنا أمدحك» و noceó tibi «أنا أظلمك» و egeo miserantis «أحتاج شخصا يرفق بي»)، ويلاحظ عدم المطابقة بين صيغ حالة غير الرفع والأفعال غير المصدرية[58]. ولكن المصطلحين «فاعل أو مسند إليه subject»، ومفعول به object لم يكونا مستعملين في أيام برشيان بوصفهما مصطلحين قواعديين، رغم أن استعمال subiectum ليدل على المسند إليه المنطقي في قضية كان استعمالا شائعا.

وقد أشار برشيان إلى التركيب الأبلتي الأساسي برغم أن الاسم الفعلي لهذا التركيب كان ابتداعا متأخرا، وقد قدم بشكل صحيح وصفا وأمثلة لهذا الاستعمال للحالة الأبلتية: mé vidente puerum cecidisti «عندما رأيته ضربت الولد» و Augusto imperatore Alexandria provincia fucta est «عندما كان أغسطس إمبراطورا صارت الإسكندرية مقاطعة»[59].

لم يكن عند برشيان إلا القليل ليقوله عن التحليل النظامي للتراكيب النحوية للغة اللاتينية، فهو - مثل أبولنيوس قدوته (ص 78 من قبل) - كان قويا في تقديم الأمثلة التفصيلية، ولكنه كان ضعيفا على مستوى النحو النظري نفسه، فقد عرفت علاقة التبعية بوصفها الوظيفة النحوية الأساسية للاسم الموصول quod, quae, qui، وللكلمات المشابهة التي تستعمل لتجعل الفعل أو العبارة كلها جزءا من عبارة أخرى[60]. ومفهوم التبعية قد استخدم لتمييز الأسماء (والضمائر التي تستعمل مكانها) والأفعال عن كل الكلمات الأخرى، بما أن هذه الأخيرة كانت بشكل عام تستعمل فقط نحويا في

علاقات تبعية للأسماء والأفعال، هذين النوعين من الكلمات القادرة بأنفسهما على تكوين جمل تامة من النمط المفضل الإنتاجي productive في اللاتينية[61]. ولكن في التصنيف الفرعي لأدوات الربط في اللاتينية، فإن التمييز القواعدي الأساسي بين الروابط الاتباعية subordinating والروابط التكافئية coordinating لم تتم الإشارة إليه، فأداة الربط التكافئية tamen «مهما» صنفت مع الرابطة الاتباعية quamquam و quamsi «على الرغم»[62].

مرة أخرى يجب القول إنه من السهولة بمكان تفهم الوقائع بعد حدوثها، والإشارة إلى الأخطاء والنواقص عند أحد الأسلاف، وإنه لأكثر إنصافا وفائدة معا أن ندرك حجم إنجاز برشيان، في وصفه الواسع والمفصل والشامل للغة اللاتينية عند المؤلفين الكلاسيكيين، هذا الوصف الذي عمل لمدة ثمانية قرون بوصفه الأساس للنظرية القواعدية والأساس لتدريس اللاتينية حتى الوقت الحاضر، والإضافات والتصحيحات الكثيرة التي احتاجت الأجيال المتأخرة إلى أن تقوم بها، خاصة في مجال النحو يمكن أن تدمج في الإطار المرجعي الذي استخدمه برشيان وقدم فيه شروحه.

إن أي تقسيم لعلم اللغة (أو أي علم آخر) إلى مراحل مختلفة بشكل حاد، عبارة عن تشويه للسير التدريجي للاكتشافات والنظريات والمواقف، التي تميز الجانب الأكبر من التاريخ الفكري للإنسان، ولكن من المعقول أن ننهي الحديث عن العلم اللغوي الروماني ببرشيان، فهو في تطبيقه التفصيلي (وإن يكن مضللا في مواضع معينة) للنظرية اليونانية والتحليل اليوناني على اللغة اللاتينية، يمثل ذروة الأهداف الواضحة لمعظم العلماء الرومان الذين وصلت إلى علمهم ذات يوم المؤلفات اللغوية اليونانية، وهذا ينسجم تماما مع الموقف الروماني في مجال الفكر والفن نحو «اليونان الأسيرة» التي أسرت آسرها غير المتحضر، وعلمت اللاتيني latium الخشن الفنون الجميلة[63].

يعتبر عمل برشيان أكثر من مجرد نهاية لعصر، لقد كان أيضا جسرا بين العصور القديمة والعصور الوسطى في العلم اللغوي، فمصنف برشيان في القواعد Institutiones grammaticae المستعمل بشكل واسع جدا، وصل لمئات المخطوطات، وشكل أساسا لقواعد اللاتينية في العصور الوسطى، وقاعدة لفلسفة العصور الوسطى اللغوية التي سوف ندرسها في الفصل

التالي. لقد كانت قواعد برشيان ثمرة لفترة طويلة من الوحدة اليو - رومانية، وهذه الوحدة كانت قد انهارت في الوقت الذي كتب فيه برشيان قواعده. وفي القرون التالية تجزأ الغرب اللاتيني بشكل غير متصور، وخلال عصور الفوضى تلك تعتبر دراسات علماء القواعد وتدريسهم، سلاحا من أسلحة الدفاع الرئيسية عن التراث الكلاسيكي في ظلمات العصور الوسطى[64].

مراجع إضافية

H. ARENS, Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/Munich (second edition), 1969, 30-4.

M. BARATIN and F. DESBORDES, L'analyse linguistique dans l'antiquité classique, 1, Les théories, Paris, 1981.

R. BOLGAR, The classical heritage and its beneficiaries, Cambridge, 1954.

J. COLLART Varron grammairien latin, Paris, 1954.

D. FEHLING, 'Varro und die grammatische Lehre von der Analogie und der Flexion', Glotta 35 (1956), 214-70, 36 (1958), 48-100.

H. NETTLESHIP, 'The study of grammar among the Romans in the first century A.D.', Journal of philology 15 (1886), 189214.

R. H. ROBINS, Ancient and mediaeval grammatical theory in Europe, London, 195l, chapter 2.

J. E. SANDYS, History of classical scholarship (third edition), Cambridge' 1921, volume 1.

T. A. SEBEOK, Historiography of linguistics, 127 - 77.

H. STEINTHAL Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Romem (second edition), Berlin, 1890.

D. J. TAYLOR, Declinatio: a study of the linguistic theory of Marcus Terentius Varro. Amsterdam, 1975.

____ (ed.), The history of linguistics in the classical period, Amsterdam 1987 (= Historiographia linguistica 13.2-3, but with different pagination).

ملاحظات ومراجع

1. E. Gibbon, The decline and fall of the Roman Empire (J. B. BURY), London, 1909, volume 1, 85-6.

2. VIRGIL, Aeneid 6, 851-3:Tu regere imperio populos, Romane, memento (hae tibi erunt artes), pacisque imponere morem, parcere subiectis et debellare superbos.

3. Noctes Atticae 17.17.2; H. S. GEHMAN The interpreters of foreign languages among the ancients, Lancaster, Pa., 1914.

4. cp. FEHLING, 1956-58. On the possible preservation by Varro (De lingua Latina 8.68-9) of part of the analogyanomaly argument among Greek scholars, Robins, 'Varro and the tactics of analogist grammarians', Studies in Greek, Italic, and Indo-European linguistics (ed. A. M. DAVIES and W.. MEID), Innsbruck, 1976, 333-6. That this controversy was fairly widely current among educated Romans is evidenced by the interest said tolerance been taken in it by Julius Caesar, who himself wrote on analogy in language (GELLIUS, Noctes Atticae 1.10.4; 9.14.25; 19.8; SUETONIUS, Caesar. 56).

5. H. FUNAIOLI, Grammaticorum Romanorum fragmenta, Leipzig, 1907, 265: Ars grammatica scientia est eorum quae a poetis historicis oratoribusque dicuntur ex parte maiore.

6. De lingua Latina 8. I.

7. ibid. 8.5.

8. ibid. 5.3, 5.73.

9. ibid. 5.37, 5 78, 6.46.

10. ibid. 6.37-8, 8.3.

l1. ibid. 7.4.

12. ibid. 9.3, 10.74.

13. ibid. 9.56.

14. ibid. 8.21-2, 9.35, 10.16.

15. ibid. 8.54; CHARISIUS, Ars grammaticae I (H. KEIL, Grammatici Latini 1, Leipzig, 1857, 104).

16. VARRO, op. Cit., 6.36, 8.44, 10.17.

17. ibid. 8.9-10.

18 ibid. 9.96-7, 10.48.

19. PRISCIAN 8.10.54

20. VARRO, op. Cit., 8 16:

21. ibid. 10.62.

22. On Varro's linguistic theory in relation to modern linguistics, cp. D. T. LANGENDOEN, 'A note on the linguistic theory of M. Terentius Varro', Foundations of language 2 (1966), 33-6; TAYLOR,

1975.

23. PRISCIAN, Institutio de nomine proriomine et verbo 38, Institutiones grammaticae 5.7.38; PROBUS, Instituta artium (H. KEIL, Gramrnatici Latini, Leipzig, 1864, volume 4), 48.
24. Téchné, § 20 (L BEKKER. Anecdota Graeca 2. Berlin. 1816, 640); APOLLONIUS DYSCOLUS, Syntax 1.43.
25. As noun, PRISCIAN 2.4.18, 2.6.30, 13.3.11; as pronoun, PROBUS, Instituta (KEIL, Grammatici 4), 133.
26. APOLLONIUS, De adverbio, BEKKER, Anecdota Graeca 2, 531.
27. CHARISIUS, Ars grammaticae 2.16 (KEIL, Grammatici I (1857), 238): Nihil docibile habent, significant tamen adfectum animi.
28. QUINTILIAN, Institutio oratoria 1.4.2-3, 1.4.26.
29. PRISCIAN 5.14.79.
30. Their works are published in the eight volumes of H. KEIL, Grammatici Latini, Leipzig, 1855-1923.
31. PRISCIAN 8.17.96.; De figuris numerorum 9.
32. PRISCIAN I 1.1.1.
33. De differentiis et societatibus Graeci Latinique verbi, KEIL, Grammatici 5, Leipzig, 1923, 595-655.
34. ‘Artis grammaticae maximi auctores’, dedicatory preface 1-26.1.1, 11.1.1.
35. 1.2.3, 1.3.7-8. On the pronunciation of Latin, W. S. ALLEN, Vox Latina, Cambridge, 1965.
36. 2.3.14: Dictio est pars minima orationis constructae; 2.4.15: Oratio est ordinatio dictionum congrua, sententiam perfectam demonstrans.
37. 2.3. 14.
38. 17.16.104
39. 2.4.17.
40. 2.4.18: Proprium est nominis substantiam et qualitatem significare; 2.5.22; Nomen est pars orationis, quae unicuique subiectorum corporum seu rerum communem vel propriam qualitatem distribuit.
41. 2.4.18: Proprium est verbi actionem sive passionem . . . significare; 8.1.1.: Verbum est pars orationis cum temporibus et modis, sine casu, agendi vel patiendi significativum.
42. 2.4.18: Participium iure separatur a verbo, quod et casus habet, quibus caret verbum, et genera ad similitudinem nominum, nec modos habet, quos continet verbum; 11.2.8: Participium est pars orationis, quae pro verbo accipitur, ex quo et derivatur naturaliter, genus et casum habens ad similitudinem nominis et accidentia verbo absque discretione personarum et modorum. The problems arising from the peculiar position of the participle among the word classes, under the classification system prevailing in antiquity, are discussed in 11.1.1.-11.2.8.
43. 2.4.18: Proprium est pronominis pro aliquo nomine proprio poni et certas significare personas; 12.1.1: Pronomen est pars orationis. quae pro nomine proprio uniuscuiusque accipitur personasque

finitas recipit.

44. 13.6.29: Substantiam significat sine aliqua certa qualitate (cp. 13.6.31).

45. 2.4.20: Proprium est adverbii cum verbo poni nec sine co perfectam significationem posse habere; 15.1.1: Adverbium est pars orationis indeclinabilis, cuius signilicatio verbis adicitur.

46. 2.4.20: Praepositionis proprium est separatim quidem per appositionem casualibus praeponi . . . coniunetim vero per compositionem tam cum habentibus casus quam cum non habentibus; 14.1.1: Est praepositio pars orationis indeclinabilis, quae pracponitur aliis partibus vel appositione vel compositione.

47. 15.7.40: Videtur affectum habere in se verbi et plenam motus animi significationem, etiamsi non addatur verbum demonstrare.

48. 2.4.21: Proprium est coniunctionis diversa nomina vcl quascumque dictiones casuales vel diversa verba vel adverbia coniungere; 16.1.1: Coniunctio est pars orationis indeclinabilis, coniunctiva aliarum partium orationis, quibus consignificat, vim vel ordinationem demonstrans.

49. For a modern version of such a statement of morphological rules cp. P.. H. MATTHEWS, ‘The inflectional component of a word-and-paradigm grammar’, Journal of linguistics 1 (1965), 139-71.

50. 8.2.7; 5.13.73.

51. 17.25.182-6.

52. 8.8.38; 8.10.51-8.

53. 8.10.55.

54. 8.8.38.

55. 18.8.76; 18.10.79; 18.10.82.

56. 17.16.105-6.

57. 8.2.7-8; 8.3.14.

58. 17.15.93; 17.21.153-4.

59. 18.2.30.

60. 17.5.30.

61. 17.2.12-13.

62. 16.1.1; 16.2.10.

63. HORACE, Epistles 2.1.156-7: Graccia capta ferum victorem cepit et urtes Intulit agresti Latio.

64. F. LOT, La fin du monde antique et le début du moyen âge, Paris 1951, 189. Since Keil’s edition of Priscian (Grammatici 2 (1885) xiii) it has been the tradition that a thousand Priscian manuscripts were known to have existed. H. BUTTENWIERSER (Speculum 17 (1941), 50-5) reduces this figure to around 370; but this is impressive enough, when one bears in mind that before the invention of printing every manuscript represented an individual copy. For the most recent enumeration of Priscianic manuscripts see M. PASSALACQUA, I codici di Prisciano, Rome, 1978.

4 العصور الوسطى

«العصور الوسطى» مصطلح يستعمل ليصف ويميز فترة من التاريخ الأوروبي، تقع ما بين تفكك الإمبراطورية الرومانية بوصفها منطقة موحدة حضاريا وإداريا، وبين سلسلة الوقائع والتغيرات الثقافية التي عرفت بعصر النهضة، واعتبرت بشكل عام مرحلة بداية للعصر الحديث. والتقسيم إلى مراحل بهذا الشكل عبارة عن وسيلة توصيف من قبل المؤرخ، وليس تسجيلا دقيقا للوقائع، «فانحدار وسقوط» الإمبراطورية الرومانية، ونهضة المعرفة ونشأة الحركة الإنسانية وحركة القوميات والإصلاح الديني، والملامح الأخرى التي اعتبرت على الإجمال مميزات ومكونات لعصر النهضة، ليست عبارة عن وقائع يمكن تعيينها عند نقاط معينة في الزمان، بل هي تلخص حشدا من الوقائع ذات الأهمية التاريخية، وقد يكون أهم من هذا أنها «تلخص التحولات في المواقف وفي أساليب السلوك التي حدثت بشكل تدريجي وفي أزمنة وأماكن مختلفة، ولكنها عملت معا لتفصل الوضع الأوروبي بعدها بوصفه وضعا مختلفا عما سبق بشكل مسلم به ولا يمكن تغييره. وإن أي تاريخ يتخذ بشكل رمزي بوصفه بداية أو نهاية للعصور الوسطى سيكون

بالضرورة تاريخا تعسفيا، وإذا ما اتخذ مثل هذا التاريخ فسوف يكون بأي حال تاريخا مضللا بالمعنى الحرفي للكلمة.

ووصف «الوسطى» بالطبع لا يعني شيئا لأي شخص عاش في فترة العصور الوسطى، فهذا المصطلح ينطلق من أهل عصر النهضة الذين - من بين إنجازات أخرى - مدوا أيديهم مرة أخرى لحضارة العصر الكلاسيكي وإنسانيته، عبر هاوية الظلام والبربرية المعترضة بينهم وبين ذاك العصر[1]. وبهذا التعميم الجارف فإن الناس في بداية العصر الحديث في أوروبا قد ضخموا من ظلمة العصور الوسطى، وبخسوا قيمة الأنشطة والإنتاج الثقافي والفكري للعصور الوسطى. ولكن دون شك كان هناك انحدار على نطاق واسع للحياة الإنسانية خلال القرون التي أعقبت انهيار روما مباشرة.

تميزت القرون الستة الأولى التي أعقبت انحلال الإمبراطورية الرومانية الغربية غالبا، باعتبارها «العصور المظلمة» عن فترة العصور الوسطى المتأخرة، التي تقع ما بين حوالي عام 1100م وبين عصر النهضة، وفي هذه الفترة الأخيرة فإن ازدهار حضارة القرون الوسطى قد استعاد كثيرا من الأسس التي فقدت في سنوات الاضطراب الأولى[2]. ومهما يكن فإن المؤرخين حاليا يقدرون بشكل صحيح أعمال علماء العصور الوسطى المبكرة، والتي ليس أقلها دورهم في توفير مادة الدراسة للغة اللاتينية، إبان سني الأسرة الكارولينية، وعلى الأخص (في بداية القرن التاسع).

وفي هذا الوقت تحسن حال الإمبراطورية الشرقية، فرغم الهجوم على أقاليمها من كل جانب وتقلص مساحتها، فقد تواصل الفكر والمعرفة اليونانية إلى جانب انتشار المسيحية الرسمية التي اكتسبت بالتدريج وضعية الكنيسة الشرقية المستقلة، ولم يحدث انكسار حاد في الحياة المنظمة وفي الحضارة مثل الذي واجهه الغرب، وفيما يتعلق بالمعرفة لم تضع الفلسفة اليونانية والأدب اليوناني، وقد خضع المؤلفون اليونانيون القدماء للشرح والتفسير المستمرين، وقد كتب علماء بيزنطة شروحا وتعليقات على مؤلفات ديونسيوس ثراكس وأبولنيوس ديكولوس، واستمرت البحوث حول نظرية بعض الفئات القواعدية (قارن صص 82، 83 من قبل).

أخفقت الإمبراطورية الرومانية في الغرب تحت ضغط غزوات البرابرة، للتخوم التي كانت تقريبا ثابتة منذ أغسطس (27 ق.م - 14 م) وحتى ماركوس

أورليوس M. Aurelius (161 ـ 180م)، أخفقت فعليا في مقاومة مصادر التوتر، وسقطت أقاليمها في أيدي قبائل مختلفة، أغلبها جرمانية، وفي عام 410م عانت روما من إذلال نهب القوط الغربيين لها، وفي عام 476م قام المرتزقة الجرمان بسرعة بخلع رومولوس أغسطولوس R. Augustulus المسكين آخر الأباطرة في الغرب، وقضت أدوفاكر Odovacar وإيطاليا فيما بعد سبعة عشر عاما، في نطاق المملكة القوطية الشرقية تحت حكم تيودوريك Theodoric.

كانت أسباب انهيار إمبراطورية «المدينة الخالدة» مركز اهتمام للبحث الجاد منذ الفترة التي حاول فيها القديس أوغسطين ـ ونهب روما في ذاكرته ـ أن يبحث عن تفسير مسيحي للتاريخ الدنيوي secular «لمدينة الرب» (Civitas Dei)، وقد كانت الضغوط الخارجية منذ بداية القرن الثاني الميلادي بالتأكيد أكثر خطورة من ذي قبل، ومن المؤكد أنه يمكن للمرء أن يشير أيضا للضعف الخطير للشخصية والقرارات الخاطئة، من جانب هؤلاء الذين دعوا لمواجهة تلك الضغوط، وقد أدت الحرب الأهلية والغزوات، وأخيرا الحروب بين الإمبراطورية الشرقية وبين خلفاء الأباطرة الغربيين، أدت بشكل متصاعد لانهيار كامل في معايير الحياة والأمن والحضارة واسعة الأفق، كما تمتع بها الناس في القرنين الأولين للعصر المسيحي. وهناك واقعتان يمكن النظر إليهما كواقعتين رمزيتين، وهما تحصين روما أثناء حكم أورليان Aurelian (270 ـ 275م)، وتخريب القنوات التي تمد المدينة بالمياه أثناء حروب القرن السادس، التي شنها جستنيان في محاولاته لاستعادة فتح الأقاليم السابقة للإمبراطورية الرومانية القديمة. وقد اتسمت سنوات الكوارث تلك بمقدار من التضليل وقصر النظر والعناد في الجري وراء أهداف غير عملية وغير مرغوب فيها، ليس أكبر من المقدار الذي شوه النصف الأول من القرن العشرين، ولكن أسلافنا التعساء لم تكن لديهم المزايا غير المعهودة للتكنولوجيا الحديثة لإصلاح آثار التخريب الوحشي.

ولكن على المرء ألا يبالغ في رسم الظلام، فكثير من القبائل الجرمانية قد اعتنقت المسيحية، وكانت متلهفة لاعتبار نفسها جزءا من الإمبراطورية الرومانية، ومتلهفة في الواقع للدفاع عن أقاليمها التي غنمتها حديثا ضد القبائل الأكثر همجية التي دفع بها ضغطها في البداية عبر حدود

الإمبراطورية. وقد بقيت لاتينية الأقاليم الغربية حية في مواجهة كل الغزاة الجرمان الذين لم تترك لغتهم إلا قدرا قليلا من المواد المعجمية في اللغات الرومانسية الحديثة، المتحدرة من اللاتينية التي كان يتحدث بها في تلك المناطق.

لقد ضاع كثير من الأدب الكلاسيكي في الغرب بشكل لا يمكن تعويضه، ولبضعة قرون فإن دراسة اللغة اليونانية وحتى معرفتها قد تقلصت إلى حد كبير، وفي العصور المظلمة فإن مقدارا كبيرا من الفلسفة اليونانية التي كانت في المتناول كان في شكل ترجمات لاتينية لأعمال مختارة. وفي ظل اضطراب العصور وانهيار السلطة والمعايير الوثنية نمت مكانة الكنيسة بوصفها ملاذا وبوصفها راعية للمعرفة والتعليم، وبحيازتها لمراكز السلطة الدنيوية في الكنيسة البابوية وفي الأبرشيات. وأكثر الآداب تشكيلا لهذه الفترة هو الأدب المسيحي من مختلف الأنماط، وبإغلاق جستنيان للمدارس الفلسفية في أثينا سنة 529م، فإن المعرفة الفلسفية التي استمرت في الشرق والغرب كانت في ظل التسامح الديني أو الرعاية الإكليريكية، وكانت مدفوعة إكليريكيا في كثير من الأحيان.

ويرجع فضل كبير في حماية استمرارية التعليم والمعرفة للأديرة والكنائس، وأخيرا للجامعات التي أنشئت في بداية العصور الوسطى، وفي المعاهد التي سيطر عليها رجال الدين المسيحي. فإن الأدب الوثني - ونعني به الأدب الكلاسيكي للعصور القديمة - كان موضع ارتياب، وهناك أمثلة للعداء المتعمد لهؤلاء المؤلفين وللغة التي كتبوا بها في مقابل لاتينية الكتاب المقدس المتأخرة التي هي أقرب للدارجة، وفي مقابل لاتينية الاستعمال الكنسي. ولقد عانى القديس جيروم بالفعل من الشعور بالذنب لاهتمامه الفائق بششرون وبالكلاسيكيات على حساب الكتاب المقدس، كما أعلن البابا جريجوري (590 - 604م) ازدراءه لقواعد دوناتوس في تطبيقها على لغة الوحي الإلهي، وهناك رئيس دير فرنسي في القرن التاسع كان حريصا على أخذ الأمثلة التي يستعملها في محاضراته عن القواعد من الكتاب المقدس، حتى يتفادى استياء رجال الدين. ولكن في عدد من أماكن التعليم استمرت دراسة الأدب القديم، وتم نسخ وحفظ مخطوطات قديمة، كما كانت تدرس النظرية القواعدية[3].

ظلت اللاتينية لغة للمعرفة، وازداد سلطانها باستعمالها لغة للأدب البطريركي، ولغة للطقوس والإدارة في الكنيسة (الرومانية) الغربية، وهذا وحده ضمن للغة مكانة كبيرة، وقد مثلت الدراسات في قواعد اللاتينية إلى حد كبير الدراسات اللغوية في السنوات الأولى للعصور الوسطى. وقد قام تعليم العصور الوسطى على أساس «الفنون العقلية السبعة»، وهي القواعد والجدل (المنطق) والبلاغة التي تكون القسم الأول trivium، والموسيقى والحساب والهندسة والفلك، وهي القسم الثاني أو quadrivium. والنظم التالي يلخص وظائفها:

Gram loquitur; dia vera docet; rhet verba colorat;

Mus canit; ars numerat; ge ponderat; ast colit astra[4].

وهذه المصطلحات والتقسيم إلى trivium و quadrivium، كانت من عمل بويثيوس Boethius (حوالي 500م) العالم الروماني ورجل الدولة الذي من بين كتاباته عدد من الترجمات اللاتينية لقدر من مؤلفات أرسطو التي شكلت جزءا طيبا من المقدار المحدود من الأدب اليوناني المتيسر في الغرب في بداية العصور الوسطى.

كانت القواعد إذن هي الأساس لثقافة القرون الوسطى بوصفها فنا عقليا بذاته، وبوصفها ضرورة لقراءة اللاتينية وكتابتها بشكل صحيح. وكانت كل هذه الدراسات تابعة للاهوت، أي دراسة الدين المسيحي والتعاليم المسيحية، ولكن كمثال على استمرار الموضوعات الثقافية يمكن للمرء أن يتتبع إلى الوراء تنظيم الفنون السبعة في المرحلة الكلاسيكية. وقد عرف عن فارو أنه كتب Disciplinae، وهي موسوعة عن موضوعات التعليم تضم الفنون السبعة إلى جانب الطب والعمارة، وكان هذا هو النموذج لمخطط أوغسطين للفنون السبعة (وضع فيه الفلسفة بدلا من الفلك). وحوالي نفس الوقت كتب مارتيانوس كابلا (القرن الخامس الميلادي) M. Capella، وصفا للفنون السبعة في صورة مجازية لزواج عطارد بالفنلجيا، وكانت الإشبينات السبع في الزواج هي القواعد والمنطق والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى. وقد وُجد أن أسلوب كابلا أسلوب ممل، ولكن الكتاب أصبح نصا مدرسيا نموذجيا. أما كاسيودورس Cassiodorus الذي كان واحدا من هؤلاء المسؤولين أكثر من غيرهم عن تنظيم حياة الرهبنة

حول دراسة وحفظ الأدب الكلاسيكي والأدب المسيحي كليهما، فقد وصف أيضا الفنون العقلية السبعة في سياق كتابه Institutiones (حوالي 550م)[5].

كان هذا السياق الذي دُرِست فيه القواعد ودُرِّست في القرون الأولى بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية، وهذا العمل كان في الأغلب عمليا ومعياريا. وكان دوناتوس هو المرجع الرئيسي في السنوات السابقة لعام 800م، وبعد ذلك أصبح مؤلف برشيان - مع كثير من الشروح المساعدة - هو المصدر الرئيسي للتدريس، وهناك كتابات أخرى أخذت شكل الشروح والحواشي، ودعم هذه الثقافة اللغوية في ميادين أخرى مؤلفات معجمية وإتملجية مثل تلك المعروفة جيدا من كتابات أيسيدور الأشبيلي Isidore of Seville (القرن السابع).

والأهمية التاريخية لهذه الأعمال في تدريس اللاتينية، وبالتالي الحفاظ على الارتباط الثقافي الرئيسي بالماضي الكلاسيكي لا يمكن المبالغة فيها، ولكنها قد تم تجاهلها بشكل غير مسوغ في كتابة تاريخ علم اللغة، ربما بسبب الاهتمام النظري الكبير الذي أثاره علماء القواعد الفلسفيون في العصر السكولاستي الوسيط المتأخر، ففي المرحلة الأولى نالت المناهج والمادة المطلوبة للتدريس الناجح للاتينية كثيرا من العناية، خاصة أثناء المرحلة الكارولينية وبعدها. ومن المعروف أن شارلمان الذي توجه البابا إمبراطورا عام 800م، قد صدمه المستوى المتدني في اللاتينية الذي حصله رجال الدين عنده، ومن ثم جمع في بلاطه عددا من معلمي القواعد للشروع في رفع المستوى التعليمي، وكان ألكوين اليوركي Alcuin of York واحدا من هؤلاء العلماء. وتم أخذ الاستعداد المسبق من أجل احتياجات التلاميذ الذين كانت لغة الأم لديهم من الأسرة الجرمانية، وكان عليهم أن يتعلموا اللاتينية من نقطة الصفر، على نقيض الشبان الذين هم من أصل لاتيني في الإمبراطورية الغربية القديمة والذين تعلموا الحفاظ على المعايير الكلاسيكية للغة التي كانوا يتكلمون بالفعل تنوعات حديثة منها[6].

منذ الأيام الأولى للمسيحية نظر إليها ضمنيا بوصفها دينا عالميا، واعتبر النشاط التبشيري جانبا مهما من جوانب عمل الكنيسة في معظم المذاهب. وقد تطلب الاتصال بين المسيحيين وغير المسيحيين منذ البداية عملا لغويا ذا طبيعة عملية، كما ساهم على مر التاريخ في نمو وتطور العلم

اللغوي مساهمة مهمة. وقد خصص القديس جيروم المسؤول عن الترجمة اللاتينية للإنجيل (الترجمة المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية)، خصص إحدى رسائله لمناقشة نظرية الترجمة مسوغا ترجمة معنى بمعنى وليس كلمة بكلمة[7]. وتلك المعرفة التي لدينا عن اللغة القوطية جاءتنا كلها تقريبا من الأجزاء المترجمة من العهد الجديد لتلك اللغة، والتي قام بترجمتها ولفيلاس Uelfilas في القرن الرابع، كما أن الأبجدية المستعملة اليوم للغة الروسية وبعض اللغات السلافية الأخرى، يرجع أصلها لأبجدية استنبطها في القرن التاسع المبشران البيزنطيان، القديس سيريل Cyril والقديس ميثديوس Methodius من الكنيسة والإمبراطورية الشرقيتين، واللذان اقتبسا الأبجدية اليونانية ليستعملها السلاف الداخلون في المسيحية.

ورغم أن قدرا كبيرا من تدريس اللاتينية يجب أن يكون قد جرى خلال فترة حكم روما، فلا يعرف إلا القليل عن منهج هذا التدريس، أما التبشير المسيحي وإنشاء الأديرة والكنائس في بلاد أجنبية فقد أعطى زخما وحافزا جديدين لتدريس قواعد اللاتينية، كما أن المكانة التي تمتعت بها الكنيسة الرومانية في أوروبا المسيحية، والتي تمتعت بها اللاتينية، لغتها الرسمية، قد خلقت الرغبة في تعلم اللاتينية.

وفي إنجلترا كتب بيد Bede وألكوين قواعد اللاتينية في القرنين السابع والثامن. والمثال على القواعد التعليمية بشكل دقيق للغة اللاتينية هو كتابا إيلفرك Aelfric : « Latin grammar » و «Colloquium» (كتاب المحادثة اللاتينية) المصحوب بقائمة مفردات لاتينية - إنجليزية قديمة، وهذان العملان ألفا حوالي عام 1000م للأطفال الإنجليز المتحدثين بالإنجليزية القديمة (الأنجلو - ساكسونية)، وقد كان إيلفرك رئيسا لدير إنشام Eynsham بأكسفورد شير، وكتب كتيبا للتدريبات موجها للتلاميذ، وأقام وصفه للقواعد على أعمال برشيان ودوناتوس. وبشكل له دلالته بعض الشيء، قد أخبر قراءه بأن كتابه سوف يكون مناسبا بنفس الدرجة بوصفه مقدمة لقواعد الإنجليزية (القديمة) على الرغم من أن هذا لم يكن هو الهدف الصريح لكتابه[8]. ورغم إدراكه للفروق بين اللغتين، كما في مسألة توزيع الجنس بين الأسماء المتكافئة معجميا وانعدام التماثل التام بين نظامي الحالة فيهما[9]، فهو لم يسأل أو يناقش إمكانية تطبيق نظام برشيان على الإنجليزية القديمة، ولأن

كتابه كان واحدا من كتب القواعد الأولى المعروفة الموجهة تحديدا للمتعلمين من متحدثي الإنجليزية، فهو يمكن النظر إليه باعتباره بداية القواعد الإنجليزية المتأثرة باللاتينية على مدى عدة قرون.

بعد اعتناق أيرلندة للمسيحية في القرن الخامس الميلادي ازدهرت الثقافة اللاتينية بدرجة كبيرة في الألفية الأولى في مراكز التعليم التي أنشأتها الكنيسة، وحتى الغزوات الإسكندنافية في القرن التاسع كانت أيرلندة في طليعة الحضارة المسيحية، وقام رجال الكنيسة الأيرلندية بدور مهم في نشر المسيحية ومعرفة القراءة والكتابة في القارة الأوروبية، وقد درست القواعد اللاتينية في أيرلندة من خلال أعمال دوناتوس وبرشيان وأيسيدور، وقد اندمجت هذه المعرفة اللغوية مع التراث الشعري المحلي native لتقدم لنا طريقة التدريس الشعري والقواعدي للآثار الشعرية للعصور الوسطى، والتي استمرت في الواقع حتى القرن السابع عشر. والمصطلحات الفنية للمعرفة اللغوية الأيرلندية تظهر الجمع بين اقتراض المصطلحات اللاتينية وتعديلها وبين تطور مواز من المصطلحات الفنية المأخوذة من كلمات إيرلندية محلية. والمكون الأخير يضم مصطلحات ابتكرت لتغطي ملامح التغيرات الابتدائية initial ذات الأهمية الكبيرة في فنلجيا اللغات الكلتية وقواعدها، ولكنها غير موجودة في اللاتينية (أو في غيرها من اللغات الهندوأوروبية). وتظهر مخطوطة من القرن التاسع لقائمة مفردات عن برشيان التمثل الجزئي لمصطلحاته وأوصافه في اللغة الأيرلندية، كما أن كتاب Auraisept na nEces («الشعراء» أو «العلماء»، كتاب تمهيدي) الذي من الممكن أن ترجع بعض أجزائه إلى القرن السابع، يمثل أيضا امتزاج التراث اللغوي اللاتيني بالتراث اللغوي الأيرلندي، وهذا الكتاب ظل يدرس حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر[10].

وفي تاريخ العلم اللغوي فإن الجزء الثاني من العصور الوسطى، من حوالي عام ١١٠٠م وحتى نهاية العصر هو الأكثر أهمية، وكان هذا هو عصر الفلسفة السكولاستية الذي كان للدراسات اللغوية فيه مكانة مهمة، والذي توافر فيه مقدار كبير جدا من المؤلفات اللغوية، وهذا العصر نفسه قد تميز أيضا بازدهار عمارة العصور الوسطى (وهي ما يطلق عليها العمارة القوطية) وأدبها، وبإنشاء عدد من أولى الجامعات في أوروبا. وفي ذلك

الوقت كانت تحركات السكان كلهم قد توقفت، كما أن هيمنة الكنيسة الرومانية التي دعمها إنشاء نظام الرهبنة الدومنكاني ونظام الرهبنة الفرنسسكاني قد وفرت سلطة مركزية وحدت ـ رغم الخلافات والخصومات ـ كل الأنشطة الثقافية للناس بوصفها جانبا من جوانب خدمة الرب، وأخضعت كل الأنشطة العقلية لدراسة الإيمان.

كانت المؤلفات اللغوية حتى ذلك الوقت تعليمية تماما في أهدافها في أغلب الأحيان، واستنتاجية في مبادئها، وكانت تطبق في تدريس اللاتينية طبقا لمؤلفات دوناتوس وبرشيان. وقد تواصلت هذه المؤلفات التعليمية بشكل خالص خلال العصر السكولاستي، وقد نشر كثير من الكتيبات في قواعد اللاتينية في شكل نظم لمساعدة الدارسين على التذكر، وأحد هذه الكتيبات هو كتيب Doctrinale لأكسندر الفليدي Alex of Villedieu، الذي كتب حوالي عام 1200م، ويصل إلى 2645 بيتا من تفعيلة سداسية غير فصيحة نوعا ما[11]. ويبدو أن اللاتينية التي كانت تدرس في المدارس التي كان يستعمل فيها هذا الكتيب، كانت أقرب للاتينية المستخدمة في العصور الوسطى كلغة تعامل lingua franca في الحياة الثقافية من لاتينية المؤلفين الكلاسيكيين الذين استخدمهم برشيان كمادة لمؤلفه.

وكتيب الـ Doctrinale كتيب عملي بشكل صارم، وقد ظل كتابا مدرسيا رائجا يوصى به طوال العصور الوسطى، وفي بعض المدارس بعد ذلك، رغم أنه بوجه عام صار محلا للازدراء الذي واجهته قواعد العصور الوسطى ، من كل نوع من جانب الكلاسيكية الجديدة في عصر النهضة[12].

وفي هذا العصر ظهر وصف لغوي للغات أخرى يخدم أهداف القراءة والكتابة، والأدب الشعبي، والأغراض التعليمية، وقد أشرنا من قبل لمؤلف أيرلندي في هذا المجال، وهناك مؤلف في قواعد اللغة الويلزية معروف منذ القرن الثالث عشر، ويقال إن أصله يعود للقرن الثاني عشر[13]. كما عززت المكانة العالية لأدب التروبادور البروفنسالي الحاجة إلى معرفة قواعد اللغة البروفنسالية، وقد كتبت عدة أوصاف قواعدية لها منذ حوالي 1240[14].

وكان أحد الأمثلة الأكثر لفتا للأنظار على المؤلفات العملية في هذا العصر هو كتاب First grammatical treatise، لعالم إيسلندي غير معروف من

القرن الثاني عشر، أظهر أصالة ملحوظة واستقلالا في التفكير. والنص يأخذ عنوانه غير المناسب من وضعه الذي يحتله في صورة المخطوطة الأصلية، وبالتالي يعتبر المؤلف ببساطة «عالم القواعد الأول»[15]. والواقع أنه كان معنيا أساسا بإصلاح الإملاء، وبتحسين استعمال أبجدية مشتقة من الأبجدية اللاتينية لكتابة اللغة الأيسلندية كما كانت على أيامه. ولقد كان متمكنا إلى حد كبير من أعمال علماء القواعد اللاتين، وبالذات أعمال دوناتوس. ومن خلال معالجته للمشكلات الإملائية أظهر إدراكا للمبادئ المتضمنة في التحليل الفنلجي وفي تطبيقاته، وكان مثل هذا الأمر نادرا في هذه الفترة من تاريخ علم اللغة، وإلى جانب هذا فإن ملاحظاته عن نطق اللغة التي هي في حد ذاتها شاهد ذو قيمة على هذا الطور في تاريخ الأيسلندية، تظهر أنه كان عالم صوتيات أعلى مقاما من أي عالم أوروبي معروف معاصر له.

ويشير نصه الموجز إلى عدم ملاءمة الأبجدية الأيسلندية الموجودة والمستعملة عند ذلك الوقت، كما يسبق، بحوالي ثمانمائة عام، نظرية براغ الفنلجية في بعض الجوانب، وفي استخدام مفهوم الفونيم بدرجة ملحوظة. والأيسلندية في زمنه كانت تحتفظ بإمكانية وجود ستة وثلاثين صائتا متميزا، وهي عبارة عن تسعة متميزة في النوعية الصوتية، وكل منها يمكن أن يكون طويلا أو قصيرا، أو يكون أنفيا أو غير أنفي، وكان قادرا على تنظيم نوعيات الصوائت التسعة على مستوى البعد: مغلق - مفتوح بالرجوع للقيم الصوتية المحددة لحروف الصوائت اللاتينية a، e، i، o، u، مع وضع علامات إضافية للطول والأنفية (علامة نبر ونقطة فوق الحرف على التوالي) وترك غيابهما دون علامة، وبهذا حافظ على تمايز الصوائت الستة والثلاثين في الكتابة عن طريق استعمال أحد عشر رمزا فقط، هي تسعة حروف وعلامتان إضافيتان. وهذه الرموز كانت مطلوبة لكي تكون الأبجدية قادرة على التعبير عن أنواع النطق المتباينة.

هناك عدة صوامت تقع طويلة أو مضعفة في مقابل شريكاتها القصيرة أو المفردة. وقد اقترح صاحب النص كتابة الصوامت الطويلة بحروف كبيرة، من هنا فإن n تمثل [n] و N تمثل [n n]، وقد أشار إلى أن الفروق الصوتية التي تعتمد على السياق لا تحتاج إلى علامات مستقلة، ومن هنا فإن الصوتين

[ð] و [Ø] اللذين هما مغايران allophones للفونيم /Ø/ يعبر عنهما الحرف Þ، كما أن الصوت الطبقي الأنفي [η] مغاير الفونيم /n/ يمكن أن يعبر عنه من دون لبس في تتابع الحرفين ng(16).

وإضافة إلى نظريته الفنلجية المتقدمة فإن اكتشافه وإجراءاته في الإثبات كانت حديثة تماما، فالتمايزات الفونيمية تم التحقق منها عن طريق تنوعات منضبطة لجزء واحد في إطار ثابت لسلسلة منتظمة من الكل

مات مثل sár, syr, súr, sør, sór, sér, ser, sor، ووضحت عن طريق أزواج دنيا مختلفة من الكلمات التي يعتمد اختلاف المعنى فيها على الفرق في حرف واحد (فونيم واحد)، وقد تم سرد الأزواج عن طريق وضعها في جمل بعضها يكشف عن حسن إدراك واضح:

ليس كل المزر سواء Eigi eru ol ol at einu

Mjok eru beir menn framer, er eigi skammask at taka mina konu fra mér.

هؤلاء الرجال وقحاء،]هؤلاء [الذين لا يستحون أن يأخذوا زوجتي مني. (كتبت الأمثلة بالإملاء الإسكندنافية القديمة المعتادة، أما الأمثلة المتقابلة وحدها فهي التي كتبت بإملاء القواعدي الأول المصلحة).

وسواء في العرض النظري للقواعدي الأول وفي تطبيقاته العملية، أو في الأسلوب الذي يمكن أن يواجه اعتراضات متوقعة عليه، فإن قراءته ممتعة، ومع ذلك فإن مصير بحثه كان مصيرا مأساويا، فبعد القرن الثاني عشر بوقت قصير انتقلت أيسلندا لأوضاع غير مواتية بسبب تغيرات واضطرابات مناخية، وصارت أكثر انفصالا عن الحياة والمعرفة الأوروبية، وقد بقي النص غير منشور حتى عام 1818م، وبعد ذلك لم يكن معروفا كثيرا خارج إسكندنافيا، كما أن كثيرا من جوانب الموضوع الذي غطاه جيدا قد درسها مرة أخرى في العصر الحديث علماء اعتبروا روادا عند ذلك. والإنسان لا يكفيه فقط أن يكون لديه شيء ذو أهمية ليقوله لتكون له مكانة مضمونة في التاريخ، بل يجب أن يكون لديه أيضا وضع ثقافي موات لهذا الشيء لكي يعرف ويقدر.

إن التطورات الأكثر متعة وأهمية إلى حد كبير في علم اللغة في العصور الوسطى هي نتاج «القواعد التأملية»، أو رسائل De modis significandi («حول طرق التعبير») التي أنتجها عدد من الكتاب في أثناء المرحلة العليا من

الفلسفة السكولاستية (حوالي 1200 ـ 1350م). وقد ذهبت القواعد التأملية بعيدا وراء متطلبات تدريس اللاتينية، وقد وجدت الكتابات التي شرحت فيها هذه القواعد جنبا إلى جنب مع كتيبات التدريس النموذجية مثل الـ Doctrinale لألكسندر الفليدي.

تعتبر القواعد التأملية مرحلة محددة ومتميزة في النظرية اللغوية، والمؤلفون المختلفون فيما يتعلق بالمصطلح المفتاح modi significandi، أو كما يطلق عليهم أحيانا Modistae يمثلون بشكل جوهري وجهة النظر النظرية نفسها، ويشتركون في نفس المفهوم للعلم اللغوي، وفي أهدافه وفي مكانته بين الدراسات العقلية الأخرى. وبالطبع هناك الكثير من تفاصيل العرض التي يختلفون فيها كما هو منتظر، والدراسة والتقدير الكاملان لهذه المرحلة من علم اللغة يحتاجان إلى عناية خاصة بهذه الاختلافات، ولكن النظرة التاريخية العامة على اهتمامات الموضوع يمكنها التركيز على الخطوط العريضة للنظرية التي يشترك فيها كل هؤلاء العاملين في مجاله.

كانت القواعد التأملية محصلة لاندماج الوصف القواعدي للاتينية كما صاغه برشيان ودوناتوس في نظام الفلسفة السكولاستية. والسكولاستية ذاتها كانت نتيجة لاندماج الفلسفة الأرسطية على أيدي هؤلاء المفكرين مثل توماس الأكويني، في اللاهوت الكاثوليكي، وقد كانت السكولاستية نظاما من التفكير عززه كما تعزز به الإيمان المسيحي لذلك العصر، هذا التفكير الذي يمكن أن يوحد في إطاره كل فروع وأقسام المعرفة الإنسانية، والذي في إطاره أيضا يمكن التوفيق بين دعاوى العقل والوحي، وربما لم تكن بنية المعرفة قبل ذلك وبالتأكيد من بعده غير منقسمة في أعماقها.

كان ظهور الفلسفة السكولاستية ونموها نتيجة لعدد من العوامل التاريخية، بصرف النظر عن ظهور رجال ذوي قدرات عقلية وتفان من الدرجة الأولى، وقد تمت الإشارة إلى الهدوء والاستقرار العظيمين في العصور الوسطى المتأخرة. إضافة لهذا فإن معرفة اللغة اليونانية والكتاب اليونانيين، وفوق ذلك كله فإن معرفة الفلسفة اليونانية كما قدمها أرسطو قد أصبحت متاحة بسهولة للغرب منذ حوالي القرن الثاني عشر، كما أن الحملات الصليبية ـ رغم أنها لم تضف إلا قليلا من الفضل على المشاركين الغربيين فيها ـ قد أسفرت عن اتصالات مباشرة بين الكنيسة الرومان

والإمبراطورية الشرقية، وقد أثار الاستيلاء على القسطنطينية عام 1204م الاهتمام بالمصادر اليونانية للفلسفة الأرسطية (التي عرفت من قبل من الترجمات اللاتينية)، كما سمح بانتقال عدد من المخطوطات اليونانية إلى الغرب. ومع القرن الرابع عشر كانت اليونانية تدرس بانتظام في عدد من الجامعات الأوروبية، وقد دخل إلى بقية أوروبا الغربية من إسبانيا مقدار كبير من الكتابات الفلسفية اليونانية عن طريق ترجمات وشروح عربية ويهودية. وأثناء الاحتلال(*) العربي لإسبانيا كانت طليطلة بوجه خاص مركزا لنقل الترجمات العربية لأرسطو إلى اللغة اللاتينية، وقد عرف الكثير من الفلاسفة السكولاستيين الفلسفة الأرسطية ودرسوها من خلال الترجمات اللاتينية وليس من خلال لغتها اليونانية الأصلية، وقد ساعدت الشروح التي قام بها العلماء العرب، ساعدت السكولاستيين على فهم فلسفة أرسطو، وابن رشد وابن سينا هما أكثر العلماء العرب شهرة في هذا المجال.

أعطى الفلاسفة المسيحيون الأوائل أهمية أكبر لأفلاطون وللتفكير الأفلاطوني مما أعطوا لأرسطو، لأن النظرية الأفلاطونية كانت إلى حد ما متاحة بسهولة أكبر من خلال كتابات الأفلاطونيين الجدد في القرن الثالث وما بعده. أما أعمال أرسطو فلم تقبل دون كفاح في كل المراكز العلمية، ولكن مذهب القديس توماس كان حاسما في جعل أرسطو هو الفيلسوف المسيطر في التفكير المسيحي للعصور الوسطى.

إن مجرد وصف اللغة اللاتينية كما وضعه برشيان ودوناتوس قد اعتبر في إطار الفلسفة السكولاستية عملا غير ملائم، مع أنه قد يكون مفيدا من الناحية التعليمية. وهذا التغير في تصور الأهداف الحقيقية للدراسات القواعدية عالية المستوى قد تم بالتدريج، وهو نفس ما حدث للمصطلحات التي وصفت بها القواعد التأملية، وقد بدأ الشراح بالفعل يذهبون إلى أبعد من الشرح والتفسير المباشر، وتم التعبير عند ذلك عن وجهة النظر القائلة بأن برشيان لم يتعمق موضوعه بشكل كاف بمجرد وصف اللغة، وكان عليه أن يفحص النظرية الأساسية والمسوغ للعناصر والفئات التي استخدمها، وقد اتهم وليم الكونشي William of Conches (القرن الثاني عشر) برشيان

(*) من باب الأمانة التزمنا الدقة في الترجمة بغض النظر عن الرؤية التاريخية لوقائع التاريخ (المترجم).

بأنه تجاهل بحث الأسس السببية لأجزاء الكلام المختلفة وتصريفاتها[17].
وتظهر بعض التهم الموجهة لبرشيان ولعلماء القواعد اللاتين الآخرين، تشابها لافتا للنظر مع تهم تجاهل الكفاية التعليلية للنظرية لمصلحة كفاية الملاحظة للمادة المسجلة، تلك التهم التي وجهها في الوقت الحاضر علماء القواعد التوليديون، ضد سابقيهم الوصفيين بشكل خالص والمرتبطين ببلومفيلد Bloom Field، وبالاتجاهات السائدة في المؤلفات اللغوية في الربع الثاني من القرن العشرين. ومنذ القرن الثاني عشر فصاعدا وفرت تلك الملاحظات الحافز الذي أدى إلى ظهور القواعد التأملية، والنظرية في اللغة تقوم في إطار فلسفة العصر، كما كان هناك تزايد ملحوظ في حجم البحوث القواعدية والدراسات التي ظلت متواصلة[18].

كتب بيتر هلياس P. Helias في أواسط القرن الثاني عشر تعليقا على برشيان بحث فيه عن التفسيرات الفلسفية لقواعد rules القواعد التي وضعها. وتفحص عمل هلياس في علاقته بعدد من الشراح الذين سبقوه يدل على أنه لم يكن رائدا بشكل كبير في تطبيق المنطق على المسائل اللغوية، ولكنه كان بالأحرى واحدا من علماء القواعد الأوائل الذين قدموا تنظيما معينا للمقولات المبكرة غير المنظمة إلى حد ما[19]. وفيما بعد اعتبر دور الفيلسوف في القواعد دورا رئيسيا، فالأساس النظري للقواعد، بوصفه متميزا عن مجرد عرضها للتلاميذ، كان هو عمل الفيلسوف، «فليس هو عالم القواعد بل الفيلسوف الذي يدرك بدقة الطبيعة المحددة للأشياء هو الذي يكتشف القواعد»، «وكما يكون الرجل الساذج بالنسبة للحكيم يكون القواعدي الجاهل بالمنطق بالنسبة للشخص الحاذق في المنطق»[20].

من هذا الموقف ظهر بشكل ثابت مفهوم قواعد أساسية عمومية universal، وهو بحث متكرر منذ ذلك الوقت للغويين النظريين، والقواعديون الأوائل لم يقوموا بدعاوى عمومية، ولم يكونوا في حاجة إلى ذلك، فعنايتهم كانت في البداية محصورة في اليونانية، ثم في اليونانية واللاتينية، ولغتان فقط يمكن أن تلائمهما نفس المجموعة من الأقسام والفئات. وفي العصور الوسطى ظلت اللاتينية هي لغة العلماء الضرورية الوحيدة في الواقع، على الرغم من الزيادة المتأخرة في معرفة الناس باليونانية ودراستهم القليلة للعربية والعبرية، وقد صرح روجر بيكون R. Bacon الذي كتب هو نفسه

قواعد لليونانية كانت من أولى القواعد التأملية، والذي أكد على أهمية دراسة العربية والعبرية، صرح بأن القواعد قواعد واحدة، وهي نفسها في كل اللغات من حيث جوهرها، وأن الخلافات السطحية فيما بينها هي مجرد خلافات عرضية[21]. ووحدة القواعد التي تتحقق باختلافات ظاهرية في اللغات المختلفة شبهت أيضا بوحدة الهندسة بصرف النظر عن الأشكال والأحجام المختلفة لأي رسوم بيانية فعلية[22].

أثناء المرحلة السكولاستية نوقشت موضوعات لغوية معينة من طرف كتاب لم يكن اهتمامهم الرئيسي هو العلم اللغوي بالمعنى الضيق، وقد تم توضيح تمييز مهم في علم الدلالة semantics، عولج فيما بعد تحت عدد من المصطلحات المختلفة، وقد حوفظ عليه دائما بوصفه تمييزا أساسيا بصورة ما، وقد أشار بطرس هسبانوس petrus Hispanus الذي أصبح فيما بعد البابا يوحنا الواحد والعشرين في سياق مؤلفه Summulae logicales، إلى الفرق بين significatio و suppositio بوصفهما خاصيتين دلاليتين مستقلتين للكلمات ولكنهما مترابطتان[23]. و significatio يمكن أن تترجم بوصفها معنى الكلمة، وتعرف بوصفها العلاقة بين العلامة sign أو الكلمة وبين ما تعنيه. وبفضل علاقة المعنى هذه فإن علامة معينة يمكن أن تعمل بوصفها بديلا عن شيء معين أو شخص أو واقعة... الخ، أو مجموعة من هذه الأشياء، أو قد تقبل عوضا عنها، وهذه هي علاقة الـ suppositio مع الأسماء. من هنا فلأن homo «إنسان» تعني «إنسان» فإن homo أو «إنسان» تمثل (supponere) سقراط أو جوي فوكس أو هارولد ويلسون، كما أن significatio أسبق من suppositio، وعندما تضم الـ significatione أو معاني أكثر من كلمة واحدة في تركيب، فإن الـ suppositio الخاص بها يكون أضيق بهذه العملية. من هنا فإن homo albus «إنسان أبيض» يمكن أن تصدق فقط على الناس الذين يتصفون بالبياض، وليس على الناس داكني البشرة ولا على الموجودات البيضاء من غير الناس. وهذا التمييز الأساسي يرد بشكل متكرر في صور مختلفة بعض الشيء وبتفسيرات مختلفة وفي تقابلات ثنائية مثل المعنى والإشارة reference، والظلال الدلالية connotation والمعنى الحقيقي denotation، والقصد intention و التوسيع extention.

وقد أقام بعض المناطقة والقواعديين تمييزا آخر يقتضي تقابلا بين

الصورة والمادة، أي تقابلا بين الافتراض الصوري والافتراض المادي. والكلمة في افتراضها الصوري تمثل أو تصدق على شيء أو شخص... الخ، فيما أطلق عليه المناطقة فيما بعد لغة الأشياء object language أو لغة المرتبة الأولى، order والكلمة في الافتراض المادي تمثل نفسها فيما وراء اللغة أو لغة المرتبة الثانية. وهذان النوعان من الافتراض يمثلان بعبارة «بطرس هو البابا»، وعبارة «بطرس» اسم علم.

ويتكرر نفس التمييز بين الصيغة والمادة في مواضع كثيرة في القواعد التأملية المودستية modistic، والاختلاف بين vox «صوت» و dictio «كلمة» الذي عالجه برشيان والذي يرجع في الواقع إلى الرواقيين، يعبر عنه ميشل دي ماربيس M. de Marbais (القرن الثالث عشر) بقوله: «تضم الكلمة في ذاتها صوتها بوصفه مادتها، ومعناها بوصفه صيغتها»[24].

ركز علم اللغة المودستي في القرون الوسطى على القواعد، وحقيقة أن اللاتينية كانت تتعلم في كل مكان بوصفها لغة ثانية، وتنطق بلكنة an accent تعتمد على اللغة الأولى للشخص ولجماعته، ربما كانت هذه الحقيقة مسؤولة جزئيا عن عدم العناية بالتفاصيل الصوتية، فقد استبعد المودستيون النطق من مجال دراستهم، ولكن بعض كتاب هذه الفترة يشيرون لملامح معينة للاتينية العصور الوسطى، تختلف فيها هذه اللاتينية عن أوصاف علماء القواعد الكلاسيكيين. وهناك عدد معروف من البحوث المستقلة عن الصوتيات، أما الإتملجيا فقد سارت في العصور الوسطى على الخطوط المعروفة بالفعل منذ العصور القديمة.

تستخدم نظرية القواعديين التأمليين قدرا كبيرا من المصطلحات الفنية الجديدة، وعرضها بالتفصيل مهمة شاقة، وللوصول لفهم كامل للنظرية ولإطار مفاهيم هؤلاء القواعديين، تجب قراءة بعض من الإنتاج المتخصص إلى جانب نص مودستي أصلي واحد على الأقل. ومن حسن الحظ هناك الآن كتب كثيرة تحقق هذه الاحتياجات، وهناك طبعات حديثة لعدد من النصوص، ومؤلف Grammatica spiculativa لتوماس الإرفرتي T. of Erfurt (حوالي 1310م)، وهو مثال متأخر نسبيا للنظرية المودستية (نسب خطأ في البداية لدنس سكوتوس Duns Scotus)، هذا المؤلف متاح في ترجمة إنجليزية جنبا لجنب مع النص اللاتيني. ويمكن الرجوع للببليوجرافيا التي في نهاية

هذا الفصل إلى جانب المراجع[25] المذكورة في الملاحظات من أجل مواد إضافية. وقد عرضت قواعد برشيان ودوناتوس في الأساس بوصفها انعكاسا صحيحا لبنية الحقيقة وقدرات العقل الإنساني التي اعتمدت عليها هذه القواعد. وعند فحص العموميات التي يدعيها المودستيون يلاحظ لأي مدى أنهم احتفظوا بكل تفاصيل صرف اللاتينية لبرشيان على حالها تقريبا، وحتى مستوى التقسيمات الفرعية لأقسام الكلمة بالرجوع بشكل واضح للغة اللاتينية وحدها (على سبيل المثال التصنيف الفرعي لأسماء العلم إلى praenomina «الاسم الأول» و cognomina «كنية» و agnomina «لقب»، وكل الفئات محصورة في الأعلام اللاتينية بشكل صارم)[26]. ولم تقم أي محاولة في التعامل مع الزمن الفعلي للذهاب وصفيا إلى ما وراء برشيان، تفضيلا لهذا على صياغة غير وافية أو وضع نظرية فارو أو نظرية الرواقيين في الاعتبار.

وهناك بساطة معينة في بعض النواحي تظهر في الأساس الوصفي غير المشكوك فيه لما يعتبر بطريقة أخرى نظاما مدروسا ومتماسكا داخليا بشكل منطقي في القواعد الفلسفية. وهذا يعتبر أيضا شهادة على مكانة برشيان وتأثيره في التفكير اللغوي للعصور الوسطى.

الأشياء في النظام المودستي كالكائنات تمتلك خصائص مختلفة أو أشكالا للوجود (modi essendi). والعقل يدرك هذه الأشياء والكائنات بطرق إيجابية للفهم (modi intelligendi activi)، والتي يقابلها طرق سلبية للفهم (modi intelligendi passivi)، وهي صفات الأشياء كما يدركها العقل. والعقل في اللغة يمنح المعاني للأصوات المنطوقة (voces)، وبهذا الشكل تصبح الأصوات كلمات (dictiones)، وبفضل الطرق الإيجابية للتعبير (significandi †modi activi) تصبح الكلمات أجزاء للكلام (partés orationis) وتعبر عن صفات الأشياء، هذه الصفات تعبر عنها عندئذ الطرق السلبية للتعبير (modi significandi passivi) أي صفات الأشياء كما تعبر عنها الكلمات.

وشكلا الوجود modi essendi الموجودان في كل الأشياء واللذان يستند إليهما إدراكنا للعالم ولتركيب لغتنا هما: الـ modus entis أي خاصية الدوام أو الاستمرار في الزمن التي يمكن بها للأشياء أن تعرف بوصفها أشياء، والـ modus esse أي خاصية التغير والتتابع (ويطلق عليها أيضا الـ modus

fluxus والـ modus fieri والـ modus motus) التي بها تعرف الأشياء الدائمة، بوصفها خاضعة للتغيرات أو العمليات الأخرى التي تحتاج إلى تتابع في الزمن(27).

ويمكن تمثيل النظام بيانيا كما يلي :

modí essendí

modi intillegendí passiví	modí intillegendi activí
modi significandí passiví	modí significandi activí

وبالرجوع مرة أخرى إلى التمييز بين الصورة والمادة، فإن الـ modi essendi والـ modi intelligendí passiví و الـ modi singificandí passiví، تختلف صوريا مادامت على مستويات مختلفة، ولكنها ماديا هي نفسها في أنها كلها ترتبط بخصائص الأشياء كما هي، وكما يفهمها العقل، وكما يعبر عنها في اللغة(28).

والـ modí significandí هما المصطلح المفتاح في النظام، فكل قسم من الكلام أو قسم من الكلمات يتميز بتمثيله للواقع بواسطة طريقة خاصة أو من وجهة نظر خاصة شيئا ما، وكل فئة تنطبق على أي قسم من أقسام الكلام هي نفسها طريقة تقدم مكونها الدلالي الخاص بها. وهذا النظام من الوصف والنظرية التي تقف خلفه، يمكن أن يوضح ويقارن بنظامي ديونسيوس وبرشيان، عن طريق عرض التعريفات المودستية لأقسام الكلمة الثمانية في اللاتينية عند برشيان كما قدمها توماس الإرفرتي:

nomen: قسم دال من الكلام بواسطة شكل كائن أو شيء ذي خصائص مميزة (وهذا يقال ليكون التعريف مكافئا لتعريف برشيان الذي يستلزم المادة والصفة). وشكل الكائن هو شكل الثبات والدوام(29).

verbum: قسم دال من الكلام بواسطة شكل العملية الزمنية، ومنفصل عن المادة (التي يسند إليها)(30).

participium: قسم دال من الكلام بواسطة شكل العملية الزمنية، وغير منفصل عن المادة (التي يعزى إليها)(31).

pronomen: قسم دال من الكلام بواسطة شكل الكائن بدون خصائص مميزة. ويأتي شكل الوجود من دون خصائص مميزة من خاصية أو شكل وجود مادة أولية (قارن صص 77 و 110 من قبل)(32).

وأقسام الكلام الباقية الجامدة يقال عنها إن لديها modí significandí

أقل يلزم معها، وهي تشتق من خصائص أقل في الأشياء. والمودستي المبكر ميشيل دي ماربيس قد قارنها مقارنة غير محكمة بعض الشيء، بالمصطلحات الكاتيجورية للمناطقة[33].

adverbium: قسم دال من الكلام بواسطة شكل وجود مركب مع قسم آخر من الكلام يدل بواسطة شكل العملية الزمنية[34]، وعلاوة على ذلك يصف هذا الشكل ولكن من دون علاقة نحوية أخرى[35].

coniunctio: قسم دال من الكلام بواسطة شكل الربط بين تعبيرين آخرين[36].

praepositio: قسم دال من الكلام بواسطة شكل التركيب النحوي مع كلمة في حالة تصريف، يصلها ويربطها بحدث[37].

interiectio: قسم دال من الكلام بواسطة شكل وصف فعل أو برتسبل participium، ويعبر عن شعور أو عاطفة[38]. والارتباط الواضح للتعجب مع الأفعال والبرتسبل يبدو أنه ناشئ عن وضعه المبكر ضمن الظرف من قبل علماء القواعد اليونانيين، وهناك مودستيون آخرون مثل سيجردي كورتراي Siger de Courtrai لم يحصروه بهذه الطريقة، وهذا يتفق أكثر مع تعريف برشيان (ص 110 من قبل) ومع الاستعمال اللاتيني[39].

من الواضح أن الجوانب الشكلية للتعريفات المبكرة قد حل محلها نسبة فئات معنى محددة، بعضها مشترك في أكثر من قسم من أقسام الكلام، ولكن كل قسم يعرَّف بشكل خاص من أشكال الدلالة يميزه عن كل الأقسام الأخرى. وتعرف أقسام الكلام القابلة للتصريف (المتصرفة) عن طريق الرجوع إلى فئات الفلسفة السكولاستية التي يمكن إرجاعها في النهاية لفئات الوجود الأرسطية. ولكن في تطبيق هذه المصطلحات على أقسام الكلام الجامدة، فإن المودستيين عاملوا الـ modus significandí تقريبا بوصفه مكافئا للوظيفة النحوية. وبينما يمكن أن تعزى أقسام المعاني بسهولة أكثر (وإن كان بشكل تقريبي غالبا) إلى الأسماء والأفعال، فإنه أمر أقل سهولة بشكل كبير أن نفعل هذا مع تلك الأقسام من الكلام، التي توجد بشكل طبيعي في مواقع التبعية في العبارات النحوية المركبة complexes (كما هو الحال في الكلمات اللاتينية غير المتصرفة)، ما لم يوسع المعنى كثيرا جدا ليشمل علاقات نحوية أساسية، كما يفعل أتباع فيرث على نحو واضح،

وكما فعل المودستيون بشكل ضمني[40].

والتفسير السكولاستي لتعاليم أرسطو أمر واضح في القواعد المودستية، كما أن وصف برشيان القواعدي للاتينية قد طوع بسهولة لهذا، مادام التأثير الأرسطي كان محسوسا بقوة في مصدر هذا الوصف، وهو النظام الذي وضع في «التخني». وتعريف الفئات قد أطلق عليه modi significandi essentiales، و accedentia برشيان أصبحت modi significandi accidentales مغطية فئات مثل الحالة والزمن tense.

رغم أن النظرية المودستية قد ركزت أساسا على ما يمكن أن يطلق عليه المرء، الدلالة الصرفية morphosemantics للقواعد اللاتينية عند برشيان، أي إرجاع فئة المعنى المحددة المتميزة لكل فرق شكلي تظهره أقسام الكلمات، فإن الإبداع الأعظم والتطوير الأكثر أهمية الذي قام به علماء القواعد التأمليون كان في ميدان النحو، وإن عددا من المفاهيم الأساسية للنظرية النحوية المتأخرة يمكن إرجاعه لتلك الفترة من العلم اللغوي. وقد صحح كاتب من القرن الثالث عشر التركيز السابق على الصرف بإعلانه أن القواعد تُعنى بالنحو فوق كل شيء، ويمكن أن يقال إنه لأول مرة في أوروبا منذ الرواقيين الذين يمكن لمؤلفاتهم عن النحو وحدها أن تبنى من جديد بشكل تجريبي، قد ظهرت في القواعد التأملية في العصور الوسطى نظرية محددة وواضحة لتركيب الجملة[41]. والواقع أنه ليس الكتاب المودستيون النظريون وحدهم ولكن أيضا كُتّاب الكتيبات العملية، والقواعد التعليمية في العصور الوسطى المتأخرة، مثل ألكسندر الفليدي صاحب الـ Doctrinale، قد استفادوا من مصطلحات ومفاهيم غير تلك الموجودة عند دوناتوس وبرشيان، خاصة مفهوم الحكم gevernment (regimen) في تعاملهم في صيغ حالات الاسم.

ومعالجة توماس الإرفرتي للنحو يمكن إيجازها إيجازا شديدا بوصفها مثالا للنظرية المودستية[42].

الجملة المقبولة (sermo congruus et perfectus) تقوم على ثلاثة أسس تشبه العلل الأرسطية الأربع:

الأساس المادي: وهو الكلمات بوصفها أعضاء للأقسام القواعدية (constructibilia).

الأساس الشكلي: وهو اتحادها في تراكيب مختلفة.

أساس الكفاية: وهو العلاقات القواعدية بين أقسام الكلام المختلفة الظاهرة في الصيغ التصريفية (modi significandi) التي يستخدمها التركيب، ويفرضها عقل المتكلم.

الأساس الأخير: هو التعبير عن فكرة تامة[43].

وتحتاج المقبولية لثلاثة شروط لتكون مقنعة، أولا: يجب أن تكون أقسام الكلام ملائمة لإقامة تركيب نحوي (مثل الاسم مع الفعل)، ثانيا: يجب أن تظهر الكلمات فئات تصريفية مناسبة (modi significandi accidentales) وأخيرا: يجب أن تكون الكلمات بوصفها مواد معجمية مفردة قابلة للانتظام (بالمعنى الفيرثي)، فتركيب cappa nigra «قبعة سوداء»، تركيب مناسب (propria) من الناحية الانتظامية، ولكن تركيبا مثل «cappa categorica* قبعة مقولية»، رغم أنه تركيب مناسب (congrua) قواعديا، فإنه غير مناسب (impropria) ما دام يستخدم انتظاما غير مقبول. ومنذ قرن قبل هذا، وقبل سبعة قرون من شهرة جمل زائفة في النقاش مثل sincerity admires Jones، قد أشار أحد علماء القواعد إلى عدم مقبولية جملة مثل amat filium lapis «الحجر يحب الولد»، على الرغم من صحتها الصورية[44]، وقبل ذلك بعدة قرون، وبشكل مستقل فقد أقام اللغويون الهنود نفس هذا التمييز.

وقد اتخذ تركيب «الاسم والفعل» (compositio) بوصفه تركيبا أساسيا، كما هو الحال في الوصف النحوي المبكر، واستعمل المصطلحان suppositum و appositum (المسند إليه subject و المسند predicate)، للإشارة للوظيفتين النحويتين لجزأي الجملة الأساسيين، و modi significandi essentiales للاسم والفعل (modus entis و modus esse على التوالي) متضمنة في العلاقات المتبادلة للمسند إليه والمسند، والمصطلحان suppositum, appositum قد ارتبطا بالطبع بمصطلحي المناطقة praedicatum, subiectum، ولكن المصطلحين الأولين ظلا متميزين بشكل تام جدا.

هناك تركيبات أخرى تتصل سواء بالـ suppositum أو بالـ appositum، فتحليل جملة Socrates abbus currit bene «سقراط الأبيض يجري جيدا» يقول إنها تتألف من تركيب رئيسي من suppositum (سقراط) و appositum (يجري currit)، مع عنصر تابع يتصل مباشرة بكل رأس، ويتصل بشكل غير مباشر ببقية الجملة. والاستعمال المحدد للمصطلحين suppositum و

appositum بوصفهما مصطلحين نحويين، يشيران للأسماء والضمائر بوصفها المسند إليه، وإلى الأفعال بوصفها مسندات الجمل التقريرية (الإخبارية indicative)، وهذا الاستعمال يبدو أنه نشأ في القرن الثاني عشر في كتابات بتروس هلياس، وكان مصطلح suppositum يستعمل أكثر قبل ذلك بالمعنى العام لمصطلح suppositio الموجود عند بتروس هسبانوس، أي المعنى الذي يمثله الاسم أو يشير إليه، كما نرى استعمالا مشابها ـ ولكنه استعمال غير فني وغير نظري ـ في الـ Institutiones لبرشيان[45].

وهناك نظرية مبكرة ميزت بين تركيب «المسند إليه ـ فعل» وتركيبات «فعل ـ مفعول به» (حالات غير الرفع)، ولكن المصطلحين appositum, suppositum أو أي مصطلحات نحوية بشكل دقيق، لم تستعمل لخلق هذه المكونات المجردة لتركيب الجملة.

وقد ذهب المودستيون لأبعد من هذا، وحللوا العلاقات النحوية في صورة الاعتماد dependence وإنهاء (إشباع satisfaction) الاعتماد: «فجزء واحد من التركيب يقف إلى جانب الآخر بحيث يكون إما معتمدا عليه أو مشبعا لاعتماده»[46].

وعلاقة الجزء المعتمد بالجزء المنهي قد استخدمت للتمييز بين تركيبات مثل التركيبات التالية (مع تقسيمات فرعية كثيرة):

وسوف نرى أن هذه العلاقة لا تتفق مع علاقة العنصر أو المكون المعتمد مع الرأس في النحو الحديث (قارن المثال الأخير على وجه الخصوص) ولا

الفعل (appositum)	الاسم في حالة الرفع (suppositum)	sócratés currit
الفعل	الاسم في غير حالة الرفع (مفعول به)	legit librum
الصفة (nónen adiectívum)	الاسم	sócratés albus
الظرف	الفعل	currit bene
الاسم	الاسم في حالة الإضافة	filius sócratis[47]

مع أي علاقة نحوية مفردة، وأهمية النظرية الرئيسية تقع في إدراكها للعلاقات النحوية في تراكيب الجملة وليس في العلاقات السطحية للتوافق التصريفي[47].

وعلاقة الحكم (الحكم النحوي rection) بين كلمة وأخرى قد ميزت بالفعل في زمن بيتر هلياس[48]، الذي استعمل كلمة regere «يحكم» في الإشارة لعلاقة حروف الجر بالأسماء في حالة غير الرفع، وكذلك لأنماط العلاقة الممثل لها من قبل بقدر ما تستخدم صيغ الحالة. ويذكر أنه عرف هذه العلاقة بوصفها «تجعل كلمة ما توضع في الحالة الخاصة التي توضع فيها»[49]. ولم يستعمل توماس الإرفرتي regere أو الكلمات المرتبطة بها صرفيا بوصفها مصطلحات فنية، ولكنه استعملها بالمعنى الذي تستعمل به غالبا كلمة government اليوم في وصف لغات كاللاتينية، وفي الإشارة لعلاقة حروف الجر بصيغ حالات غير رفع معينة استعمل الفعل diservire «يكون خاضعا لـ »، وهو مثال مثير لاستعارتين أخذتا من كلمتين بمعنيين حرفيين متضادين ليحملا نفس المعنى الفني على نحو دقيق[50]. وقد استعمل بعض المودستيين وكذلك ألكسندر الفليدي كلمتي regimen, regere.

وقد استُخدم الاعتماد وإنهاؤه أيضا لتمييز العبارات clauses والتركيبات التابعة عن التركيبات المستقلة أو الرئيسية، فعبارة Si Socrates currit «إذا جرى سقراط» عبارة معتمدة لأن القارئ أو المستمع يتوقع المزيد قبل الجملة بوصفها جملة تامة، أو اعتبار الاعتماد منتهيا[51].

والفعل المتعدي والفعل اللازم بوصفهما فئتين من فئات التركيبات النحوية قد ظهرا في النحو المودستي. ولم يستعمل المصطلحان بنفس المعنى الذي كانا قد استعملا به للأفعال من طرف برشيان (الذي اتبع مصطلحات أبو لونيوس صص 77، 78 من قبل) وبالمعنى الذي يستعملان به اليوم، ولكن في الواقع يمكن تتبع علاقة عامة بين هذه المعاني. والمودستيون استعملوا المصطلحين constructio intransitiva و constructio transitiva لعلاقات نحوية معينة، بين مكونات الجملة أو عناصر تركيب الجملة الذي يتطلب أقساما كثيرة مختلفة من الكلمات. وفي جملة «اسم ـ فعل ـ اسم» مثل Socrates legit librum «سقراط يقرأ كتابا»، تكون العلاقة بين الاسم الأول (suppositum) والفعل (appositum) علاقة لزوم constructio

intransitiva، مثل العلاقة القائمة بين الاسم والفعل في جملة مثل Socrates currit «سقراط يجري»، أما العلاقة بين legit و librum فهي علاقة تعد constructio transitiva، ويعمل الفعل legit «يقرأ» كمحور ارتكاز للتركيب ككل مع الاعتماد على كل من الاسمين. (ص 146من قبل). وقد أقيم نفس التمييز بين الصفة والاسم الموافق، فتركيب Socrates albus «سقراط الأبيض» عبارة عن constructio instransitiva. والاسم (ويضم الصفة) وحالة غير الرفع كما في filius Socratis «ابن سقراط»، و similis Socrati «مثل سقراط» عبارة عن constructiones transitivae. وأساس التمييز هو أن التراكيب اللازمة instranstive تحتاج إلى استخدام مصطلح واحد فقط في الفئة القواعدية للشخص، في حين تستعمل التراكيب المتعدية transtive مصطلحين (أي أسماء غير مشتركة المرجعية non-coreferential أو ضمائر) بشكل ضروري[52]. ومما هو جدير بالملاحظة أن علماء قواعد العصور الوسطى المتأخرين، قد استفادوا استفادة واضحة من ترتيب order الكلمات في تحديد مكونات الجملة، وأن ترتيب الكلمات الذي زعم أنه ترتيب طبيعي كان هو الترتيب الشائع في اللغات الرومانسية الحالية، وهو «اسم، فعل، اسم» أو «مسند إليه، فعل، مفعول به»، وليس ترتيب «اسم، اسم، فعل» (مسند إليه، مفعول به، فعل)، وهو سمة اللاتينية الكلاسيكية الأدبية[53]. ولاتينية النمط المثل في الكتابات السكولاستية كانت هي الصيغة الحية للاتصال، رغم أنها كانت تكتسب في كل مكان بوصفها لغة ثانية.

وقد تابع المودستيون برشيان إلى حد بعيد في الوصف الصرفي للاتينية، ولكنهم في ربطهم الفئات الصرفية (modi significandi في مصطلحاتهم) بنحو تراكيب الجملة، توصلوا لإقامة تمييز مهم بين فئات (صيغ modes) كلمة تستعمل مباشرة مع فئات كلمات أخرى وبين فئات لا تستعمل. وقد أطلق على هذه الفئات modi respectivi، وهي صيغ تستعمل في علاقات نحوية إضافية، و modi aboluti وهي صيغ لا تستعمل على النحو السابق[54]. وقد عرف بعض الكتاب الـ modi respectivi تعريفا آخر بوصفها principia constructionis (أسس تركيب الجملة). من هنا فإن الصيغتين الأساسيتين للاسم والفعل، أي modus entis و modus esse (ص 140 من قبل) جعلتا علاقتهما ممكنة بوصفهما suppositum و appositum في الجملة، ولذلك

فكلاهما عبارة عن modi respectivi. وفي الصيغ التصريفية accidental (accidentia عند برشيان) فإن الحالة والجنس وصورة الفعل mood، عبارة عن فئات وثيقة الصلة نحويا (modi respectivi)، ولكن الصيغة form (figura, و schema في التخني) بسيطة كانت أو مركبة (مثل dives «غنى»، praedives غني جدا) والنوع type (eidos, و species في التخني) أصليا كان أو مشتقا (مثل calleo «أنا حران» و callesco «أصبح حران») ليسا كذلك، أي أنهما عبارة عن modi absoluti.

ويختلف المودستيون في التفاصيل حول توزيع الفئات (الصيغ modes) في هذين القسمين، ولكن بشكل عام قد أقيم تمييز على أسس نحوية بين ما اصطلح عليه بالأبنية التصريفية والأبنية الاشتقاقية في القواعد الشكلية فيما بعد. والتمييز المودستي لديه بعض العلاقة أيضا بالتمييز الذي أقامه فارو بين الـ declinatio naturalis والـ declinatio voluntaria (ص 98 من قبل)، على الرغم من عدم وجود دليل على استخدام المودستيين الفعلي لمؤلف فارو. وقد كان فارو معنيا بالاطراد والشذوذ الصرفيين، بينما كان المودستيون معنيين بالوظيفة النحوية. والتشابه الجزئي بين مصطلح فارو declinatio voluntaria ومصطلحهم modi absoluti، وبين مصطلحه declinatio naturalis ومصطلحهم modi respectivi، ينشأ من حقيقة أن الأبنية التصريفية في اللاتينية (كما في لغات كثيرة أخرى) تميل للاطراد والانتظام أكثر كثيرا من الأبنية الاشتقاقية.

والنظام النحوي الذي أقامه المودستيون قد مكنهم من الوصول إلى صورة أوضح للوظيفة الأساسية لأقسام معينة من الكلمة، ومكنهم هذا بالتالي من صقل تعريفاته، فالتمييز بين الاسم والصفة يفترض وضعا في غاية الأهمية، ففي العصور القديمة نسبت الصفة إلى نوع من الأقسام الفرعية لقسم الـ onoma/momen (صص 73، 109 من قبل)، وقد أشار بيتر هلياس إلى التقسيم الأساسي للاسم nomen إلى nomen substantivum و nomen adiectivum، وقد ميز توماس الإرفرتي في وصف الـ nomen الـ momen substantivum من الـ nomen adiectivum عن طريق modi essentiales للاعتماد النحوي الخاص بهما (per séstantis) وللتركيب مع الاسم (adiacentis)[55].

ويشترك الفعل والبرتسبل في modus esse، وهي فئة العمل خلال زمن،

ولكن الفعل متميز قواعديا عن الاسم، وهو ـ في الجملة الصغرى «اسم ـ فعل» أو suppositum - appositum إحدى نهايتين قطبيتين، وبينما يشترك البرتسبل في الكثير مع الفعل في النحو والدلالة بما في ذلك مرجعية الزمن وفي تركيب صيغ حالات غير الرفع، فإنه يمكنه أيضا أن يعمل بنفسه بوصفه عنصرا اسميا في تركيب الجملة، وقد حدد هذا التمييز بالإشارة إلى الفعل بوصفه مستقلا عن الجوهر الذي يدل عليه الاسم (significans per modum esse distantis a substantia)، وبالإشارة للبرتسبل بوصفه غير مستقل عن هذا الجوهر (significans per modum esse indistantis asubstantia).[56] وبهذه الطريقة يمكن أن تنشأ جمل مركبة ـ عن طريق التبعية ـ اسمية البرتسبل participial، أو عن طريق التضمين التركيبي بوصفه جزءا من نظرية التوسيع أو التكرار النحوي الذي يجب أن تشتمل عليه أي نظرية للنحو، فمن جملة Socrates videt puerum «سقراط يرى الولد» وجملة puer legit «الولد يقرأ»، يمكن للمرء أن ينشئ جملة أكثر تركيبا Socrates videt puerum legentem «سقراط يرى الولد يقرأ»، فالفعل legit في جملة puer legit مع (distantis) modus esse الخاص به قد وُحِّد (compositio) مع الاسم والـ modus entis الخاص به، وفي العبارة اسمية البرتسبل للجملة المركبة فإن هذا الاتحاد قد وقع (indistantis) فعلا قبل التضمين التركيبي الإضافي تحت videt.

وبطريقة مشابهة استُبدل بالتعريفات غير المرضية نوعا ما لحرف الجر التي صاغها القواعديون القدماء، استبدل بها تعريف محكم لوظيفته (في اللاتينية) رُبط نحويا بالكلمة متصرفة الحالة، ومع ربط هذا بالفعل أو بالبرتسبل ad actum reducens. ويعترض توماس الإرفرتي بوضوح على اعتبار المرفيمات المقيدة في كلمات معينة حروف جر إلى جانب حروف الجر الحرة، وهو الخلط الذي أدى ببرشيان إلى الوقوع في الخطأ[57].

والنظام المحدد السابق للعلاقات والفئات هو على أي حال، نفس النظام المستعمل حاليا في القواعد التقليدية للاتينية أو في النظريات الحالية للقواعد الشكلية، وهو يُظهر نموا ملحوظا للوعي النحوي، وتطور المصطلحات والنظرية التي وجد اللغويون المعاصرون مقدارا كبيرا منها مناسبا للتطبيق، ويكشف عن نفسه في التحليل الشكلي للغات الكلاسيكية وللغات غيرها.

ويمكن الزعم - في الواقع - بأن المودستيين قد أنجزوا نظرية محددة ومتماسكة لتركيب الجملة والتحليل النحوي، نظرية تتعامل مع مستويات من التركيب أعمق من تلك المستويات، المرتبطة مباشرة بالفئات الصرفية للكلمات المتصرفة في قواعد اللاتينية لبرشيان.

لم يشغل كتاب القواعد التأملية أنفسهم بشكل مباشر بالموضوع الذي لقي العناية الكبرى من فلاسفة العصور الوسطى، وهو ما يطلق عليه «مسألة العموميات»، فبينما ندر التركيز على مسألة لغوية معينة فيما عدا الاهتمام بأكثر التفسيرات عقلية لميدان ومجال علم اللغة، فقد تم التركيز على جانب واحد من جوانب العلاقة، بين استعمال اللغة في الحديث عن العالم وبين طبيعة العالم في حد ذاتها. وترجع القضية أساسا إلى الوضع الدلالي للمصطلحات أو الكلمات التي تستعمل في صياغة القضايا العامة، وهو على وجه العموم نوع الكلمات التي يمكن أن تقع محمولات مفردة أو أعضاء يمنى(*) في قضايا «الموضوع - المحمول» في المنطق الأرسطي مثل: «سقراط إنسان» و «الإنسان عاقل»... وهكذا. هل تمثل هذه المصطلحات عموميات حقيقية موجودة بذاتها وبعيدة ومستقلة عن الأشياء، والأشخاص المعينين الذين تخبر عنهم هذه المصطلحات؟ أم هل توجد هذه المصطلحات بوصفها خصائص وسمات مشتركة في الأعيان particulars؟ أم هي أخيرا ليست أكثر من مصطلحات عامة يستعملها متحدثو اللغة، وليس لها وضع منفصل عن اللغة وعن متحدثها؟ هذه الأسئلة التي أثارتها لأول مرة نظرية «المُثُل» أو الصور المثالية لأفلاطون، قد برزت بروزا خاصا في بداية العصور الوسطى على يد بويثيوس Boethuis في تعليقه على كتابات بورفيري الأفلاطوني الجديد، وكانت التحسينات والتعديلات الكثيرة لوجهات النظر الأساسية الثلاث حول المشكلة، موضوعا للجدال المستمر على مدى العصور الوسطى كلها (القضية مازالت قضية حية، ومن المرجح أن تبقى كذلك، ولكن لم يعد لها نفس الوضع المركزي في البحوث والمناظرات الفلسفية). ووجهة نظر الاسمية nominalist، وهي أن العموميات كلمات أو أسماء فقط من دون وجود حقيقي خارج اللغة، قد جعلها مشهورة أحد أنصارها وهو وليم الأكهامي

(*) هي أعضاء «يمنى» في اللغات التي تكتب من اليسار لليمين، أما في العربية فسوف تكون أعضاء «يسرى» (المترجم).

William of Ockham (النصف الأول من القرن الرابع عشر)، والذي ينسب إليه القول "entia non sunt multiplicanda praeter necessitatem" (الموجودات لا تزيد في العدد فوق ما هو ضروري) وهو نسب خاطئ من حيث الكلمات الفعلية المستعملة، ولكنه صحيح من ناحية المذهب.

ومهما يكن الأمر، فإن النظرية التي وضعها المودستيون في صورة modi essendi و intelligendi و significandi تقوم على «واقعية معتدلة»، وبشكل أساسي على رأي أرسطو كما فهمه القديس توماس الأكويني، وعلى واحد من معتقدات الفلسفة الأكوينية. وفي هذا الرأي وبقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة الإنسانية، فإن العموميات يتم تجريدها من الخصائص الواقعية للأعيان ثم يفكر فيها العقل منفصلة عنها[58]. والعقل ـ حسب التعبير المودستي ـ يجرد الـ modi essendi من الأشياء، ثم ينظر إليها بوصفها modi intelligendi، واللغة تسمح لهذه المجردات بأن يتصل بعضها ببعض عن طريق الـ modi significandi.

ومن المفترض أن كل الناس يجرون هذه العملية بطريقة متشابهة، وأن كل اللغات ـ رغم الاختلافات السطحية ـ يتصل بعضها ببعض بنفس الطريقة، أو كما يطرح المودستيون فإن الـ modi essendi و modi intelligendi السلبية والـ significandi هي كلها في الأساس نفس الشيء. ومن هنا فإن القضية المركزية الحالية للنظرية اللغوية، وطبيعة القواعد العمومية وطبيعة العموميات اللغوية بشكل عام، يمكن النظر إليها بوصفها ميراثا عن علماء القواعد السكولاستيين في العصور الوسطى (قارن ص 133 من قبل).

وهذا الرأي قد أصبح ـ على الأقل من الناحية السطحية ـ يصعب التمسك به، عندما أظهرت التجربة والاهتمامات اللغوية الأوسع في السنوات الأخيرة، إلى أي مدى ترتبط اللغات المختلفة جدا في أبنيتها القواعدية وفئاتها الدلالية بملامحها الشكلية الأكثر أهمية، فقد ظهرت في هذا القرن وجهة نظر مضادة تماما تقريبا أصبحت يطلق عليها «فرضية وورف Whorf hypothisis، وقد أخذت اسمها من اسم أكثر مناصريها قوة، ولكن أساس النظرية يمكن ملاحظته في تفكير هيردر Herder و همبولت Humboldt، في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وفي تفكير سابير أستاذ وورف في القرن العشرين[59]. وترى هذه الفرضية أن الناس

الذين تختلف لغاتهم وثقافاتهم بشكل كبير عن لغات وثقافة الآخرين، يجب أن نسلم بأنهم عاشوا في عوالم مختلفة جزئيا، أو في عوالم فهمت وبنيت بشكل مختلف عن العالم «الأوروبي النموذجي المعتاد» للميراث الأوروبي الكلاسيكي، وأن هذه الاختلافات ترتبط في بعض النواحي بالبنية القواعدية والدلالية للغاتهم.

وكما يظهر في المصطلحات المودستية يؤكد العموميون universalist، على التماثل الجوهري للـ modi intelligendi (الذي قوي في العصور الوسطى بناء على افتراض ملكة التفكير التي منحها الله وغرسها في عقول البشر) التي اشتقت منها modi significandi للتركيب القواعدي، ولكن خصومهم ينطلقون من الأوضاع المختلفة جدا للـ modi significandi، التي تظهر في اللغات المختلفة على الأقل على مستوى «التحليل السطحي لأبنيتها وأشكالها القواعدية، وبهذا سوف يحتجون بأن التفكير الإنساني والفهم الإنساني يعتمدان أساسا على استعمال لغة المرء الأولى، لذلك فإن الـ modi intillegendi ذاتها سوف تنشأ من الـ modi significandi، وأن الـ modi essendi «للعالم الواقعي» بقدر ما يمكن أن يعيها النوع الإنساني تعتمد على الـ modi intelligendi. وهناك موقف بين هذين الموقفين المتطرفين يمكن الدفاع عنه بالقول، بأن الـ modi intelligendi ربما تختلف من جماعة لغوية لجماعة لغوية أخرى، وأن السير ليس كله في اتجاه واحد، فالـ modi intelligendi تؤدي إلى الـ modi significandi، ولكن الأولى نفسها تتأثر على مر السنين بالـ modi signifiacndi وبالصيغ الفعلية التي تظهر فيها. وقد تواصلت مناقشات العموميات اللغوية والقواعد العمومية من خلال وجهات نظر وافتراضات نظرية مختلفة منذ العصور الوسطى وحتى الوقت الراهن، وسوف نشير لهذا في الفصول الأخيرة، وهو موضوع لكثير من البحوث والمؤلفات المنشورة.

ومؤلفات القواعديين التأمليين جديرة بالدراسة لمعرفة الكيفية التي نشأ بها تفكيرهم اللغوي من خلال السياق الفكري لعصرهم، ولدراسة علاقته بالمشكلات الحالية في نظرية اللغة وتحليلها. وبصرف النظر عن مساهمة المودستيين في نظرية ومصطلحات الوصف النحوي المشار إليه من قبل، فإنهم قد أثاروا قضايا حول أهم الموضوعات التي تتعلق بمحاولتنا لفهم اللغة، وفهم مكانتها في الحياة والمجتمع الإنسانيين. وهم فضلا عن

ذلك، يمثلون بإنصاف بعضا من جوانب الإنجاز للعصور الوسطى، وقد كتبوا باللاتينية وأخذوا أمثلتهم منها، وقد كانت هي اللغة العالمية للثقافة الأوروبية في العصور الوسطى، ولكنهم أرادوا أن يعطوا صلاحية عامة للقواعد rules المقدمة في قواعد اللغة اللاتينية. وقد ابتغى علماء العصور الوسطى نظاما للمعرفة تقبل فيه كل فروعها نفس المبادئ الفلسفية والدينية، وسعوا بعد فوضى العصور المظلمة لإقامة كل العلوم إقامة محكمة على أساس الحقيقة وعلى أسس ثابتة.

قد أحدثت المطالبة بوجوب دمج الوصف اللغوي في النظرية الفلسفية تغيرا كبيرا في مواقف الناس من الدراسات اللغوية. وقد كانت الفلسفة بمعناها الواسع هي مهد علم اللغة ومهد التفكير الأول في اللغة في اليونان القديمة، ولكن منذ ظهور مدرسة الإسكندرية المتمثلة في «التخني»، والتي ظلت وجهة نظرها سائدة عند أبولنيوس وخلفائه اليونانيين واللاتين، فإن دراسة الأدب الكلاسيكي واللغة وأسلوب كتاب الشعر والنثر المحترمين، كانت هي مجال المؤلفات اللغوية وغايتها المقبولة، وقد أصبح هذا هو التقليد المقبول والمستمر حتى إنه بعد الإعلان الواضح، عن مهمات وغايات علم اللغة في بداية «التخني» (ص 67 من قبل) فإن الكتاب المتأخرين إما كرروا هذا باختصار وقيدوا أنفسهم بهذه العبارات المختصرة ، مثل «معرفة الكلام الصحيح والكتابة الصحيحة» (scientia recte loquendi recte scribendi)، أو أنهم شعروا ـ مثل برشيان ـ بأنه ليس ضروريا تقديم أي بيان أو تعريف لتقديم موضوعهم(60). ولكن وجهة النظر المتغيرة في العصور الوسطى المتأخرة احتاجت إلى تمييز واضح في التعريفات المتغيرة للعلم اللغوي، وقد كتب سيجر دي كورتراي Siger de Courtrai: «القواعد هي علم اللغة، ومجال دراستها هو الجملة ومعدلاتها، وغايتها هي التعبير عن تصورات العقل في جمل مصوغة صياغة جيدة»(61).

واللغويون المعاصرون على وعي بهذا التغير في تعريف الموضوع وفي مفهومه، ففي السابق تم توجيه القواعد نحو الـ auctores أي كُتَّاب الأدب الكلاسيكي، أما في ذلك الوقت فقد عنيت القواعد على وجه الحصر بمكانها بين الـ artes، أي الفنون العقلية السبعة (ص 126 من قبل) حيث لم يعد هناك مكان للأدب الوثني، ما لم يدمج رسميا ـ مثله مثل كتابات أرسطو

الفلسفية ـ في التعاليم المقبولة. وقد كانت لاتينية القواعديين التأمليين لاتينية غير مهذبة وغير مصقولة بالمعايير الكلاسيكية، وكانت الصيغ المستخدمة عندهم غالبا صيغا غير مقبولة عند النظر إليها في ضوء علاقتها باستعمال المؤلفين اللاتين الكلاسيكيين، كما أن النظرية الفلسفية التي عرضت لتسويغ نظرية القواعد المودستية، قد اعتبرها نقاد هذه الفترة المتأخرون نظرية غير ذات علاقة في أحسن الأحوال، ونظرية تافهة وغامضة في أسوئها. وبتعبير حديث كان المودستيون موجهين نظريا، أما مناصرو الأدب الكلاسيكي، وكذلك قواعد برشيان كما تبدو لنا، فقد كانت توجههم المادة اللغوية، وكانت مادتهم هي النصوص الأدبية والاستعمال الأدبي. والفرق بين الموقفين يوضحه اختيار الأمثلة، فلغويو العصور القديمة وعلماء القواعد اللاتين المتأخرون قد استخدموا شواهد من النصوص الكلاسيكية، وكان برشيان حرا بدرجة كبيرة في استشهاداته، ولكن المودستيين أقاموا أمثلتهم غالبا بشكل مصطنع دون النظر للنطق الفعلي أو للمصداقية الموقعية، منشغلين فقط بتركيب معين، فكثيرا ما أنتجوا جملا نادرا ما يمكن أن تقع في أي سياق آخر (والمثال الوارد من قبل Socrates albus currit bene سقراط الأبيض يجري جيدا» مثال نموذجي تماما).

هذا النوع من التضاد بين الـ artes والـ auctores لم يكن جديدا في أوروبا المسيحية، فيمكننا أن نرى شيئا شبيها بهذا في استنطاق مشاعر القديس جيروم وآخرين، حول ما إذا كانوا متجنين في تفضيل ششيرون على الكتاب المقدس، ولكن ظهور المقاربة المودستية في القواعد قد جعل هذا التضاد حادا، ووضعه في دائرة الاتصال المباشر بالدراسات اللغوية. ونحن نجد أن هذا هو موضوع القصة الرمزية المعروفة جيدا، وهي قصة «معركة الفنون السبعة»، وفيها وُضع الـ auctores، وهم المؤلفون الكلاسيكيون من هومير فصاعدا، وُضعوا في أورليانز حيث بقيت المعرفة الكلاسيكية والأدب الكلاسيكي متحصنين، ومنها يخرج هؤلاء المؤلفون لقتال الفلاسفة والمشخصين للفنون السبعة في باريس، وهي أحد المراكز الرئيسية للمنطق والقواعد التأملية[62]. ومن المضحك أن برشيان الذي يدين في منهجه بالكثير للنماذج الأرسطية، والذي كانت قواعده اللاتينية هي الأساس للنظرية القواعدية في العصور الوسطى، يبدو الآن بوصفه بطلا للـ auctores

الأورليانزيين، ويتبارى في قتال رمزي مع أرسطو الذي جعلته القصة مسؤولا عن الأسس المنطقية المزعومة للأحكام والمفاهيم القواعدية، وبوصفه ملهما للفلسفة السكولاستية قد أصبح قائدا للـ artes.

وفي القصة الرمزية ينتصر الـ artes، ولكن في نهاية القصة يتم التنبؤ بأنه مع الوقت سوف تنتظر القواعد الحقيقية للنصوص الكلاسيكية، وقد حدث هذا بالفعل، ولكن بوصفه جزءا من حركات التفكير الكثيرة والعميقة التي ميزت الناحية العقلية والثقافية لعصر النهضة، الذي كان في وقت واحد انبعاثا كاملا للمعرفة الكلاسيكية، وميلادا للعالم الحديث.

مراجع إضافية

H. ARENS, Spachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/ Munich (second edition) 1969, 35-61.

G. L. BURSILL-HALL, Speculative grammars of the Middle Ages, The Hague, 1971.

G. L. BURSILL-HALL et al. (eds), De ortu grammaticae: studies in medieval grammar and linguistic theory in memory of Jan Pinborg, Amsterdam, 1990.

M. A. COVINGTON, Syntactic theory in the high Middle Ages, Cambridge, 1984.

M. GRABMANN, mittelalterliches geistesleben, Munich, 1926, volume 1, chapter 4.

E. HAUGEN (ed.), First grammatical treatise, London, 1972.

R. HUNT. 'Studies on Priscian in the 11th and 12th centuries', Medieval and renaissance studies 1(1941-3), 194-231, and 2(1950), 1-56 (reprinted in HUNT, The history of grammar in the Middle Ages, 1980 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistic science, Series III, volume 5)).

J. KOCH (ed.), Artes liberales, Leiden and Cologne, 1959.

E. F. K. KOERNER et al. (eds.), Studies in medieval linguistic thought, Historiographia linguistica 7.1-2 (1980).

V. A. LAW, The insular Latin grammarians, Woodbridge, 1982.

L. J. PAETOW, The battle of the seven arts, Berkeley, 1914 (Memoirs of the University of California 4.1).

J. PINBORG, Die Entwicklung der Sprachtheorie im Mittelalter, Copenhagen, 1967.

____, Logik und Semantik im Mittelalter, Stuttgart, 1972.

H. ROOS 'Die modi significandi des Martinus de Dacia', Beiträge zur Geschichte der Philosophie und Theologie des Mittelalters 37.2 (1952).

I. ROSIER, La grammaire spéculative des Modistes, Lille, 1983.

J. E. SANDYS, History of classical scholarship (third edition), Cambridge, 1921, volume 1.

T. A. SEBEOK, Historiography of linguistics, 179 - 230.

SIGERUS DE CORTRACO, Summa modorum significandi, Sophismata (ed. J. PINBORG), 1977 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistic science, Series 111, volume 14).

THOMAS OF ERFURT, Grammatica speculativa (cd. G. L. BURSILL—HALL), London, 1972.

C. THUROT, Notices et extraits de divers manuscrits latins pour servir à l'histoire des doctrines grammaticales au moyen âge, Paris, 1869 (reprinted Frankfurt am Main, 1964).

D. L. WAGNER (ed.), The Seven Liberal Arts, Bloomington, 1986.

M. DE WULF, History of mediaval philosophy (tr. P.. COFFEY), London, 1909.

J. ZUPITZA, Aelfrics Grammatik und Glossar. Berlin, 1880 (Sammlung englischer Denkmäler 1).

ملاحظات ومراجع

1. W. P. KER, The Dark Ages, London, 1904, chapter 1.

2. ibid., 1. For an account of the religious history of the early Middle Ages see J. HERRIN, The formation of Christendom, Oxford, 1987.

3. JEROME, Epistulae 22 c 30; GREGORY, Epistulae 5.53 (gregorii I Papae registrum epistularum, Berlin, 1891, volume 1, 357); Histoire littéraire de la France, Paris, 1738, volume 4, 445-6. An attractive survey of the co-existence of pagan and Christian literary studies is to be found in the now classic book, H. WADDELL, The wandering scholars, London, 1949, chapter 1 .

4. SANDYS, 1921, 670 (Gram(mar) speaks; dia(lectic) teaches the truth; rhet(oric) adorns the words we use; mus(ic) sings; ar(ithmetic) counts; ge(ometry) measures; ast(ronomy) studies the stars).

5. AUGUSTINE, Retractatio 1.6. CASSIODORUS S Institutiones consists of two books, 1, on Sacred literature, and 2, on Secular (classical) literature, in which latter the seven liberal arts are described in turn. There is an edition by R. A. B. MYNORS. Cassiodori Senatoris institutiones, Oxford, 1961, and an English translation by L. W. JONES, An introduction to divine and human readings, New York, 1946, where see also pp. 47-58, 'The influence of Cassiodorus on the culture of the Middle Ages'.

6. See further E. HOVDHAUGEN, Foundations of western linguistics, Oslo, 1982, chapter 5; v. A. LAW, 1982; id., 'Linguistics in the earlier Middle Ages: the Insular and Carolingian grammarians', TPS 1985, 171-93; id., 'Late Latin grammars in the early Middle Ages: a typological history', Historiographia linguistica 13(1986), 365-80. For teaching in the later period, v. A. LAW, 'Originality in the medieval normative tradition', T. BYNON and F. R. PALMER (eds), Studies in the history of western linguistics, Cambridge, 1986, 43-55; J. J. MURPHY, 'The teaching of Latin as a second language in the 12th century', Historiographia linguistica 7 (1980), 15975; L. L. HOLTZ, Donat et la tradition de l'enseignement grammatical: étude sur l'Ars Donati et sa diffusion (4e-9e siècle) et édition critique, Paris, 1981.

7. JEROME, Epistulae 57.

8. ZUPITZA, 1880, preface, lines 1-7.

9. ibid., 18-19, 22-4.

10. Auraicept na rl-Éces, The scholars' primer (ed. G. CALDER), Edinburgh, 1917; B. ó CUTV, 'Linguistic terminology in the mediaeval Irish bardic tracts', TPS 1965, 141-64; id. 'The linguistic training of the mediaeval Irish poet', Celtica 10 (1973), 114-40.

11. ALEXANDER VILLADEl, 1880.

12. ibid., lxxxix.
13. J. WILLlAMS AB ITHEL, Dosparth edeyrn davod aur, or The ancient Welsh grammar, London, 1856, xi.
14. A Provençal grammarian, Uc Faidit, wrote the Donatz proensals in the middle of the thirteenth century, to which a Latin translation was subsequently added, either by the author or by someone else (see J. H. MARSHALL (ed.), The Donatz proensals of Uc Faidit, London, 1969). The Donatz follows the tradition of Donatus and Priscian, assuming that this will be suitable for the Provençal language, occasionally noting obvious structural discrepancies - for example, that Provençal has no morphological differences corresponding to the six Latin cases, except for the distinction between the nominative and accusative singular in some nouns (cp. MARSHALL, Op. cit., pp. 67-78, 92-3). A fourteenth-century book. Las flors del guy saber or Leys d'amors (Les fleurs du gai savoir, Lois d'amour, edited with parallel French translation by A. F. GATIEN-ARNOULT, Monumens de la littérature romane l4, 1841-9), combines a grammar of the language along the lines of Donatus along with instruction on the writing of Troubadour-style poetry, the recognition of infelicities, and general rules of verse composition. Cp. further V. A. LAW, 'Originality in the medieval normative tradition', in T. BYNON and F. R. PALMER (eds.), Studies in the history of western linguistics, Cambridge, 1986, 43-55.
15. HAUGEN, 1972. On subsequent linguistic studies in Iceland, R. J. McCLEAN, The grammatical terminology of modern Icelandic', Studia Germanica Gandensia 4 (1962), 291-300.
16. HAUGEN, 1972, 19, 25 - 7, 31, 46 - 7.
17. 'Causas vero inventionis diversarum partium et diversorum accidentium . . . praetermittit' (ROOS, 1952, 93); THUROT, 1869, 17.
18. G. WALLERAND (ed.), Les oeuvres de Siger de Courtrai, Louvain, (Les philosophes belges 8), (36).
19. HUNT, 1941 - 3, 1950.
20. 'Non ergo grammaticus sed philosophus, proprias naturas rerum diligenter considerans. . .grammaticam invenit', THUROT, 1869, 124; ALBERTUS MAGNUS: Sicut se habet stultus ad sapientem, sic se habet grammaticus ignorans ad peritum in logica', ALEXANDER 1893, xi-xii.
21. GRABMANN, 1926,118; ROGER BACON: Grammatica una et eadem est secundum substantiam in omnibus linguis, licet accidentaliter varietur', WALLERAND, Oeuvres, (43).
22. By Robert Kilwardby, THUROT, 1869, 127. PINBORG, 1967, 25 mentions the influence of Arabic scholars on the later mediaeval doctrine of universal grammar.
23. J. P. MULLALLY. The Summulae logicales of Peter of Spain Notre Dame, 1945.
24. PRISCAN 1.1.1., 2.3.14; p. 19, above; THUROT, 1869, 156; Dictio includit in se vocem tanquam sibi materiam et rationem significandi tanquam sibi formam.
25. On the authorship of Thomas of Erfurt's Grammatica see GRABMANN, 1926, 118 - 25. Probably the best two texts to study first are SIGERUS, 1977, and THOMAS, 1972; cp. also L. G. KELLY

(ed.), PseudoAlbertus Magnus: quaestiones de modis significandi Amsterdam, 1977; K. REICHL (ed.), Tractatus de grammatica Munich, 1976; ROOS, 1952. These editions all have extensive introductions; for those who read German the introduction in ROOS, 1952, is particularly useful. The following items are recommended for further reading: BURSILL-HALL, 1971, PINBORG, 1967; ROSIER, 1983; id., 'La notion de partie du discours dans la grammaire speculative', Histoire épistémologie langage 3.1 (1981), 49 - 62; L. G. KELLY, Modus significandi an interdisciplinary concept', Historiographia linguistica 6 (1979), 159-80. Of these references ROSlER, 1983, is especially clear and useful, and a very good summary of modistic theory will be found in M. A. COVINGTON, 'Grammatical theory in Middle Ages', in T. BYNON and F. R. PALMER (eds.), Studies in the history of western linguistics Cambridge, 1986, 23-42.

26. THOMAS, 1972, chapter 13.
27. ibid., chapter 25; SIGERUS, 1977,3.16.
28. THOMAS, 1972, chapter 4.
29. THOMAS, chapter 8, § 16: Nomen est pars orationis significans per modum entis vel determinatae apprehensionis; modus entis est modus habitus et permanentis.
30. ibid., chapter 25, § 48; Verbum est pars orationis significans per modum esse distantis a substantia.
31. ibid., chapter 33, § 65: Participium est pars orationis significans per modum esse indistantis a substantia.
32. ibid., chapter 21, § 37: Pronomen est pars orationis significans per moduni entis et inderterminatae apprehensionis; § 36: modus in deteminatae apprehensionis oritur a proprietate, seu modo essendi materiae primae. The precise relationship between materia prima and the modus significandi of the pronoun, as set out fully and explicitly by THOMAS OF ERFURT (1972, chapter 21, § 36), is illuminating on the integration of speculative grammar with scholastic metaphysics. The modus in determinatae apprehensionis arises from the modus essendi of materia prima not because it is just the function of pronouns to signify materia prima but because from the indeterminate unformed nature of materia prima the mind grasps the essentially indeterminate reference of pronouns as compared with nouns (ex modo essendi reperto in materia prima intellectus movetur ad considerandum aliquam essentiam sic indeterminatam). This reinforces the expressed belief in the harmony holding between the world, human understanding, and human language, part of the unity of science characteristic of much mediaeval thinking.
33. THUROT, 1869, 188; THOMAS, 1972, chapter 44, § 86.
34. i.e. a verb or a participle.
35. THOMAS, 7972, chapter 36: Adverbium est pars orationis significans per modum adiacentis alteri quod per modum esse significat ipsum esse absolute determinans. For the use of absolute see p. 94, above.
36. ibid., chapter 39, § 76: Coniunctio est pars orationis per modum coniungentis duo extrema significans.
37. ibid., chapter 41, § 81: Est praepositio pars orationis significans per modum adiacentis alteri casuali

ipsum contrahens et ad actum reducens.

38. ibid., chapter 43: Interiectio est pars orationis significans per modum determinantis alterum quod est verbum vel participium, affectus vel motus animae repraesentans.
39. SIGERUS, 1977, 64.
40. cp. J. R. FIRTH, 'The technique of semantics, TPS 1935, 36 - 72.
41. THUROT, 7869, 213; ROBINS, 'Functional syntax in mediaeval Europe', Historiographia linguistica 7 (1980), 23740; t. ROSIER, 1983, chapter 4; COVINGTON, 1984, chapter 4; e. H. KNEEPKENS., Het indicium constructionis, Nijmegen, 1987.
42. THOMAS, 1972, chapters 45 - 54.
43. ibid., chapter 45, § 89.
44. ibid., chapter 53, § 111; THUROT, 7869, 27.
45. See S. EBBESEN, 'Early supposition theory (12th-13th century)', Histoire épistémologie langage 3.1 (1981), 35-48; c. H. KNEEPKENS. "Suppositio" and "supponere" in twelfthcentury grammar', J. JOLIVET and A. DE LIBERA (eds.), Gilbert de Poitiers et ses contemporains, Naples, 1987, 32551.
46. THOMAS, 1972, chapter 45, § 89: Unum constructible est ad alterum dependens vel alterius dependentiam determinans. For a current version of dependency grammar, R. A. HUDSON, Word grammar, Oxford, 1984.
47. Socrates runs; he reads a book; white Socrates; he runs well; son of Socrates.
48. THUROT, 1869,239 - 43.
49. ibid., 21: Conferre dictionem poni in tali casu, in quo ponitur. Thurot rejects its attribution to Peter Helias.
50. THOMAS, 1972, chapter 42, § 82.
51. ibid., chapter 54, § 118.
52. ibid., chapters 47-8. This may be an extension of Priscian's use of transitio ab alia ad aliam personam in reference to transitive verbs (13.5.26, 18.1.4).
53. THOMAS, 1972, chapter 47; I. ROSIER, 'Transitivité et ordre des mots chez les grammairiens médiévaux', S. AUROUX et a/. (eds), Matériaux pour une histoire des théoties linguistiques Lille, 1984, 181-90.
54. Ibld., chapter 7, § 14.
55. THUROT, 1869, 166; THOMAS, 1972, chapter 10, § 18.
56. THOMAS, 1972, chapter 25, § 48, chapter 33, § 65; cp. p. 89, above.,
57. ibid., chapter 42, § 83; cp. pp. 65-6, above.
58. THOMAS AQUINAS, Summa theologiae 1, q. 85, a. 1.
59. B. L. WHORF, Four articles on metalinguistics Washington, 1950; J. B. CARROLL (ed.), Language thought and reality: selected writings of Benjamin Lee Whorf New York, 1956. The expression 'standard average European' is Whorf's; cp. E. SAPIR, 'The status of linguistics as a science Lang

5 (1929), 207-14.

60. ROOS, 1952, 84 - 6.

61. SIGERUS, 1977, i; Grammatica est sermonicalis scientia, sermonem et passiones eius in communi ad exprimendum principaliter mentis conceptus per sermonem coniugatum considerans.

62. PAETOW, 1914; SANDYS, 1921, 676 - 8; H. WADDELL, The wandering scholars London, 1949, chapter 6.

5 عصر النهضة وما بعده

ينظر لعصر النهضة تقليديا باعتباره ميلادا للعالم الحديث والتاريخ الحديث، بقدر ما يمكن أن تكون هذه التقسيمات الاعتباطية بالضرورة للعصور التاريخية ذات دلالة. ويمكننا أن نرى أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر قد نشأت في ذلك الوقت، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الحاضر. وقد كان لكثير من هذه السمات تأثير مباشر في الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية. وهذا ما يجب علينا تناوله في هذا الفصل.

ويمكن للمرء أولا أن يحدد عصر النهضة باعتباره تطورا إيطالي المنشأ، انتشر منذ القرن الرابع عشر خارج إيطاليا خاصة نحو شمال أوروبا، كما أن هناك حركة مستقلة دينية في أغلبها، هي حركة الإصلاح الديني Reformation التي تنتمي للقرن السادس عشر، والتي تركزت في المناطق الناطقة بالألمانية من أوروبا، وهذه الحركة أدت إلى إقامة أنواع من الإيمان البروتستانتي، بوصفها أولا خصاما أساسيا مع الكاثوليكية الرومانية والسلطة الزمنية البابوية، وبالتالي بوصفها جانبا من جوانب الانقسام الرئيسي للمسيحية الأوروبية الغربية إلى مسيحية كاثوليكية ومسيحية غير

كاثوليكية، إلى جانب البروتستانتية التي أخذت أشكالا مختلفة مثل اللوثرية Lutheranism، والكلفنية Calvinism والأنجليكانية Anglicanism... الخ.

ويمكن القول إن هاتين الحركتين كانتا بداية لأوروبا الحديثة، ويمكن النظر إليهما أيضا بوصفهما مسؤولتين إلى حد كبير عن كثير من خصائص العالم الحديث، بسبب التأثير الذي مارسته أوروبا على العالم ككل لفترة من الزمن. وقد دعمت هاتان الحركتان تغيرات مشابهة في بعض النواحي في المواقف العامة والخاصة. وبقدر ما يتعلق الأمر بعلم اللغة فسوف نلفت الانتباه لعدد من التطورات المصاحبة، كالتوسع الأوروبي وراء البحار - على سبيل المثال - وما ترتب عليه من زيادة سريعة ومفاجئة إلى حد كبير في المعرفة الأوروبية باللغات غير الأوروبية، وأحيانا بأنماط وتراكيب لم تكن معروفة ولم تكن متوقعة حتى الآن. وفي نفس الوقت نالت اللغات الدارجة vernacular لأوروبا الحديثة احتراما كبيرا جدا، ومن هنا نالت المزيد من الدراسات المكثفة. ولكن ربما كان أكثر جوانب علم عصر النهضة أهمية، هو استكمال البعث الذي كان قد بدأ في إيطاليا بدراسة اللاتينية الكلاسيكية واليونانية الكلاسيكية، ليس كما في حالة دراسة اللاتينية في العصور الوسطى الذي كان من أجل التعليم والاتصال الدولي والتفلسف. ولكن بوصفهما وسيلتين للآداب المزدهرة، وبوصفهما لغتين سابقتين لحضارة عظيمة مستقلة وسابقة للكنيسة، حضارة كان إنسان عصر النهضة في وضع مُوات يجعله قادرا على إعادة إقامتها. وهذا في الواقع هو ما أوجد مصطلح عصر النهضة Renaissance، ولهذه الفترة يمكن أن نعزو ترسيخ دراسة الأدب الكلاسيكي والتاريخ القديم لليونان و روما (literae humaniores)، بوصفهما مكونا مركزيا - لوقت قريب على الأقل - في التعليم المدرسي والجامعي الأوروبي. وكل من النهضة والإصلاح الديني قد عززا احترام الإنسانية العقلانية، أي تركيز الاهتمام على الإنسان والطبيعية الإنسانية، بوصفه الاهتمام الأساسي في العلم والفن، تم هذا عن طريق الأهمية التي أعطتها النهضة للكلاسيكيات، وإصرار حركة الإصلاح الديني على تسهيل قراءة الإنجيل مترجما عن اللاتينية لو اقتضت الضرورة، أي تسهيل قراءته لكل المسيحيين بوصفه المفتاح للإيمان في مواجهة السلطة السابقة للكهانة والبابوية («الكهانة الروحية لكل المؤمنين»).

وكما هو الشأن في أي حركات عظيمة أخرى في الحياة الفكرية والاجتماعية والفنية، فمن العبث محاولة تحديد تاريخ محدد لبداية هذين العاملين المحدثين للتاريخ الحديث. ويمكن للمرء بالطبع أن يلفت الانتباه إلى تاريخ وقائع رمزية أو ذات أهمية معينة، مثل رسائل لوثر الخمس والتسعين في 1517م، ولكن أي تاريخ كهذا سيكون حتما اعتباطيا ومضللا في الكشف عن التغيرات المتنوعة في الفكر والسلوك، التي امتدت على مدى عقود بالضرورة ما لم يكن على مدى قرون. ولكننا ـ كتاريخ رمزي فقط ـ يمكننا أن نحدد سنتي الحدثين المستقلين تماما والقريبين نسبيا أحدهما من الآخر، اللذين أنذرا معا بنهاية قسم من العالم القديم وبداية العالم الجديد.

في عام 1492م اكتشف كولمبوس القارة الأمريكية بادئا بذلك حركة التوسع الأوروبي على نطاق العالم كله، وأخيرا سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، الدولة الوريثة للإمبراطورية الرومانية الموحدة السابقة، سقطت في أيدي الأتراك في عام 1453م. وقد أنهى هذا آخر ما تبقى من الإرث المتصل للإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية، وأجبر عددا من العلماء اليونانيين على الهجرة إلى إيطاليا، وقد أحضر هؤلاء المهاجرون معهم مخطوطات النصوص الكلاسيكية من القسطنطينية، كما أن العلماء الإيطاليين الذين زاروا تلك المدينة وبعض المدن الأخرى كانوا يبحثون بنشاط عن تلك المخطوطات ويحملونها إلى وطنهم. وعلى أي حال كان هذا هو الذروة فقط للعملية التي ترسخت جيدا بالفعل، ففي السنوات السابقة كان العلماء اليونانيون قد جاءوا إلى الغرب وبدأوا إحياء المعرفة اليونانية، وفي نهاية القرن الرابع عشر فإن مانويل كريسولوراس M. Chrysoloras الذي تمت دعوته من القسطنطينية، بوصفه معلما للغة اليونانية قد أخرج أول مؤلف للقواعد الحديثة لتلك اللغة في الغرب[1].

وقد ولَّد الوعي المتزايد بالماضي الكلاسيكي، والنشاط المتعاظم في الحاضر حيوية عظيمة لدى القادة في كل مجالات النشاط، ولم يكن هناك إلا القليل من التردد في طريق الطموح سواء أكان طموحا محمودا أم مرذولا. وقد قيل عن هذه الفترة: إن الجريمة الوحيدة التي لم يكن إنسان عصر النهضة مذنبا فيها هي إتلاف المخطوطات القديمة[2]. ولهذه الفترة

من التاريخ يعود تصور «العصور الوسطى» كفترة مظلمة ومخزية، تقع بين العصور القديمة والعصر الجديد، وبقدر ما يتعلق الأمر بالمعرفة اللغوية فإن إنجازات أوروبا العصور الوسطى التي أوضحناها في الفصل السابق، قد بخست التقدير بشكل خطير من طرف رجال عصر النهضة. وفي وقت متأخر جدا استطاع فرود Froude في القرن التاسع عشر أن يكتب في نثره الرقيق، وهو يتأمل مليا نهاية العصور الوسطى: «كان التغيير يفاجئ العالم، ويظل معنى التغيير واتجاهه خافيين علينا، وهو تغيير من عصر لعصر، فالمسالك التي سلكتها العصور السابقة قد تقطعت، وكانت الأحوال القديمة في طريقها للزوال، وكان إيمان عشرة قرون وحياتها يتبددان كما يتبدد الحلم، وكانت الفروسية تقضي نحبها، فالدير والقلعة كلاهما كانا في سبيلهما للانهيار السريع وللتحول إلى أنقاض، وكانت صور العالم القديم وأمانيه ومعتقداته وقناعاته في طريقها للزوال دون رجعة. وظهرت قارة جديدة وراء البحر الغربي، وصفحة السماء المرصعة بالنجوم قد سقطت في هاوية لانهائية من الفضاء الذي ليست له حدود، والأرض الثابتة ذاتها، والتي زعزعت من أساسها أصبح الناس يرونها مجرد ذرة صغيرة وسط الاتساع الهائل للكون. ولم يعد الناس يقبلون البقاء في البيت الذي شيدوه لأنفسهم بشق النفس»[3]. والثقافة الحديثة قد بذلت جهدا كبيرا لرفع تقديرنا لفترة العصور الوسطى، ولتخفيف الانقطاع بين العصور الذي فُرض من قبل، ولو أن التغيرات التي حدثت والمتعذر إلغاؤها كانت هي ونتائجها بعيدة المدى.

إحدى النتائج المباشرة لهذه التغيرات بقدر ما يتصل الأمر بعلم اللغة هي أن مسارات التاريخ أصبحت كثيرة ومعقدة، وحتى الآن لم يكن من غير المعقول تتبع مسار الدراسات اللغوية عن طريق اهتمام العلماء اللاتين بدراسة اللاتينية، مع تتبع التطورات النظرية التي أقامها القواعديون التأمليون على أسس القواعد اللاتينية. وكانت الجهود الأوروبية خارج هذه الحدود ضيقة النطاق نسبيا، وثانوية في طبيعتها إلى حد كبير باستثناءات قليلة بارزة مثل عمل «القواعدي الأول». ولم يعد هذا صحيحا بعد نهاية العصور الوسطى، فلم تتسع الآفاق اللغوية ولم تبدأ أعمال اللغويين غير الأوروبيين في التأثير في التراث الأوروبي فحسب، ولكن لغات أوروبا الحية

بدأت تدرس منذ ذلك الوقت بشكل نظامي، كما ظهرت اتجاهات جديدة في التفكير اللغوية تؤخذ اليوم كأمر مسلم به بوصفها جزءا من علم اللغة العام. واستمرت دراسة قواعد اليونانية واللاتينية، كما أن التطورات والتحسينات الإضافية التي نقلت هذه الدراسة من فترة العصور الوسطى إلى الممارسة الحديثة في تدريس اللغات الكلاسيكية، عبارة عن موضوع مناسب للدراسة المتخصصة، ولكنها لم تعد تمثل مجرى تاريخ علم اللغة ككل.

أثناء العصور الوسطى المتأخرة كانت العربية والعبرية تدرسان في أوروبا، واعتُرف باللغتين كلتيهما رسميا في جامعة باريس في القرن الرابع عشر. وكانت اللغة العربية قد دخلت بقوة مجال اهتمام شعوب البحر المتوسط منذ عدة قرون سابقة، كنتيجة للتوسع السريع للقوة العربية وانتشار الدين الإسلامي في معظم أراضي الشرق الأدنى وشاطئ شمال أفريقيا، وشبه الجزيرة الأيبيرية في القرنين السابع والثامن. وقد كتب روجر بيكون R. Bacon قواعد اللغة العبرية وعرف العربية، وفي الواقع فإن ضرورة معرفة شيء عن العبرية بوصفها لغة العهد القديم قد تحققت بشكل متقطع منذ عهد جيروم (345 ـ 420)، ولكن هذه الدراسات قد بدئ فيها بشكل سري وخجول، حيث كان المسيحيون خائفين من اتهامهم بالاتصال بأعداء الكنيسة، وكان اليهود خائفين من اتهامهم بالتحول عن عقيدتهم.

ووضع العبرية كلغة كتاب مقدس أعطاها مكانة إلى جانب اللاتينية واليونانية بوصفها لغة جديرة بالاهتمام، وقد نظر إليها القديس أيسيدور Isidore (القرن السابع) وكثيرون غيره باعتبارها لغة الرب، ولذلك فهي اللغة الأولى التي تحدثها البشر على الأرض[4]. ولكن مع انحلال القيود الإكليريكية في عصر النهضة درست العبرية بشكل أوسع وتعمق أعظم. وكانت اليونانية واللاتينية والعبرية هي اللغات الثلاث التي كان الإنسان ثلاثي اللغة homo trilinguis في عصر النهضة يعتز بمعرفتها[5]. وقد كُتِب عدد من المؤلفات في قواعد العبرية في أوروبا وعلى الأخص مؤلف روشلين Reuchlin المسمى De rudimentis Hebraicis[6]. وروشلين العالم الكلاسيكي الكبير أيضا وأحد قادة النهضة في ألمانيا قد لفت نظر علماء الغرب، إلى نظام أقسام الكلمات المختلف جذريا الذي يستعمله علماء القواعد العبريون،

وهو تقسيمها إلى «اسم وفعل وأداة»[7]. والأسماء والأفعال قابلة للتصريف، أما الأدوات فلا تقبله. وقد قام روشلين بمواءمة التراث القواعدي العبري للتراث القواعدي اللاتيني، بتقسيم «الاسم» إلى «اسم وضمير وبرتسبل»، وتقسيم الأدوات إلى «ظرف وأداة ربط وحرف جر وأداة تعجب». ولكنه في نفس الوقت ينبه قراءه إلى أن جانبا كبيرا من الفئات (التصريفات accidents)، والنظرية المرتبطة بها التي تطبق على أقسام الكلمات في اللاتينية لا يمكن تطبيقها على العبرية، لذا فلا حاجة للإشارة إليها[8]. وفي عام 1529م أصبحت قواعد كلينار N. Clenard للغة العبرية هي القواعد الواضحة لهذه اللغة في أوروبا الغربية.

وبتزايد معرفة العلماء الغربيين وفهمهم للغة العبرية واطلاعهم على أعمال اللغويين العبريين، فإن العلم الغربي قد حقق اتصالا فكريا لأول مرة مع لغة غير هندوأوروبية ومع تراث تحليل قواعدي غير مستمد بشكل مباشر، ما لم يكن بشكل مطلق من التراث اليو. روماني.

يرجع أصل المعرفة اللغوية العبرية لتفسير الأدب الديني للعبرانيين بما في ذلك كتب العهد القديم، ولكن هذه المعرفة قد بدأت في التطور أيضا منذ العصور الوسطى المبكرة تحت تأثير الأعمال اللغوية العربية[9]. ويعزى هذا إلى كل من التشابهات التركيبية لهاتين اللغتين الساميتين والسلطان السياسي للعرب، بعد التوسع الإسلامي في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وإسبانيا. وقد تمت استعارة المصطلحات الفنية والفئات من اللغويين العرب لاستعمالها في التحليل الوصفي للغة العبرية. ومع نهاية القرن الثاني عشر كانت قواعد العبرية يكتبها اليهود القاطنون في إسبانيا وفي غيرها من البلاد، يكتبونها من أجل اليهود الآخرين. ومن بين هؤلاء القواعديين فإن أفراد أسرة «قمحي» معروفون جيدا بوصفهم أصحاب رسائل لغوية، وقبل ذلك كتب يهودي إسباني آخر هو ابن بارون، دراسة مقارنة للغتين العربية والعبرية[10].

والدراسات اللغوية العربية، شأنها شأن الدراسات العبرية، استمدت روحها من الأدب الديني، وهو القرآن] الكريم [في حالة العرب. والقرآن بوصفه الكتاب المقدس للإسلام، وكلام الله الموحى به للنبي محمد]صلى الله عليه وسلم[، كان هو رباط الوحدة على نطاق الأراضي الخاضعة للعرب

كلها، ورباط الولاء الإسلامي الشامل منذ القرن السابع فصاعدا. والنص العربي للقرآن نص مقدس، ولا تجوز ترجمته من أجل الاستخدام الشعائري والرسمي[*]، لذا يجب على المؤمنين غير العرب أن يتعلموا العربية ليقرأوا القرآن ويفهموه (ومثلما هو الشأن مع المؤمنين غير العرب هذا هو ما يعمل به في المدارس الإسلامية في ماليزيا وأماكن أخرى). والقرآن ـ مثله مثل النصوص الدينية الأخرى ـ خلق تراثا من التفسير والشروح اللغوية، كما نشأت الحاجة لموظفين يعلمون الإداريين والرسميين اللغة الرسمية للإمبراطورية الإسلامية، وهكذا احتل تدريس العربية في العالم الإسلامي مكانة مماثلة لتدريس اللاتينية في الإمبراطورية الرومانية الغربية.

نشأ تنافس مهم بين المدارس الفللجية المختلفة في العالم العربي، ونلمس التأثير الأرسطي ـ خاصة في مدرسة البصرة ـ بوصفه جزءا من التأثير الأوسع للفلسفة اليونانية والعلم اليوناني على المعرفة العربية. وقد شددت مدرسة البصرة على الاطراد الصارم وعلى الطبيعة النظامية للغة بوصفها وسيلة الحديث المنطقي عن عالم الظواهر. وهنا يمكن القول إن أفكار أرسطو عن القياس قد تركت أثرها (صص 48 ـ 53 من قبل). وقد أعطت مجموعة من العلماء اللغويين في الكوفة أهمية أكبر للاختلاف في اللغة كما هو موجود بالفعل، بما في ذلك الاختلافات اللهجية وما هو واقع في النصوص كما أقرت، وهذه المدرسة تعتنق إلى حد ما وجهات نظر «شذوذية anomalist». أما مدى تأثير «التخني» ـ إن وجد ـ في النظرية القواعدية العربية فهو محل جدال. وقد ترجم «التخني» إلى اللغة الأرمنية واللغة السريانية في وقت مبكر من العصر المسيحي[11]، وقد يكون العلماء العرب قد درسوه. ولكن من المؤكد أن اللغويين العرب قد طوروا وجهات نظر خاصة بهم في دراستهم النظامية للغتهم، ولم يفرضوا عليها بأي حال النماذج اليونانية مثلما فعل علماء القواعد اللاتين[12].

بلغت القواعد العربية ذروتها في نهاية القرن الثامن في قواعد سيبويه البصري، وإنه لأمر ذو دلالة أن يكون سيبويه نفسه فارسيا وليس عربيا، وهذا يشهد بالتالي على الحافز الدائم للبحث اللغوي الكامن في الاحتكاك اللغوي المفروض ثقافيا. وكان سيبويه تلميذا للخليل الذي اشتغل هو نفسه

(*) ليس هناك إجماع على هذا الرأي (المترجم).

بنظرية العروض والمعجم، ومؤلف سيبويه المعروف فقط «بالكتاب» ثبت في الغالب الوصف القواعدي وتدريس اللغة العربية منذ ذلك الوقت، وقد اعتمد سيبويه - مثل التخني - على الأسس التي وضعها سابقوه، وقد أقام قواعد اللغة العربية الكلاسيكية فعليا كما هي معروفة اليوم، مميزا ثلاثة أقسام من الكلمات، وهي الاسم المتصرف والفعل والحرف غير المتصرف]المبني[، وقد بنى وصف التصريفات الفعلية غالبا على الجذور «ثلاثية الحروف» كثيرة التكرار مثل «ك - ت - ب» التي تأتي منها «كَتَب» و كِتاب».. الخ. وقد جعل المعجميون العرب هذه الجذور الصامتية أساسا لمواد معاجمهم.

وبالإضافة لما سبق أنجز سيبويه وصفا صوتيا مستقلا للأبجدية العربية، وبينما لم يكن هذا الوصف سابقا لوصف العلماء الهنود، فقد كان سابقا لعلم الأصوات الغربي السالف والمعاصر. وسيبويه وقواعديون عرب آخرون كانوا قادرين على وصف أعضاء الكلام وميكانيكية النطق بشكل نظامي، مفسرين النطق باعتباره اصطداما لتشكيلات الممر الصوتي المختلفة بهواء الزفير بطرق مختلفة، وطرق النطق أطلق عليها مصطلح «المخرج»(*)، وقد كان القواعديون العرب - عن طريق البدء من الخلف إلى الأمام، أي من الحلق إلى الشفاه والأنف - قادرين على وصف الأصوات الجزئية للغة العربية بمصطلحات فنية واضحة، كما حددت بشكل صحيح ملامح مثل النطق المطبق velarized للصوامت «المفخمة emphatic ومثل إطباق velarization الصوائت وتغويرها palatalization في سياقات صوتية معينة. وبقي إخفاقهم الملحوظ الخطير الوحيد هو عدم تشخيص حركية التمييز بين المجهور والمهموس من الصوامت، على الرغم من أن تقسيمها إلى قسمين يعتبر تقسيما مهما، وقد نسبت الصوامت لهذين القسمين بشكل صحيح. وبالنظر لهذا الإخفاق فإن التأثير الهندي في المؤلفات الصوتية للعرب يكون موضع شك على الرغم من أنه أمر مطروح. ومن المؤكد أن الأساس النطقي للتصنيف الصوتي وترتيب الوصف من الخلف إلى الأمام يتفق مع تطبيق الهنود. وقد كان إنجاز العرب في هذا الفرع من علم اللغة أكثر توفيقا بكثير من حيث

(*) أيا ما كان اللبس في استعمال هذا المصطلح «مخرج»، فإن المقصود به في الصوتيات هو مكان إنتاج الصوت، وليس طريقة تسرب الهواء (المترجم).

سلامة الوصف من إنجاز اليونان والرومان[13].

والاهتمام باللغتين العربية والعبرية والتراث العلمي المستقل الذي عولجتا في إطاره، قد ساهما في إرخاء القيود التي فرضها الاهتمام القاصر على اللاتينية واليونانية على علم اللغة حتى ذلك الوقت. ولكن هذا لم يكن هو العامل الوحيد على الإطلاق، فهذا الإرخاء للقيود قد عززه الاندفاع القوي لدراسة اللغات الدارجة في أوروبا، بوصفها موضوعات جديرة في ذاتها بالجهد العلمي المكثف. وفي هذا الميدان أيضا لا يمكن رسم خط فاصل حاد، ففي فترة العصور الوسطى كتبت قواعد عامية للبروفانسية والقطالونية، والأهمية التاريخية والمزايا المنهجية لهذه القواعد التي أشرنا إليها في الفصل السابق (ص 130) لم تقدر بشكل صحيح إلا الآن[14]. وفي إيطاليا فإن دانتي Dante الذي اعتبره البعض نبي عصر النهضة المتأخر، قد دافع عن مسألة دراسة اللهجات الرومانسية المنطوقة في مقابل اللاتينية المكتوبة، ومن خلال كتاباته بالدارجة قد قام بالشيء الكثير لترسيخ صيغة من صيغ الإيطالية المنطوقة بوصفها اللغة الأدبية، وبوصفها اللغة الرسمية لشبه الجزيرة الإيطالية فيما بعد، بل إن عصر النهضة نفسه قد شهد نشر الكثير من أول قواعد للغات الأوروبية، مدشنا بذلك تطبيقات العلم اللغوي التي تتطور دون انقطاع منذ ذلك الحين وحتى الآن.

وأول قواعد معروفة خاصة بالإسبانية والإيطالية قد ظهرت في القرن الخامس عشر، وأول قواعد خاصة بالفرنسية قد ظهرت في بداية القرن السادس عشر. وفي نفس الفترة نشرت قواعد اللغة البولندية السلوفانية القديمة للكنيسة، وظهرت أول قواعد مطبوعة للغة الإنجليزية في عام 1586م[15].

والظروف التي كتبت ودرست فيها هذه القواعد كانت مختلفة جدا عن تلك الظروف التي سادت في الأزمنة السابقة، فقد ساعدت نشأة الدول القومية وظهور الطبقة الوسطى التجارية فيها، والمشاعر الوطنية وتنامي قوة الحكومات المركزية على الاعتراف بتنوع واحد من تنوعات اللغة المحلية باعتباره اللغة الرسمية، وشعر الناس بأن من الواجب استعمال ورعاية لغتهم القومية الخاصة بهم. ومنذ نهاية القرن الخامس عشر عوملت الإسبانية القشتالية نفس المعاملة، وقد خرج تشارلز الخامس عن العرف

اللاتيني العام في مخاطبته للبابا باللغة الإسبانية[16]. وقد ساعد اختراع الطباعة على نشر المعرفة بمعدل متزايد بشكل كبير، كما عملت الطبقة الوسطى التجارية على نشر تعلم القراءة والكتابة في دوائر أوسع من المجتمع، وشجعت دراسة اللغات الأجنبية الحديثة كما أن اقتصاديات الطباعة علاوة على ذلك قد جعلت الاعتراف بتنوع واحد من تنوعات اللغة (اللغة المعيارية) وبإملاء موحد مطلبا ملحا، كما أن نشر القواميس وحيدة اللغة أو ثنائيتها قد صاحب نشر القواعد، واستمر منذ ذلك الحين. وفي العصور الوسطى ظهر في إنجلترا عدد من كتب القواعد والكتيبات العملية للغة الفرنسية، نتيجة لدخول الفرنسية بعد الغزو النورماندي بوصفها لغة الغزاة، ولاستمرار استعمال الطبقات العليا لها لبعض القرون بعد ذلك. ولكن يمكن القول في الحقيقة: إن الدراسة والتدريس النظاميين للفرنسية في إنجلترا قد بدآ في عام 1530م بنشر مؤلف l'esclaircissement de la langue française لصاحبه ج. بلسجراف J. Palsgrave، وهو عمل يزيد على ألف صفحة يعالج إملاء اللغة الفرنسية ونطقها وقواعدها، وهو السابق في الاهتمام بالتفاصيل الكثيرة جدا[17].

قويت الاحتياجات الإنسانية والدنيوية بارتفاع مكانة اللغات الوطنية لأوروبا بعد أن ترجم إليها الإنجيل، وهو أحد جوانب الإصلاح الديني. وقد طبع إنجيل لوثر الألماني في عام 1534م، وخلال ذلك الوقت ترجم الكتاب المقدس إلى عدد من اللغات الأوروبية الغربية، وإن الاهتمام واسع الانتشار بنظرية الترجمة وتقنياتها تصورها الرسالة الموجزة عن الموضوع للفرنسي دوليه E. Dolet[18].

وعلى الجملة، أصبحت اللغات المكتوبة للطبقات المتعلمة مركزا للدراسة القواعدية، ولكن اللغات المكتوبة كانت منطوقة أيضا، وهي تكتب لتنطق، وكان نطق لاتينية العصور الوسطى غير ذي أهمية نسبيا، ويختلف حسب اللغة الأولى للمتكلم، بينما كانت القواعد تستعيد بشكل ميكانيكي وصف برشيان والقواعديين الكلاسيكيين الصوتي غير العلمي إلى حد كبير. وقد اهتمت القواعد الجديدة للغات الحديثة اهتماما عظيما بالعلاقة بين الهجاء الموحد في ذلك الوقت في الطباعة وبين النطق، وقد حظيت مشكلات إصلاح الكتابة والهجاء باهتمام جديد، وبينما استمر التوازن المضطرب

بين الحرف والصوت المنطوق، فقد لوحظ انعدام الكفاية الفونيمية لأنواع الهجاء القائمة، وكان هذا مصدر استياء، لذا أدخلت القواعد الإيطالية المبكرة علامات حروف جديدة للتمييز بين المفتوح والمغلق لـ o و e (/ɛ/ و /e/، /ɔ/ و /o/)[19].

ويمكن القول إن الدراسة الجادة للغات اللاتينية الجديدة neo-Latin (الرومانسية) قد دشنها دانتي في بداية القرن الرابع عشر بمؤلفه De vulgari eloquentia الذي أطرى فيه بشدة مزايا اللغات المنطوقة التي يتعلمها الطفل في صغره بشكل لاشعوري، وقابل بينها وبين اللاتينية المكتوبة التي تكتسب بشكل واع في المدارس عن طريق الأحكام القواعدية بوصفها لغة ثانية، وفي فقرة شهيرة دعا دانتي إلى العناية باللغة الإيطالية العامة التي سوف تساعد على توحيد شبه جزيرة إيطاليا، بالطريقة التي هيأتها العروش الملكية المركزية لشعوب أخرى[20].

وقد وفرت العلاقة بين اللغات الرومانسية وبين اللاتينية ما كان ينقص العالم القديم دائما، وهو الإطار النظري الصحيح للتعامل مع ظاهرة التغير اللغوي. ويمكن أن يزعم البعض بشكل معقول أن علم اللغة التاريخي كما نفهمه اليوم يجد بدايته الحقيقية في هذه الدراسات. وإن إعادة اكتشاف العصور القديمة الكلاسيكية بكل أمجادها بوصفها جانبا من الإحياء المعرفي، قد أعطت إنسان عصر النهضة منظورا تاريخيا لم يكن يملكه إنسان العصور الوسطى. والتغيرات الصوتية دونت منهجيا ودرست بشكل جدي. وربما يكون أكثر أهمية أن الأسئلة التي أثارتها التغيرات قد ووجهت وتمت الإجابة عنها، ولم تكن العاميات الرومانسية مجرد لاتينية فاسدة بل لغات ذات جدارة وقائمة بذاتها، ومرتبطة تاريخيا باللاتينية بطرق مثيرة[21].

تمت مناقشة هذا التغير اللغوي، وقد عزاه الكتاب إلى عوامل الاحتكاك والاختلاط اللغوي، وإلى التغيرات التدريجية المستقلة التي تحدث مع انتقال اللغة المنطوقة من جيل لجيل، وقد أشار العلماء إلى أصل الخصائص الرومانسية الراجع إلى المصادر اللاتينية المتبوعة بصيغ الفعل habére «يملك»، وإلى حقيقة أن الأسماء غير المعربة caseless للغات الرومانسية الحديثة، قد حلت محل تصريفات صيغ الحالة المستقلة الموجودة في اللاتينية. وقد دفع هذا التغير الأخير إلى إعادة تقييم تراكيب حالة الجر prepositional.

وبينما يمكن مضاهاة معظم حروف الجر الرومانسية شكليا بمثيلاتها اللاتينية الأصلية، فإن هناك فرقا ملحوظا بين تلك الحروف التي استمرت استعمالاتها النحوية والدلالية بشكل واسع، مثل استعمالات الصيغ اللاتينية كما هو الشأن مع الحرف الإيطالي in «في» و con «بـ »، وبين تلك الحروف مثل الحرف الفرنسي de والإيطالي di التي تماثل دلاليا بوجه عام تصريفات حالة غير الجر اللاتينية، وهي عادة حالة الإضافة، دون أي حرف جر. وفي عام 1525م أثار بيتروبيمبو P. Bembo سؤالا عما إذا كانت الأخيرة حروف جر إذا كنا نتكلم بدقة، أم هي علامات حالة]إعراب[segni di caso[22]. وقد ناقش معاصروه المسألة أيضا، وادعى أحد الكتاب أيضا أن di في padrone di casa «رب البيت» عبارة عن علامة حالة di caso segno ولكنها حرف جر في sono partito di casa «قد غادرت البيت حالا»[23]. ومن السهل القول إن علم اللغة التاريخي وعلم اللغة الوصفي لم يتميز بشكل مناسب عند ذلك، ولكن المهم هو بداية عملية إجراء الوصف القواعدي وتدريس اللغات الحديثة، دون الخضوع للفئات المفروضة بدون سبب معين إلا لارتباط هذه الفئات باللغة اللاتينية. والعملية الأخيرة يمكن ملاحظة أنها ظلت تعمل أيضا في المؤلفات المتتابعة لقواعد الإنجليزية إلى ما بعد عصر النهضة، على الرغم من أنه في هذه الحالة تنعدم علاقة القرابة اللغوية المباشرة. وبطريقة مشابهة لم يترك نظام برشيان ذو الأقسام الثمانية للكلمة دون تساؤل، فقد طرحت أنظمة ذات أقسام أقل وأنظمة ذات أقسام أكثر من نظام برشيان، فنبريخا وضع نظاما ذا عشرة أقسام في مؤلفه Gramatica de la lengua castellana (1492)[24]، ومع ذلك كان على الفصل الواضح للاسم والصفة إلى قسمين متميزين أن ينتظر حتى القرن الثامن عشر.

ومن بين علماء قواعد عصر النهضة فإن بيير راميه P. Ramee (Petrus Ramus المولود تقريبا حوالي 1515م) معروف جيدا، وقد نودي به مبشرا للبنائية الحديثة[25]. وبشكل أعم ينظر إليه بوصفه واحدا من المفكرين الذين وضعوا بصمتهم على مرحلة الانتقال من العالم الوسيط إلى العالم الحديث، وإصلاحاته التعليمية كانت ذات تأثير واسع في أوروبا الشمالية، ومع رفضه المشهور لأرسطو في مناقشته لدرجة الماجستير (quaecumque

«كل ما قاله أرسطو خطأ» ab Aristotele essent decta commentitia esse)، واصل إحياء دراسة الفنون العقلية في باريس معقل الأرسطية والقواعد المودستية سابقا، ودافع بقوة عن المذهب الإنساني في اللغات الكلاسيكية من خلال آدابها وليس من خلال الأرسطية السكولاستية. وبعد تورطه في النزاع الديني لتلك الأزمنة اغتيل في مذبحة سان بارتوليمو في عام 1572[26].

وقد كتب راموس قواعد لليونانية واللاتينية والفرنسية ودوّن نظريته في القواعد في مؤلفه Scholae grammaticae[27]، وبينما استفاد تعليميا من الرجوع لقواعد اللاتينية في عمله عن قواعد الفرنسية فإنه أبدى تقديرا مناسبا لكل من اللغتين. وبدلا من الجري وراء الحجج الفلسفية في القواعد التي لم تعصم السكولاستيين من الركاكة حسب قوله[28]، فإنه أكد ـ فيما يتعلق باللغات القديمة ـ على الحاجة إلى اتباع الاستعمال المرصود للمؤلفين الكلاسيكيين، واتباع الاستعمال المرصود للمتحدثين الوطنيين في اللغات الحديثة. ووصفه وتصنيفاته القواعدية وصف وتصنيفات شكلية formal بالمعنى المعاصر، وهو لا يعول على الدلالة أو الفئات المنطقية، بل يعول على العلاقات بين الصيغ الفعلية للكلمات.

تشتمل قواعد الفرنسية التي كتبها راموس على معالجة من أولى المعالجات المبكرة لنطق اللغة، وقد اهتم أيضا بالإشارة للفروق بين اللاتينية كما كان يتحدثها متكلموها اللاتين، وبين اللاتينية كما ينطقها بشكل مختلف هؤلاء الذين يخضعونها لأنماطهم الفنلجية بعد تعلمها في المدارس[29]. وفي قواعد اللاتينية حافظ على أقسام الكلمة الثمانية لبرشيان، ولكنه ـ رغبة في تحديدها على أساس معايير شكلية بشكل خالص ـ أقام تصريفا للعدد ولغيابه، وهو التقسيم الأساسي بين التقسيمات، وقابل بين الأسماء والضمائر والأفعال والبرتسبلات (التي اعتبرها أسماء) وبين كل الأقسام الباقية[30]. وهذا التعويل على العدد بوصفه الفئة الأساسية للتصنيف القواعدي كان تعويلا ذا شأن، حيث اختفى إلى حد كبير من اللغات الحديثة تصريف الحالة الذي عول عليه القواعديون القدماء كثيرا، ولا يزال العدد باقيا بوصفه فئة تصريفية. وقد استفاد راموس من التمييز نفسه في إعداده لقواعد الفرنسية[31]، وقد أخذ به من بعده كتاب قواعد الإنجليزية. وفي وصفه لصرف اللغة اللاتينية أعاد تنظيم النظام التقليدي لتصريفات

الاسم عن طريق إقامة معياره الأساسي للتصريف، على أساس تساوي أو عدم تساوي المقاطع لصيغ حالة الاسم أو الصفة (ما إذا كانت الحالات المختلفة تتفق أو لا تتفق فعليا في عدد مقاطعها). أما الأفعال اللاتينية فقد ميزت أساسا عن طريق ما إذا كان زمنها المستقبل يشتمل في تكوينه على -b- (amabo... الخ) أو لا يشتمل، ويتفق هذا إلى حدكبير مع التصريف التقليدي الأول والثاني من جانب، ومع الثالث والرابع من جانب آخر[32]. وقد لاحظ راموس بشكل لافت للنظر أنه على الرغم من أن برشيان وعلماء قواعد اللاتينية الآخرين لم يستفيدوا من هذا التصنيف، فإنهم مع ذلك وفروا المادة التي أمكن عليها إقامة هذا التصنيف الشكلي[33].

وقد أقيم النحو عند راموس أيضا على أساس التمييز بين الكلمات ذات تصريف العدد والكلمات غير ذات تصريف العدد، ونظم بالرجوع لفئتي العلاقة النحوية أي التوافق والحكم (وفي هذا هو مدين للنظرية القواعدية للعصور الوسطى)[34].

أشرنا بالفعل للاتصال بين العلم اللغوي الأوروبي وأعمال القواعديين العرب واليهود في العصور الوسطى المتأخرة، وكانت العربية والعبرية هما اللغتين غير الأوروبيتين الوحيدتين اللتين أصبح الأوروبيون على اطلاع عليهما في عصر النهضة. ولكن استعمار العالم الجديد ورحلات الاكتشاف حول الأرض وإقامة المحطات التجارية والمستوطنات البعيدة عن الوطن وإرسال البعثات التبشرية، كل هذا قام بدوره في تنبيه العلماء إلى ثروة من التنوع اللغوي في العالم لم يحلموا بها حتى ذلك الوقت. وقد استمرت هذه العملية دون توقف، وما زالت تتقدم في الواقع عن طريق بعثات تقوم بدور رئيسي. وقد أشار فيرث Firth إلى الجانب اللغوي في التوسع الأوروبي بوصفه «اكتشافا لبابل»[35].

وأول قواعد للغة أمريكية هندية من العالم الجديد، وهي لغة ترسكان Tarascan (المكسيك) نشرت في عام 1558م، وبعد ذلك نشرت قواعد للكويشوا Quechua (البيرو) وللناهواتل Nahuatl (المكسيك) وللجوراني Guarani (البرازيل) في عام 1560م، و 1571م، و 1640م على التوالي. وفي أوروبا ظهرت قواعد للغة الباسك في عام 1587م، وشهد القرن السابع عشر قواعد منشورة لليابانية والفارسية[36]. ومن بين الأعمال اللغوية التي تمت

تحت توجيه الأنشطة التبشيرية، تجب الإشارة لإنجازات بعثات الجزويت في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، ولقسم الـ Propaganda Fide للكنيسة الرومانية. وقد تمت زيارة الهند وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى جميعا، وقد أخضعت البعثات التبشيرية الكاثوليكية عددا من اللغات التي صودفت هناك، للأبجدية الرومانية لأول مرة من أجل ترجمة الكتاب المقدس. والأبجديات التي ابتدعتها هذه البعثات لبعض لغات الهند وبورما والملاحظات الصوتية المصاحبة لها نالت ثناء اللغويين في القرن الحالي[37]، كما أن نظام الكتابة الذي وضعه الكسندر دي رودس A. de Rhodes للغة الفيتنامية في عام 1651م، لا يزال - مع تعديلات طفيفة - هو نظام الكتابة الرسمي لفيتنام.

وقد بوشرت بعض الدراسات للغة السنسكريتية، وسجلت ملاحظات منعزلة عن تشابهات واضحة معينة بين تلك اللغة واللغات الإيطالية واليونانية واللاتينية.

ربطت الطرق التجارية بين الصين والإمبراطورية الرومانية برا عن طريق آسيا الوسطى، وكان العالم الغربي في العصور القديمة على معرفة بشكل غامض بالسيرس (بعيد جدا إلى الشرق). وفيما بعد في القرن الثالث عشر خرج ماركو بولو في رحلة عبر آسيا وحتى الصين، وقد درس عددا من اللغات الآسيوية أثناء إقامته. ولكن الاتصالات الطويلة والمباشرة بين العلماء الأوروبيين واللغة الصينية بدأت في الواقع مع وصول التجار والبعثات التبشيرية للشرق الأقصى. وكان فرنسيس خافيير F. Xavier عند وفاته في 1552م قد أقام بعثات تبشيرية للجزويت في الصين واليابان، وقد أصبح كثير من أعضاء هذه البعثات بارعين في تنوعات مختلفة من اللغة الصينية، ورسي Ricci واحد من أكثرهم شهرة.

وقد سجل تريجولت Trigault الذي ترجم يوميات رسي المشهورة إلى اللغة اللاتينية، الفروق البارزة بين اللغات الصينية ولغات أوروبا الغربية، تلك الفروق التي تصدم اليوم طالب اللغة الصينية في السنة الأولى، وهي الفقدان الكامل تقريبا للتشكيلات الصرفية مثل تلك التي لقيت أكبر اهتمام في اللغة اللاتينية واللغة اليونانية، وكانت كما يبدو أساسية للتركيب القواعدي، وكذلك تمييز ما يمكن أن يكون مشتركات صوتية معجمية عن

طريق الفروق في طبقات الصوت (النغمات)، ووجود لغة مشتركة مكتوبة (الرموز الصينية) يفهمها المتعلمون بسهولة بغض النظر عن الفروق الموجودة بين كثير من تنوعات اللغة الصينية المنطوقة، والتي تصل غالبا لإعاقة التواصل المتبادل بشكل كامل [38].

في الوقت الذي اتصل فيه العلماء الغربيون بالصين ولغاتها، كانت الصين قد طورت تراثا محليا من الدراسات اللغوية. فنظام رموز الكتابة الذي يعرف بوصفه التمثيل التصويري للمرفيمات المفردة عن طريق رموز مستقلة، قد تم استخدامه منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وكان منشأه محليا، رغم بعض التشابهات الظاهرية لأنظمة رموز في مناطق أخرى من العالم.

وهذه الطريقة في تمثيل اللغة في الكتابة إلى جانب التركيب التحليلي أو العازل isolating للقواعد الصينية، قد حددت المجرى الذي اتخذته الدراسات اللغوية في الحضارة الصينية.

ومنذ نهاية القرن السادس عشر كانت طبيعة نظام الكتابة الصينية معروفة في أوروبا، وقامت هذه المعرفة بدور مهم في بعض اتجاهات البحوث اللغوية (ص 193 من بعد)، إلى جانب أنها جعلت العلماء الأوروبيين على وعي بوجود مجموعة من اللغات يختلف نظامها الصوتي والقواعدي والمعجمي بشكل ملحوظ عن أنظمة اللغات التي كانت قد ألفتها الأجيال السابقة. والقواعد الأولى للغة الصينية التي نشرت في لغات أوروبية على يد فرنشسكو فارو F. Faro و ج.هـ.دي بريمار J. H. de Premare قد ظهرت في بداية القرن الثامن عشر [39].

والغياب الفعلي للتشكيلات الصرفية في اللغة الصينية لم يشجع على الدراسة القواعدية مبكرا، بغض النظر عن بعض الاهتمام بدراسة الأدوات particles، وقد أقيم التمييز بين «الكلمات الممتلئة full»، وهي الكلمات القادرة على أن تقوم بذاتها وتحمل معنى معجميا مستقلا، وبين «الكلمات الفارغة empty» أو الأدوات التي تقوم بوظائف قواعدية في جمل تشتمل على كلمات ممتلئة، ولكنها نادرا ما يكون لها معنى ثابت وهي منعزلة. وهذا هو ما خرج به بريمار في الاستخدام اللغوي العام [40]. وقد قسمت الكلمات الممتلئة أيضا إلى قسمين هما: «الكلمات الحية living» أي الأفعال، و «الكلمات

الميتة dead» أي الأسماء. ولكن الجهود اللغوية الرئيسية قد اتجهت نحو صناعة المعجم والفنلجيا.

بدأ تأليف المعاجم في الصين منذ القرن الثاني الميلادي فصاعدا، وكما هو الشأن في الأماكن الأخرى كانت الدوافع لذلك هي التغيرات اللغوية في معجم اللغة الأدبية. هذه التغيرات جعلت بعض الرموز مهجورة الاستعمال، وغيرت معاني رموز أخرى، وقد زاد هذا من صعوبات دراسة الكلاسيكيات القديمة للأدب الصيني. وأحد أقدم المعاجم الصينية المعروفة هو الـ Shuo wen (حوالي 100م) الذي استفاد من نظام الكتابة المنقح الذي كان قد وحد منذ ثلاثة قرون، هذا المعجم رتب الرموز بالطريقة التي استعملت منذ ذلك الوقت عن طريق «الأصول radicals» على الرغم من أن عدد الأصول قد اختصر فيما بعد. وحلل كل رمز إلى مكونين في صناعة المعجم: المكون الأول هو «الأصل radical» الذي يرتبط بدوره بالمعنى العام لبعض الرموز الذي تضمه، والمكون الثاني هو المكون «الصوتي phonetic» الذي يشير في بعض الأحيان لنطق الرمز، رغم أن التغيرات الدلالية والصوتية جعلت هذه الإشارات إشارات غامضة، أو تقريبية فقط في أحسن الأحوال. ورتبت «الأصول» بشكل متسلسل بدءا بالأصول التي تحتوي على «خَطَّة stroke» واحدة في نظام صاعد لعدد الخطات، والرموز التي يحتوي كل منها على «أصل» فأكثر ينضوي تحتها، قد رتبت كذلك ترتيبا صاعدا حسب عدد «الخطات» في المكون «الصوتي» (بعض الرموز يتكون من الأصل فقط، وهذه ترد أولا في القوائم).

حاولت معاجم لاحقة أن تعالج مشكلة الإشارة لنطق الرموز من زاوية التغيرات الصوتية التي وقعت في اللغة منذ عصر الأدب الكلاسيكي، وهذا وفر المادة لنشأة الدراسة الفنلجية للغة الصينية الأدبية. والرمز قد مثل المرفيم وليس الكلمة رغم أن كثيرا من الكلمات كانت وحيدة المرفيم، خاصة في اللغة الصينية الكلاسيكية، ويمكن القول بشكل عام إن المرفيم قد مثل فنلجيا بمقطع واحد يقع في إطار عدد محدود من تراكيب المقطع الممكنة، وليس هناك تمثيل جزئي لمكونات المقطع في رموز الكتابة الصينية، وكان تركيز التفكير الفنلجي الصيني على المقطع الواحد المعزول، وعلى طرق الدلالة على نطق الرموز المهجورة أو التي كان لها سابقا قيم صوتية مختلفة.

في البداية كان المنهج المتيسر فقط هو ذكر المشترك اللفظي homonym للرمز المقصود، ولكن منذ القرن الثالث الميلادي فصاعدا حلل المقطع إلى مكون ابتدائي ومكون نهائي، وأخذ المكون النهائي باعتباره كل شيء يأتي بعد صامت النهاية بما في ذلك النغمة. ونطق الرمز عند ذلك الوقت يمكن الإشارة إليه عن طريق إيراد رمزين آخرين من المفترض أن يكون نطقهما معروفا، أي المكون الأول للرمز الأول والمكون النهائي للرمز الثاني اللذين يكونان بنية المقطع وكذلك نطق الرمز الذي نحن بصدده. من هنا فالرمز الذي يقرأ /ko/ بنغمة صاعدة متبوعا بالرمز الذي يقرأ /hwE/ بنغمة مستوية سوف يشيران لنطق رمز يقرأ /kwE/ بنغمة مستوية.

في الوقت الذي كانت تستعمل فيه هذه الطريقة كانت البعثات التبشيرية البوذية تعمل بنشاط في الصين، وهذا التحليل الفنلجي المحدود للمقطع من الممكن أن يكون قد استلهم بالاطلاع على كتابة ألفبائية أجنبية. ومن المؤكد أن النغمات في اللغة الصينية قد حددت منهجيا لأول مرة بوصفها مكونات متممة للمقاطع المنطوقة في عام 489م، بمساعدة الرهبان البوذيين رغم أن الصينية كانت لغة نغمية منذ زمن سحيق[41].

كانت النقلة التالية للأمام في التحليل الفنلجي متأثرة بشكل مباشر بالدراسات اللغوية السنسكريتية.

وفي القرن الحادي عشر فإن جداول القافية المعروفة جيدا التي تعرض مجمل المقاطع التي تقع في الصينية الأدبية، والتي مثلت برموز على خريطة تضم فيها الأعمدة الرأسية مكونات البداية، والصفوف الأفقية تضم مكونات النهاية، هذه الجداول قد حللت تحليلا إضافيا بحيث تميز أشباه الصوائت الوسطى (بعد البداية) مثل /W/، والصائت الأخير أو الصائت زائدا الصامت، والنغمة. وهذا التصنيف ثنائي البعد قد مكن العلماء الصينيين من التمييز ـ كما فعل الرواقيون بالفعل في الغرب (ص 56 من قبل) ـ بين أشكال المقطع غير الموجودة، ولكنها يمكن أن تقع فنلجيا، وبين الأشكال المستبعدة بناء على قواعد تركيب المقطع في اللغة الصينية. والتأثير الهندي تأثير ملحوظ في ترتيب مكونات البداية عن طريق نطقها، فقد رتبت الانفجاريات والأنفيات في مجموعات رباعية على أساس المخرج وطريقة النطق /k/، /kh/، /g/، /η/ و /t/، /th/، /d/ و /n0/... الخ. وقد

استعملت مصطلحات نطقية للتمييز بينها. وجداول القافية هذه ذات أهمية عظمى في إعادة بناء الأشكال المنطوقة للمقاطع الصينية في تلك الفترة من تاريخ اللغة. ولكن أهميتها التاريخية تكمن في كونها دليلا على التطور تحت التأثير السنسكريتي للتحليل الجزئي، في مقابل التراث الناشئ عن الكتابة المقطعية المرفيمية التي طرحت في البداية، تحليلا إلى مكونات بداية ومكونات نهاية، تحليلا يشبه كثيرا فنلجيا فيرث البرسودية أكثر مما يشبه التحليل الفونيمي الجزئي[42].

أجريت تعديلات وتطويرات كثيرة على هذا النظام من التحليل الفنلجي في العصر الوسيط والعصر الحديث للعلم اللغوي الصيني، فقد انتقل الاهتمام من دراسة لغة الأدب الكلاسيكي إلى اللهجة الصينية العامية الشمالية لبكين، إلى جانب تنوعات أخرى للصينية المنطوقة. ففي القرن السابع عشر قام بان ـ لي Pan-lei عالم الصوتيات واللهجات البارز، برحلات إلى كل مناطق الصين لدراسة التنوعات اللهجية للمناطق المختلفة. ولكن شيئا من الاهتمام الإضافي العام قد جرى قبل أن يشغل العلم الأوروبي نفسه بشكل جدي، بالمشكلات اللغوية التي تقدمها اللغة (أو اللغات) الصينية، بما في ذلك كتابة المقاطع الصينية بحروف رومانية، وهو اهتمام يأتي في مقدمة الاهتمامات في الوقت الحالي.

رأينا مدى أهمية الدور الذي قام به الاتصال اللغوي بالخارج في تطور التحليل الفنلجي الصيني، ولكن الصين نفسها كانت مصدرا لمشكلة لغوية ومصدرا لحلها، وهي تطويع نظام رموز الكتابة الصيني للغة غير ذات قرابة بالصينية وذات تركيب مختلف اختلافا كبيرا.

واللغة اليابانية لغة ليست لها صلة قرابية باللغة الصينية، ولكن منذ القرن الخامس الميلادي وما بعده كان هناك اتصال كبير بين اليابان والصين، واقترضت اليابانية بحرية عناصر من الأدب الصيني وجوانب أخرى من الثقافة الصينية، مع عدد ضخم من الكلمات الصينية التي دخلت اللغة اليابانية. وقد اقتبس اليابانيون نظام الكتابة الصيني، وظهرت في نفس الوقت مشكلة تطويع الرموز التي تمثل في الصينية مقاطع وحيدة ثابتة، لمتطلبات لغة غنية بتصريفاتها واشتقاقاتها الإلصاقية. وكان حل المشكلة في البداية هو تجاهلها، فالعناصر التي تلصق بالكلمات تركب من دون

تمثيل، واستعملت الرموز كما يجب أن تستعمل في الجمل الصينية. وأخيرا طور الوضع الذي مازال قيد الاستعمال إلى اليوم، والذي تستعمل فيه الرموز لتمثيل الكلمات الثابتة وعنصر الجذر الثابت في الكلمات المتغيرة، بينما تكتب الأجزاء الاشتقاقية والتصريفية بنظام كتابة «كانا kana»(*) المقطعية، وهي مجموعة علامات مقطعية مشتقة من أجزاء صغيرة لرموز معينة تستعمل لقيمتها الصوتية فقط.

ومع هذا هناك مرحلة وسطى جديرة بالنظر. في هذه المرحلة كان الرمز يمثل جذر الكلمة، ولكن العناصر القواعدية الأخرى، وكذلك أدوات معينة في علاقة نحوية قوية بها قد رمز لها كتابة عن طريق علامات مميزة، تكتب في مواضع مختلفة حول الرمز نفسه، وعليه فإن الفعل kasikom- «يخيف» سوف يمثل برمز معين يحمل معنى مشابها في الصينية، وبدائرة صغيرة بجوار ركنه الأسفل إلى اليسار سوف يشير إضافة لهذا للكلمة kasikomite «مخيف»، وبشرطة مائلة عند الركن الأعلى الأيمن سوف يشير إلى الكلمة kasicomi-tari (هو... الخ) «أخاف»[43]. وهذا النظام الإملائي لم يستمر في الاستعمال، ولكنه مثير للاهتمام في تشابهه مع تجارب وتأملات لغوية معينة في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (ص 198 من بعد).

بالنسبة لكثير من المفكرين في المرحلة الأولى من النهضة في أوروبا، فإن إحياء المعرفة القديمة والوعي الجديد بأمجال العالم اليو. روماني الكلاسيكي قد يكونان أهم خصائص العصر. والواقع هو أن الكلمات «نهضة» و «إحياء المعرفة» تدل على هذا المفهوم. ويلاحظ لأي مدى كان كتاب عصر النهضة الأوائل يقتبسون بحرية من المصادر الكلاسيكية لتسويغ وشرح حججهم ناظرين إلى العصور القديمة مباشرة، دون خوف من وصمة الوثنية، بل بالأحرى نظر لهذه العصور بوصفها مرحلة الإنسانية المجيدة، التي شعر كتاب النهضة بقرابتهم الأخلاقية والفكرية لها في تأكيدهم على قيمة الإنسان وشرفه بحد ذاته. وقد اعتبر هؤلاء الناس أنفسهم مواصلين لمهمة الحضارة القديمة. والنصوص الكلاسيكية الموجودة في أوروبا في ذلك

(*) هو نظام الكتابة المستعمل حاليا في اليابان، والذي يرمز فيه كل رمز كتابي لمقطع كامل (المترجم).

الوقت هي تقريبا تلك النصوص الموجودة فيها في الوقت الحاضر، وقد اتخذت دراسة الأدب القديم الأشكال المعترف بها اليوم في مناهج الدراسة الكلاسيكية في المدارس والجامعات.

كانت الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية تُقرأ لمزاياها الذاتية وفي لغتها الأصلية، وليس عن طريق الترجمة أو عن طريق تأويلات اللاهوتيين السكولاستيين الرسمية. ويمكن القول إن المفهوم قد صيغ في عصر النهضة من دراسة الأدب الكلاسيكي بوصفه أساسا للتعليم العقلاني.

هذا الموقف المتغير نحو اللاتينية واليونانية كان له أثر على الدراسة اللغوية لهاتين اللغتين خاصة اللغة اللاتينية، وكان التركيز منصبا على اللاتينية باعتبارها لغة ششرون وفرجيل، لغة العالم القديم، وليست لاتينية العصر الوسيط بوصفها لغة تعامل في التعليم وفي الاتصال الفكري، وكانت اللاتينية بوصفها لغة أنيقة محتفظة بأدب عظيم، كانت هدفا مناسبا للدراسة. وقد استمرت الأعمال العلمية لبعض الوقت تكتب باللاتينية، ولكن ارتفاع مكانة اللغات المحلية الأوروبية وانتشار المعرفة العلمانية والدول العلمانية، قد عززا استعمال اللغات القومية بوصفها وسيلة مناسبة لنشر الثقافة والعلم.

وقد تم الاحتفاظ بكثير من الوسائل الفنية المتقدمة لكفاءة الوصف التي تحققت أثناء العصور الوسطى، وفي مناطق معينة استمر استعمال القواعد التعليمية للعصور الوسطى مثل قواعد ألكسندر الفليدي، ولكن المفاهيم العامة للقواعديين التأمليين هوجمت بعنف من طرف قواعديي عصر النهضة ذوي التوجه الكلاسيكي بوصفها مفاهيم مضجرة فلسفيا، وغير مرغوب فيها تعليميا، ومصوغة في لغة لاتينية فاسدة وركيكة. وفي الواقع قد تمت العودة لتفوق الـ auctorés المتنبأ به في «معركة الفنون السبعة»[44].

لم يقم القواعديون السكولاستيون بأكثر من نسخ وصف برشيان لنطق اللاتينية، ووصف النطق الفعلي للاتينية المعتمد إلى حد كبير على صوتيات اللغة الأولى للأشخاص المعنيين. وقد استمرت هذه الخاصية لنطق اللاتينية كما هو الشأن اليوم. ولكن الاهتمام بما اعتبر أنه النطق الصحيح، أي نطق عصر ششرون ومؤلفي العصر الذهبي الآخرين قد تم التعبير عنه في

كتابات عن اللغة اللاتينية، وإن كان تأثيرها العملي على معظم الطلاب ـ ولا يزال ـ تأثيرا ضعيفا نسبيا.

وقد كتب إراسموس (1466 ـ 1536م) Erasmus عن النطق الصحيح للاتينية واليونانية، وكان نظامه عن نطق اليونانية مقبولا في أوروبا الشمالية(45). ومن بين ملاحظات أخرى عن اللغة اللاتينية لاحظ مع آخرين أن الحرفين اللاتينيين g , c، يمثلان نطقا طبقيا velar في كل المواضع في اللاتينية الكلاسيكية رغم أن اللغات الرومانسية المنطوقة في ذلك الوقت، باستثناءات قليلة فقط (الإليرية Illyrian والسردينية) كانت لغات ذات نطق صفيري sibilant أو مركب affricate لهذين الحرفين قبل الصوائت الأمامية front. والإملائيون الذين أشير بالفعل إلى أعمالهم p , g التفسير الصوتي لأنظمة الهجاء الجارية (ص 176 من قبل) قد حولوا عنايتهم أيضا لهذا الجانب المهمل حتى ذلك الوقت في المعرفة الكلاسيكية في أوروبا(46). وفي كتابة اللاتينية أدخل راموس الحرفين v , j لتمثيل نطق شبهي الصائت (في كلمات مثل jam (iam) «الآن» و virtus «فضيلة») بوصفهما متميزين عن نطق الصائتين [i] و [u]، و u كان من قبل هو صورة الكتابة المتصلة للحرف v. وقد عرف الحرفان j و v مدة من الزمن بوصفهما «صامتي راموس»، ويلاحظ المرء أن الحرف v ما زال باقيا دون الحرف j في الطريقة المعتادة لكتابة اللاتينية(47).

وقد اتخذ تدريس اللاتينية واليونانية الشكل المعروف به الآن في كتب التدريس المدرسية النموذجية، وقد تطلبت هذه العملية أساسا دمج الأفكار النحوية للعصور الوسطى في التنظيم الصرفي للقواعديين اللاتين المتأخرين، مع تطويرات أخرى مثل الفصل النهائي لقسم الصفة عن قسم الاسم (رغم أن المصطلحين «اسم حقيقي noun substantive» و «اسم وصفي noun adjective» ظلا يستعملان لوقت متأخر كما هو الأمر في قواعد Madvig اللاتينية(48))، وكذلك ضم البرتسبل إلى تصريفات الفعل.

وفي القرن السادس عشر رأينا رد فعل ضد القواعد القائمة على الأدب على وجه الحصر عند بعض الكتاب، ويجدر بالذكر منهم ج.س. سكاليجر J. C. Scaliger وسانكتيوس Sanctius اللذان كانا يبحثان مرة أخرى عن تسويغ فلسفي للأحكام القواعدية. ومؤلف سكاليجر De causis linguae

latinae قصد إلى تجديد تفسير القواعد بالرجوع إلى المفاهيم الفلسفية الأرسطية إلى جانب الأساليب السكولاستية المبكرة، وقد هاجم سكاليجر إراسموس لإظهاره الولع المفرط بششرون بوصفه النموذج الصحيح الوحيد للنثر اللاتيني[49]. وقد خصص سانكتيوس حيزا كبيرا في مؤلفه Minerva seu de causis linguae latinae لنظرية منطقية في النحو[50].

وفي إنجلترا تمتعت قواعد و. ليلي W. Lily عن اللاتينية بميزة كونها القواعد المفروضة رسميا للاستعمال المدرسي، من قبل الملك هنري الثامن في عام 1540م (في الواقع تحتوي النسخة الرسمية أيضا على مساهمات لقواعديين معاصرين آخرين)[51]. وقواعد ليلي تتبع في الأساس نظام برشيان ذا الأقسام الثمانية للكلمات أو الأجزاء الثمانية للكلام. وهي قواعد عملية وتعليمية بشكل صارم، ولا ترتبط بنظرية أو تفكير لغوي أو فلسفي. وبعد قرن من هذا نشر باست جونز Bassett Jones عمله Essay on the rationality of the art of speaking[52]، بوصفه تكملة لقواعد ليلي بشكل خاص، وقد ادعى الاستناد لكل من أرسطو وفرنسيس بيكون، ولكن تفسيراته العقلية المزعومة لبعض الحقائق القواعدية هي غالبا إما غير أصيلة أو قائمة على الوهم بشكل مناف للعقل.

أشرنا إلى التأثيرات على الدراسات اللغوية التي أحدثها ظهور الإنسانية والقومية والحكومات العلمانية، بالإضافة لتوسع أوروبا وراء البحار. وعصر النهضة أيضا كان هو أول عصر للطباعة في أوروبا (كانت الصين بشكل مستقل قد ابتكرت صناعة الورق في القرن الأول الميلادي والطباعة الحجرية في القرن العاشر). ومنذ ذلك الوقت فصاعدا تنامت معرفة القراءة والكتابة وطلب التعليم بشكل ثابت، مع أن التعليم الجامعي لم يتم إنجازه في أوروبا قبل القرن التاسع عشر. وانتقلت المعرفة بشكل أسرع، وانتشرت بشكل أوسع، وانتعشت دراسة اللغات الأجنبية، وكذلك دراسة اللغات الكلاسيكية عن طريق كثرة النصوص وكتب القواعد والمعاجم المطبوعة وتيسرها. وهذه العوامل ذاتها جعلت تبادل المعرفة والمناقشة النظرية بين العلماء في الأماكن المختلفة أسهل وأسرع كثيرا، ومع مرور الوقت أخذت تتشكل بعض ملامح عالم اليوم.

ونشأت الجمعيات العلمية برعاية الحكومات القومية في بعض الأحيان

بوصفها مراكز للبحوث والمناقشات العلمية؛ ففي بريطانيا أسست الجمعية الملكية عام 1660م، وكانت منشغلة في سنواتها الأولى بالبحوث اللغوية، وفي عام 1635م في فرنسا أنشأ الكاردينال ريشليو Richelieu الأكاديمية الفرنسية Académie française، لتوفير الحماية والرعاية الدائمتين للأدب والمعايير اللغوية للغة الفرنسية. كما أن المجلات العلمية المتخصصة التي قامت - كما هو الشأن اليوم - بدور عظيم في تطوير علم اللغة وفروع المعرفة الأخرى قد نشأت حول الجمعيات والمعاهد، رغم أن هذه العملية لم تنجز تماما قبل القرنين التاسع عشر والعشرين.

رأينا في الفصول الأولى كيف أن مسار العلم اللغوي في العصور القديمة والوسطى قد حدده جزئيا انشغاله في الجدال، بين وجهات نظر متعارضة حول مسائل أوسع مجالا من مجال اللغة في ذاتها. وفي القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر اتسم عالم الفلسفة بالاختلاف بين المذهب الإمبريقي والمذهب العقلي، وكان لوجهة النظر المعرفية المتضمنة في كل منهما ما يناظرها في معالجة المسائل اللغوية.

وقد ظهرت الإمبريقية كجانب من جوانب تحدي الأفكار المسلم بها لسكولاستية العصور الوسطى. وظهور النظرة العلمية الحديثة المستعدة لإرباك السلطة بالحقيقة الملاحظة ولإعادة صياغة النظرية لتحتوي الحقائق المكتشفة حديثا، كان يمثل له بشكل ممتاز بأعمال جاليليو وكوبرنيكوس وكبلر Kepler. والإمبريقية بوصفها وجهة فلسفية كانت مساهمة بريطانية بشكل خاص، فقد أكد فرنسيس بيكون على الأصل القائم على الملاحظة لكل أنواع المعرفة، وعلى أهمية الاستقراء في مقابل الاستدلال، وكتب لوك وباركلي وهيوم ما يعتبر الآن شروحا مقبولة لهذا الجانب من جوانب الفلسفة.

وأساس الإمبريقية هو فرضية أن كل أنواع المعرفة الإنسانية تستمد ظاهريا من انطباعات الحس والعمليات التي يجريها العقل عليها بالتجريد والتعميم. وتظهر صيغتها الصارمة في اعتراض هيوم التام على أي مكون مسبق a priori. والذي يقابل هذا في جوانب كثيرة هو الموقف العقلي الذي يدافع عنه ديكارت وتابعوه. فالعقليون ينشدون اليقين في المعرفة، ليس في انطباعات الحواس التي لا يمكن استبعاد قابليتها للخطأ بشكل تام، ولكن في الحقائق التي لا جدال فيها في العقل الإنساني. وفي بعض النواحي

كان الموقف الديكارتي أكثر تقليدية، ولكن تتفق كلتا المدرستين الفكريتين في تعويلهما على الرياضيات والعلم النيوتني، بدلا من الأرسطية السكولاستية بوصفها الأساس للتفكير الفلسفي.

والجانب المشهور من الخلاف الإمبريقي ـ العقلي قد دار حول مسألة «الأفكار الفطرية innate»[53]، فلوك وباركلي وهيوم ينكرون وجود أي أفكار مغروسة في العقل الإنساني سابقة للتجربة؛ بينما ينظر العقليون الديكارتيون لأفكار فطرية معينة باعتبارها الأساس لأي يقين في معرفتنا، وهذه الأفكار تضم فكرة العدد والشكل figure والمفاهيم المنطقية والرياضية. ووجهتا النظر قريبتان ـ لمدى معين ـ في الحقيقة إحداهما من الأخرى أكثر من قربهما في المصطلحات، فالتجربة في العالم وكذلك المعرفة ليستا مجرد انطباعات للحس، والدور الذي تقوم به الأفكار الفطرية العقلية يماثل إلى حد معين دور «العمليات التي تحدث داخل عقولنا» والتي يسلم بها لوك. والمسألة موضوع الخلاف بشكل رئيسي هي المدى الذي يقوم فيه العقل الإنساني بدور إيجابي في الإدراك واكتساب المعرفة.

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهر عدد من الحركات المستقلة، ولكنها كانت مترابطة، في البحوث اللغوية، ومنبثقة من الوضع الفكري للعصر. ويمكن رؤية عمل التأثير العقلي والتأثير الإمبريقي كليهما في تلك الحركات.

وانحسار اللاتينية باعتبارها اللغة العالمية الوحيدة للمعرفة والسلطة وظهور اللغات المحلية الأوروبية في وضع الاعتراف الكامل، والاكتشافات الجديدة في حقل لغات ما وراء البحار، كل هذا ساعد على خلق الشعور بأنه في قدرة الناس أن يحسنوا اللغات وحتى أن يخلقوها لتناسب حاجات العصر.

وقد استهجن فرنسيس بيكون الجدل غير الضروري الذي سببه عدم كفاية اللغات الموجودة، وهو جزء من «أوهام السوق»، وتصور تحسنا عظيما يقوم على أساس توافق الكلمات مع الأشياء، وليس مجرد توافق بعضها مع بعضها الآخر. وفي تمييزه للقواعد الوصفية للغة معينة عن القواعد الفلسفية أو العامة، يبدو أنه كانت لديه فكرة عن بناء لغة نموذجية للاتصال المعرفي من أفضل الأجزاء والملامح لعدد من اللغات الموجودة[54]. وقد زاد اختراع

الطباعة من أهمية توحيد الهجاء، وفي تحول الاهتمام بالعلاقة بين الكتابة والنطق أثار اختراع الطباعة أيضا منذ ذلك الوقت وبشكل متكرر، أثار الاهتمام بمشكلة إصلاح الهجاء. ولدينا فكرة انطباعية عن عدد العلماء في إنجلترا وفي أوروبا الذين يعملون ـ متعاونين ومتنافسين ـ في الجوانب المختلفة لتحسين اللغات والتخطيط اللغوي.

وأكثر المشروعات جذرية لهذا العصر كان هو ابتكار لغة جديدة لترقية المعرفة والتجارة في العالم المتحضر، أما اللاتينية بوصفها لغة التعامل سابقا فقد أصبحت تواجه التحدي، وقد تكشف مدى البلبلة Babel اللغوية في العالم. وكانت هذه المشروعات عبارة عن محاولات «لإزالة البلبلة debabelization» أو إصلاح الوضع[55]. وفي ذلك الوقت لم يتصور الناس تصورا كبيرا لغة عالمية مثل لغة الإسبرانتو الحديثة، التي خلقت من مواد لغات قائمة، وبالأحرى كانت لديهم خطة جريئة لاختراع نظام يمكن التعبير به بشكل مباشر وعالمي، عن المعرفة والتفكير والمفاهيم في رموز تبتدع لهذا الغرض ويمكن إعطاؤها قيما نطقية. وقد نظر ليبنز Leibniz (1646 ـ 1710م) إلى الأمام انتظارا لليوم الذي سوف تحل فيه الخلافات، بمجرد اقتراح التدوين والحساب عن طريق نظام رموز عالمي مبتكر جديد للتفكير، متحرر من غموض اللغات الطبيعية والتباساتها. وقد ضم مؤلفه Specimen calculi universalis مسبقا بعض ملامح المنطق الرمزي الحديث رغم أنه يقوم على القياس المنطقي الأرسطي[56].

إذا لم تكن مثل هذه الأنظمة الرمزية أنظمة خرقاء بشكل ميئوس منه فإن المعرفة الإنسانية يجب أن تصنف وتختزل إلى خلاصات منظمة. والدافع لكون لغة عالمية من هذا النوع أمرا ممكن الإجراء قد انبثق من عدد من المصادر، وهي الإيمان العظيم بسلطان العقل الإنساني، وتصنيفات العلوم الإمبريقية التي كانت تتسع بسرعة في ذلك الوقت، والتقدير الكبير لقدرة نظام الرموز الرياضية (نظام الترقيم العربي بوصفه رموزا مكتوبة بنطق معين ظهر في بعض اللغات المقترحة[57])، وإساءة فهم طبيعة كتابة الرموز الصينية التي عرفت في أوروبا منذ نهاية القرن السادس عشر.

والرياضيات عبارة عن صيغة ترميز symbolization لغوية مستقلة بشكل حقيقي، رغم أنها لا تملك المجال الدلالي أو الطاقة التعبيرية للغة الطبيعية

(الكلام عن «لغة الرياضيات» أو «اللغة الرياضية» كلام مجازي، والقياس لا يمكن أن يسير بعيدا). ولقد كان يُعتقد في ذلك الوقت أن الرموز الصينية عبارة عن تمثيل مباشر للأفكار "ideas" (لا يزال المصطلح ideograph مصطلحا شائعا عن الرموز الصينية)، ولكن الأمر ليس كذلك، فاللغة المكتوبة للأدب الصيني يمكن أن يقرأها ويفهمها المتعلمون المتحدثون بتنوعات من الصينية المنطوقة لا تفهم بشكل متبادل، ولكن الصينية بالنسبة لكل هؤلاء لغة مثل اللغات الأخرى تملكها وتطورها جماعة لغوية معينة أو مجموعة من الجماعات اللغوية، ورموزها تمثل مرفيمات يمكن نطقها، رغم اختلافها في لهجات المناطق المختلفة. وهذه اللغة المكتوبة لديها أقسام وأحكام قواعدية مثل أي لغة مكتوبة أخرى، ولا يمكن فهمها أو ترجمتها من دون معرفة القواعد، باستثناء جمل قليلة جدا وواضحة وضوحا شديدا. وهذا ما لم تفهمه أوروبا القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد بدأت الدراسة الحقيقية لنمط اللغة الصينية متأخرا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقط مع وجود قواعد اللغة الصينية المكتوبة باللغات الأوروبية.

وفي القرن السابع عشر ابتدع أناس مختلفون لغات عالمية أو «رموزا حقيقية» كما كانوا يطلقون عليها أحيانا، ففي فرنسا اقترح مرسن M. Mersenne، ربما متأثرا بديكارت، اقترح ابتداع لغة أفضل من كل اللغات القائمة يمكن عن طريقها أن يعبَّر عن أفكار الناس كلها بنفس الكلمات باختصار ووضوح، وقد سلم - سابقا ليسبرسن - بالارتباط العام لضعف الصوت النسبي لأشباه الصائت [i]، سلم بارتباطها بمعنى الضآلة والصغر[58]. وفي إنجلترا هناك مشروعات قدمها رجال مثل جورج دالجارنو G. Dalgarno وبيشوب جون ولكنز B. J. Wilkins اللذين كان عمل «مرسن» معروفا لديهما. ومن بين هذه المشروعات فإن عمل ولكنز Essay towards a real character and a philosophical language هو الأكثر شهرة[59]. وقد نشر بدعم من الجمعية الملكية المؤسسة حديثا، وقد أشار إليه روجيه Roget بعد حوالي مائتي عام باعتباره مصدرا من مصادر إلهامه الرئيسية لعمله Thesaurus[60].

ومشروع ولكنز لم يكن أقل من ابتكار مستنبط بشكل نظامي ومبادئ قابلة للتطبيق عالميا للغة مكتوبة ومنطوقة، من أجل الاتصال بين أعضاء

أمم العالم كلها. والمحاولة Essay التي تصل إلى 454 صفحة. بعد انتقاد نواحي القصور في اللغات الطبيعية القائمة. تصور ما يبدو أنه مخطط كامل للمعرفة الإنسانية يضم العلاقات المجردة، والأفعال والعمليات والمفاهيم المنطقية والأجناس والأنواع الطبيعية للأشياء الحية وغير الحية، والعلاقات الفيزيقية والمؤسساتية بين الناس في الأسرة والمجتمع.

كل هذه الأقسام وتقسيماتها الفرعية والعلاقات الدلالية المختلفة والتعديلات المرتبطة بها، قد مثلت بأشكال مكتوبة صورت في شكل «رموز حقيقية» واضحة مكتفية دلاليا بذاتها، وكل منها يمثل كلمة مثالية يمكن ترجمتها إلى كلمات لغة طبيعية أو ترجمة تلك الكلمات إليها. ويمكن إعطاء مثال بسيط على هذا، «فالأب» يمثل بالرمز الذي يتكون من العلامة الأساسية للصلة المقتصدة (بين الأشخاص) للجنس التي يضاف إليها خط مستقيم مائل على الشمال يشير إلى الانقسام الفرعي الأول في حالة الصلة المقتصدة أي حالة القرابة، وخط عمودي على اليمين يشير إلى الانقسام الفرعي الثاني في حالة القرابة ويرمز لعلاقة الصعود المباشر، ونصف دائرة فوق وسط الرمز تشير لمفهوم الذكورة، فإذا ما استعمل الرمز بشكل استعاري فإن هذا يمكن أن يحدد بإضافة خط رأسي قصير فوق النهاية اليسرى للرمز كما يلي .

ومن أجل تقديم شكل منطوق يقابل كل رمز أقام ولكنز نظاما من الصوتيات العالمية أو من «الحروف» التي تمثل الفئات الرئيسية للنطق، مثل تلك التي توجد في اللغات المعروفة في العالم. وكل مكون لرمز له مقطعه الخاص به، أو حرفه الوحيد المخصص له الذي يمكن منه بناء صيغة كلمة منطوقة وواضحة على حد سواء؛ وبناء عليه ففي الكلمة المنطوقة للرمز «أب» يشير الحرفان Co للصلة المقتصدة و b و a للانقسامين الفرعيين: القرابة والصعود المباشر على التوالي، وهذا يعطينا Coba «أصل» (أب أو أم)، والإضافة الأخيرة ra للذكورة تعطينا Cobara (ربما [kobara]) «أب».

وقد طرحت قواعد عالمية تتكون من أقسام للكلمة صالحة لكل الحاجات الاتصالية، وروعي في الأحكام النحوية أن تكون في الحد الأدنى، وأن يرمز كتابة لعضوية قسم الكلمة والعلاقات القواعدية بعلامات خاصة تضاف أو تدخل بين الرموز، وأن يرمز لهذا كله صوتيا بإضافات وتعديلات في الكلمات

المنطوقة.

وفي الفصل الأخير قارن ولكنز «لغته الفلسفية» باللغة اللاتينية باعتبارها أقرب المداخل الموجودة للغة عالمية، وقارن جانب «الرمز الحقيقي» و للغته برموز الكتابة الصينية، وأدان الفائض المعجمي غير الضروري والتعقيد القواعدي والشذوذ في اللغة اللاتينية عند مقابلتها بلغته المقترحة، وأدان التعقيد الشكلي للرموز الصينية وعدم قابليتها للتحليل الدلالي وعدم وضوحها رغم أنه استحسن ميلها لجميع رموز المفاهيم المترابطة دلاليا تحت نفس الجذر (ص 183 من قبل)[61].

وجهود أشخاص مثل ولكنز أظهرت لأي مدى تحركت النظرية اللغوية والتفكير اللغوي منذ القرون الوسطى، كما أظهرت فهما دقيقا وعميقا للطريقة التي يجب في الواقع أن تنظم بها اللغات بشكل طبيعي لتنجز المهام المفروضة عليها بنجاح. وهذه المقترحات للغات العالمية المبنية بطريقة صناعية لم تسفر عن شيء عملي. ومن السهل إدراك سذاجة محاولات ولكنز في تحليل مكونات وتصنيف المعرفة والخبرة الإنسانية كلها. ولكن الأعمال الحديثة لبعض القواعديين التوليديين في محاولتهم صياغة المعرفة البدهية التي يملكها المتحدثون أبناء اللغة، من استعمالهم الصحيح للغتهم والتفسير الدلالي لكلماتها، هذه الأعمال يبدو أنها تسير على خطوط مشابهة بعض الشيء لخطوط ولكنز، وقد وصفت هذه الأعمال بأنها جهود موجهة نحو «تذرير atomization» المعنى[62]. والاستخدام والفهم الناجح للثروة المعجمية للغة الخاصة بنا شيء نحصل عليه أدائيا ونحن مازلنا في طور الطفولة، ولكن التحليل التام لها يبدو أنه يبقى متواريا عن أعقل الناس.

وفكرة بنية التفكير العمومي التي يملكها الإنسان، أو على الأقل الإنسان المتحضر، المستقلة أساسا عن أي لغة معينة، والتي يمكن من هنا التعبير عنها بلغة عالمية، ربما كانت تصورا طبيعيا بالنسبة للعقليين، كما توجد مواقف مشابهة نحو قواعد اللغات الحقيقية في أعمال قواعديي بورت رويال Port Royal العقليين (24 ـ 208 من بعد) التي تعيد في صورة مختلفة العمومية القديمة للقواعديين التأمليين السكولاستيين. وإن الاعتماد المتبادل بين الفكر واللغة وأهمية النسبية اللغوية وكذلك النسبية الثقافية، قد تم فهمها بسهولة أكثر في مناخ العصر الرومانسي المتأخر.

وبصرف النظر عن رقي المعرفة والبعد عن الجدل العقيم وسهولة الاتصال بين رجال التعليم في كل الأصقاع، فإن هناك اعتبارات أخرى كانت في عقول الناس عندما فكروا في ابتكار لغات عالمية، وهي تسهيل التجارة ووحدة الكنائس البروتستانتية وعلم الشفرة. وامتلاك «رموز حقيقية» جديدة تخدم البروتستانتية كما خدمت اللاتينية فيما مضى الكنيسة الرومانية العالمية سابقا ربما كان عاملا ثانويا فقط، ونطاقه موضع نظر. وفي أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية جذبت الأنظمة الشفرية لكل جانب الانتباه لملامح تركيبية معينة وتكرارات حدوث في اللغة الإنجليزية، ففي سنة 1641م كتب ولكنز عملا عن الاتصال السري[63].

وشفرة ذلك العصر كانت مرتبطة أساسا بتطبيق آخر لعلم اللغة ازدهر في إنجلترا منذ عهد إليزابيث الأولى، وهو ابتكار أنظمة اختزال أو characterie ولكنها مثل كثير غيرها في مرحلة العصور الوسطى قد ظهرت لتضيع.

والاختزال الحديث المعتمد على كل من استخدام رموز صوتية وتمثيل كلمات معينة أو جذور كلمات بأشكال محددة، قد يعود لأعمال بريطانية ترجع للقرن السادس عشر. والاسم الأكثر ارتباطا بهذا هو تيموثي بريت Timothy Bright الذي أقام أنظمة اختزال تستخدم معا علامات حروف مفردة، وعلامات شبه رمزية للكلمات تمثل فصائل الأشياء. والاهتمام بالاختزال والاهتمام باللغات العالمية قد سارا معا، كما تم إيراد نفس البواعث. وقد أشار بريت إلى الطبيعة التصويرية المزعومة للرموز الصينية، والمستقلة عن أي لغة معينة وأثنى على نظام الـ "charactarie" الخاص به، بوصفهما وسيلة للاتصال المكتوب وأداة للاحتفاظ بالسرية في الوقت ذاته[64].

وفي أحد الجوانب استغل بريت عملية شبيهة جدا بتلك التي طبقها اليابانيون في إحدى المراحل، في تبنيهم لرموز الكتابة الصينية (ص 186 من قبل)، فالإضافات والتغيرات القواعدية لصيغ الكلمات الأساسية مثل الجمع في الأسماء، والزمن الماضي في الأفعال، والتفضيل في الصفات، قد أشير إليها بعلامات أو «نقط pricks» على يمين أو يسار علامة الكلمة نفسها، وقد أشير لبعض الصيغ القواعدية الأخرى باستعمال علامة كلمة لتمثيل مرفيم مشترك كتابي ومشترك صوتي، وكذلك بتوسيع مرفيمات أخرى مترابطة دلاليا وقواعديا. من هنا فإن كلمة friendship تكتب بعلامة

ship تحت علامة friend، ولكن تحت علامة neighbour فإن علامة ship نفسها تمثل المرفيم hood في nieghbourhood.

وكان أحد مظاهر الإمبريقية الإنجليزية في الدراسات اللغوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، هو بداية الوصف الصوتي النظامي لأصوات اللغة الإنجليزية، وبداية التحليل الشكلي لقواعدها، وفي ذلك الوقت أحس الناس بحريتهم في تحدي وتعديل النموذج القواعدي المحفوظ في مؤلفات برشيان ودوناتوس.

بدأت الدراسات الصوتية بشكل جدي في بريطانيا في إطار الاهتمام الموجه للإملاء وعلاقته بالنطق مع اختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة على مستوى القارة، فمنذ القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر تواصلت الأعمال حول المسائل الصوتية تحت عنواني «ضبط الإملاء orthography» و «ضبط اللفظ arthoepy» (دون المصطلح «علم الصوتيات phonetics» لأول مرة في القرن التاسع عشر). ولكن البحوث كانت حول ما يسمى اليوم الصوتيات والفنلجيا phonology، كما أن الموقف الإمبريقي في الفلسفة البريطانية منذ فرنسيس بيكون وحتى د. هيوم، علاوة على طبيعة الإملاء الإنجليزية، قد أنشآ تراثا أطلق عليه اسم «المدرسة الإنجليزية في الصوتيات the English school of phonetics»[65]. وكان ج. هارت J. Hart، و و. بللوكر W. Bullokar، و أ. هيوم A. Hume، و ر. روبنسن R. Robinson، وس. بتلر C. Butler، وج. وليس J. Wallis، و و. هولدر W. Holder[66] من بين هؤلاء الذين كتبوا عن نطق الإنجليزية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كتبوا عن نطقها في بعض الحالات باعتباره جزءا من القواعد الشاملة للإنجليزية. والتأثيرات المشكلة لذلك العصر تظهرها حقيقة أن «وليس» إلى جانب كتابته عن اللغة الإنجليزية، رأس كرسي الهندسة في جامعة أكسفورد، كما كان أيضا عالما طبيعيا. ومن المدهش - إضافة إلى مسائل الإملاء - أن نرى الأهداف الحديثة ذات الارتباط القوي بالفعل بالدراسات الصوتية مثل تدريس الإنجليزية للأجانب، وتدريس الكلام للصم، ورعاية الإنجليزية المعيارية (الفصحى) أو «لغة الملك the King's language»[67].

وأعمال ضابطي الإملاء واللفظ هؤلاء قد استخدمت في إعادة تنظيم خصائص نطق إنجليزية عصرهم[68]. وأهمية ما فعله هؤلاء في تاريخ علم

اللغة تكمن بالأحرى في الدرجة التي وصلوا إليها في النظرية الصوتية والتطبيق الصوتي، والأعمال التي أورثوها لخلفائهم في القرن التاسع عشر المعروفين جيدا.

ومن بين هؤلاء ربما كان هولدر أكثرهم نجاحا، فبعد بعض التواني الراجع إلى الحرص من جانب المتنافسين مثل وليس، نشر هولدر عمله Elements of speech في عام 1669م عن طريق الجمعية الملكية التي كان عضوا فيها. وكان هولدر عالم صوتيات يعتمد على الملاحظة، وأحرز براعة ودقة في وصف نطق أصوات الكلام، فقد وضع نظرية عامة للنطق، مُرْجعا الفروق الصامتية إلى الفروق في «الارتطام appulse» بين عضو نطق وعضو آخر، وهذا الارتطام يكون كاملا في حالة الوقفيات وجزئيا في حالة الاحتكاكيات والاستمراريات، كما أرجع الفروق الصائتية إلى الدرجات المختلفة للانفتاح aperture، إضافة إلى بعدين آخرين هما ارتفاع اللسان في الأمام والخلف في الفم وتدوير الشفتين[69]. ومفهومه عن الكلام باعتباره يتحدد عن طريق التغير في درجات الارتطام والانفتاح يعتبر مفهوما ذا طابع حديث.

وقبل الاتصال بالمؤلفات الصوتية للهنود كان هولدر أقرب إلى التحليل النطقي الصحيح لتمييز المجهور والمهموس في الصوامت. ونظرته الصحيحة لم تلفت انتباه معاصريه، ولم يلتفت إليها أحد لأكثر من قرن. لقد كتب مستعملا «الجهر voice» بمعناه الفني الحديث: «الحنجرة توفر ممرا للنفس، ويمكننا كذلك عن طريق قوة العضلات - عندما نريد غالبا - أن نحمل جانبي الحنجرة على الانقباض والاقتراب أحدهما من الآخر، وعندما يمر النفس في فتحة المزمار rimula يُحدث اهتزازا لهذه الأجسام الغضروفية، وهذا الاهتزاز يشكل النفس في شكل صوت مجهور أو جهر». وميزة نظريته الصوتية والإيجاز في تعبيره يبدو أن في تقريره المختصر عن طبيعة الصوائت الإنجليزية: «تنتج الصوائت عن طريق المرور الحر للنفس الذي يتحول لأصوات داخل فراغ الفم، دون أي ارتطام لأعضاء النطق، وهذا الفراغ يتشكل بأشكال مختلفة عن طريق أوضاع الحلق واللسان والشفتين... والصوائت... تختلف باختلاف شكل الفراغ الفموي»[70].

وفي القرن التالي لاحظ أ. تكر A. Tucker تفشي الصوت [ə] في

الإنجليزية بوصفه صيغة متمهلة، وفي «الصيغ الضعيفة» للكلمات غير المنبورة في الكلام المتصل، وهي الصيغ التي لم يرمز لها بشكل تام تقريبا في الكتابة الإملائية(71).

وكانت مشكلات الإملاء في علاقته بالنطق وراء ابتكار رموز طباعية جديدة لأنواع معينة من الأصوات، وإن كثيرا من الرموز الصوتية التي تستعمل اليوم في الأبجدية الصوتية الدولية، قد اقترحت أو ابتكرت لأول مرة في تلك الفترة. وقد ذهب بعض الكتاب إلى ما وراء نطاق اللغة الإنجليزية واقترحوا أبجدية دولية، ومثل هذه الأعمال تتصل بنظم الاختزال، وقد نشر ف. لودويك F. Lodwick «محاولة من أجل أبجدية عامة Essay towards universal alphabet» عام 1686م، في «التعاملات الفلسفية Philosophical transactions» الخاصة بالجمعية الملكية، وهي تتكون من رموز مبتكرة توافق بشكل نظامي الاختلافات النطقية. وقد ضم ولكنز في محاولته Essay مخططا بيانيا للأصوات يمكن مقارنته بالصور المبكرة من الأبجدية الصوتية الدولية، و «أبجدية نطقية Organic» مع صورة لنطق ثمانية صوائت وستة وعشرين صامتا تمثل الفئات الصوتية العامة، وفي هذه الصور عرضت أوضاع الشفتين، وكذلك أوضاع اللسان في شكل شريحة مقطعية(72).

وقد شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر أيضا تنقيحا لقواعد الإنجليزية، وكان الناس قد بدأوا بالإطار الموروث من القواعديين اللاتين المتأخرين والذي اقترحه إلفرك Aelfric، باعتباره إطارا مناسبا للإنجليزية القديمة كمناسبته للاتينية (ص 128 من قبل)، ولكن المناخ الفكري لعالم ما قبل عصر النهضة، وحب الناس للغتهم، والمواقف الإنجليزية الإمبريقية، كل هذا شجع الناس على فحص الفئات في إطار الملاحظة، ويمكننا أن نلاحظ الدرجات المختلفة التي وصل إليها هذا الفحص وإعادة التقييم في تقسيم الكلمات إلى أقسام كلمة أو أجزاء كلام.

والقواعديون الإنجليز في القرنين السادس عشر والسابع عشر وبداية القرون الثامن عشر، قد بدأوا عادة من النظام اللاتيني ذي الأقسام البرشيانية الثمانية الموجود في قواعد ليلي، وهم إما ساروا على منوال هذا النظام أو شعروا بالحاجة إلى أن يعبروا عن اختلافاتهم معه وأن

يسوغوا هذه الاختلافات. وبعضهم ـ مثل بلوكر[73] Bullokar على سبيل المثال ـ عرض النظام اللاتيني ونسب الكلمات الإنجليزية لكل قسم. والأدوات الإنجليزية the, an, a التي ليس لها مقابل لاتيني لم تعط وضع قسم من أقسام الكلام، وأشير إليها فقط بوصفها إشارات أو علامات توضع قبل الأسماء لتحددها بوصفها أسماء. وقد عامل آخرون الأدوات بوصفها قسما فرعيا من الأسماء الوصفية nouns adjective[74]، أما بن جونسون Ben Jonson فقد عينها بوصفها قسما بذاتها[75].

وإعادة ترتيب النظام اللاتيني الذي يمكن رؤية أثر راموس فيه نجده عند هؤلاء القواعديين، من أمثال أ. جيل A. Gill الذي جعل تصريف العدد في مقابل غيابه تمييزا ثنائيا أساسيا مبرزا الأسماء والأفعال، عن الأقسام الباقية التي أطلق عليها dictiones consignificativae بالنظر إلى وظائفها الرئيسية، في علاقاتها التابعة بالأسماء والأفعال، وهو تمييز قام به القواعديون القدماء أيضا (صص 59 ـ 76 من قبل)[76]. وقد ربط بتلر Butler في نظامه الأسماء والأفعال بشكل أكثر إحكاما، باعتبار أن للاثنين تصريف عدد وتصريف حالة، وقد مثل لحالة الرفع بصيغ مثل man's, man، أما تصريفا الزمن الماضي والبرتسبل الماضي (fallen, loved) فقد عينا بوصفهما حالتي غير رفع للفعل، وصيغة الزمن الحاضر تكون هي الأساس الصحيح "rect"[77]. وهذا الاستعمال يعود لاستعمال أرسطو.

وبعض القواعديين الآخرين تأثروا بنظرات بورت رويال (ص 208 من بعد) فقسموا الأقسام اللاتينية الثمانية حسب ارتباطها بالدلالة على مرامي التفكير (اسم وضمير وبرتسبل وحرف جر وظرف (وأداة))، أو على أساليب التفكير (فعل ورابطة وتعجب). وقد طبق هذا على الإنجليزية كاتب (أو كتاب) القواعد المنسوبة لـ ج. بريتلاند J. Brightland[78]، رغم أن تنظيم هذه القواعد لم يتحقق بشكل واضح.

وفرق ولكنز، و س. كوبر C. Cooper بشكل أكثر راديكالية بين قسمين رئيسيين على أساس دلالي، وهما قسم الكوامل integrals وقسم الأدوات particles، وقصد ولكنز أن يكون نظامه قابلا للتطبيق العام universal. وعرفت الكوامل باعتبار أن لها معنى محددا في ذاتها، بينما تدل الأدوات مع غيرها فقط أو ترتبط أو تعدل معاني الكوامل. والأسماء والأفعال عبارة عن كوامل.

وفي تنظيم ولكنز الأكثر وضوحا والذي أقيم بوصفه جزءا من قواعده الفلسفية[79] فإن الأفعال لم توضع في قسم مستقل ولكنها نظر إليها باعتبارها أسماء وصفية (مبني للمعلوم ومبني للمجهول ومحايد (لازم)) وتكون مرتبطة دائما بفعل ربط أو كينونة copula أو محتوية عليه في صيغتها ذاتها (مثلا lives = is living و is hitting = hits)[80]. وهذا التحليل يشبه تحليل قواعديي بورت رويال. والظروف المشتقة (من الأسماء الوصفية مثل badly) هي أيضا كوامل. وقسم الأدوات ينقسم إلى قسم أساسي (فعل الربط أو الكينونة to be) وقسم ثانوي، والقسم الأخير يضم الضمائر والأدوات وحروف الجر والظروف غير المشتقة والروابط، وأيضا الصيغ والأزمنة (will, may, can... الخ). وهذه المعالجة للأفعال المساعدة التي اتبعها كوبر مع الإنجليزية، تحمل ـ بشكل غير صريح ـ بعض التشابه مع بعض التحليلات الجارية الآن للأفعال الإنجليزية.

والتراث اللاتيني مفهوم في احتفاظه بالصفة ضمن قسم الاسم، رغم أن هذا لم يوصَ به كثيرا من الناحية الشكلية في الإنجليزية مثل اللاتينية، ومع انشغال معظم القواعديين بالبرتسبل عوملت الصفة (تقليديا بشكل خالص) إما بوصفها قسما بذاتها، أو بوصفها اسما وصفيا له ارتباطات اشتقاقية معينة مع الفعل. وربما لأن ولكنز كان يقيم نظاما لقواعد عامة أو فلسفية قابلة للتطبيق على الإنجليزية، ولكنها لا تقوم ببساطة عليها، فإنه كان أكثر راديكالية في مراجعة تراث برشيان ـ ليلي، فقد ذهب بالتأكيد لأبعد مما ذهب إليه مريده الأقرب كوبر من بين علماء قواعد اللغة الإنجليزية.

لقد كتبت قواعد الإنجليزية بأعداد ضخمة منذ القرن السادس عشر وحتى الوقت الحاضر، وتكمن الأهمية التاريخية لهذه القواعد في استمرار عملية الفحص والمراجعة للإطار القواعدي الموروث في نظام الوصف القائم على اللاتينية، وهذا في إطار الصيغ والتراكيب الإنجليزية الملاحظة بالفعل. وهذه التطورات لم تتحقق بالضرورة في نظام متتابع زمنيا، ولقد كان وليس (القرن السابع عشر) واحدا من أكثر المصلحين راديكالية للقواعد الوصفية الإنجليزية، في تأكيده على أن اللغة ليس لديها إلا زمنان: حاضر (burn) وماضٍ (burned) وأن كل التمييزات الأخرى المتعلقة بالزمن ووجهة

الحدث، عبارة عن تمييزات تنتجها الأفعال المساعدة[81].

هناك مؤلفان في القواعد من أوائل القرن التاسع عشر معروفان جيدا، وصاحباهما هما لندلي موراي L. Muray ووليم كوبت W. Cobbett. ورغم أنهما متشابهان، وإلى حد ما محافظان في النظرية والعرض فإن الوضع الاجتماعي لكل منهما يختلف عن الآخر بشكل لافت للنظر، ويعكس السياقات المختلفة التي وجدت فيها قواعد الإنجليزية وتُدرس وتُدرَّس، فقد كان موراي مواطنا أمريكيا استقر في إنجلترا بعد حرب الاستقلال، وكتب ـ في إقامته قريبا من يورك ـ قواعده المشهورة عن الإنجليزية English grammar، واضعا في ذهنه حاجة الدارسين الصغار أساسا. وعند نشر هذا المؤلف لأول مرة عام 1795م لقي قبولا واسعا جدا، وأعيد طبعه مرات كثيرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومع أنه عمل محافظ إلى حد ما فإنه يمكن أن يؤخذ مثالا على القواعد الناجحة في تدريس الإنجليزية في تلك الفترة. وهو ينقسم إلى أربعة أجزاء: الأول عن الإملاء مع وصف للقيم النطقية المختلفة لحروف الأبجدية الإنجليزية، والثاني عن الإتملجيا (أي الصرف وأقسام الكلام وصيغها وتصريفاتها)، والثالث عن النحو، والرابع عن البرسوديا Prosody وعلامات الترقيم. والبرسوديا تنقسم إلى قواعد النظم ووصف تلك الملامح، مثل الطول والنبر والوقف pause والتنغيم («النغمة tone»)، التي طبق عليها مصطلح «برسوديا» في العصور القديمة (ص 79 من قبل) بطريقة تسبق في نواح كثيرة استعمال الفيرثيين Firthians لهذا المصطلح.

ويرى موراي في قواعده أن هناك ثلاث حالات يجب التمييز بينها في الأسماء الإنجليزية، وهي حالات الرفع والإضافة والنصب أو المفعولية[82]. وقد ادعى هذا قياسا على اللاتينية التي يميز فيها بين الحالات على الرغم من تماثل الصيغة بين حالتي الرفع والنصب في كثير من الأسماء. والمرء يرى عند موراي المجموعة «الحديثة التقليدية»، لأقسام الكلمة بالنسبة للإنجليزية، وهي الأداة والاسم والصفة والضمير والفعل والظرف وحرف الجر والرابطة والتعجب دون اقتراح لدمج الصفة مع الاسم، أو معاملة البرتسبل باعتباره قسما مستقلا.

وأسلوب موراي أسلوب واضح ومنظم، ولو أنه غير مثير وغير أصيل،

واهتمامه بالمصلحة العامة لقرائه الصغار يظهر خلال كتابه، وهو في تصديره وخطابه الأخير للطلاب الصغار يعلن عن رغبته في تعزيز عوامل الفضيلة كما يعزز المعرفة، والأمثلة المختارة تظهر ورعا رقيقا: «سوف أحترمه رغم تعنيفه لي Iwill respect him, thought he chide me» و «الواجب والصلاح يمنعان التساهل الضار Duty and interest forbid vicious indulgences، و«التعطل يؤدي إلى العوز والرذيلة والتعاسة Idleness produces want, vice and misery»[83].

وبصرف النظر تماما عن الفروق في النظرية فإن اختياره للأمثلة يضعه هو وعمله في سياق مختلف جدا عن سياق بعض الكتاب المعاصرين، الذين فضلوا أمثلة مثل «سوف أحصل على واحد لبرت I'm going to get one for Bert»، و «كل الناس في المعمل يعتبرون «جون» أحمق All the people in the lab consider John a fool»[84]. وليس الأسلوب الأول ولا الثاني هو المجال الأفضل بالضرورة للتمثيل للوصف القواعدي أو النظرية اللغوية، والمرء عليه أن يأمل في أن الأمثلة المليئة بالفحش الصبياني والدعاية السياسية، مثل تلك التي تشوه بعض المنشورات اللغوية الحالية في العالم الناطق بالإنجليزية سوف يثبت أنها مرحلة عابرة.

وسمعة قواعد موراي يمكن إدراكها من حصافة مسز جارلي Mrs Jarley، مالكة متحف الشمع في قصة ديكنز Old Curiosity shop عندما كان جمهورها يضم نساء شابات من المدارس الداخلية الممتازة[85]، وهذا في «تغيير وجه وملابس السيد جريمالدي بوصفه مهرجا ليمثل دور السيد لندلي موراي، عندما يظهر منهمكا في تأليف قواعده الإنجليزية».

وبرغم أن الإطار النظري والفئات المستخدمة متشابهة جدا فإن القواعد المعاصرة الأقل شهرة Grammar of the English language، التي أعدها كوبت Cobbet السياسي الراديكالي (لندن 1819) قد صيغت في خلفية اجتماعية مختلفة تماما. وهذه القواعد ـ مكتوبة في شكل سلسلة رسائل لابنه جيمس ـ «قصد بها بشكل خاص استعمال الجنود والبحارة وصبية الحرف وصبية الريف»، وهناك طبعة متأخرة تضم «ستة دروس قصد بها الحيلولة دون استعمال رجال الدولة للقواعد الخاطئة ودون الكتابة بأسلوب عسر»، وهذه الطبعة تشتمل على إهداء للملكة كارولين يؤكد فيه كوبت في بلاغة راديكالية على قضية التثقيف الأدبي «للطبقات العاملة»: «أن النبلاء ورجال الكهنوت

قد ظلوا متغطرسين طويلا ليطلقوا على أنفسهم الركائز التي تدعم العرش، ولكن كما تحققت جلالتك الآن فإن الملكية ليس لديها أنصار أكفاء عند الحاجة إلا الشعب».

وفي إطار مبادئ جد متشابهة، وأساليب جد مختلفة جسد هذان النوعان من القواعد الإنجليزية اتجاهين رئيسيين كانا بارزين في تدريس الإنجليزية منذ عصر النهضة الذي بشر بعهد من الحراك الاجتماعي في المجتمع الإنجليزي، وهما: المحافظة اليقظة على المعايير اللغوية المناسبة للوضعية الاجتماعية الرفيعة، واكتساب هذه المعايير بوصفها خطوة حيوية في طريق أي رقي اجتماعي.

وكما عززت المواقف الإمبريقية الصوتيات الوصفية والاستقلال القواعدي للغات المختلفة، فإن الحركة العقلية جعلت نفسها ملموسة في إنتاج القواعد الفلسفية خاصة تلك القواعد المرتبطة بمدارس بورت رويال الفرنسية. وتلك المؤسسات الدينية التعليمية قد أقيمت في عام 1637م، وحلت في عام 1661م بسبب النزاع السياسي والديني، ولكن تأثيرها استمر طويلا في الأفكار التعليمية، ويمكن أن نرى تأثيرها في القواعد مستمرا في القواعد العقلية grammaires raisonnées و «القواعد العامة general grammars» للقرن الثامن عشر. وقد أعيد طبع قواعد بورت رويال في وقت متأخر عام 1830م[86].

كانت القواعد العقلية وريثة في جوانب كثيرة للقواعد السكولاستية للعصور الوسطى. ورغم أن النظام التعليمي لبورت رويال يشتمل على إرشادات كلاسيكية عن الأصوات، فإن واحدا أو اثنين من أعضائها قد أظهر تحاملا ضد الأدب الوثني للعصور القديمة الكلاسيكية، وقد كان من بين جماعة بورت رويال كُتّاب عن المنطق، وقد كان تأثير المنطق في قواعدهم هو التأثير الأقوى. وقد قدموا قواعد عمومية، ولكن ليس بنفس المعنى عند مصممي اللغات العمومية أو عند قواعديي العصر الوسيط. وعلى نقيض مصممي اللغات العمومية لم يبتكروا أنظمة جديدة للاتصال، ولكنهم كانوا يعرضون نظرية عامة للقواعد من خلال لغات مثل اللاتينية أو الفرنسية، وهم - على نقيض السكولاستيين - يؤكدون على رجحان دعاوى العقل الإنساني على النصوص، وجعلوا ديكارت وليس أرسطو هو الأساس لمذهبهم، ولم

ينشدوا تفسيرا فلسفيا عاما لكل تفاصيل قواعد برشيان اللاتينية، متجاهلين اللغات الأخرى، ولكنهم حاولوا أن يكشفوا عن وحدة القواعد التي ترتكز عليها القواعد المستقلة للغات المختلفة، في دورها في التفكير الاتصالي الذي يشتمل هو نفسه على الإدراك والحكم والتعليل.

وعلى أساس هذه القواعد العامة أخذ علماء بورت رويال أقسام الكلمة الكلاسيكية التسعة: الاسم والأداة والضمير والبرتسبل وحرف الجر والظرف والفعل والرابطة والتعجب، ولكنهم أعادوا تقسيمها على أساس دلالي، فالأقسام الستة الأولى ترتبط «بمقاصد» تفكيرنا، وترتبط الثلاثة الأخيرة «بشكل أو طريقة» هذا التفكير، وبقي التقسيم الثنائي الأساسي «اسم - فعل»، ولكن التقسيم الثاني حول هذا التقسيم كان تقسيما مختلفا. ولم تكن هناك محاولة لاتباع قواعد دوناتوس وبرشيان كما قدماها، ولكن قدرا كبيرا من تراث قواعد اللاتينية قد درس ليكون أساسا لكل اللغات، ومن أجل العثور على الصياغة بأساليب متنوعة. من هنا فإن الحالات الست في اللاتينية قد افترض وجودها على مستوى العمل على الأقل في اللغات الأخرى[87]، رغم أن بعضا منها قد عبرت عنه حروف الجر وترتيب الكلمات في «اللغات العامية vulgar» (أي اللغات الأوروبية الحديثة، والمصطلح ليس فيه ازدراء)، وقد ذكر أن اليونانية فيها حالة أبلتية تشبه في الصيغة دائما حالة الداتية dative. والقول الأخير قول مضلل، فالترجمة المساوية لحالة الأبلتية اللاتينية تنقسم بين حالة الداتية وحالة الإضافة في اليونانية. والحالات وحروف الجر إجمالا قصد بها التعبير عن علاقات، ولكن الفئتين مُيِّز بينهما نظريا على الرغم من الأساس المشترك لهما في «اللغات العامية»، والاستعمال الشبيه بالحالة إلى حد كبير في الكلمتين الفرنسيتين de و a قد قوبل بوظيفتيهما الجـرِّيتين أصلا، كما حدث في الدراسات المقارنة للغات الكلاسيكية واللغات الرومانسية الحديثة (ص 176 من قبل)[88].

ورغم بعض التشابهات مع المودستيين والتأكيد المماثل على الملامح الضرورية العامة لكل اللغات والتي تظهر على السطح بشكل مختلف، فإن هناك خلافات لافتة للنظر في المواقف، فالأساس العام المتصور عند جماعة بورت رويال هو العقل والتفكير الإنسانيان، والعلاقات المتبادلة المحكمة للـ modi essendi المتعلقة بالعالم الخارجي، والـ modi intellgendi التي بها تدرك

وتفسر في العقل، وهذه العلاقات ليس لها مكان في نظام بورت رويال، كما أن التفسير شبه المودستي للفرق الأساسي بين الاسم والفعل الذي طرحه ج. س. سكاليجر، القائم على أساس مقولتي الدوام وسرعة الزوال، قد انتقد بوضوح باعتباره تفسيرا غير ذي صلة وغير واف(89).

ويمكننا أن نلاحظ تفسيرات بنائية لوظائف بعض أقسام الكلمات، فالظرف ليس أكثر من اختصار لعبارة جرية (sapienter «حكميا» = cum sapientia «بحكمة»)، والأفعال هي بدقة كلمات «تفيد الإقرار»، وفي صيغ أخرى تفيد الرغبة أو الأمر... إلخ(90). وهذا يعود بقواعديي بورت رويال إلى التحليل الذي اقترحه أرسطو(91) لكل الأفعال بخلاف فعل الربط أو الكينونة to be، باعتبارها منطقيا وقواعديا مساوية لهذا الفعل زائدة البرتسبل، وهذا ينتج Peter lives (Peter is living) التي تماثل بنائيا Peter is a man، كما أن فئات اللازم والمتعدي (والمبني للمعلوم والمبني للمجهول) لا تنتمي بدقة للكلمات التي تسمى عادة أفعالا، ولكنها تنتمي تماما للعناصر الوصفية فيها(92).

يجب أن نلاحظ أن هذا التحليل ليس تفسيرا تاريخيا مزعوما، ولا وصفا سطحيا لصرف الأفعال كما حاول أن يجعله بوب Bopp كذلك فيما بعد، بل كان هذا - بمصطلحات حديثة وعلى مستوى بنائي أعمق - هو وضع العناصر التي تمثَّل في الجمل الفعلية بشكل موحد مع العناصر الأخرى. وقد يكون من حق قواعديي بورت رويال التأييد المستمد من معرفتنا الأوسع اليوم، باللغات التي يمكن فعليا لأي جذر فيها أن يُؤَسْمَن nominalized(93) أو يُفَعْلَن verbalized بزائدة مناسبة، لدرجة أن التمييز المحافظ عليه في القواعد السطحية للغات الأوروبية، يمكن أن يختفي على الأقل بين Peter is a man و Peter lives(94).

والوظيفة التضمينية أو الاتباعية لضمائر الصلة (الأسماء الموصولة) relative pronouns (اللاتينية والفرنسية qui.. الخ، والإنجليزية which, who... الخ) يصفها القواعديون التحويليون بطريقة أوّلوا فيها تلك الوظيفة أهمية، باعتبارها سبقا من جانب نظرياتهم هم، فالقضية الواحدة the invisible God, who مرتبطة بالصيغة الأكثر وضوحا God has created the visible world is invisible, has created the world which is visible، وهي - في تمثيل يبقى أكثر

بساطة ـ توحد بين ثلاث قضايا أو أحكام (جمل أساسية) هي God is invisible و God created the world و the world is visible، وهذا بضم أو تضمين الجملتين الأولى والثالثة في القضية «الأساسية والجوهرية» الثانية بوصفها الجملة الرئيسية matrix[95]. ويبدو أن قواعديي بورت رويال على أي حال قد عملوا بأسلوب لا يختلف عن الأساليب الشكلية على نحو خالص، لأن القضية the valour of Achilles has been the cause of the taking of troy قد قيل عنها على نقيض القضية الأخرى: إنها قضية بسيطة، وليست أكثر من حكم أو تقرير واحد. ومن الصعب تتبع هذا التعليل. وهذه الجملة الأخيرة حسب الأساليب التحويلية يجب أن تعامل بشكل مشابه جدا لمعاملة الجملة الأخرى.

لقد قام قواعديو بورت رويال بمحاولة أصيلة لكتابة قواعد عامة، ومستشهدين بأمثلة من اللاتينية واليونانية والعبرية واللغات الأوروبية الحديثة، أرادوا أن يرجعوا هذه القواعد العامة إلى الخصائص العمومية المزعومة للغة، وهي الخصائص التي ترتكز عليها تلك الأمثلة. ولايبدو أن المعرفة الأوسع بلغات غير أوروبية قد شغلتهم، أو أنهم قد قاموا بمراجعة إطارهم الكلاسيكي بطريقة أكثر راديكالية. لقد تصوروا القواعد العامة باعتبارها قواعد متضمنة في التركيب الفعلي لكل اللغات، وليس باعتبارها ممثلة بشكل خاص في أي منها، ولكنهم بوصفهم علماء متحمسين علميا قد اعتزوا بالوضوح والأناقة والجمال الذي رأوه في اللغة الفرنسية[96]. وهذا دليل على التغير في مواقف الناس نحو العاميات الأوروبية الدارجة الذي خلقه عصر النهضة.

وما أن تم بوضوح قبول الاختلاف بين اللغات، وتم الاعتراف بالعاميات الدارجة باعتبارها جديرة بالدراسة والرعاية بشكل متساو مع اللغات الكلاسيكية، حتى واجه علماء اللغة قضية العموميات اللغوية. وكان العالم القديم قد تجاهل المشكلة تقريبا منشغلا فقط باليونانية واللاتينية، وقد ادعى السكولاستيون أن اللاتينية كما وصفها وحللها برشيان تمثل في الواقع البنية التحتية العامة لكل اللغات، ولكن بعد عصر النهضة أكد الإمبريقيون على الاختلافات الفردية للغات المستقلة وعلى الحاجة إلى تنظيم الفئات والأقسام على ضوء الملاحظة، بينما ظل العقليون يبحثون

عما هو مشترك بين كل اللغات تحت الاختلافات السطحية، ولا تزال القضية مثارة بقوة، وقد دعا يلمسليف في مؤلفه المبكر «أسس القواعد العامة Principes de grammaire générale إلى صورة مجردة état abstrait عامة تتضمن الإمكانات الموجودة في اللغات والتي تتحقق بشكل مختلف في الصور المادية لكل لغة مفردة، ومن دون هذا فإن النظرية اللغوية لابد أن تسقط في العدمية[97]. أما الاتجاهات الوصفية لما يسمى الآن العصر البلومفيلدي فقد اختزلت افتراض العموميات إلى حدها الأدنى، وقام بوصف الصيغ الملاحظة العليا عن طريق فئات وأقسام خاصة، مستنبطة لكل لغة بشكل مستقل وتشترك في القليل مع اللغات الأخرى. وقد صرح بلومفيلد بأن التعميمات الوحيدة المفيدة عن اللغات عبارة عن تعميمات استقرائية[98]. وقد تحدث الفيرثيون بطريقة مماثلة عن نظرية عامة، ولكنهم ظلوا حذرين من الفئات العامة والقواعد العمومية[99]. وفي وقت أحدث أعاد تشومسكي والقواعديون التوليديون التأكيد بطريقة مشابهة بشكل لافت للنظر لكل من هؤلاء القواعديين العقليين الفلسفيين ويلمسليف 1928م، أعادوا التأكيد على أهمية العموميات اللغوية مشيرين إلى أنه في المستويات الأعمق للتركيب اللغوي سنجد أن اللغات تشترك في مظاهر الصيغة، التي هي عبارة عن ملكة إنسانية مشتركة تتحقق بشكل مختلف على مستوى السطح في اللغات المختلفة، ويدعون في الواقع أنه دون هذا التصور فإن علم اللغة محكوم عليه بأن ينحصر داخل إمبريقية ضيقة، وأن يفقد أهميته نسبيا، ويعتقدون فوق ذلك أن القواعد العمومية الأساسية هي التفسير المقنع الوحيد لمقدرة الأطفال على السيطرة على لغتهم الأولى، على أساس تعرضهم بشكل ملائم لسلاسل من الكلام العشوائي[100]. وفي عالم اللغات كما في مجالات التفكير الأخرى واصلت المشكلات القديمة عرض نفسها، ولكن بطرق مختلفة للأجيال المختلفة.

وقد عبر بوزيه Beauzée المؤلف لقواعد عامة متأخرة عن موقف مشابه لموقف علماء بورت رويال، فالقواعد لها نوعان من المبادئ، النوع الأول مبادئ ذات سريان عام تنشأ من طبيعة التفكير الإنساني، والنوع الثاني مبادئ تنتج عن الأعراف الاعتباطية والمتغيرة التي تكون قواعد اللغات المستقلة. والمبادئ الأولى، وهي غاية القواعد العامة، مبادئ سابقة منطقيا

لأي لغة معينة، وتتعلق بالإمكانية الفعلية والشروط الضرورية لوجود أي لغة[101].

برغم أن مذهب بوزيه يتفق مع مذهب جماعة بورت رويال فإن نظامه القواعدي يختلف بعض الشيء في تنظيمه، وبرغم تقديره لديكارت وأرنولد Arnauld (قواعدي كبير من بورت رويال) في تصديره، فهناك بعض الانتقادات الواضحة في النص لبعض أحكام بورت رويال، فأقسام الكلمة عند بوزيه أكثر حداثة في كون الصفة قد اعتبرت قسما مستقلا تماما، كما لم يشر إلى الانقسام الثنائي الخاص ببورت رويال. والأقسام كما في أي قواعد عامة يجب أن تحدد بطريقة قابلة للتطبيق على أي لغة، والاحتكام يكون لمفاهيم دلالية عامة، وبنفس الطريقة كان التمييز بين الاسم والضمير من ناحية والفعل والصفة من ناحية أخرى، فالأسماء والضمائر تعبر عن الأشياء المفردة والأشخاص والمجردات، والأفعال والصفات تعبر عن الخاصيات والحالات والعلاقات لما ترتبط به[102]. ورغم عمومية بوزيه فإنه أقل صرامة في بعض النواحي، فلم يحاول أن يفرض نظاما معينا للحالات الإعرابية على كل اللغات، واستنكر موقف علماء بورت رويال لإصرارهم على حالاتهم الست في اليونانية دون اعتبار للصيغ الملاحظة بالفعل في تصريفات الاسم في هذه اللغة.

يرجع الخلاف بين الإمبريقيين والعقليين إلى حد معين إلى الفرق الناشئ، بين بحث اللغات من الخارج على أساس الاستعمال الملاحظ سواء من قبل الكتاب المعترف بهم أو المتحدثين المقبولين اجتماعيا، وبين البحث في اللغات من الداخل بوصفها جزءا من الموهبة الإنسانية الطبيعية وتجليا لعقلية الإنسان، وقد فرق العالم الإيطالي كامبانيلا Campanella (القرن السابع عشر) بين هذين النوعين من الدراسة القواعدية، بوصفهما قواعد اجتماعية grammatica civilis وقواعد فلسفية grammatica philosophica[103]. وقد أقام فوجيلاس Vaugelas نفس القاعدة في قواعد الفرنسية على أساس ملاحظة الاستعمال الجيد، والاستعمال الأدبي المتفوق الذي شرحه قواعديو بورت رويال عن طريق الرجوع إلى المعنى الدقيق للجمل، كما يفهمه المستمع وكما يقصده المتكلم[104].

وفي هذه الفترة، وكذلك إلى مدى معين في السنوات الأخيرة من العصور

الوسطى بدأت طرق تفكير حول اللغة تنشأ عن موضوعات إما أنها لم تدرس من قبل، أو إن كانت قد درست فقد تم هذا تحت أساليب لا يمكن أن تؤدي إلى أي نتائج مفيدة، وقد لوحظ هذا بالفعل في بدايات علم اللغة التاريخي للغات الرومانسية (ص 176 من قبل). وقرب نهاية القرن الثامن عشر تعمق المنهج التاريخي لدراسة اللغات، واغتنى بأفكار جديدة، وقد ارتبطت الدراسة التاريخية بالمقارنة التنميطية، وقد وجدت الدراستان كلتاهما مادة جديدة ومهمة في اللغات التي عرفها العلماء في ذلك الوقت، وبشكل خاص المفردات والنصوص المتجمعة من ميادين لم تدرس من قبل.

ومنذ نهاية القرن تحول الوضع اللغوي تماما بسبب حدث من أهم الأحداث في تاريخ علم اللغة، وهو الاكتشاف الكامل لِلُغة وعلم الهند السنسكريتية القديمة، ولكن لأن آثار هذا الاكتشاف تنتمي للقرنين التاسع عشر والعشرين ، سيكون من الأفضل معالجة هذه الآثار في الفصول التالية.

مراجع إضافية

D. ABERCROMBIE, Forgotten phoneticians, TPS 1948, 1 - 34.

H. ARENS, Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/Munich (second edition), 1969, 62-80.

R. E. ASHER and E. HENDERSON (eds.), Towards a history of phonetics, Edinburgh, 1981.

W. BACHER, Die Anfänge der hebräischen Grammatik, Amsterdam, 1975 (first published 1895).

M. BAKALLA, Arabic linguistics: all introduction and bibliography, London, 1983.

R. R. BOLGAR, The classical heritage and its benefactors, Cambridge, 1954.

J. BURCKHARDT, The civilization of the Renaissance in Italy (first published in German, 1860, tr. S. G. C. Middlemore), London, 1944.

F. CADET, Port Royal education (tr. A. D. JONES), London, 1898.

R. DONZE, La grammaire générale et raisonnée de PortRoyal, Berne, 1967.

W. K. FERGUSON, The Renaissance in historical thought, Boston, 1948.

J. R. FIRTH, The tongues of men, London, 1937, chapters 5 and 6.

____, 'The English school of phonetics', TPS 1946, 92-132.

O. FUNKE, Die Frühzeit der englischen Grammatik, Berne, 1941.

F. P. GRAVES, Peter Ramus and the educational reformation of the sixteenth century, New York, 1912.

M. A. K. HALLIDAY, The origin and early development of Chinese phonological theory, R. E. ASHER and E. J. A. HENDERSON (ed.), Towards a history of phonetics, Edinburgh, 1981, 123-40.

D. HYMES (ed.), Studies in the history of linguistics: traditions and paradigms, Bloomington, 1974.

L. KUKENHEIM, Contributions à l'histoire de la grammaire italienne, espagnole, et française à l'époque de la Renaissance, Amsterdam, 1932.

____, Contributions à l'histoire de la grammaire grecque, latine, et hébraique à l'epoque de la Renaissance, Leiden, 1951.

____, Esquisse historique de la linguistique française, Leiden, 1962.

LANCELOT and A. ARNAULD, Grammaire générale et raisonnée, Paris, 1660 (reprinted Scolar Press, Menton, 1967).

I. MICHAEL, English grammatical categories and the tradition to 1800, Cambridge, 1970.

J. OWENS, The foundations of grammar: an introduction to medieval Arabic grammatical theory, Amsterdam, 1988.

G. A. PADLEY, Grammatical theory in western Europe 15001700, the Latin tradition, Cambridge, 1976. grammatical theory in western Europe 1500-1700: Trends in vernacular grammar 1,

Cambridge, 1985, II, 1988.

V. G. SALMON (ed.), The study of language in seventeenth century England, Amsterdam, 1979.

J. E. SANDYS, History of classical scholarship (third edition), Cambridge, 1921, volume 2.

T. A. SEBEOK, Historiography of linguistics, 231 - 382.

C. H. M. VERSTEEGH et al. (eds.) The history of linguistics on the Near East, Amsterdam, 1983.

E. VORLAT, English grammatical theory 1586-1737, Louvain, 1975.

ملاحظات ومراجع

1. SANDYS, 1921, 17-21. On the Renaissance see further BOLGAR, 1954, BURCKHARDT, 1944, and FERGUSON, 1948.

2. B. RUSSELL, History of western philosophy, London, 1946, 523.

3. J. A. FROUDE, History of England from the fall of Wolsey to the defeat of the Spanish Armada, London, 1875, volume 1, 61-2. On the historical concepts of the Middle Ages and the Renaissance in general, W. K. FERGUSON, The Renaissance in historical thought, Boston, 1948.

4. ORIGINES, 1.3.4.

5. KUKENHEIM, 1951, 88.

6. J. REUCHLIN, De rudimentis Hebraicis, Pforzheim, 1506; L. GEIGER, 1. Reuchlin, Leipzig, 1871.

7. REUCHLIN, Op. cit., 551.

8. ibid., 552, 585.

9. H. HIRSCHFELD, Literary history of Hebrew grammarians and lexicographers, London, 1926, 7. See further N. M. WALDMAN, 'The Hebrew tradition', in SEBEOK, Historiography, 1285-1330. The classic work on Hebrew linguistics is BACHER, 1895. The 1975 edition brings the bibliography up to date.

10. P. WECHTER, Ibn Barun's Arabic works on Hebrew grammar and
lexicography, Philadelphia, 1964. On linguistics in the Near East, VERSTEEGH et al., 1983.

11. E. O. A. MERX, 'Historia artis grammaticae apud Syros', Abhandlung fur die Kunde des Morgenlandes 9.2 (1889, Leipzig).

12. A. G. CHEJNE, The Arabic language: its role in history, Minneapolis, 1969; H. BLANC, Linguistics among the Arabs, SEBEOK, Historiography, 1265-83. For a positive view on Greek influence see C. H. M. VERSTEEGH, Greek elements in Arabic linguistic thinking, Leiden, 1977 As with the Graeco-Roman analogy-anomaly controversy one must not overdo the idea of two quite separate and mutually exclusive sects. Rather, it was a matter of two opposing tendencies, focused to a considerable degree on the two places. See further OWENS, 1988, 8 - 15. OWENS, 1988, and H. E. BREKLE, Einführung in die Geschichte der Sprachwissenschaft, Darmstadt, 1985, chapter 5, provide good introductions to Arabic linguistic scholarship. BAKALLA, 1983, presents a comprehensive bibliography of linguistic studies in and on the Arabic language.

13. A. SCHAADE, Sibawaihi's Lautlehre, Leiden 1911 (several corrections are suggested by M. H. A. EL SARAAN, A Critical study of the phonetic observations of the Arab grammarians (Ph. D. thesis, University of London, 1951)). On Sibawaih's grammatical method, M. G. CARTER, 'An Arab grammarian of the eighth century', JAOS 93 (1973), 146-57. An example of an Arabic

grammatical text, with translation and commentary, may be seen in M. G. CARTER (ed.), Arab linguistics: an introductory classical text with translation and notes, 1981 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistic science, series 3, volume 24).

14. KUKENHEIM, 1932, 95.

15. J. H. ROWE, 'Sixteenth and seventeenth century grammars', in HYMES, 1974, 361-79. Vernacular grammar writing is dealt with fully in PADLEY, 1985 and 1988. See further A. AHLQVIST (ed.), 'Les premières grammaires des vernaculaires européens', Histoire épistémologie langage 9. I (1987); W. K. PERCIVAL, 'The grammatical tradition and the rise of the vernaculars', in SEBEOK, Historiography, 231-75. Useful collections of articles on the history of linguistic work in Italy, Spain, and Holland in and after the Renaissance are to be found in P. RAMAT et al. (eds.), The history of linguistics in Italy, 1986 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistic science, series 3, volume 33); A. QUILIS and H.-J. NIEDEREHE (eds.), The history of linguistics in Spain, 1986 (ibid., volume 34; The history of linguistics in the Low Countries, 1988, (Historiographia linguistica 15. 1-2). ROBINS, 'The evolution of English grammar books since the Renaissance', in G. LEITNER (ed.), The English reference grammar, Tübingen, 1986, 292-306, gives a brief sketch of English grammar writing from 1586 to the present day. For a historical survey of linguistic work on the German language, see W. BAHNER and W. NEUMANN (eds.), Sprachwissenschaftliche Germanistik: ihre Herausbildung und Begründung Berlin, 1985.

16. KUKENHEIM, 1932, 205. cp. more generally, PERCIVAL, Op. cit. (n. 15).

17. K. LAMBLEY, The teaching and cultivation of the French language during Tudor and Stuart times, Manchester, 1920; D. A. KIBBEE, 'John Palsgrave's L'eclaircissement de la langue française', Historiographia linguistica, 12 (1 985), 2762.

18. La manière de bien traduire d'une langue en aultre Paris, 1545. See further E. A. NIDA, Toward a science of translating Leiden, 1964, chapter 2. The influence of Martin Luther in the Protestant parts of German-speaking Europe and the prestige of his German translation of the Bible are held largely responsible for the establishment of Luther's written German as the basis of standard German (cp. PADLEY, 1985, chapter 2.1, and 1988, chapter 4).

19. KUKENHEIM, 1932, 37 - 8.

20. Book I, chapter l; chapters 18-19. This work was not, in fact, actually published until the sixteenth century, in Latin and Italian. An English translation may be had in A. G. FERRERS HOWELL, 'Dante's treatise "De vulgari eloquentia"', London, 1890.

21. cp. R. A. HALL, 'Linguistic theory in the Italian Renaissance, Language 12 (1936), 96-107.

22. KUKENHEIM, 1932, 140. See further Padley, 1988, 100-5.

23. G. RUSCELLI, Commentarii della lingua italiana Venice, 1581, 100.

24. KUKENHEIM, 1932, 98-9.

25. KUKENHEIM, 1962, 18; this is disputed by P. A. VERBURG, Taal en functionaliteit Wageningen, 1952, 172-84.

26. GRAVES, 1912.
27. Scholae grammaticae Frankfurt, 1595; Gramere Paris, 1562.
28. Scholae 7-14, 95.
29. Gramere 10-11.
30. Scholae 95-6, 205-6.
31. Gramere 41.
32. Scholae 118, 223.
33. ibid. 118.
34. GRAVES, 1912, 130 (where see chart); more generally sac PADLEY, 1976.
35. FIRTH, 1937, chapter 5.
36. ROWE, Op. cit., in HYMES, 1974, 361 - 79.
37. e.g. FIRTH, ‘Alphabets and phonology in India and Burma’, BSOS` 8 (1935-7), 517-46.
38. L. S. GALLAGHER, The China that was Milwaukee, 1952, 42 - 8.
39. FRANCISCO VARO, Arte de la lengua mandarina Canton, 1703; J. H. DE PRÉMARE, Notitia linguae Sinicae Hongkong, 1893 (first publish ed 1727).
40. PRÉMARE, Op. cit., 36; J. VENDRYES, Le langage
Paris, 1921, 98 - 9.
41. LAi MING, A history of Chinese literature London, 1964, 4; M. A. K.HALLIDAY, 1981.
42. B. KARLGREN, Philology and ancient China, Oslo, 1926; R. A. D. FORREST, The Chinese language London, 1948; HALLIDAY, 1981.
43. G. B. SANSOM, An historical grammar of Japanese Oxford, 1928, chapter 1. For a brief account of linguistic work in China and Japan up to the present day, R. A. MILLER, The Far East, in SEBEOK, Historiography 1213-64
44. M. GRABMANN, Mittelalterliches Geistesleben Munich, 1926, volume I, 141-3. One may take note of the definition of grammar given by N. PEROTTI: ‘Ars recte loquendi, recteque scribendi, scriptorum et poetarum Iectionibus observata’ (the art of correct speech and correct writing, found in the texts of prose writers and poets), very much in line with the classical definition handcd down from Dionysius Thrax (p. 36) and with the classicizing spirit of Perotti’s contemporary L. VALLA’s book. De linguae Latinae elegantia Venice, 1471. See further PADLEY, 1976, chapter 1.
45. SANDYS, 1921 , 127-32; ERASMUS, De recta Latini Graecique sermonis pronantiatione Basle, 1528. Research in this field has continued up to the present day; see W. S. ALLEN, Vox Graeca Cambridge, 1974, and Vox Latina Cambridge, 1978.
46. S. HAVERKAMP, Sylloge altera scriptorum qui de linguae Graecae vera pronuntiatione commentarios reliquenunt, Leiden, 1740, 124-5.
47. GRAVES, 1912, 124 - 5.
48. L N. MADVIG, Latin grammar (tr. G. WOODS), Oxford, 1856, § 24.
49. Lyons, 1540; SANDYS, 1921, 129 - 30.

50. Salamanca, 1587. See further PADLEY, 1976, chapter 2; M. BREVA-CLARAMONTE, Sanctius theory of language 1983 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistic science Series III, volume 27).
51. KUKENHEIM, 1951, 47; FUNKE, 1941, 49. In England, Sir Thomas Smith (1514-17) and Sir John Cheke (1514-57) strove to reform the pronunciation of classical Greek on the basis of Erasmus's teaching. This was ultimately successful, and in itself it stimulated orthographic and phonetic studies in this country (SANDYS, 1921, 230 - 3; FIRTH, 1946, 100-1).
52. London, 1659.
53. J. LOCKE, An essay concerning human understanding London, 1690, 2.1.4; N. CHOMSKY, Reflections on language London, 1976, chapter 1. See further R. I. AARON, John Locke Oxford, 1937, chapter 2.
54. J. M. ROBERTSON, The philosophical works of Francis Bacon, London, 1905, 119-20, 264, 523-4.
55. FIRTH, 1937, chapter 6; c. K. OGDEN, Debabelization, London, 1931.
56. c. J. GERHARDT (ed.), Die philosophischen Schriften von Gottfried Wilhelm Leibniz, Leipzig, 1931, volume 7, 200, 21827: 'Sufficiet calamos in manus sumere sedereque ad abacos, et sibi mutuo ... dicere: calculemus'.
57. FIRTH, 1937, 72.
58. SALMON (ed.) The works of Francis Lodwick, London, 1972, 25, go.
59. London, 1668. See further SALMON, 1979; SALMON, Op. cit. in note 58; J. KNOWLSON, Universal language schemes in England and France 1600-1800, Toronto, 1975.
60. R. A. DUTCH (ed.), Roget's Thesaurus, London, 1962, xxxv.
61. WILKINS, Essay, 452.
62. J. J. KATZ and J. FODOR, 'The structure of a semantic theory', Language 39 (1963), 170 - 210; KATZ and P. M. POSTAL, An integrated theory of linguistic descriptions, Cambridge, Mass., 1964; D. W. BOLINGER, 'The atomization of meaning', Language 41 (1965), 555-73.
63. SALMON (ed.), The works of Francis Lodwick, London, 1972; WILKINS, Mercury: or the swift and secret messenger, London, 1641.
64. T. BRIGHT, Characterie, London, 1958 (first published 1558); W. J. CARLTON, Timothy Bright, London, 1911.
65. FIRTH, 1946.
66. B. DANIELSSON, John Hart's works on English orthography and pronunciation, Stockholm, 1955; FIRTH, 1946; E. J. DOBSON (ed.), The phonetic writings of Robert Robinson, 1957.
67. FIRTH, 1946.
68. cp. E. J. DOBSON, English pronunciation 1500 - 1700, Oxford, 1957.
69. W. HOLDER, Elements of speech, London, 1669, 35-6, 80-90.
70. ibid., 23, 80.

71. ABERCROMBIE, 1948, 18 - 26.

72. WILKINS, Essay, 358, 378. See further FIRTH, 1937, chapter 6; id., 1946; ABERCROMBIE, 1948; v. G. SALMON, The works of Francis Lodwick, London 1972; ASHER and HENDERSON, 1981.

73. W. BULLOKAR, Bref grammar for English, London, 1586.

74. e. g. J. WALLIS, Grammatica linguae Anglicanae, Oxford, 1653, work reprinted several times and much praised.

75. B. JONSON, The English grammar, London, 1640.

76. Logonomia Anglicana, London, 1621.

77. The English grammar, Oxford, 1634, chapter 3, § 3.

78. J. BRIGHTLAND, A grammar of the English tongue, London, 1711.

79. WILKINS, Essay, 298.

80. COOPER, Grammatica linguae Anglicanae, London, 1685.

81. J. A. KEMP (ed.), John Wallis's Grammar of the English language, London, 1972, 330—I. Further details in VORLAT, 1975, and FUNKE, 1941. For a brief historical survey of English grammar writing, see ROBINS, 'The evolution of English grammar books since the Renaissance', in G. LEITNER (ed.), The English reference grammar, Tübingen, 1986, 292-306. The close connection seen in this period between English scientific empiricism and the formal study of language is evident in the eighteenth century in the linguistic interest shown by the natural scientist J. Priestly (1733-1804), The rudiments of English grammar, London, 1761 (page vi: 'Grammar may be compared to a treatise of natural philosophy').

82. L. MURRAY, English grammar (thirty-fourth edition), York, 1821, 54-6.

83. ibid., 75, 127, 137.

84. FIRTH, 'Personality and language in society', Sociological review 42 (1950), 44; N. CHOMSKY, Syntactic structures, The Hague, 1957, 79.

85. CADET, 1898.

86. KUKENHEIM, 1962, 49. On the study of the grammars of the vernacular languages of continental Europe in and after the Renaissance, see PADLEY, 1985 and 1988

87. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 43 - 51.

88. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 83. Such abstract cases may be compared but not, of course, identified, with the abstract cases in current Government and Binding theory (cp. G. C. HORROCKS, Generative grammar, London, 1987, 102-8.

89. ibid., 93 - 4; SCALIGER, De causis linguae Latinae 137, 220.

90. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 88—go.

91. De interpretatione 12; Metaphysica 1017 a 29.

92. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 115.

93. cp. CHOMSKY, Current issues in linguistic theory, The Hague, 1964; id., Aspects of the theory of

syntax, Cambridge, Mass., 1965. cp. p. 191, below.

94. e.g. E. SAPIR and M. SWADESH, Nootka texts, Philadelphia, 1939, 235-43.

95. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 68; CHOMSKY, Current issues, 15 - 16.

96. LANCELOT and ARNAULD, 1660, 147.

97. L. HJELMSLEV, Principes de grammaire générale, Copenhagen, 1928, 15, 268.

98. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, 20.

99. FIRTH, ‘A synopsis of linguistic theory’, Studies in linguistic analysis (Special volume of the Philological Society), Oxford, 1957, 21-2.

100. CHOMSKY, Current issues, chapters 1 and 5; id., Aspects, 117-18; Reflections on language, London, 1976, chapter l; ‘Principles and parameters in syntactic theory, N. HORNSTEIN and D. LIGHTFOOT (eds.), Explanation in linguistics, London, 1981, 32-75.

101. N. BEAUZÉE Grammaire générale ou exposition raisonnée des éléments nécessaires du langage pour servir de fondement à l’étude de toutes les langues, Paris, 1767 (reprinted, with introduction by B. E. BARTLETT, Stuttgart, 1974), ix-xi; B. E. BARTLETT, Beauzée’s grammaire générale, The Hague, 1975.

102. BEAUZEE Op. cit., volume 1, 403: ‘Les noms et les pronoms expriment des êtres déterminés, au lieu que les adjectifs et les verbes expriment des êtres indéterminés’.

103. ibid., volume 2, 160.

104. PADLEY, 1976, 161-2; LANCELOT and ARNAULD, 1660, 75 - 83; C. VAUGELAS Remarques sur la langue française, Paris, 1670; cp. W. AYRES-BENNETT, ‘Usage and reason in seventeenth century French grammar: a fresh look at Vangelas’, H. AARSLEFF et al (eds.), Papers à. linguistics, Amsterdam, 1987, 233-46.

٦ عشية العصر الحديث

في كل من التاريخ العام وتاريخ الموضوعات الخاصة اعتبر عصر النهضة بشكل مسوغ هو بداية العصر الحديث، ولكن بداية القرن التاسع عشر شهدت تحولا جادا نحو العالم الذي تعودنا عليه الآن. وعلى الرغم من التغيرات السريعة في القرن الحالي فالأمر لا يحتاج إلى كبير جهد من الخيال التاريخي، لدراسة حياة وعمل الناس في القرن التاسع عشر من خلال هذا القرن، وانتشرت أنماط الحضارة الصناعية من مكان لآخر، وغيرت أنماط الحياة الزراعية السائدة التي ميزت أوروبا منذ العصور القديمة.

وعلى الجانب الفكري شهد القرن التاسع عشر أيضا انبثاق الأوضاع الحديثة، فقد تم إنشاء جامعات جديدة في أوروبا وأمريكا، كما أن التفاعل بين المعرفة الأوروبية والمعرفة الأمريكية المؤثر بقوة في التعليم الآن، لم يبدأ بشكل جدي إلا في هذا القرن، وقد انتشر التعليم العام بشكل أوسع مما هو في أي وقت مضى، ولأول مرة أصبح هدف نشر القراءة والكتابة بين عامة الناس قضية عملية بالنسبة للحكومات، وظهرت فعلا الجمعيات العلمية والدوريات المرتبطة بها، ولكن كثيرا من هذه

الجمعيات المعروفة اليوم في مكتبات الجامعات أكثر من غيرها قد بدأت النشر في القرن التاسع عشر، وقد جعل تحسن الاتصالات تبادل المقالات والفحص النظامي للكتب ملمحا غالبا للحياة الأكاديمية التي تعودنا عليها الآن.

وكثير من العلماء الذين أنجزوا أعمالهم في القرن التاسع عشر معروفون جيدا للطلاب قبل أن يبحثوا بشكل واع في تاريخ الموضوع، فجريم Grimm ووتني Whitney ومايُر لوبكه Meyer-Lübke و ماكس مولر Max Müller وبروجمان Brugmann وسويت Sweet، مجرد أمثلة قليلة لعلماء القرن التاسع عشر الذين كانوا مسؤولين جزئيا عن تشكيل فروعهم في علم اللغة، في الأنماط العامة التي مازالت تدرس في كتب الوقت الحالي.

إذا ما كان لأي سنة معينة أن تؤخذ ـ ولو بشكل مصطنع ـ علامة على بداية الوجود المعاصر للعلم اللغوي فهي سنة 1786م، أي أكثر من عقد قبل انطواء القرن. وقد صرح عالم معاصر بأن هذا العام قد استهل أول نوع من الأنواع الأربعة للتقدم المفاجئ المهم بشكل حقيقي في التطور الحديث لعلم اللغة، وحتى الوقت الحالي. في هذا العام كما هو معروف جيدا الآن فإن السير وليم جونز Sir W. Jones، وكان قاضيا في المحكمة البريطانية في الهند، قرأ ورقته الشهيرة في الجمعية الملكية الآسيوية في كلكتا التي أثبت فيها ـ من دون شك ـ القرابة التاريخية للسنسكريتية، اللغة الكلاسيكية للهند، مع اللاتينية واليونانية واللغات الجرمانية.

وبرغم أن تقرير جونز وارد في كثير جدا من الكتب بالفعل، فإننا سوف نورده هنا لأن تأثيراته في وقائع الفترة كانت عميقة وبعيدة المدى: «اللغة السنسكريتية مهما يكن قدمها، لغة ذات تركيب عجيب، وهي أكثر كمالا من اليونانية، وأغزر إنتاجا من اللاتينية، وأكثر منهما تهذيبا بشكل رائع، وهي فوق ذلك على قرابة بكل منهما في جذور الأفعال وصور القواعد معا، قرابة أقوى من أن تكون نتاجا للمصادفة، وهي قرابة قوية في الواقع لدرجة أن أي عالم في الفللجيا لا يمكنه أن يفحص اللغات الثلاث جميعا، دون أن يعتقد أنها نشأت عن أصل معين مشترك ربما لم يعد موجودا، كما أن هناك مسوغا مشابها، رغم أنه ليس قويا تماما، لافتراض أن كلا من القوطية والسلتية تشتركان في نفس الأصل مع السنسكريتية»[1].

وما هو حيوي بالنسبة لهذه الواقعة ليس في كونها حددت البداية المطلقة لعلم اللغة التاريخي، فقد تم تناول مسائل تاريخية من قبل مع بعض النجاحات الفردية ونفاذ البصيرة، فالعلاقة الخاصة بين السنسكريتية وبعض اللغات الأوروبية القديمة والحديثة قد تم في الواقع الحدس بها قبل السير وليم جونز، ولكن حتى ذلك الوقت كانت الملاحظات في هذه المجالات من علم اللغة ملاحظات معزولة وجزئية في الأساس. والأهمية التاريخية تميز وقائع يمكن أن تُرى متصلة في تسلسل سببي ثابت، وفقا له يبدأ المشاركون اللاحقون من مواقع اتخذها سابقوهم. وسير الأمور بهذا الشكل قد لوحظ في تطور النظرية القواعدية والتحليل القواعدي في اليونانية القديمة، ونفس الأمر صحيح بالنسبة لمسيرة علم اللغة التاريخي في القرن الذي تلا تقرير جونز، والذى شكل فيه هذا التقرير الفرع الرئيسي في الدراسات اللغوية.

وتقدم علم اللغة المقارن والتاريخي يجب أن يرسم من جوانبه النظرية الأكثر أهمية في القرن التاسع عشر، ولكن نتائج دخول الدراسة الجادة للسنسكريتية التي تلت إثبات صلاتها التاريخية لم تكن مقصورة على علم اللغة التاريخي، فعلم اللغة الوصفي يُظهر بشكل متساو تأثيرات الاتصال بالهند القديمة، ولو أن التحقق الكامل لهذا في هذه الحالة قد حدث بشكل أقل مباشرة.

وقد كشفت البعثات التبشيرية الكاثوليكية ميدان اللغات الهندية في قرون سابقة (ص 180 من قبل)، وأول إشارة معروفة للسنسكريتية قد جاءت في نهاية القرن السادس عشر عندما كتب الإيطالي فيلّبو ساستي Filippo Sassetti، إلى وطنه من الهند، واصفا اللغة السنسكريتية Lingua Sanicruta بإعجاب، ومشيرا إلى عدد من التشابهات بين كلمات سنسكريتية وكلمات إيطالية. وبعد ذلك جرت ملاحظة تشابه بين السنسكريتية وبعض اللغات الأوروبية من قبل الألماني ب. شولز B. Shulze والفرنسي بير كوردو Père Coeurdoux[(2)]. ولكن لم ينشأ عن هذه الملاحظات إلا الشيء القليل.

لم تكن رسالة جونز ذات طبيعة أعمق من الأقوال السابقة للأوروبيين حول اللغة السنسكريتية، ولكنها جاءت بشكل موات عشية الاهتمام الواعي بالدراسات الشرق أدنوية والهندية من جانب علماء أوروبا. وقد كانت حروب

نابليون مسؤولة جزئيا، فهو أثناء تفوقه قد شجع عن قصد الأعمال الأثرية الفرنسية في مصر وفي الشرق الأدنى، مدشنا الارتباط الطويل للمعرفة الفرنسية بلغات البحر المتوسط غير الأوروبية.

أما الأخوان فردريش Friedrich وأوجست فون شليجل August von Schlegel في ألمانيا، فقد عبرا بأنفسهما بطريقة مشابهة عن الحاجة إلى الدراسات السنسكريتية والعناية بها وتطويرها في الجامعات الألمانية، ففي عام 1808 كتب فردريش في تصدير كتابه Uber die Sprache und Weisheit der Indier، عن أمله في إثارة الحماسة أو على الأقل تمهيد الطريق لحب الدراسات السنسكريتية في ألمانيا، وفي عام 1819 عين أوجست شليجل رئيسا لكرسي في جامعة بون المنشأة حديثا (1818)، وصرح هو أيضا بأنه يعتبر نفسه محظوظا إذا استطاع أن يقوم بشيء نحو تأسيس هذه الدراسات في ذلك البلد[3]. وقد حقق هدفه بدعم من الحكومة. ومع اتساع التعليم الجامعي في بروسيا بعد الحروب أنشئت كراسي للسنسكريتية ولعلم اللغة التاريخي، كما تمت التعيينات لها في ظل نفوذ فلهلم فون هومبولت الذي عمل فترة من الزمن وزيرا للتعليم العام في مملكة بروسيا.

وقد نشرت أول قواعد للسنسكريتية في اللغة الإنجليزية في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، وقد بدأت ترجمة الأدب السنسكريتي الكلاسيكي للهند إلى اللغات الأوروبية منذ عام 1808م.

كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسنسكريتية أثر مزدوج، فقد شكلت مقارنة السنسكريتية باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، وإضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في الكتابات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف بمزاياه في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقا وباقيا.

وعلم اللغة في الهند يعود لزمن أبعد إلى الوراء من علم اللغة في أوروبا الغربية، وقد حفظ منذ ذلك الوقت عن طريق استمرارية العلم المحلي، وقد أنجز مرحلته الكلاسيكية في وقت مبكر من تاريخه، ومع مرور الزمن أصبح الأوروبيون على وعي به، وقد اعترف العلماء الهنود بمدارس محددة ومذاهب متميزة إلى جانب مصادر ونصوص معترف بها تلتها سلسلة من

التعليقات والتفسيرات.

لم يكن علم اللغة الهندي نفسه تاريخي التوجه رغم أن جذوره تكمن في التغيرات التي تواجهها اللغات مع سير الزمن. ولكن الموضوعات التي يغطيها علم اللغة الوصفي الحديث وهي الدلالة والقواعد والفنلجيا والصوتيات، قد تمت معالجتها كلها بتفصيل تام في التراث الهندي، وفي الصوتيات وفي جوانب معينة من القواعد كانت النظرية الهندية والتطبيق الهندي متقدمة عن أي إنجاز تحقق في أوروبا، أو في أي مكان آخر قبل أن يتم الاتصال بالمؤلفات الهندية. وقد أشرنا بالفعل إلى الحافز الذي وفره العلم اللغوي السنسكريتي والذي نقله الرهبان البوذيون إلى الصين (ص 184 من قبل)، وقد أدرك العلماء الأوروبيون بشكل مباشر أنهم قد عثروا في الهند على قدر هائل من الأدبيات اللغوية، ذات الأهمية العظمى والناشئة عن مصدر مستقل، ولو أن شرحهم وتقديرهم الكامل لهذه الأدبيات اللغوية كان مترددا ومتوانيا إلى حد ما.

وبقدر ما يمكننا القول فإن الملهم الأصلي لعلم اللغة في الهند كان هو الحاجة التي أحس بها بعض الناس، للحفاظ على نصوص طقسية ودينية معينة منقولة شفهيا، ومنحدرة من المرحلة الفيدية (حوالي 1200 ـ 1000 ق. م)، وهي أقدم مرحلة معروفة للأدب السنسكريتي، أي الحفاظ على هذه النصوص من تأثيرات الزمن والخشية مما اعتبر تلوثا لهجيا. والحفاظ على هذه النصوص دون تغير للمادة اللغوية المنحدرة عبر الأجيال عن طريق الانتقال الشفهي يعتبر عملية مصطنعة، ومحاولة لإيقاف ما هو محصلة طبيعية في كل مكان للاستمرار اللغوي. وقد لوحظت تغيرات في النطق والقواعد ومعاني الكلمات في سائر اللغة، وربما تكون التشعبات اللهجية في حديث المناطق المختلفة قد جعلت أيضا الوضع الخاص للنصوص الفيدية أكثر بروزا، وبطريقة مشابهة للفروق بين اليونانية الهلينية واليونانية الأدبية الكلاسيكية، جعلت تلك التشعبات وجود أدوات للتفسير الصوتي والقواعدي والدلالي أمرا ضروريا.

كان هذا هو الدافع، ولكن الاستجابة ذهبت إلى أبعد من هذه الحاجات المباشرة، وكما يلاحظ كاتب حديث فإن «الفضول العلمي مع حدة السمع والمنهجية الفعالة، قد أدت إلى وصف فاق بالتأكيد نطاق اهتمامهم

الأصلي»[4].

احتفظنا في اليونان بالمراحل التي مرّ بها العلم اللغوي بالفعل منذ بداياته، أما في الهند القديمة فإن معظم الأدبيات اللغوية التي لدينا، وبشكل خاص النموذج المعروف أكثر من غيره من التآليف اللغوية وهو القواعد السنسكريتية لبانيني، يأتي بشكل واضح في نهاية سلسلة طويلة من الأعمال السابقة وفي قمتها، وهذه الأعمال السابقة ليس لنا معرفة مباشرة بها. وتعرف قواعد بانيني باسم «أصطاد هيايي Astadhyayi»، أو «الكتب الثمانية». وهو ينقسم إلى ثمانية أقسام رئيسية، وليس معروفا ما إذا كان المؤلف قد دونه مباشرة أم ألفه بشكل شفهي، كما أن تاريخه غير مؤكد، وقد أرجع بشكل مختلف إلى ما بين 600 و 300 ق. م. ومهما يكن فإن علم اللغة في الهند كان بشكل جدي متقدما تماما قبل منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد.

وقد أصبح العلم الهندي السنسكريتي نموذجا لبقية الهند، فكان ملهما «للتلكبيام Talkappiyam»، وهو واحد من المؤلفات المبكرة لقواعد التاميلية Tamil، وهي لغة درافيدية في وسط وجنوب الهند (القرن الثاني قبل الميلاد)، وكذلك كان ملهما للتراث القواعدي المحلي للتبت[5].

وقد غطى العلماء الهنود في الواقع المجال الكامل للدراسات اللغوية التزامنية Synchronic، رغم أن بانيني، ممثلهم الأكثر شهرة، قد قصر عمله على معالجة مكثفة لمجال محدود. وباستعراض الإنجاز الهندي كما كان عندما ترك أثره في علم اللغة الأوروبي، فسوف يكون صحيحا اعتباره ممتدا على مدى عدة قرون معا، والنظر إلى المؤلفات العلمية الهندية على أنها متباعدة في الزمن رغم توحدها بسبب استمرارية التراث العلمي تحت ثلاثة عناوين رئيسية هي: النظرية اللغوية العامة والدلالة، والصوتيات والفنلجيا، والقواعد الوصفية.

وقد ناقش العلماء الهنود النظرية اللغوية العامة كما ناقشها علماء الغرب رغم عدم وجود اتصال فيما بينهم قبل نهاية القرن الثامن عشر، وقد درست اللغة في إطار خلفية الدراسات الأدبية والبحث الفلسفي معا، كما أن عددا من الموضوعات المألوفة للعلم الغربي. والمتعذر اجتنابها تقريبا كان مألوفا أيضا للغويين الهنود منذ وقت مبكر.

وقد نوقشت مسائل مختلفة ترتبط بفهم طبيعة الكلمة ومعنى الجملة من وجهات نظر مختلفة، ودرس اللغويون الهنود النطاق الذي يمكن أن ينظر فيه للمعاني بوصفها خاصية طبيعية للكلمات، أو النطاق الذي يمكن أن تتخذ فيه المحاكاة الصوتية بوصفها نموذجا لوصف العلاقة بين الكلمة والشيء. وكما هو الحال في جدال الطبيعة ـ العرف الغربي (صص 45 ـ 46 من قبل) فإن العلماء قد تحققوا سريعا من الدور المحدود جدا الذي يمكن أن يقوم به ذلك العامل في اللغة، وأن العلاقة العرفية الاعتباطية بين الصيغة ومعناها هي علاقة نموذجية بدرجة كبيرة جدا في اللغة.

لقد نالت قابلية التغير والتوسع في معاني الكلمات مزيدا من التفكير، وهي إحدى الخصائص الرئيسية للغة التي تمكنها من تحقيق المطالب غير المحدودة المطلوبة منها مع مصادرها المحدودة بالضرورة. وقد نظر للمعاني باعتبارها تتعلم من ملاحظة سياقات الموقع الذي تستعمل فيه الكلمات بالفعل في الجمل، ومن الإفادات المباشرة للكبار والمعلمين عن كلمات معينة وعن استعمالاتها، وبينما يصعب وضع قيود على الاستعمال الفعلي للكلمة فإن التركيب يقيد غالبا مجال المعنى لكلمة معينة، باستبعاد بعض المعاني المقبولة الأخرى للكلمة وهي معزولة. من هنا فكلمة dhenuh التي يمكن بنفسها أن تعني «فرسا» و «بقرة» معا يمكن اعتبارها تعني «بقرة» فقط في تركيب مثل savatsa dhenuh «بقرة مع عجل»[6]. والمسألة التي تكاد تكون بلا جواب قد أثيرت في الهند كما حدث في أماكن أخرى، وهي مسألة المدى الذي يمكن لصيغ الكلمات الواحدة ذات المعاني المتعددة أن تعتبر فيه كلمات متعددة المعاني أم عددا من الكلمات المختلفة، ولكنها كلمات مشتركة في الصوت. ومما تلقي المزيد من الاهتمام في هذا السياق العلاقة بين ما اعتبر هو المعنى الرئيسي للكلمة الذي قيل إنه يفهم أولا، وبين المعاني المختلفة الناشئة عن استعمالها المجازي (laksana) في كل من الحديث اليومي وفي معانيها الأدبية الخاصة.

وبينما كانت هذه المسائل ذات أهمية أدبية كبيرة، فإن المناطقة الهنود قد ثار بينهم الجدل ـ مثلما فعل المناطقة الغربيون بعد ذلك ـ حول ما إذا كانت الكلمات في الأصل تشير إلى أشياء مفردة أم أنواع أم إلى عموميات مجردة، وإلى أي مدى تكون معاني الكلمات إيجابية في تحديد هوية الشيء

الذي وضعت له أم سلبية في تمييزه عن بقية الوقائع، كما تم أيضا إدراك أن كلمة مثل «نار» يمكن أن تمثل نفسها وأن تمثل أيضا معناها الأساسي.

والمسألة البعيدة عن الحل حتى اليوم هي مسألة العلاقة الدلالية بين الجملة وبين الكلمات المكونة لها، والجمل هي بوضوح أكثر من محصلة الكلمات المكونة لها، سواء من زاوية النظر الدلالية أو القواعدية. وقد اتجه التراث الغربي إلى التركيز على الكلمات باعتبارها الحوامل المفردة الصغرى للمعاني وإلى النظر للجملة بوصفها محصلة لتجمعات الكلمات في أنماط معينة من القضايا المنطقية. أما أفلاطون وأرسطو فقد ناقشا المعنى غالبا في علاقته بالكلمات وهي منعزلة، وقد ركز أرسطو على الحد الأدنى الدلالي (في رأيه) واستقلالية الكلمة في حد ذاتها (ص 59 من قبل). وقد ناقش اللغويون الهنود مسألة أولية الكلمة ككل في مقابل أولية الجملة. وقد تمسكت مجموعة من المفكرين برأي مشابه كثيرا للموقف العام للغربيين، وهو أن الجملة تبنى من كلمات تسهم كل منها بمعناها في الإجمالي للجملة. ولكن هناك رأيا مضادا مرتبطا بشكل خاص ببهارترهاري Bhartrahari مؤلف «الفاكيا بدييا» Vakyapadiya (حوالي القرن السابع الميلادي) قد نظر للجملة باعتبارها قولا واحدا غير منقسم، ينقل معناه «في ومضة» كما تستقبل الصورة لأول مرة بوصفها وحدة، رغم تحليلها التالي إلى الأشكال الملونة المكونة لها. وبطرح تصور وحدة الكلمة فإن الجمل يمكن أن تحدد هويتها بوصفها جمل الكلمة الواحدة أو جمل الكلمات الكثيرة، ولكن هذه الجمل بالنسبة للمتكلم والمستمع عبارة عن وحدات جمل مفردة أساسا، أما الكلمات ومعانيها فهي إلى حد كبير تكون من ابتداع اللغويين والمتكلمين الواعين بذواتهم، الذين يحاولون تحليل وتصنيف معاني الجمل بأسلوب المكونات الصغرى. وكمثال لموقف بهارترهاري فإن الجملة «اجلب وقواقا من الغابة» لا تفهم بداية باعتبارها سلسلة كلمات وضع بعضها إلى جانب بعضها الآخر، لأن المعنى التام لكلمة «اجلب» في الجملة (أي طريقة الجلب) يفهم فقط مع معنى «وقواق»، وإن أي شخص يجهل معنى كلمة «وقواق» سوف يجهل لمدى معين بقية الجملة[7].

ومثل هذا الرأي يمكن أن يوجه إليه النقد - وقد كان - بوصفه رأيا متطرفا، وهذا الرأي ترك صداه في قول مالينوفسكي بأن «الكلمات المعزولة

في الواقع ليست إلا تلفيقات لغوية، وهي نتاج التحليل اللغوي المتقدم»[8]، وربما تكون إساءة تقدير للواقع النفسي للكلمة باعتبارها وحدة قابلة للنمو بالنسبة للمتحدث ابن اللغة، كما هي جزء من الأدوات التحليلية للغوي (ربما يكون المرفيم المقيد أفضل مثال على الابتداع التحليلي، والجدير بالملاحظة هو أن «المرفيم» بوجه عام عبارة عن مصطلح فني، أو مفسر بمصطلح فني، في حين أن الكلمات بالنسبة «للكلمة» توجد في عدد كبير جدا من اللغات المكتوبة وغير المكتوبة معا). ومهما يكن فهذا تصحيح ضروري للميل الغربي النموذجي إلى تركيز البحث الدلالي على الكلمة بوصفها وحدة مستقلة تماما توضع فيما بعد في جمل.

وفهم الهنود هذا للوحدة الدلالية للجملة يتوازى، وربما يرتبط بفهمهم المبكر للفروق الفنلجية والصوتية بين الكلمات عندما تنطق معزولة، وبينها عندما تنطق في جمل منطوقة متصلة (sandhi).

وهناك مشكلة يتعذر اجتنابها في أي تفكير لغوي جاد، وهي مشكلة العلاقة بين الأقوال المدركة، منطوقة ومكتوبة، للغة معينة وبين اللغة ذاتها، سواء نظر إليها من زاوية ما يملكه المتكلم بوصفه مقدرته اللغوية، أو من زاوية ما يضعه اللغوي بوصفه نظام أو أنظمة العناصر والفئات والأحكام التي يرتكز عليها وتفسر المقدرة المتنوعة بغير حد للغة الحية. واللغة langue والكلام parole، والتجريد abstraction والتمثيل exponent، والوحدة الإميكية emic والوحدة الإتيكية etic، والصيغة form والمادة substance كلها أمثلة لمحاولات حديثة لاستيعاب هذه العلاقة والتعبير عنها. وقد حاول اللغويون الهنود التعبير عنها في نظرية السبهوطا Sphota، وهذه النظرية قد صاغها اللغويون المختلفون بشكل مختلف بعض الشيء، وتمت مناقشتها، وتم التمييز بشكل أساسي بين جانبين في أي عنصر أو مكون لغوي، الأول هو الحدث الفعلي أو التحقق الفردي (dhvani) والثاني هو الوجود الدائم غير المتجسد (sphota) الذي يتحقق عن طريق كل «دهفاني» يحدث، وقد تصور العلماء الهنود «سفهوطا» لكل من الجملة والكلمة والوحدة الصوتية (varna) (الفونيم بالمصطلح الحديث).

وسفهوطا الجملة بوصفها رمزا مفردا دالا يتحقق عن طريق تتابع من الأصوات المنطوقة، والكلمة ـ على مستوى أدنى ـ بقدر ما تكون رمزا دالا

بذاتها يمكن النظر إليها بوصفها سفهوطا موحدة تتحقق أيضا عن طريق تتابع من الأصوات، ولكن الأصوات لا تعمل ببساطة بوصفها اضطرابات مسموعة في الهواء، فالوحدة المعينة المجردة الدائمة للإشارة الصوتية المتميزة القادرة على التفريق الدلالي، تتحقق عن طريق عدد وافر من المنطوقات المختلفة قليلا، وكل منها يختلف تبعا لصوت الشخص وأسلوبه والوضع الفيزيقي الذي يتحدث فيه، وهذا التصور الأخير لـ «سفهوطا الفارنا» قد ارتبط بشكل خاص ببتنجالي Patnjali (حوالي عام 150 ق.م.)، أما بهارترهاري من ناحية أخرى، وانسجاما مع نظريته في أولية الجملة، فيبدو أنه اعتقد أن «سفهوطا» الجملة هي «السفهوطا» الحقيقية، وهو في الواقع قد تصور ثلاثة مستويات في تحقق «سفهوطا» الجملة بوصفها رمزا دالا موحدا وهي: الرمز المتكامل نفسه الذي لا يوصف كتابة أو صوتيا، والنموذج الفنلجي الناتج المعبر عنه الذي يأخذ طبيعته عن طريق استبعاد كل التنوعات الفردية (pràkrta dhvani)، وتحقق هذا في المنطوقات الفردية للجملة (vaikrta dhvani). ويبدو أن المرحلة الوسطى تماثل بعض تفسيرات «سفهوطا الفارنا» وأن المخطط الكامل، يمكن أن يشبه وضع المستوى البيني الذي يعطيه بعض اللغويين اليوم للفنلجيا في علاقتها بالقواعد والمفردات من ناحية، والمنطوق الصوتي من ناحية أخرى.

وهناك تطور آخر لعلاقة الدهفاني - سفهوطا نراه في نظرية الأناندفردهانا Anandavardhana للغة الشعرية (Dhvànyaloka، القرن التاسع الميلادي)، وتماما مثلما تكشف الأصوات عن الكيانات ذات المعنى فإن الكلمات المختارة في الشعر ومعانيها الأدبية، تكشف عن معان إيحائية إضافية وعن جمال القصيدة ككل. وهنا يلحظ المرء تماثلا لافتا للنظر مع تصور يلمسليف للتحليل الأسلوبي بوصفه معالجة لمستوى المضمون، ومستوى التعبير للغة طبيعية في استعمال معين محدد بوصفهما يكونان معا مستوى للتعبير ذا «سيميائية تضمينية» من طراز أعلى[9].

كثير مما أشير إليه باختصار في التفكير الهندي القديم في مجال الدلالة ونظرية اللغة يعزف على أوتار مألوفة فعلا في التراث الغربي، وأكثر ما يمكن أن نلاحظه في المؤلفات الصوتية الهندية هو تفوقها الواضح في الفهم والأداء، عند مقارنتها بأي شيء ظهر في الغرب أو في أي مكان

آخر قبل أن تعرف هناك المساهمات الهندية. ويمكن للمرء أن يقول إن هنري سويت H. Sweet قد بدأ من حيث انتهت البحوث الصوتية الهندية(10). وقد رأينا كيف أن اللغويين اليونانيين والرومان قد قاموا بتصنيفات أساسية للحروف بوصفها ممثلة لأصوات الكلام على أساس انطباعاتها الأكستيكية. ولكن في هذه المرحلة من علم اللغة، أي المرحلة السابقة للتكنولوجيا والتجهيزات اللازمة للتحليل العلمي للموجات الصوتية، فإن الوصف النطقي كان هو الإطار الممكن الوحيد للتصنيف الصحيح والنظامي. ونظرا لأولية وسهولة ملاحظة أعضاء الكلام في عملية التصويت فإن النطق يبقى أمرا أساسيا في الوصف الصوتي، رغم أن الفئات الأكستيكية الحديثة يمكن أن تكمل الفئات النطقية، أو حتى تحل محلها في التحليل الفنلجي(11).

وقد جعل اليونانيون والرومان الملامح النطقية ثانوية في وصفهم الصوتي، أما القواعديون العرب فقد ساروا لأبعد من هذا وحققوا إنجازات أكبر في الصوتيات النطقية. ولكن علماء الأصوات الهنود القدماء كانوا أعظم من معاصريهم ومن لاحقيهم فيما قبل القرن التاسع عشر الميلادي، وقد حفظت أعمالهم في عدد من الرسائل الصوتية التي ترجع بشكل غير قاطع إلى الفترة ما بين 800 ـ 150ق.م.

وحالما تفهم مصطلحاتهم أو تشرح، فإن الكتابات الصوتية الهندية حول السنسكريتية ـ بصرف النظر عن نقاط قليلة نسبيا ـ من السهل تتبعها بالنسبة للقارئ الحديث الملم بالنظرية الصوتية والوصف الصوتي. ونتيجة لهذا فإن ما يعرف عن نطق السنسكريتية التي وصفوها (النصوص الطقسية والمقدسة) هو بالتأكيد أكثر مما يعرف عن نطق أي لغة قديمة أخرى، كما أن أقوال العلماء الهنود التفصيلية في بعض المسائل يمكن أن تفسر اليوم بسهولة، في حين أن عالم القرن التاسع عشر و. د. وتني W. D. Whitney ـ رغم إدراكه لقيمة وأهمية هؤلاء العلماء ـ قد انصرف انصرافا متسرعا جدا عن بعض ملاحظاتهم التي قدموها(12).

وقد نظر لوضع الصوتيات بوصفها صلة الوصل بين القواعد والنطق، وقد نظم الوصف الصوتي تحت ثلاثة عناوين رئيسية هي عمليات النطق، والأجزاء (الصوامت والصوائت)، وتركيب الأجزاء في التراكيب الفنلجية.

وقد قسمت أعضاء النطق إلى أعضاء فموية intrabuccal وأعضاء غير

فموية extrabuccal، والأعضاء غير الفموية هي المزمار والرئتان والفراغ الأنفي. وهذه الأعضاء الثلاثة مسؤولة عن التمييز بين الجهر والهمس، وبين الهائية aspiration وغير الهائية، وبين الأنفية وغير الأنفية، وهذا يقدم في النظام الفنلجي للسنسكريتية نظاما من خمسة مصطلحات، في أماكن نطقية مختلفة يمكن التمثيل لها بسلسلة الأصوات الشفهية البينية bilabial /b /، /p/، /ph/، /bh/، /m/. وقد وصفت أعضاء النطق داخل الفراغ الفموي بدءا من الخلف واتجاها إلى الأمام انتهاء بالشفتين، وتم تمييز أربع درجات من التضييق هي الإعاقة الفموية الكاملة (الصوامت الوقفية والأنفية)، والإعاقة الاحتكاكية، والإعاقة شبه الصائتية، وغياب الإعاقة، والوضع الأخير هو المكون للنطق الصائتي. وقد وصفت ميكانيكية النطق على أساس مكان النطق الثابت (sthana) مثل الطبق الصلب، وعضو النطق المتحرك (karana) كاللسان مثلا. وهذا التصور قد وسع ليغطي النطق الشفهي البيني والنطق المزماري، حيث من غير المعقول النظر لأحد العضوين المستخدمين في النطق باعتباره ثابتا والنظر للآخر باعتباره متحركا.

والتحليل الصحيح للنشاط المزماري في جهر الصوت voicing ينظر إليه بحق باعتباره واحدا من النجاحات الصوتية للهنود القدماء. وقد كان أقرب مدخل لوصف صحيح في الغرب هو مدخل هولدر في القرن السابع عشر (ص 200 من قبل) والذي مرّ دون أن ينتبه له أحد في ذلك الوقت. وقد ميز اللغويون الهنود بين الجهر والهمس بناء على انغلاق أو انفتاح المزمار أثناء النطق، ولاحظوا ميل صوامت مهموسة مختلفة لأن تجهر في الموقع بين الصائتي (وهو عَرَض صوتي شائع في عدد من اللغات)، وخلافا لشكوك ماسك مولر ووتني في القرن التاسع عشر، فإن هذا قد فسر بشكل صحيح إنتاج الصوت h ([h]) المجهور[13].

تلقت ملامح الوقف junction وبعض الملامح البرُسودية لامتدادات الكلام في النطق المتصل عناية مدققة، ويشهد على هذا الاستعمال الفني العام الحالي للمصطلح السنسكريتي sandhi، ويعني «الرابط معا»، ليدل على الفروق الصوتية والفنلجية بين الكلمات والمرفيمات غير المتصلة وما يشبهها وبين نفس العناصر عندما تضم في سياقات متتابعة. والواقع أنه كما أكد اللغويون الهنود على أسبقية الجملة على الكلمة بوصفها وحدة دالّة، فإن

بعض البحوث الصوتية تنكر الوجود الصوتي المستقل للكلمة خارج النص أو بعيدا عنه، فالمجموعة النفسية breathe group هي الوحدة الأساسية للوصف الصوتي، أما الكلمات المعزولة فهي أساسا عبارة عن أدوات تعليمية. وقد مثل الهجاءُ السنسكريتي الحديثَ المتصل وليس تتابعات الكلمات المعزولة، كما هو الشأن في تطبيق الهجاء اليوناني واللاتيني، وإلى حد كبير في تطبيق الهجاء الأوروبي في الوقت الحاضر، ولكن مع بعض النصوص كانت هناك نسخ مناظرة، أي نص عادي مكتوب بالساندهي sandhi ونص مكتوب في شكل الكلمات المعزولة، أي نص بادا (كلمة) pada.

وصوتيات الكلمة وملامح وقفات المرفيمات ارتبطت ببداية ونهاية المجموعة النفسية، أما طول الصائت وكمية المقطع والنغمة وسرعة النطق tempo كلها فقد وصفت بتفصيل دقيق. والسنسكريتية الفيدية كان فيها ثلاث نغمات تمييزية هي: نغمة عالية، ومنخفضة، وهابطة (udatta, anudatta, svarita)، وهذه النغمات قد اختفت مع العصر المسيحي[14]. ويمكننا بفضل البحوث الصوتية الهندية أن نقارن السنسكريتية باليونانية القديمة، وهما اللغتان المتصلتان والمحتفظتان بما يمكن أن يكون هو النظام النغمي للهندو-أوروبية الواحدة.

من الواضح أن علماء الأصوات الهنود في مؤلفاتهم الوصفية قد عملوا من خلال تصور حدسي للمبادئ الفونيمية، فبحوثهم لا تناقش مفهوما مثل الفونيم بوصفه تجريدا نظريا، مع أننا يمكن أن نرى أن بعض جوانب نظرية «السبهوطا» تقترب من بعض التفسيرات الحديثة للفونيم، فقد بدا على أي حال أنهم مدركون جيدا لفروق صوتية معينة تتحدد سياقيا، ويجب أن يشار إليها في الوصف، ولكنها لا تعين وحدات صوتية مميزة مستقلة، فالصوتان [ø] و [x] على سبيل المثال عبارة عن مغايرين لـ/h/ قبل الشفهيات والطبقيات على التوالي، كما أشار بتنجالي في وصفه للنغمة المرتفعة والنغمة المنخفضة، إلى أن دورها التمييزي يرتكز على المستويات النسبية لطبقة الصوت فيهما وليس على المستويات المطلقة[15].

وكما هو واضح فإن الأبجدية أو نظام الكتابة المقطعية السنسكريتية قد ابتكرت على أساس جزئي فونيمي، والرمز الفائض الوحيد هو الرمز الذي يمثل الصامت الغاري الأنفي [ɲ(a)] ، ما دام [ɲ] يقع فقط بوصفه

مغايرا للفونيم /n/ في الموقع المجاور للصامت الغاري[16]. وهذا الحد الأدنى من فائضية الرموز هنا قد نشأ عن التحليل الفنلجي المطرد للأصوات الذي حكم الترتيب المألوف للأبجدية، بما أن [ɲ] يقف بشكل واضح إلى جانب الانفجاريات الغارية في نفس العلاقة الصوتية، التي تقف فيها الصوامت الأنفية الأخرى /ɲ/ و /η/ و /n/ و /m/ إلى جانب سلاسل الانفجاريات المماثلة لها[17].

وكما ينظر الآن للمؤلفات الصوتية للهنود القدماء باعتبارها مؤلفات مهمة، فإن العلم اللغوي الهندي معروف جيدا في الوقت الحاضر بسبب نظريتهم القواعدية وتحليلهم القواعدي للغتهم السنسكريتية، ويبرز اسم بانيني بين القواعديين الهنود متفوقا عليهم جميعا، ورغم أن تاريخ بحثه غير مؤكد فإنه على نحو واضح تماما أول بحث قواعدي موجود عن أي لغة هندو ـ أوروبية، وأول عمل علمي في أي لغة هندو ـ أوروبية، وهو حسب كلمات بلومفيلد «مَعْلم من أعظم معالم الذكاء الإنساني»[18]. ومع ذلك فبينما وصل تقريبا إلى الكمال في أهدافه التي أعلنها في ميدان قواعد السنسكريتية التي يتعامل معها، فهو ليس ما يطلق عليه عادة قواعد كاملة للغة السنسكريتية، وربما يجب وصفه بشكل أفضل بلغة حديثة باعتباره صرفا توليديا للغة السنسكريتية.

تشتمل قواعد بانيني على عرض شامل لقواعد rules صياغة الكلمة في السنسكريتية بوصفها المكون الرئيسي لهذه القواعد، وقد عبر عن هذه القواعد في تعبيرات قصيرة أو بأقوال مأثورة كما يطلق عليها غالبا، وهذه تقدم إما تعريفات أو وصفا لعمليات صياغة الكلمة، وقد أشير لكل منها باعتبارها «سوترا sutra» أي «خيوط»، وهو مصطلح استعمل أيضا فيما يتعلق بالتعاليم الطقسية في بعض من الأدب الفيدي المبكر، وهناك أيضا ملاحق تقدم قائمة بجذور الأفعال وقائمة كلمات اسمية متصرفة بشكل مشابه، وقائمة بأصوات السنسكريتية. والقواعد ـ مثلها مثل قواعد القواعديين التوليديين في الوقت الحاضر ـ يجب تطبيقها بنظام ثابت، وبصرف النظر عن الكمال الذي غطى به بانيني كل جانب من جوانب صياغة الكلمة في السنسكريتية، فإن هؤلاء الذين درسوا عمله سواء في الهند أو في أوروبا فيما بعد، قد فتنوا كثيرا بالبراعة التي حقق بها بانيني

الاقتصاد الشديد في صياغاته. ونشدان الاقتصاد هذا كان بوضوح جانبا من سياق التأليف القواعدي الهندي المبكر، وقد قال أحد المعلقين: إن توفير نصف طول صائت قصير في صياغة قاعدة قواعدية كان يعني للقواعدي ما يعنيه ميلاد طفل[19]. وربما كان هذا النشدان للاقتصاد مدفوعا في الأساس بضرورات الإلقاء الشفهي والحفظ عن ظهر قلب، ولكنه صار قاعدة مقررة للجدارة العلمية في حد ذاتها. ولكن هذا جعل مهمة القارئ مهمة صعبة بشكل هائل، «فـ «الأصطاد هيايي» عبارة عن قواعد للقواعديين، وليست كتيبا للقارئ أو المدرس (وفي هذه الناحية ليست تماما مثل «التخني»)، وهي كما يلاحظ بلومفيلد «تفهم فقط مع الشرح»، وقد كانت موضوعا للتعليق والشرح منذ تأليفها. و «مهابها صيا Mahabhasya» بتجالي (أي «التعليق الكبير») هو التعليق الهندي الرئيسي، ومعظم المؤلفات الهندية التالية كانت تعليقا على التعليق[20].

ورغم أن مؤلَّف بانيني يبدو بعيدا بقدر ما يمكن عن تصور المرء للقواعد التعليمية، فإن تدريس السنسكريتية وعرضها اليوم، وكذلك كثيرا من الاتجاهات والملامح المهمة لعلم اللغة الوصفي يمكن إرجاعها بشكل مباشر إلى عبقرية بانيني.

وضع بانيني قواعده في محيط كانت فيه بقية الوصف القواعدي للغة ونظريته التي يقوم عليها واضحة، وقد قبل الوصف الصوتي للغة باعتباره أمرا مسلما به على حد سواء، فمجموعة الوحدات الصوتية التي مثلت بالأبجدية السنسكريتية وسجلت في «الأصطاد هيايى» قد قدمت دون تعليق إضافي، مع أن الأصوات قد نظمت في سلاسل متوالية متصلة صوتيا وصرفيا بأحكامه القواعدية، كما أن الصياغات الصوتية الفعلية عند بانيني قليلة جدا.

وقد أفاد اللغويون الهنود من أربعة أقسام من الكلمات هي: الأسماء والأفعال (متصرفة) وحروف الجر والأدوات (غير متصرفة). والنظرية الهندية الأساسية لتركيب الجملة تتطلب من الكلمات لكي تكون جملة أن تحقق ثلاثة متطلبات، فهي أولا يجب أن يكون لديها إمكانية توقع متبادل بوصفها أعضاء في أقسام قواعدية ملائمة في تراكيب صحيحة، وإلا فلن تكون أكثر من قائمة معجمية خالية من أي معنى آخر، وهي ثانيا يجب أن

تكون مناسبة دلاليا إحداها للأخرى، وإلا كان علينا أن نقبل اللاجمل non-sentences القواعدية ظاهريا مثل he wets it with fire «هو يبللها بالنار»، وهي الجمل التي أقلق مثلها اللغويين في الواقع في الشرق والغرب خلال مسيرة تاريخ التفكير اللغوي، ولا تزال تضايقنا في الوقت الحاضر، وهي ثالثا يجب أن تقع متجاورة في الزمان، وإلا فلن تستطيع الذاكرة حملها، ولن تفهم مطلقا بوصفها منطوقا واحدا. والمصطلحات السنسكريتية لهذه المتطلبات الثلاثة هي الأكانكصا akanksa واليوجياتا yogyata والسامندهي samnidhi. وهذه المتطلبات يمكن مقارنتها بالعلاقات الفيرثية المتشابهة نوعا ما، وهي علاقات قابلية العناصر للانضمام وقابليتها للترتيب والتتابع الزمني لتمثيلاتها الفعلية[21].

إضافة للمصطلح الفنلجي sanhi فإن التسميات القواعدية الهندية لأنماط مختلفة من تركيب الكلمة، وهو الموضوع الذي كرسوا له عناية كبيرة، هذه التسميات قد شقت طريقها للتداول العام. ويمكن التمثيل لها بالمصطلحين التتبروها (tatpurusa) «مركب وصفي» (مثل blackberry, doorknob) والبهُفريهى (bahuvrihi) مركب لا مركزي (مثل humpback, turnkey)[22].

والفعل المتصرف مع الشخص والعدد والزمن قد أخذ باعتباره قلب core الجملة (الفعل في السنسكريتية ـ كما في اللاتينية واليونانية ـ يمكن أن يقف وحده باعتباره جملة تامة). وهناك كلمات أخرى تدخل مع الفعل في علاقات محددة، وأكثر هذه الكلمات أهمية هي الأسماء في تصريف حالاتها المختلفة. والأسماء التي تدخل مع الفعل في علاقات مختلفة قد أطلق عليها مصطلح karaka (حرفيا «الفاعل» أو «العامل»)، وقد صنفت «الكاركات» على أساس الأنماط المختلفة للعلاقة بين الحدث أو العملية التي يدل عليها الفعل وبين دلالات denotata الأسماء، «فالعامل agent» «والمفعول به object» عبارة عن نمطين من تلك الأنماط. ولكن «الكاركات» لا تساوى بالحالات كما يفهم عادة، فعلاقة الإضافة في السنسكريتية في استعمالها العام لا تعتبر معبرة عن «الكاركا»، لأنها تربط الأسماء بالأسماء كوظيفة قواعدية رئيسية لها، ولا تربط الأسماء بالأفعال. وعلامات «الكاركات» تضم نهايات الحالة للكلمات متصرفة الحالة، ولكن «الكاركا» الواحدة يمكن التعبير عنها بأكثر من بنية شكلية واحدة[23].

وقواعد الصياغة القواعدية للكلمة في السنسكريتية التي تشكل معظم مؤلف بانيني «الأصطادهيايي»، قد وضعت في المحيط القواعدي العام المشار إليه بشكل عام من قبل. وهي قواعد يصعب وصفها والتمثيل لها دون الرجوع للغة السنسكريتية، وقد قدم بلومفيلد في عرض موسع ملخصا جيدا لمنهج بانيني، وللطريقة التي يبرز بها وصف بانيني في الجوانب وثيقة الصلة في قواعد الإنجليزية، ولما يمكن أن ينجزه هذا المنهج[24].

وتوليد صيغة كلمة àbhavat «(هو) كان، (هي) كانت» (اللاتينية erat) من الجذر - bhu «يكون»، يمر بالمراحل التالية (تشير الأرقام «للسوترات» ذات الصلة بالموضوع)[25]:

bhu - a	3.1.2,	3.1.68			
bhu - a - t	1.4.99,	3.1.2,	3.2.111,	3.4.78,	3.4.100
a - bhu - a - t	6.4.71,	6.1.158.			
a - bho - a - t	7.3.84.				
a - bhav - a - t	6.1.78				
abhavat					

والتمثيل الأخير وحده هو صيغة الكلمة الحقيقية كما تنطق منعزلة. وتلك الخطوات السابقة لها توضح التطبيق النظامي للقواعد الذي يغطي بالطبع عددا كبيرا من الكلمات خلاف هذه الكلمة. ويمكن مقارنة مجمل الخطوات الوصفية بالمراحل التي يتوصل بها القواعديون التوليديون - بعدما يزيد على ألفي سنة - إلى صيغة فعلية من الصيغ التحتية، عن طريق تمثيلات متوالية للعناصر التي ينضم بعضها إلى بعض حسب قواعد منظمة[26].

ووصف بانيني يستلزم تعيين الهوية المعزولة للجذور والزوائد التي أوحت بشكل مباشر، بمفهوم المرفيم في التحليل القواعدي للوقت الحاضر. وكانت دراسة العبرية والعربية قد قادت أوروبا العصور الوسطى المتأخرة لمعرفة الجذر المجرد، بوصفه صورة ثابتة تقوم عليها مجموعة الصيغ الصرفية، ولكن النموذج الأوروبي النمطي للوصف القواعدي بقي هو النموذج الموروث من ديونسيوس ثراكس وبرشيان، وهو نموذج كلمة وصيغ صرفية متطرف. والواقع هو أن هذا النموذج بمزاياه التعليمية شديدة الوضوح، نموذج مستمر

في الاستعمال بشكل قوي في تدريس اللغات، خاصة اللغات الحديثة.

والتنوعات الشكلية للعناصر المتساوية وظيفيا، والتي تعالج تحت المفهوم الحديث للتنوعات المرفيمية allomorphs للمرفيمات المستقلة قد عالجها بانيني معالجة مرفوفونيمية، وقد أقام صيغا مجردة أساسية تسمى «ستهانينة» sthanin (لديها مكان، أصلية) تتحول عن طريق قواعد التغير المرفوفنلجي «والساندهي» الداخلي إلى المرفات الفعلية للكلمة المتحصلة، وقد أطلق على بدائل الصيغة مصطلح آدصا àdesa («بديل»)، وعرضت القواعد العامة مع الاستثناءات. ففي الإنجليزية سوف تربط صياغة الأفعال الماضية بـ /-d/ بالتنوعات المحكومة سياقيا مثل /-t/ (walked) و /-id/ (plodded)، مع إشارة مستقلة للشذوذ الفردي مثل ran, run[27]. وقد نظر إلى المرفوفونيمية المينومنية Menomini morphophonemics عند بلومفيلد على أنها بانينية في المنهج والاستلهام[28].

وفي ظل الاهتمام بالاقتصاد الشديد في الصياغة الذي يرجع لوقت مبكر، فإن قواعد بانيني قد عرضت بطريقة تجعل من غير الضروري إعادة قاعدة معينة في علاقتها بقاعدة تالية في صياغة الكلمة، وقد استفاد هذا الاقتصاد أيضا من عدد من الوسائل الخاصة، فالوحدات الصوتية التمييزية التي وضعها بانيني في قوائم قد رتبت بنظام خاص يورد معا تلك الأصوات المستخدمة معا في صياغة قواعد معينة، وقد قسمت سلاسل الأصوات هذه تقسيما إضافيا عن طريق وسطنة الوحدات الصوتية المستعملة تمييزيا، بحيث يمكن اختصار سلسلة الأصوات إلى الصوت الأول والعلامة التالية للصوت الأخير، ومن هنا فمن سلسلة a i u (ṇ) تمكن الإشارة إلى a i u بالرمزين a ṇ، ومن سلسلة الأصوات a i u (ṇ) ṛ ḷ e o (ṇ) ai au (c) فإن الرمزين a c يمكن أن يستعملا ليعنيا «كل الصوائت» (L , r يمثلان الصائتيين L , r على التوالي)[29]. وقد امتد هذا النوع من الاختصار إلى العناصر القواعدية، فمجموعة الرموز s u p تشير إلى كل نهايات الحالة الاسمية، والمجموعة tin تشير لكل النهايات الفعلية الشخصية.

هنا مثال مشهور آخر لاقتصاد الحشو عند بانيني وهو «سوتراه» الأخيرة (8 ـ 4 ـ 68) التي تأخذ الشكل "a a"، وهذا يعني أن a (الذي كان قد عومل على سبيل المثال في 6 ـ 1 ـ 101) بوصفه المساوي النوعي لـ à، بحيث إن

قاعدة «الساندهي» لاندماج الصائت يمكن صياغتها بشكل اقتصادي بوصفها i - i = ī و u - u = ū و a - a = ā) عبارة عن صائت أضيق وأكثر مركزية[30].

والأداة الوصفية المألوفة للغويين اليوم، وهي التمثيل الصفري لعنصر أو فئة، ترجع لبانيني بشكل مباشر، والصيغ الشاذة ظاهريا ربما نجعلها تبدو أكثر اطرادا عند مستويات التمثيل والتحليل الأكثر تجريدا، عن طريق افتراض مرفيم يمثله تنوع مرفيمي morph صفري، أي دون تمثيل صريح في صورة مادة صوتية، وبالتالي فمادام معظم جموع الأسماء في الإنجليزية تحتوي على تنوع مرفيمي صريح يكون لاحقة في العادة، فإن أمثلة مثل sheep باعتبارها جمعا يمكن تحليلها باعتبارها /Si: p/ - ø.

أقام بانيني التتابع «جذر + لاحقة الساق + لاحقة التصريف» باعتباره البنية القواعدية الصغرى لصيغة الاسم. وفي معظم صيغ الاسم فإن كلا من هذه العناصر يمكن ربطه بأجزاء صوتية فعلية باعتبارها ممثلة لكل عنصر، ولكن هذا لا يكون في كل الأسماء. ومن هنا ففي bhājam ـ «متقاسم» (مفرد مفعول به)، يمثل التتابع ـ bhaj ـ الجذر ـ bhaj، بينما يمثل التتابع الأخير am ـ اللاحقة التصريفية. وقواعد بانيني لهذه الأسماء تعيّن الجزء V الأقدم وصفيا ممثلا للاحقة المكونة للساق (3 ـ 2 ـ 62)، وهناك قاعدة أخيرة تجرد هذا الجزء v من التمثيل الصريح، أي تمحوه أو تمثله بصفر (6 ـ 1 ـ 67).

لقد استعمل مفهوم الصفر استعمالات كثيرة مختلفة في علم اللغة الحديث، وقد احتج بعض اللغويين ضد الإفراط في استعماله، ولكن هناك صيغا في كثير من اللغات تحلل بطريقة أكثر اقتصادا عن طريق العنصر صفر. وكل هذه الاستعمالات مستمدة من تطبيق بانيني الأول لهذه الأداة. والمثال الأكثر قربا من تحليل بانيني من خارج السنسكريتية، هو تحليل دي سوسير لصيغ حالة الرفع في اليونانية مثل (/phlōks) phlōx «لهب»، حيث أن التتابع /-phlog/ يمثل الجذر في هذه الكلمة، و /S-/ يمثل لاحقة حالة رفع المفرد، أما مكون الساق (كما في hippos (/hīpp - o - s/) «حصان») فتمثله اللاحقة صفر (/phlog - ø - S/)[31].

كان تأثير مؤلفات بانيني واللغويين الهنود الآخرين على الدراسات السنسكريتية في أوروبا منذ عام 1800م تأثيرا عميقا وبعيد المدى، وهناك

مؤلفان من المؤلفات المبكرة عن قواعد السنسكريتية التي نشرت في إنجلترا، الأول هو مؤلف و.كاري "Grammar of the sungskrit language (serampore 1806)"، ومؤلف س. ولكنز "Grammar of the Sanskrita language (London 1808)"، وهذان المؤلَّفان يثنيان على مؤلفات أسلافهما الهنود التي قاما بدراستها بمساعدة معلمين أحياء للسنسكريتية في الهند[32].

والتركيز على الجوانب التاريخية للدراسات اللغوية في القرن التاسع عشر، وهو نفسه النتيجه المباشرة لاكتشاف الأوروبيين للغة السنسكريتية وعلاقتها بلغات أوروبا الكلاسيكية والحديثة، كان له تأثير في تأخر التقدير الكامل للمفاهيم والمناهج القواعدية الهندية في المؤلفات الوصفية، ولكن الأفكار الهندية في الصوتيات كانت ذات تأثير في حفز وتطوير كل من النظرية والتطبيق خلال هذا القرن.

كانت دراسة السنسكريتية هي الحافز الأساسي للأعمال التاريخية والمقارنة في بداية القرن التاسع عشر، وقد جاءت في وقت ملائم وأوروبا جاهزة لها. ومنذ دانتي فصاعدا، وخلال عصر النهضة وما بعدها بذلت محاولات مختلفة غير متصلة في التاريخ اللغوي والمقارنات بين اللغات الموجهة من زاوية تاريخية، ولكن القدر الأكبر من العلم اللغوي كان موجها - كما رأينا في الفصول الأولى - لوصف وتحليل اللغات، وللنظرية التزامنية، وللتعليم والتطبيقات الأخرى، وللمقاربات التي يمكن أن يطلق عليها بشكل عام «فلسفة اللغة»، أي النظريات العامة عن مكانة اللغة وعملها في الشؤون الإنسانية.

ومهما يكن ففي القرن الثامن عشر كان التفكير متجها بحماس للمسائل التاريخية، رغم أن هذا كان بطريقة غير نظامية بعض الشيء. وأصل اللغة، بمعنى البحث عن اللسان «الأول» أو «الأصلي» للإنسان، والذى هو على الدوام وراء متناول أي علم لغوي متصور، هذا الموضوع قد فتن - دائما - الناس ذوي الفضول اللغوي، وأصبح مركزا للاهتمام في صور مختلفة على مدى التاريخ المدون. ومحاولة بسامتيك ملك مصر لاكتشاف «أقدم» لغة، أي اللغة «الأصلية» اعتمادا على تدوين نطق (بيكوس «خبز» من اللغة الفريجية) لطفل ربي بحرص في محيط ليس فيه كلام، هذه المحاولة هي المحاولة السابقة لأي حكاية مشابهة أخرى، حكيت عن أي شخص وعن أي

لغة أخرى[33]. ولكن عددا من المفكرين اللغويين في القرن الثامن عشر في أقطار أوروبية مختلفة، قد طرحوا السؤال وحاولوا الإجابة عنه من وجهات نظر مختلفة إلى حد معين وأكثر تجريدا وقابلية للبحث العلمي في نفس الوقت: ماذا يقع بين بدايات اللغة الإنسانية وبين صورتها الحالية المحكمة بشكل واضح، وكيف يمكن لبذور اللغة، كما عرفت في العصور التاريخية، أن تكون بذرت فيما قبل التاريخ الإنساني. وقد بحث الناس أيضا عن تفسيرات تاريخية للصيغ الملاحظة للكلمات وفقا للمبادئ العامة المفترضة للتطور اللغوي. وبينما كان هذا بعيدا عن الدراسة التاريخية النظامية للعائلات الواضحة المحددة للغات، تلك الدراسة التي نمت في القرن التالي وسادت فيه، إلا أنه تغذى على زيادة المعرفة - وإن تكن جزئية غالبا - باللغات المكتشفة حديثا بسبب اتساع المستعمرات الأوروبية، وانتشار البعثات التبشيرية وازدهار التجارة.

ومحاولات التفسير المدروسة بشكل جدي لأصل اللغة وتطورها عند النوع الإنساني الذي نظر إليه، باعتباره نوعا مستقلا قد وحدت فلاسفة المذهبين الإمبريقي والعقلي اللذين ميزا القرن الثامن عشر وما قبله، مع هؤلاء الذين كانوا يؤلفون إلى حد كبير في إطار الحركة الرومانسية في سنواتها الأخيرة وعند تحول القرن. وهذا ليس مثيرا للدهشة مادام عن طريق اللغة يتناقل الناس المعرفة المتراكمة والحجج وأسس التفكير، وهو ما كان يعتقده بتقدير عال جدا رجال التنوير الفلسفي، وفي نفس الوقت وبشكل متساو يعبر الناس عن طريق اللغة عن العواطف والأحاسيس الفردية التي أكد عليها الرومانسيون تأكيدا عظيما. وقد حقق كل من رجل العقل Vernunftmensch ورجل الشعور Gefühlsmensch أنفسهما من خلال منابع لغتهما.

في منتصف القرن الثامن عشر ناقش فيلسوفان فرنسيان أصل الكلام الإنساني ونشأته المبكرة، ففي عام 1746م كرس إ.ب. دي كوندلاك E. B. de Condillac الجزء الثاني من مؤلفه Essai sur l'origine des connaissances humaines [34] للغة، وفي عام 1755م عالج روسو Rousseau نفس الموضوع باختصار أكبر، في جزء من مؤلفه Discourse on the origin of inequality مطريا لآراء كوندلاك[35]. وفي عمل متأخر نشر في عام 1782م بعد وفاته

كانت له مقالة عن أصل اللغات[36].

لقد كتب كوندلاك في إطار التراث العقلاني أي العقلي ـ الإمبريقي، معتمدا بقدر كبير على نظرية المعرفة عند لوك، بينما نظر روسو أماما إلى الحركة الرومانسية التي كان يتبعها، وفي بعض الجوانب في الواقع يمكن القول إنه كان واحدا من رسلها. وتصورات الرجلين عن أصل اللغة كانت جد متشابهة، فاللغة قد نشأت من خلال الإيماءات المباشرة والتقليد والصرخات الطبيعية، ولكن بما أن الإيماءات كانت أقل كفاءة كإشارات اتصالية فإن العنصر الصوتي أصبح سائدا في اللغة الإنسانية، عندما ربطت دلاليا سلاسل الأصوات المعينة بالموجودات والظواهر، وعندما زادت قوة التفكير الإنساني. وقد تصور كوندلاك مرحلة مختلطة كانت فيها صيغ الفعل المنطوقة تصحب بإيماءات تشير لمرجعية الزمن، وفيما بعد حل محل هذه الإيماءات رموز صوتية تنطق بعد الفعل نفسه، وأخيرا التصقت هذه الرموز بالفعل[37]. وقد طرح روسو موافقة مقصودة تقريبا ليجعل هذا التبدل من الإيماءة للكلام على غرار العقد الاجتماعي[38].

وقد رأى كل من كوندلاك وروسو أن المفردات المجردة والتركيب القواعدي قد تطورت عن مفردات حسية خاصة سابقة مع قليل جدا من التمييزات أو القيود القواعدية، وقد اعتبر كل منهما الاعتماد على التقابل النغمي بطريقة اللغة الصينية بقاء لملمح بدائي، وقد وجها الاهتمام أيضا لتنغيم الكلام الخطابي في العصور القديمة الكلاسيكية[39]، واعتبرا كلاهما الشعر لابد أن يكون قد انبثق من الغناء بوصفه الصورة الأدبية المبكرة للغة. ومع ذلك عند هذه النقطة تكشف مواقفهما الفلسفية عن نفسها، فقد قارن كوندلاك بشكل محايد بين الخطابة اللاتينية والخطابة الفرنسية، ورفض أن يصدر أحكاما قيمية فيما بين المزايا الأسلوبية للاتينية بترتيب كلماتها الحر قواعديا، وبين الفرنسية ببنيتها الأكثر تحليلية، وترتيب كلماتها الأكثر ثباتا[40]. أما روسو على الجانب الآخر فقد كان يستمتع بالحيوية والانفعالية المفترضتين في المراحل الأولى، من اللغة الإنسانية عندما لم يكن الشعر قد غمره برود التفكير، وقبل أن تحل الكتابة غير القادرة على الإشارة إلى اختلافات النبر وطبقة الصوت والتنوعات الصوتية للكلام محل «دقة التعبير»، وقبل أن تضعف حيوية اللغة نفسها، «فكل اللغات المكتوبة كان

عليها أن تغير من شخصيتها، وتفقد قوة تحقيق الوضوح»[41]. وروسو الذي استطاع أن يحلم بالبدائية النبيلة التي لم تفسدها الملكية والحكومات المدنية استطاع أيضا أن يكتب عن «لغات ملائمة للحرية، وهذه اللغات تكون لغة رنانة وإيقاعية وتناغمية، يمكن سماعها وفهمها عن بعد، أما لغاتنا فهي مصممة لثرثرة الصالونات»[42].

والاهتمام واسع النطاق في النصف الثاني من القرن بحل المشكلات المتعلقة بأصل اللغة، تمثله الجائزة التي عرضتها الأكاديمية البروسية للبحث الذي يجيب عما إذا كان الإنسان قد أمكنه إيجاد اللغة دون مساعدة كما هي معروفة عند ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فكيف شرع في هذا الأمر. وهذا التساؤل كان عبارة عن رد فعل بشكل جزئي ضد الآراء غير المقنعة حتى ذلك الوقت، وضد تأكيد سوسملش Süssmilch في عام 1754م على أن التعقد والتنظيم المنضبط للغات يمكن أن يفسرا فقط على أساس أن اللغة منحة مباشرة من الله للإنسان، وهو رأي عبر عنه روسو أيضا بالإشارة إلى التوجيه الإلهي في نشأة اللغة، وهو ما ألمح إليه أفلاطون، ووجد في عدد من التفسيرات الأسطورية التقليدية في العهد القديم وفي أماكن أخرى[43].

والإجابة التي قدمها هردر Herder عن أسئلة الأكاديمية قد أكسبته الجائزة، وقد نشرت في عام 1772م بعنوان Abhandlung über den Ursprung der Sprache[44]، وقد كتبت في سرعة كبيرة وبحماسة عظيمة (كان هردر في الواقع قد دون قبل سنوات قليلة بعضا من آرائه عن اللغة في عدد من المقالات)[45]. وربما تحتوي بعض التآليف القليلة الأخرى لجائزة الأكاديمية على ما يثير علامات تعجب أو ربما تظهر اهتماما بالأسلوب العاطفي المنمق.

أكد هردر على تلازم اللغة والتفكير، فاللغة هي أداة التفكير الإنساني ومادته وصورته[46]. والارتباط القوي بين اللغة والتفكير كان شيئا مألوفا في الفلسفة منذ العصور القديمة، ولكن الكتاب السابقين منذ أرسطو وحتى المودستيين قد اعتبروا تبعية اللغة التراتبية لأسبقية التفكير والتجريد أمرا مسلما به. وافتراض هردر للأصل المشترك والتطور المتوازي للاثنين معا خلال مراحل متتابعة للنمو والنضج كان افتراضا جديدا نوعا ما، كما قرر أنه مادامت اللغة والتفكير على اعتماد متبادل فإن أنماط التفكير

والأدب الشعبي للشعوب المختلفة، يمكن فقط أن تفهم وتدرس بشكل صحيح من خلال لغاتها ذاتها[47]. وهذه الآراء قد ظهرت قبل ذلك، فكوندلاك كان في الواقع قد أكد على عمليات التطور التكاملية متبادلة الدعم للغة والعقل في النوع الإنساني في تاريخه المبكر وفي وضعه الحالي[48]. ولكن في بداية العصر الرومانتيكي الأوروبي وخاصة العصر الرومانتيكي الألماني، ومع قوى القومية الأوروبية التي كانت في طريقها لأن تصبح الموضوع المسيطر في سياسات القرن التاسع عشر، فإن التأكيد على شخصية لغة الأمة وعلى أواصرها القوية بالتفكير القومي والأدب القومي والترابط القومي قد تم إدراكه بسهولة، كما أوجد هذا تيارا مستمرا في النظرية اللغوية. وربما كان سابير محقا في عزوه الكثير من أفكار همبولت Humboldt المتميزة عن اللغة إلى استيحائه لأفكار هردر. فإذا كان الأمر كذلك فإن كلا من أنصار نظريات وورف Whorf والقواعديين التوليديين اليوم يمكنهم ـ كل فريق من ناحيته ـ أن يعثروا على صلات معينة تربطهم بهذا الفيلسوف المبدع في مجال اللغة[49].

أجاب هردر عن مسألة أسبقية اللغة أو أسبقية التفكير بقوله إنه مادام كل منهما يعتمد في وجوده على الآخر، فإن الاثنين لهما أصل مشترك، وقد أحرز الإنسان تقدمه في كل منهما بخطوات متساوية مطورا لملكة يملكها وحده، بوصفه نوعا متميزا عن بقية المملكة الحيوانية كلها. وقد كانت الخطوة الأولى هي تجريد وتمييز كيان متكرر بخصائصه الثابتة والمتميزة نسبيا عن «مجمل محيط الخبرة»، وفي نفس الوقت تعيينه برمز صوتي، وقد افترض هردر أن السمع كان هو الإحساس الذي عزلت مادته في البداية وحددت بهذه الطريقة، فالحمل قد نودي بوصفه «الثاغي the bleeter» (Ha! Du bist das Blockende)[50]. ومن الترميز الصوتي للأشياء عن طريق خصائصها السمعية انتقل الإنسان إلى الخارج نحو المادة التي تقدمها الحواس الأخرى. وقد تحتمل حجج هردر في تأييد مركزية حاسة السمع قليلا من التمحيص اليوم على ما هي عليه، ولكن المكون الصوتي الجمالي لكثير جدا من المفردات التي ترتبط فيها بشكل واضح الملامح البصرية والملامح الأخرى (الصغر، الشراسة، القرب...إلخ) بأنماط معينة من الملامح الصوتية، هذا المكون الصوتي الجمالي يقدم دعما معينا لافتراضاته[51].

ولقد كانت أرومة الكلمات الأولى عبارة عن «مفردات بسيطة»[52]، مقصورة إلى حد كبير على الكائنات والوقائع الملاحظة، وبعد ذلك نما تنوع المفردات والتمييزات القواعدية مع الثروة المتراكمة لتفكير الناس.

وإعادة البناء المفترضة هذه لما قبل تاريخ الكلام ـ رغم بساطتها الواضحة في الصياغة ـ محاولة جيدة مثلها مثل كثير من محاولات فحص الوقائع التي تقف وراء الوصول إلى الملاحظة العلمية، وكانت على وجه الخصوص خطوة متقدمة متميزة عن بعض المناقشات السابقة عن أصل اللغة، وهي محاولة طرحت صيغة السؤال كالتالي: كيف نشأت اللغة عند الإنسان الذي درس من كل النواحي، والذي كان معروفا فقط ـ في عصر اتسم بالتساؤل واختلاف الآراء ـ بأنه كان عاجزا عن الكلام المنطوق.

حافظ هردر على النظرية التقليدية للأصل الواحد لجميع اللغات، وجميع الثقافات، وقد عانت نظريته من وجهة نظر الزمن المقدر لوجود الإنسان على الأرض في القرن الثامن عشر، مع ما ترتب على هذا من محاولة رؤية خصائص باقية لمراحل اللغة الأولى فيما يزعم أنه «لغات بدائية» موجودة في الوقت الحالي. وقد حمل هذا معه اقتراحات ساذجة مثل كون الفعل أسبق زمنيا في الظهور من بين أقسام الكلام (في الواقع، قسم الكلمة لا يمكن أن يكون له معنى ما لم يميز قسمان على الأقل في اللغة)، وقد أيد هردر تأكيده لآرائه بالقياس الخاطئ بشكل متساو باستعمال الطفل للغة[53].

إن ما يؤخذ على هردر في لجوئه لمثل هذه الحجج في الزمن الذي كتب فيه لأقل مما يؤخذ على كتاب معاصرين مازالت هذه القياسات البالية نفسها تعيد ظهورها السيئ في تفكيرهم حول ما قبل تاريخ اللغة.

يقع هردر بين الحركتين العقلية والرومانتيكية، وقد وقع تحت تأثير الاثنتين. وهذا يعطي أهمية كبيرة لكتاباته عن التاريخ، وكذلك كتاباته عن اللغة[54]. ونظريته عن أصل اللغة ـ رغم تعبيره عنها بشكل حماسي ـ ليست منقطعة الصلة بتفكير العقليين. ومع وصول الأخبار إليه بأنه قد نال الجائزة على بحثه اقترب أكثر من الرومانسيين بشكل لافت للنظر، ولم يكن سعيدا البتة بما كتب[55].

كان الممثل البارز لنظرية القواعد الفلسفية العامة في إنجلترا في القرن

الثامن عشر هو جيمس هاريس J. Harris، الذي نشر له مؤلفه Hermes or a philosophical enquiry concerning language and universal grammar في عام 1751م[56]. وتفكير هاريس يمكن ربطه بتفكير من يطلق عليهم أفلاطونيو كمبردج، بينما أقام أصحاب القواعد العقلية العامة في أوروبا عرضهم لهذه القواعد على تفكير ديكارت في الأساس. أما هاريس الذي كان عالما أرسطيا ومطلعا بشكل جيد جدا على الفلسفة القديمة والأدب القديم، فقد كان يتطلع لأرسطو في الأسس الفلسفية للقواعد. وكان على هاريس ـ مثل كل القواعديين العموميين ـ أن يميز بين الفروق التركيبية الفردية للغات المعينة، وبين «تلك المبادئ الأساسية لها جميعا»[57]. وفي نظريته عن معنى الكلمة قد تبع أرسطو بشكل قوي، فالكلمات ترتبط بما تدل عليه عن طريق العرف، واللغة «عبارة عن نظام من الأصوات المنطوقة الدالة بالاتفاق»[58]، والجملة والكلمة بوصفهما أمرين عمومين قد عرفتا بأسلوب أرسطي بوصفهما على التوالي «كمية مركبة من الأصوات الدالة، تكون أجزاء معينة منها دالة بنفسها أيضا» و «مجموعة أصوات دالة لا يكون جزء منها دالا بذاته»[59].

يتطلب نظام هاريس للقواعد «أساسين» هما: الأسماء (بما فيها الضمائر) أو «الجوهريات ـ substantives» أي «دوال الجواهر significant of substances»، والأفعال أو «الوصفيات ـ attributives» أي «دوال الصفات significant of attributes»[60]. والأفعال تضم ما يصنف اصطلاحيا بوصفه الأفعال الصحيحة والبرتسبل والصفات، وهذا يتفق كثيرا جدا مع rhêma عند أرسطو وأفلاطون (ص 59 من قبل). والظروف هي عبارة عن نوع خاص من الصفات، فهي وصفيات الوصفيات أو هي وصفيات الرتبة الثانية. وبصرف النظر عن «الأساسين» فإن اللغات تميز بين «مساعدين accessories» ليس لهما معنى مستقل، وربما يمكن أن يقارنا بـ syndesmoi أرسطو (باستثناء ضم أرسطو للضمائر الشخصية بينها)، وهما ينقسمان إلى «التعريفيات definitives» (أدوات التعريف وبعض الكلمات الضميرية) التي تتركب مع كلمة واحدة، والروابط (الروابط وحروف الجر) التي تتركب مع كلمتين أو أكثر[61]. وخلافا للقواعديين اليونانيين واتباعا للتطبيق اللاتيني فإن هاريس قد ميز التعجب بوصفه مكونا مستقلا في اللغات، رغم أنه ليس جزءا

يتصل بالكلام بنفس طريقة الأجزاء الأخرى[62].

بينما يقيم هاريس نظريته للقواعد العمومية على تعاليم أرسطو فإنه على عكس أرسطو كان واعيا ومعنيا بالفروق السطحية بين اللغات المختلفة، ولكن لأن الوظيفة نفسها كما ينظر إليها هاريس كانت تؤدى بتصريفات الحالة في اللاتينية وبعبارات جرية prepositional في الإنجليزية (Bruti، of Brutus)، فإن على المرء أن يبحث بعمق أكبر عن تحديد طبيعة هذه الفئات العمومية للقواعد والعلاقات التي يمكنها وحدها أن تعطي المعنى للقواعد الشكلية بشكل خالص للغات المعينة[63].

نظر هاريس في نظريته للمعنى إلى الكلمات «الأساسية» التي لها معنى مستقل، باعتبارها رموزا للأفكار العامة في المقام الأول والأساسي والمباشر، ونظر إليها في المقام الثاني فقط، وعن طريق هذه الأفكار العامة باعتبارها رموزا لأفكار خاصة[64]. ودافع هاريس عن مفهوم الأفكار الفطرية في مقابل الموقف الإمبريقي الإنجليزي السائد، ومع إصراره على القواعد العمومية فقد اعتبر أن مقدرة الإنسان على استنباط الأفكار العامة، أو العمومية التي كانت الكلمات علامات لها كانت بالتأكيد منحة إلهية[65]. وبصفته فيلسوفا فقد أعطى عناية أكبر للغة بوصفها أداة للتعبير عن القضايا المنطقية، ولكنه مع ربطه نظريته اللغوية بأرسطو وبالعموميات اللغوية فقد تطلع بعدد من الطرق للتطورات التي تميز تفكير أواخر القرن الثامن عشر، فاستعماله - في الواقع - لتمييز أرسطو بين المادة والصورة (eidos hylé) مع الإشارة للمادة الصوتية والوظيفة الدلالية للكلام، قد آذن بالمبدأ المهم للـ innere sprachform المقدم في عمل همبولت W. von Humboldt في أوائل القرن التاسع عشر[66].

وفي التأكيد على أهمية العموميات في استعمال اللغة يتفق هاريس مع كوندلاك، وكذلك مع هردر الذي أثنى هاريس على عمله، في ربط ملكة الكلام بملكة التجريد وإدراك الظواهر المتكررة والكيانات الدائمة التي تشبه إحداها الأخرى[67]. وقد استشهد كوندلاك بلوك في هذا الجانب من بحثه، فلوك قد نسب العمومية للأفكار على الرغم من أن لاحقيّه الإمبريقيين بشكل أشد باركلي وهيوم قد اعتبرا أن العمومية يمكن التنبؤ بها بشكل صحيح فقط بالمصطلحات، أي بالكلمات وليس بالأفكار[68]. وقد اشترك

هاريس مع هردر في الاعتراف بالأهمية التي يجب أن ترى في الخصوصية المستقلة لكل لغة، ورغم أنه أقام نظريته اللغوية على العموميات التحتية كما يجب أن يفعل القواعدي الفلسفي، فقد أعطى وزنا لتفرد اللغات وارتباطها الحميم بتاريخ وحياة الناس الذين يتحدثونها، أكثر مما أعطى بعض القواعديين الفلسفيين السابقين، وفي هذا تطلع للمواقف اللغوية الأكثر اتساما بالرومانتيكية[69]. وفي فقرة بليغة أطنب وشرح موضوعه في ثنائه على الفضل المزدوج للمفكرين والكتاب اليونانيين واللغة اليونانية التي كانت لائقة بشكل فريد لمنحهم التعبير[70].

ومؤلف Hermes لهاريس معروف بشكل أفضل نوعا ما، على خلاف ما كان يجب، لأنه كان هدفا للهجوم من هورن توك H. Tooke، وقد كان توك رجلا واسع الاهتمامات والانشغالات، فقد كتب عددا من الكتيبات السياسية، وقام بدور قيادي في تهمة المشاركة في التبرعات لمساعدة أقارب مستوطنين أمريكيين، قتلهم الجنود البريطانيون في لكسنجتون في عام 1775م، وبسبب هذه التهمة وللسلوك المتعصب للجهات المتورطة في الصراع حكم عليه قضاة الملك جورج بغرامة قدرها مائتا جنيه والسجن لمدة عام (عزا داء المفاصل الذي أصابه فيما بعد إلى النوع الرديء من الخمر الحمراء التي كانت تقدم له في سجن المحكمة العليا). ولأن توك كان ثوريا طبيعيا وأن هاريس شغل مركزا فيما يسمى اليوم «المؤسسة الرسمية» فإن الأخير أصبح خصما واضحا»[71]. وما حدث هو أن تفكير توك حول اللغة كان معاديا بشدة لتراث القواعد الفلسفية كما عرضها هاريس.

ليس من الصعب تخطئة هاريس بسبب غموض لغته في كثير من المواضع، وللتناقضات الذاتية الواضحة، كما في حالة تصريحه - محاولا معالجة دلالة بعض «مساعداته accessories» (وهي مشكلة مازالت النظرية اللغوية غير مستقرة بشأنها - بأن الروابط تشترك في خصائص كل من الكلمات التي لها دلالة والكلمات التي ليس لها دلالة في ذاتها[72]، كما أنه ليس من الصعب توجيه الانتقاد إليه في إقامته نظاما عموميا مزعوما للقواعد على أساس معرفة حقيقية غير مناسبة للغات، عندما أتاح مكانا لحروف الجر دون الأدوات التالية للاسم postpositions مثل تلك الموجودة في المجرية والتركية وذات الوظائف النحوية والدلالية المتشابهة (وفي كثير من لغات

رئيسية أخرى لم يذكرها توك)[73]. كما أن هاريس بدأ دفاعه ضد هجوم توك العنيف عندما صرح بأن «القياس البعيد» قد انتهى إلى أن الشمس والقمر، قد خصصتا بشكل طبيعي باسمين مذكر ومؤنث على التوالي في استحقاق أو تجاهل لحقائق اللغات الجرمانية واللغة الروسية[74].

طرح توك أفكاره عن اللغة في عدد من الحوارات التي جعل نفسه طرفا فيها، والتي جمعها على نحو غير متماسك وغير مترابط منطقيا في صورة حوار في مؤلفه Epea pteroenta or the diversions of purley[75]، الذي نشر لأول مرة في مجلدين في 1786 و 1805م. وأسلوب توك غالبا لاذع ومتدفق. والفقرة التالية من أحد الهوامش (مهاجما هاريس وباحثا عن تعليق لتقييمه غير المشكوك فيه) يمكن الاستشهاد بها باعتبارها خاصية للمؤلف ولكتابته ولفترة من التاريخ الإنجليزي، عندما كان السب الشخصي المتفوه به علانية يتم التعامل معه تقريبا على أنه صورة للفن: «ولكن بالنسبة إليها (شهرة هاريس) يمكنني أن أفسر هذا بسهولة ليس بافتراض أن مذهبه يقنع عقول الذين يستشهدون به أكثر مما يقنع عقلي، ولكن لأن العلماء ـ مثلهم مثل القضاة الذين يسترون خبثهم بالسوابق ـ يسترون جهلهم بالسلطة، وعندما لا يكونون قادرين على الإقناع فالأكثر أمانا والأقل خزيا لهم، أن يرددوا ذلك الهراء المنقول عن غيرهم، والذي سوف يكون مخجلا لهم لو عرضوه على أنه صادر عنهم أصلا»[76].

ومقاربة توك في القواعد تتفق جزئيا مع المذاهب الشكلية الحديثة، فالجنس ـ عنده ـ بوصفه فئة قواعدية ـ هو أساسا عبارة عن ممثل للتركيبات النحوية التي تتطلب الاسميات في تلك اللغات التي يظهر فيها[77]. وهذا لأن هذه المقاربة كانت إمبريقية المنهج بشكل قوي، وتدين بالكثير للفيلسوف لوك كما أقر توك بهذا عن رضا. وبهذا الموقف اللوكي الإمبريقي قد أثر توك بالتأكيد في معاصريه الإنجليز، وبشكل خاص في العلوم الطبيعية كما أرضت آراؤه السياسية الراديكاليين والمنفعيين. هكذا كان تأثيره لدرجة أن أحد العلماء المعاصرين قد أكد أن هورن توك هو الذي «حافظ على مناعة إنجلترا» لمدة ثلاثين عاما، «ضد الفِلُلُجيا الجديدة» التي كانت تتابع بقوة في ألمانيا، وفي طريقها لأن تهيمن على العلم اللغوي الأوروبي والأمريكي خلال القرن التاسع عشر[78].

ونظرية توك عن اللغة كما قدمها كانت استمرارا لآراء القرن الثامن عشر، وبحوثه عن أصل اللغة الإنسانية وتطورها بوصفها قدرة ونشاطا إنسانيا عاما، وقد شغلته نفس الاهتمامات التي شغلت كوندلاك وغيره، وهو يكرر ـ جزئيا ـ أفكار كوندلاك عن الانتقال التدريجي من الصرخات الطبيعية المستقلة، إلى اللغات المركبة والمنظمة بشكل عال، أي اللغات القديمة والحديثة التي نألفها. وقد كتب بأسلوبه المنمق المتباهي: «إن سلطان الكلام يقوم على انهيار الصرخات الانفعالية». وكانت غاية هذه النشأة التطورية هي أن تمكننا من توصيل أفكارنا بسهولة أكبر، أو من «إنجازها بفعالية dispatch» (مصطلح لوكي)[79].

وفي نفس الاتجاه يقر بقسمين أساسيين فقط للكلام هما الاسم والفعل، وكل قسم آخر من أقسام الكلام كانت نتيجة «للاختصار» الذي جعل اللغات تسير في طريقها بشكل أكثر سلاسة[80]. وقد أيد هذه الدعوى بأمثلة الإتملجية التي عرضها دون تحفظ في كتابه. وإتملجيا توك رغم توجهها التاريخي هي أيضا تنتمي للقرن الثامن عشر ومن نمط مبكر، وليست هي الإتملجيا المحكومة بصرامة والمعتمدة على المنهج الدلالي ـ الشكلي المحدد لأسر اللغات في علم اللغة التاريخي المقارن في القرن التاسع عشر، هذا المنهج الذي كان قد تكون مع زمن أوجست بوت August pott، وعلى سبيل المثال بفضل مؤلفه Etymologische forchurgen، الذي أصبح القاعدة الأساسية المعترف بها لعلم اللغة التاريخي المقارن.

وفي تسويغ توك الإتملجي لنظريته عن تطور اللغة فإن الصفات وصيغ البرتسبل كانت مجرد أفعال استعملت استعمالا وصفيا (وُصِّفت) عن طريق الموقع والنحو. وحروف الجر الإنجليزية مثل from لابد أن تكون قد اشتقت إتملجيا من اسم وجد فيما مضى، ويمكن استرجاعه ويعني «أصل origin»، كما أن العنصر الأول من كلمات مثل below, beside «ليس إلا العنصر الأمري be»[81]. ويمكن إيراد إتملجيات لا سند لها أكثر كثيرا من هذا من كتابه.

وتوك ـ مثل آخرين في القرن الثامن عشر وما بعده ـ قد اعتبر العناصر التصريفية والاشتقاقية في الكلمات، عبارة عن أجزاء من كلمات مستقلة مبكرة قد التصقت بجذر الكلمة. وقد أيدت بعض تعييناته مرة أخرى عن طريق الفحص الدقيق من طرف الإتملجيا المنضبطة بشكل دقيق فيما

بعد، مثلما هو الشأن بالنسبة للاحقة الوصفية الإنجليزية - ful (beautiful ... الخ)، ولكن لم تؤيد بعض التعيينات الأخرى مثل اشتقاقه للكلمة اللاتينية ībō «سوف أذهب» من ī «ذهب» + -b (= اليونانية ـ boul أراد) + o (eg) «أنا»، وكذلك كلمة audiam «سوف أسمع» التي اشتقها من (re) audī «سمع» + am (ō) «أحب» (أي «أريد أن أسمع»)![82].

وهذا الرأي ـ الموجود أيضا عند كوندلاك (ص 246 من قبل) ـ بأن التنوع المرفيمي في صيغ الكلمات، ناشىء عن التصاق كلمات مستقلة تؤيده أدلة تاريخية في عدد من الأبنية في اللغات. ويمكننا أن نستشف اندماج الكلمتين ـ بدون شك بعد أن أصبح وضع الكلمة ثابتا ـ dōnāre habeō في الكلمة donnerai «سوف أعطي» في الفرنسية، وفي صيغ مشابهة في لغات رومانسية أخرى، كما أن أدوات التعريف اللاحقة في اللغات الإسكندنافية واللغة الرومانية، مشتقة من ضمائر إشارة سابقة تحتل مباشرة مكانا بعد الأسماء التي تشير إليها (اللاتينية المحلية المتأخرة lupul < lupus ille «الذئب» الرومانية). ويمكن أن نلحظ اليوم نوعا من المرحلة الوسيطة في الضمائر وعناصر النفي المقيدة، بشكل أكثر إحكاما والثابت موقعيا في التعبيرات الفعلية الفرنسية عند مقارنتها بأسلافها المتحركة بحرية في اللاتينية. وهذا يدرك جزئيا عن طريق الإملاء في واصلات صيغ معينة عندما تقع بعد الفعل (مثل montrez-le-nous أرنا إياه!، قارن بالكلمة الإيطالية mandatecelo أرسله لنا!). ولكن من التبسيط الشديد أن نفترض أن كل الصرف يمكن إرجاعه لهذه العملية، وأكثر من هذا أن نحاول تحديد الأصول المستقلة لكل المرفيمات المقيدة للغات المعاصرة أو اللغات القديمة الموثقة.

لقي المؤلف اللغوي لجيمس هاريس تقديرا عاليا في القرن الثامن عشر من اللغوي البريطاني، جيمس برنت J. Burnett (Lord Monboddo) الشخصية البارزة في الحياة الأدبية والعلمية لأدنبرة، الذي كتب رسالة من ستة مجلدات بعنوان of the origin and progress of language[83]، تحتوي على وصف شامل للغات الكلاسيكية وبعض اللغات الأوروبية الحديثة، وعلى مقال حول الأسلوب الأدبي. ومنبدّو ـ مثل هاريس ـ لا يرغب في إنكار التدخل الإلهي في خلق ملكة شديدة الروعة والتعقيد مثل اللغة[84]، ولكنه حول اهتمامه نحو تطورها التاريخي أكثر من اهتمامه بالتأكيد على العموميات اللغوية،

ولقد أدرك الصلة الوثيقة بين المجتمع الإنساني واللغة الإنسانية، ولكنه لم ير إلا اعتمادا أحادي الجانب بينهما، بمعنى أن المجتمع قد وجد قبل ابتكار اللغة بعدة عصور، وأن هذا الابتكار قد اعتمد على الوجود المسبق للمجتمع، وكان منبدّو على استعداد للتسليم بالأصول المتعددة للغة، ورغم ما قيل بأن «اللغات البدائية» تنقصها إمكانيات التعبير المجرد، فإنه أكد على أن الإنسان يجب أن تكون لديه أفكار مكونة عن العموميات قبل أن يبتكر الكلمات التي ترمز لها[85]، وتصور هردر عن الأصل والتطور المتوازيين للكلام والتفكير أكثر معقولية بشكل كبير.

ولسوء الحظ كان منبدّو واحدا من بين عدد كبير من اللغويين الذين اعتبروا أن أصل اللغة يمكن أن يكتشف جزئيا، عن طريق دراسة بعض اللغات الموجودة، بحثا عن دليل للبدائية ولبقاء خصائص قديمة في لغات الشعوب الأمية والبدائية ثقافيا. وهذه المزاعم بأن «اللغات البدائية» تحتوي على مفردات تجريدية قليلة وتنظيم قواعدي غير ملائم، قد ظهرت عند هردر الذي عرف مؤلف منبدّو ووافق عليه، ورأى المجلد الأول مترجما إلى الألمانية في عام 1784م[86]. كما توجد هذه المزاعم أيضا عند كتاب متأخرين مع تسويغات أقل فأقل، بوصفها وصفا لغويا للغات بعيدة تزيد في العدد والنوعية.

ودليل منبدو على نقص النمو اللغوي في وجود تعبيرات الكلمة الواحدة التي تدل على الشيء ومالكه كان دليلا غير مناسب بشكل غريب[87]، حيث إنه لم يتفحص أكثر من اللغتين المجرية والفنلندية من بين اللغات الأوروبية ليجد نفس الصيغة تماما (المجريتان làbam «قدمي»، viràgunk «زهرتنا»، الفنلندية katena «يدي»). والدراسة الوصفية للغات الشعوب الأمية بدائية الثقافة لا تؤيد بأي شكل مزاعم منبدو، بأن هذه اللغات ليس بها تمييز بين أقسام الكلام وبين القواعد النحوية[88]. وقصور تفكيره اللغوي يظهر في انصرافه عن اللغة الصينية بوصفها لغة ناقصة بشكل زائد، وفي افتراضه بالتالي أن الصينيين لا يمكنهم إنجاز أي تقدم في مجال الفلسفة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يظهر هذا القصور في تقريره أن اللغة السنسكريتية، قد صيغت على أسس فلسفية مثل «الرمز الحقيقي» الاصطناعي عند ولكنز[89].

من السهل جدا أن نعثر على أخطاء في محاولات القرن الثامن عشر في مجال الدراسة التاريخية للغة، ولكن ما هو جدير بالملاحظة هو أن مفكرين في بلاد مختلفة وبخلفيات مختلفة، كانوا منجذبين لتاريخ اللغة عشية قرن حقق فيه تاريخ اللغات الذي أنعشته التماعة ضوء قادمة من الشرق، حقق تقدما غير مسبوق.

مراجع إضافية

H. A. ARSLEFF, From Locke to Saussure London, 1982.

____, The study of language in England 1780-1860, Princeton, 1967 (second edition, London, 1983).

W. S. ALLEN, Phonetics in ancient India London, 1953.

H. ARENS Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart Freiburg/ Munich (second edition), 1969, 80-152.

S. K. BELVALKAR, Systems of Sanskrit grammar, Poona, 1915.

T. BENFEY, Geschichte der Sprachwissenschaft und orientalischen Philologie in Deutschland Munich, 1869.

J. BROUGH, 'Theories of general linguistics in the Sanskrit grammarians', TPS 1951, 27-46.

____, 'Some Indian theories of meaning', TPS 1953, 161-76.

P. C. CHAKRAVARTI, The philosophy of Sanskrit grammar, Calcutta, 1930.

____, The linguistic speculations of the Hindus Calcutta, 1933.

E. B. DE CONDILLAC, Essai sur l'origine des connaissances humaines (Oeuvres de Condillac ed. G. LE ROY Paris, 1947, volume 1, 1-118).

B. FADDEGON, Studies on Panini's grammar Amsterdam 1936.

O. FUNKE, Zur Sprachphilosophie des achtzehnten Jahrhunderts. James Harris's 'Hermes' (Studien zur Geschichte der Sprachphilosophie Berne, 1927, 5-48).

____, Englische Sprachphilosophie im späteren IX Jahrhundert Berne, 1934.

E. HEINTEL, Johann Gottfried Herder: sprachphilosophische Schriften, Hamburg, 1964.

J. G. HERDER, Abhandlung über den Ursprung der Sprache (Herder's sämmtliche Werke (ed. B. SUPHAN), Berlin, 1891, volume 5, 1-156).

P. JULIARD, The philosophies of language in eighteenthcentury France The Hague, 1970.

B. LEIBIG, Panini: ein Beitraag zur Kenntnis der indischen Literatur und Grammatik. Leipzig, 1891.

V. N. MISRA, The descriptive technique of Panini: an introduction The Hague, 1966.

K. K. RAJA, Indian theories of meaning Madras, 1963.

R. ROCHER, "Agent' et 'object chez Panini, JAOS 84 (1964), 44 - 54.

J. J. ROUSSEAU, Essai sur l'origine des langues (Oeuvres de J. J. Rousseau Paris, 1822, volume 13, 163-257).

E. SAPIR, 'Herder's 'Ursprung der Sprache", Modern Philology, 5 (1907-8), log-42.

T. A. SEBEOK, Historiography of linguistics, 3 - 67, 383 - 606.

J. F. STAAL, 'Sanskrit philosophy of language', Current trends in linguistics (ed. T. A. SEBEOK) 5 (1969), 499 - 531

____, (ed.), A reader on the Sanskrit grammarians, Cambridge, Mass.,1972.

P. THIEME, ‘Panini and the pronunciation of Sanskrit’, E. PULGRAM (ed.), Studies presented to Joshua Whatmough, The Hague, 1957, 26370.

ملاحظات ومراجع

1. Quoted, inter alia, on J. E. SANDYS, History of classical scholarship (third edition), Cambridge, 1921, volume 2. 438 9; c. F. HOCKETT, 'sound change', Language 41 (1965), 185204.
2. ARENS, 1969, 73; BENFEY, 1869, 336 - 8; L. KUKENHEIM, Esquisse historique de la linguistique française, Leiden, 1962, 31.
3. HEIDELBERG, 1808, ix: . . . die Liebe fur dieses Studium, wenigstens vorläufig. auch in Deutschland anzutachen.' In BENFEY, 1869, 380: 'Ich würde mich glücklich schatzen, wenn ich etwas dazu beitragen könnte, das Studium des Sanskrit in Deutschland einheimisch zu machen.'
4 . ALLEN, 1953, 6.
5. R. A. MILLER, Studies in the grammatical tradition in Tibet, 1976 (Amsterdam studies in the theory and history of linguistics 6).
6. RAJA, 1963, 51.
7. BROUGH, 1953, 176 - 8.
8. B. MALINOWSKI, Coral gardens and their magic, London, 1935, volume 2, II.
9. CHAKRAVARTI, 1930, 84 - 125, 1933, 42 - 7; BROUGH, 1951; L. HJELMSLEV, Prolegomena to a theory of language (tr. F. J. WHITFIELD), Baltimore, 1953, 73-6.
10. ALLEN, 1953, 7.
11. R. JAKOBSON, Selected writings 1: phonological studies, The Hague, 1962, 438 and passim.
12. ALLEN, 1953, 5; ibid., 3-7, go. Much of the scholarly writing on ancient Indian linguistics presupposes a considerable prior knowledge of Sanksrit, making it difficult of access to the linguist who is not also a Sanskritist. This is unfortunate; the linguistic treatises of the Indians and the theories, insights, and methodology that they contain are an important part of any comprehensive historical view of the subject and they should be understood and appreciated by as many linguists as possible. In the case of the Indian phoneticians Allen's Phonetics in ancient India (1953) may be unhesitatingly recommended. Though the Sanskrit passages and technical terms are given, with full references to the sources and the technical literature, no knowledge of Sanskrit is required for the understanding of his account, from which an excellent picture of the achievement of the Indians in phonetics and phonology can be grasped.
13. ibid., 35.
14. T. BURROW, The Sanskrit language, London, 1955, 114.
15. ALLEN, 1953, 50, 89.
16. M. B. EMENEAU, 'The nasal phonemes of Sanskrit', Language, 22 (1946), 86-93.

17. Details in ALLEN, 1953. The development of /p/ as a phoneme in some Middle Indian dialects may have been a contributory factor (EMENEAU, Op. cit., 90-2); L. RENOU, Panini, Current trends in linguistics 5 (1969), 481-98.
18. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, II; P. THEME, Panini and the Vedas, Allahabad, 1935, ix.
19. B. SHEFTS, Grammatical method in Panini, New Haven, 1961, ix.
20. Language 5 (1920), 270. It is difficult without a thorough knowledge of Sanskrit to manage an adequate appreciation of Panini's grammatical exposition, even though translations into European languages have been available for some time, such as o.BÖHTLINGK, Panini's Grammatik, herausgegeben, übersetzt, erlautert und mit verschiedenen Indices versehen (1887, reprinted Hildesheim, 1964), and L. RENOU, La grammaire de Panini traduite du sanskrit avec des extraits des commentaires indigènes (Paris, 1966). For English readers the most useful translation now is S. M. KATRE, Astàdhyàyí of Panini (Austin, 1987), with a brief introductory essay, roman transliterations of each sùtra with English translations. See also M. Winternitz, A history of Indian literature (tr. S. KETKAR), Calcutta, 1927, 40-6.
21. BROUGH, 1953, 162-3; J. R. FIRTH, Synopsis of linguistic theory, Studies in linguistic analysis (Special volume of the Philological Society, Oxford, 1957), 17; see further B. K. MATILAL, Indian theorists on the nature of the sentence', Foundations of language (1966), 377-93; cp. p. 91, above.
22. CHAKRAVARTI, 1930, chapter 8; BLOOMFIELD, Language, 235. The Sanskrit terms themselves exemplify the categories that they refer to: tatpurusa, his-servant; bahuvrihi, (possessing) much-rice.
23. ROCHER, 1964. The concept of kàraka is more akin to the abstract underlying cases proposed by c. J. FILLMORE, 'The case for case', Universals in linguistic theory, New York, 1968 I-88, and as used by J. M. ANDERSON, On case grammar: prolegomena to a theory of grammatical relations, Cambridge, 1977, and by the generative grammarians in Government and Binding theory (cp. G. C. HORROCKS, Generative grammar, London, 1987, 102-8. It must not be assumed, of course, that the Indian grammarians and the modern linguists just cited arc all expounding the same theory; they are, however, operating with similar conceptual frameworks to explicate roughly the same aspects of syntactic relationships.
24. Language 5 (1929), 267-76.
25. BUISKOOL, 1939, 12 - 13.
26. N. CHOMSKY and M. HALLE, The sound pattern of English, New York, 1968, 220. cp. STAAL 1969.
27. cp. BLOOMFIELD, Language 5 (1929), 272 - 4.
28. TCLP 8 (1939), 105-15; ALLEN, 'Zero and Pânini', Indian linguistics 16 (1955), 106-13 (122).
29. The sounds used as demarcative symbols are bracketed.

30. ALLEN, 1953, 58, suggests an appropriate translation: 'a = [e]'.
31. ALLEN, Zero and Panini; F. DE SAUSSURE, Cours de linguistique générale (fourth edition), Paris, 1949, 255-6; H. A. GLEASON, Introduction to descriptive linguistics, revised edition, New York, 1961, 76; W. HAAS, 'Zero in linguistic analysis', Studies in linguistic analysis, 33-53.
32. BENFEY, 1869, 383, called Wilkins 'the father of European Sanskrit studies'.
33. HERODOTUS 2.2.
34. CONDILLAC, 1947, 1—118.
35. F. C. GREEN (ed.), Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmis les hommes, Cambridge, 1941 (reference to Condillac, pages 41-2).
36. ROUSSEAU, 1822.
37. CONDILLAC, 1947, 84. A set of essays on Condillac's linguistic thought is published in J. SGARD et al (eds.), Condillac et les problèmes du langage, Geneva /Paris, 1982. Informed discussion on the conditions and the stage in which human speech may have begun and developed continues today, in some respects on lines remarkably similar to Condillac's ideas on the subject. cp. S. R. HARNAD et al. (eds), Origin and evolution of language and speech, Annals of the New York Academy of Sciences, vol. 280 (1976).
38. Discours, 45.
39. CONDILLAC, 1947, 64 - 9.
40. ibid., 69, 94.
41. ROUSSEAU, 1822, chapters 5 and 7.
42. ibid., 255: 'langues favorables à la liberté; ce sont les langues sonores, prosodiques, harnonieuses, dont on distingue le discours de fort loin. Les nôtres sont faites pour le bourdonnement des divans'.
43. J. P. SÜSSMILCH, Versuch eines Beweises dass die erste Sprache ihren Ursprung nicht vom Menschen sondern allein vom Schöpfer erhalten habe Berlin, 1766; ROUSSEAU, Discours 48 - 9; PLATO, Cratylus 397 C. 425 D; ALLEN, 'Ancient ideas on the origin and development of language', TPS 1948, 35-60.
44. H ERD ER , 1891.
45. Herder's sämmtliche Werke ed. B. SUPHAN, Berlin, 1877, volume 2.
46. Werke 2, 24-6.
47. ibid., 26-8.
48. e.g. CONDILLAC, 1947, 61, 98-104, and in Cours d'études pour l'instruction du Prince de Parme Oeuvres volume 1, 403. See further H. AARSLEFF, The tradition of Condillac', in AARSLEFI:, 1982, 146-209.
49. SAPIR, 1907 - 8, 141; CHOMSKY, Current issues 17-21, Aspects of the theory of syntax Cambridge, Mass., 1965, 4, 8-9, 51.
50. HERDER, 1891, 34 - 5. ibid., 36.
51. ibid., 64-7; o. JESPERSEN, Language London, 1922, chapter 20; FIRTH, Speech London, 1930,

chapter 6.

52. HERDER, 1891, 82 - 9.

53. ibid., 52-4, 134.

54. F. MCEACHRAN, The life and philosophy of Johann Gottfried Herder Oxford, 1939, 32, and passim; R. G. COLLINGWOOD, The idea of history Oxford, 1946, 86-93.

55. SAPIR, 1907-8, 137-8. A useful translation of ROUSSEAUS Essai sur l'origine des langues and of HERDER'S Abhandluing über den Ursprung der Sprache is available in J. H. MORAN and A. GODE (tr.), On the origin of language Chicago, 1966.

56. Pagination from the third edition, London, 1771.

57. HARRIS, Op. cit., 7, 11.

58. ibid., 314-l5, 328-9; ARISTOTLE, De interpretatione 2, 4 (p. 22, above).

59. HARRIS, Op. cit., 19 - 20.

60. ibid., 23-6, 192-3, 291-2.

61. ibid., 30-31.

62. ibid., 289-90.

63. ibid., 25-6.

64. ibid, 347-9

65. ibid., 350-402.

66. ibid., 315; pp. 193-4, below.

67. Werke 15 Berlin, 1888, 181-2.

68. CONDILLAC, 1947, 89-91, J. LOCKE, An essay concerning human understanding London, 1690, 2.11.9, 4.7.9.

69. HARRIS, Op. cit., 409-11; FUNKE, 1934, 8 - 18.

70. HARRIS, Op. cit., 419 - 24.

71. HORNE TOOKE, Epea pteroenta or the diversions of Purley, volume 1, London, 1829, 71.

72. HARRIS, Op. cit., 259; TOOKE, Op. cit., 112.

73. TOOKE, Op. Clt., 271 - 5.

74. HARRIS, Op. cit., 45; TOOKE, Op. cit., 53.

75. 'winged words', a stock phrase in Homer.

76. TOOKE, Op. cit., 121.

77. ibid., 54

78. TOOKE, Op. cit., chapter 2, AARSLEFF, 1983, 70 - 4, 88—go. It was also said that knowledge of German was a rare accomplishment in late eighteenth- and early nineteenthcentury England (AARSLEFF, Op. cit., 220-l). But see also A. BEYER, Deutsche Einflüsse an die englische Sprachwissenschaft im 19. jahrhandert, Göppingen, 1981. A fairly lonely voice raised against Tooke at the time was J. FEARN'S Anti-Tooke; or an analysis of the principles and structures of language, exemplified in the English tongue, London, 1824-7 (reprinted in Grammatica universalis, 7.1, 7.2

(ed. H. E. BREKLE), Stuttgart 1972; Cp. BREKLE, Einführung in die Geschichte der Sprachwissenschaft, Darmstadt, 1985, 153-70).

79. TOOKE, op. cit., 61; LOCKE, Essay concerning human understanding, 3.6.32.

80. TOOKE, Op. cit., chapter 3.

81. TOOKE, Op. cit., 377 - 83, volume 2, 469; cp. AARSLEFF, 1983, chapter 2.

82. TOOKE, Op. cit., volume 2, 431 - 2.

83. Edinburgh, 1773-92 (reference to HARRIS, volume 1, 8).

84. ibid., volume 1, 191-2.

85. ibid., volume 1, 196-7, 302, 395-400.

86. R. HAYM, Herder, Berlin, 1880-5, volume 2, 224.

87. MONBODDO, Op. cit., volume 1, 364 - 5.

88. ibid, volume 1, 370.

89. ibid., volume 2, 432-3, 481.

7 علم اللغة التاريخي والمقارن في القرن التاسع عشر

من المألوف في علم اللغة أن يقال إن القرن التاسع عشر كان هو عصر الدراسة التاريخية والمقارنة للغات، وبوجه أخص اللغات الهندوأوروبية، وهذا أمر مسوغ بشكل كبير. ولكن هذا لا يعني أنه لم تجر قبل هذا الوقت بحوث تاريخية تقوم على مقارنة اللغات، ولا أن كل الجوانب الأخرى لعلم اللغة قد تم تجاهلها خلال القرن التاسع عشر، ولكن المسألة هي أن هذا القرن قد شهد تطور المفاهيم النظرية والمنهجية الحديثة لعلم اللغة التاريخي والمقارن، كما أن التركيز الأكبر للجهود العلمية والمقدرة العلمية في علم اللغة كان مكرسا لهذا الجانب من الموضوع أكثر من غيره من الجوانب. وفي وقت متأخر في عام 1922م فإن يسبرسن O. Jespersen الذي بقدر ما بذل الكثير لرعاية علم اللغة التزامني الوصفي استطاع أن يكتب - في ظل آراء مناخ القرن التاسع عشر الذي كان لا يزال سائدا - أن علم اللغة كان في الأساس دراسة تاريخية[1]، وأن بعض الأفكار الأكثر حفزا حول التركيب اللغوي التي اقترحت في بداية القرن، قد

طبقت أولا على الدراسة التاريخية للغة بشكل أساسي.

يمكن للمرء أن يتحدث بحق عن الأعمال التاريخية حول اللغات فيما قبل القرن التاسع عشر بوصفها أعمالا مبعثرة، ليس لأنها تفتقد بالضرورة عمق النظر أو التقدير لما هو مطلوب، ولكن لأن اقتراحات الناس والبحوث ظلت في عزلة إلى حد كبير، ومادامت هذه البحوث لم يشرع فيها ولم تطور من طرف سلسلة متواصلة من العلماء، فكل مفكر جديد كان لديه القليل الذي يعتمد عليه أو يكون لديه رد فعل نحوه.

ولكن الأمر لم يكن كذلك بعد عام 1800م، عندما يجد المرء نفسه وجها لوجه أمام استمرارية ملحوظة للعلم الذي ركز على ميدان متخصص من النظرية والتطبيق، حيث أقامت أجيال من الرجال الألمان غالبا، أو من علماء أقطار أخرى اكتسبوا علمهم في ألمانيا، أقام هؤلاء موضوعهم على أساس ما قام به سابقوهم أو معاصروهم الأسبق منهم، فالعلماء ربما يبدأون من حيث انتهى هؤلاء الذين كانوا قبلهم، أو ربما كان لهم رد فعل ضد ما اعتبروه أخطاء في الواقع أو سوء توجيه للنظرية، ولكن إدراك استمرارية الإنجاز الذي وصل للذروة قرب نهاية القرن، رغم أن هذه الذروة بالطبع ليست نقطة التوقف، هذا الإدراك يجب النظر إليه بوصفه تعظيما لعلم العصر، وباعتباره كذلك إلهاما لهؤلاء الذين ينظرون اليوم للوراء نحو هذا القرن اللافت للنظر من المساعي الناجحة.

الأعمال التي قام بها الكتاب الأوروبيون عن العلاقات التاريخية للمجموعات المعينة للغات يمكن القول إنها قد بدأت مع دانتي (1265 ـ 1321)، على الرغم من أن «القواعدي الأول» المبرز قد أكد في القرن الثاني عشر على العلاقة بين الأيسلندية والإنجليزية، استنادا إلى التشابه في صيغ الكلمات (صص 132-133 من قبل) وقد تمت الإشارة بالفعل لمؤلف دانتي De vulgari eloquentia بصدد الحديث عن ارتفاع مكانة اللغات الأوروبية الدارجة بعد العصور الوسطى (ص 176 من قبل). وهذا المؤلف نفسه يفسر منشأ الفروق اللهجية، ومن ثم الفروق بين اللغات الناشئة عن لغة أصل واحدة بوصفها نتيجة لمرور الزمن والتشتت الجغرافي للمتكلمين[2]. وقد ميز دانتي بدقة ثلاث أسر لغوية أوروبية هي الأسرة الجرمانية في الشمال والأسرة اللاتينية في الجنوب واليونانية التي تشغل جزءا من أوروبا مجاورا

لآسيا[3]. وقسم المنطقة اللاتينية المعاصرة له إلى ثلاث لغات دارجة متميزة تنحدر كلها من اللاتينية التي حافظ عليها القواعديون، وهذا الأصل المشترك تظهره الأعداد الهائلة من الكلمات التي تشترك كل منها مع الكلمات الأخرى والتي يمكن إرجاعها إلى كلمة لاتينية واحدة.

استخدم دانتي منهجا معينا بوصفه علامات للتمييز في تقسيماته اللغوية، هذا المنهج رأيناه مرة أخرى عند سكاليجر (ص 271 فيما بعد)، كما تم الاحتفاظ به كوسيلة للوصف والتمييز في التقسيم الثنائي المتأخر كثيرا، للأسرة الهندوأوروبية إلى مجموعتي satem , centum. لقد اختار معنى كلمة واحدة ولاحظ صيغتها في لغات مختلفة، من هنا فاللغات الجرمانية تجيب في حالة الإثبات بكلمة "io" (ja... إلخ)، واللغات الثلاث لاتينية الأصل تستعمل "si" (اللاتينية sic) في إيطاليا، و "oc" (اللاتينية hoc) في جنوب فرنسا، و "oil" (اللاتينية hoc ille) في شمال فرنسا (hoc ille، «هو (يفعل) هذا»، عممت بوصفها إجابة الإثبات عن السؤال في هذه المنطقة[4]). ومن هذا التقسيم نشأ الاسمان اللذان يطلقان على الإقليمين اللغويين الرئيسيين في فرنسا، وهما لغة أوك langue oc (البروفانسية) في الجنوب، ولغة ويل langue oil في الشمال.

داخل هذه المناطق اللغوية كان دانتي واعيا بشكل قوي بالفروق اللهجية، وهو في الفصول التالية سبر إمكانية اللغة الإيطالية المصقولة ومدى الرغبة بالنسبة لكل شبه الجزيرة الإيطالية، وقدّم مسحا مفصلا وأمثلة جيدة للهجات الإيطالية، كما أبدى أحكاما جمالية عليها لا يعتبر أي منها صحيحا، ولكن اللهجتين التوسكانية المحلية والرومانية قد استبعدتا بازدراء[5].

وقد أقيم هذا التصنيف المفصل في إطار تصور الاختلاف اللغوي في العالم الذي نشأ بالطريقة التي وصفت في قصة برج بابل (سفر التكوين2)، فالعبرية]على أساس هذه القصة[هي اللغة الأولى التي تحدثها الناس على الأرض قبل بناء البرج، وهي اللغة التي تحدث بها آدم بوصفها منحة من الرب[6].

والأصل الواحد لكل اللغات وعزو رتبة اللغة الأصلية أو الأقدم للغة العبرية، كان بشكل عام فكرة يؤمن بها الناس أثناء القرون الأولى للمسيحية، عندما كان على العلم أن يتوافق مع قصة الخلق في سفر التكوين كما تفهم

بشكل حرفي. ويمكن مقارنة هذا بالجهود المبكرة لعلماء الجيولوجيا وعلماء الحيوان، في محاولة مواءمة ملاحظاتهم مع الترتيب الظاهر للأحداث وتسلسلها الوارد في العهد القديم[7]. واعتبار العبرية هي الأصل الواحد لكل اللغات قد استمر مقبولا لعدة قرون، وربما كان من الأهم نظريا أنه عندما واجه هذا الاعتقاد تحديا، فقد واجهه متمثلا في لغة منافسة بوصفها اللغة الأصلية الباقية أو «اللغة الأقدم». وحقيقة أن اللاتينية أم اللغات الرومانسية قد بقيت مستعملة أيضا كلغة مكتوبة في فترة ما قبل عصر النهضة، وكلغة منطوقة لطقوس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكلغة تعامل للمتعلمين، كل هذا ربما جعل السلف اللغوي الباقي والأكثر شيوعا، جعله أكثر معقولية. وكان جربيوس بكانوس G. Becanus مشهورا بهذا النوع من التحدي، فهو الذي ادعى - في سلسلة مدهشة من الاشتقاقات - أن اللغة «الأولى» وهي «السمريانية» Cimmerian باقية في الهولنية - الفلمنكية[8]، ولكنه لم يكن الوحيد في هذا الشأن.

لم تنعدم النماذج البديلة للعلاقات التاريخية للغات في الفترة الممتدة من دانتي وحتى السير وليم جونز (قام علماء عصر النهضة بدراسات مبكرة تمت الإشارة إليها من قبل صص 21 - 177)، ولكنها لم تتابع ولم تطور من طرف معاصريهم. وقد كان ج. ج. سكاليجر (1540 - 1609) ابن ج. س. سكاليجر (ص 190 من قبل) وهو عالم ذو ثقافة واسعة ومتنوعة، كان موزعا بين اعتقادين فاسدين شوها البعد التاريخي للدراسة اللغوية، الاعتقاد الأول هو العلاقة التاريخية المباشرة المفترضة بين اليونانية واللاتينية، والتي وفقا لها كان يعتقد أن اللاتينية قد انحدرت مباشرة من إحدى اللهجات اليونانية التي امتزجت ببعض العناصر الأجنبية (قارن ص 96 من قبل)، والاعتقاد الثاني هو أن العبرية هي الأصل المزعوم لكل اللغات. وقد ميز سكاليجر بين إحدى عشرة أسرة لغوية، منها أربع رئيسية وسبع ثانوية، تغطي قارة أوروبا، واللغات الأعضاء ذات علاقة وراثية في داخلها، ولكن لا يمكن إقامة علاقة فيما بينها. وهذه الأسر تتفق بشكل عام مع التصنيفات الحديثة بقدر ما يتعلق الأمر باللغات الأعضاء، ولكن هذه الأسر تضم ما يعرف اليوم بالأسر الفرعية للأسر المستقلة الأكبر، التي من بينها الأسرة الهندوأوروبية والأسرة الفينو أُجرية Finno-Ugrian والأسر التي تصورها

سكاليجر، بوصفها نتاجا للغات مفردة سابقة على غرار اللاتينية واللغات الرومانسية أطلق عليها Muttersprachen أو Matrices Linguae (اللغات الأمهات). والأسر الرئيسية الأربع من أسره الإحدى عشرة تماثل المجموعات الرومانسية واليونانية، والجرمانية والسلافية الحالية داخل الأسرة الهندوأوروبية. واعتمادا على أساس التشابهات المعجمية بين أعضاء الأسرة سمى كل أسرة بالرجوع إلى الكلمات الدالة على «الإله». التي تظهر تشابها واضحا في الصيغة داخل كل أسرة، ولا تظهر ذلك مع تلك الكلمات في الأسر الثلاث الأخرى، من هنا فقد كتب عن لغات «ديوس Deus» ولغات «ثيوس Theos» ولغات «جودت Godt» ولغات «بوجيه Boge» على التوالي. وفي ضوء نظرته ونتائجه يأسف المرء لأنه لم ينظر بشكل أعمق في صيغ الكلمات التي تظهر تشابهات أخرى واضحة بين الأسر الأربع قبل أن ينكر أي علاقة بينها، سواء أكانت علاقة معجمية أو قواعدية[9].

هناك محاولات أخرى في تصنيف لغات العالم معروفة للأوروبيين المعاصرين، ودراسات في المنهج المقارن نفسه قد أجراها علماء القرن السابع عشر، فقرب نهاية هذا القرن قدم عالمان سويديان نموذجا أكثر تطورا للعلاقة التاريخية بين اللغات، فقد وضع ج. ستيرنهلم (الذي استمر في اعتبار اللغة العبرية أصلا لكل اللغات) في طبعته القوطية للكتاب المقدس، وضع تصريفات الفعل اللاتيني habére والفعل القوطي haban (يملك) جنبا إلى جنب، وعلى الرغم من عدم تشابه الجذور الذي لم يكن ستيرنهلم على دراية به، استطاع أن يدعي بناء على النهايات الشخصية أن اللغتين عبارة عن سليلتين متصلتين بقوة من سلف واحد[10]. وقد تحدث أ. ياجر A. Jager في محاضرة عامة عن لغة قديمة انتشرت ـ نتيجة للهجرات ـ في أوروبا وفي جزء من آسيا، وبذلك أنتجت لغات «بنات» أنتجت بدورها اللغات المعروفة اليوم بالفارسية واليونانية، واللغات الرومانسية واللغات السلافية والسلتية والقوطية واللغات الجرمانية، بينما لم يبق أي أثر للغة الأم الأصلية[11].

وبعد حوالي قرن من سكاليجر حوّل ليبنز (1646 ـ 1716) اهتمامه إلى علم اللغة التاريخي، في سياق تأملاته ومناقشاته الفلسفية المعروفة جيدا عن المسائل اللغوية التزامنية (ص 193 من قبل). ولم ير ليبنز أي سبب

للتقليل من شأن نظرية الأصل الواحد للغات العالم، ولكنه لم يبحث عن هذا الأصل في أي لغة حية أو موثقة، وقد وضع العبرية بشكل حاسم في الأسرة العربية (هكذا). وقد ذهب ليبنز إلى الطرف المقابل من سكاليجر، ومجموعاته الصغرى - مثل مجموعات سكاليجر - تماثل تلك المجموعات القائمة حاليا. وقد كان ليبنز واحدا من أوائل من افترضوا وجود علاقات تاريخية بين الفنلندية والمجرية، ولكنه ذهب لأبعد من هذا، فعلى أساس «جذور» الكلمات المشتركة المزعومة أقام قسمين رئيسيين للغة الأصلية، هما القسم الجافيتي Japhetic أو الكلتو - شياني (مصطلح استعمله آخرون أيضا) والقسم الآرامي اللذان يغطيان على الترتيب لغات الشمال بما في ذلك كل أوروبا، ولغات الجنوب. من هنا استطاع أن يربط نظامه في العلاقات بين اللغات بالقصة التوراتية عن أبناء نوح (تكوين 10)[12].

أشار ليبنز إلى بعض المبادئ التي بها تجرى البحوث اللغوية التاريخية بشكل مثمر، فأشار إلى دليل أسماء الأماكن وأسماء الأنهار للتوزيع القديم للغات، في المناطق التي تراجعت عنها فيما بعد سواء بإبعاد متكلميها أو استبدال لغة جديدة بسابقة بعد وصول قادمين جدد، ويشير ليبنز إلى لغة الباسك التي تنحصر الآن في ركن على الحدود الفرنسية الإسبانية في جبال البرانس الغربية، والتي يدلل على انتشارها في منطقة أوسع في شبه الجزيرة الأيبيرية بهذه الطريقة[13].

ونظرا لأهمية الدراسة الإتملجية في علم اللغة التاريخي يؤكد ليبنز على إعداد القواعد والمعاجم للغات العالم والأطالس اللغوية، وأبجدية عالمية قائمة على الأبجدية الرومانية يمكن أن تنقل إليها أنظمة الكتابة غير الرومانية للغات. وقد حاول بشكل خاص أن يشجع حكام روسيا على أن يبدأوا في إجراء مسح للغات غير الأوروبية في الأراضي التابعة لهم، وجمع قوائم كلمات ونصوص معيارية منها. ويمكن الإشارة هنا أيضا إلى ج. لودلف (1624 - 1704) J. Ludolf الذي كتب في قواعد الأمهرية والإثيوبية، وأكد متوافقا مع ليبنز على الحاجة إلى الدليل الصرفي مثل الحاجة إلى الدليل المعجمي من أجل إقامة العلاقات التاريخية[14].

والجمع النظامي للمادة الذي كان في سبيله لخدمة الدراسة المقارنة للغات، قد تواصل بوصفه ملمحا ملحوظا لقرون ما بعد عصر النهضة

عندما كان العالم الأوروبي يتوسع بشكل سريع جدا. وكانت قوائم كلمات ومسح للغات ومعاجم ثنائية اللغة ونصوص، خاصة تلك التي تكون جزءا من الديانة المسيحية وعلى الأخص صلاة الرب Lord Prayer قد أعدت ونشرت باجتهاد، وبشكل أخص في القرن الثامن عشر.

وقد اشتهر اثنان من هذه المسوح تحت عنوان Mithridates تبجيلا لملك بونتوس القديمة متعدد اللغات (ص 93 من قبل)، كان الأول للسويسري س. جنسر C. Genser في عام 1555م، والثاني لـ ج. س. أديلنج J. C. Adélung في عامي 1806 و 1817م عشية العصر الجديد للدراسات التاريخية[15].

يقف عرض أديلنج لنظريته بشكل نموذجي على الحدود بين العصور الأقدم غير النظامية، للتأمل والجمع وبين العصر المتأخر لتنظيم الأسر ذات العلاقة وراثيا. وتصنيفاته تقوم على القرابة الجغرافية التي خلع عليها دلالة تاريخية، ومن هنا ربط بين اليونانية واللاتينية في أسرة واحدة موحدة بشكل قوي، وكيفما كان الأمر فعندما كتب ضم السنسكريتية إلى لغات الهند، وقد أشار ـ كما فعل جونز قبله ـ إلى الدليل الواضح في السنسكريتية على اتصالها التاريخي باللغات الرئيسية في أوروبا[16].

أدت الاهتمامات اللغوية لكاترين الثانية في الأقاليم الخاضعة لروسيا إلى نشر قوائم كلمات مقارنة من مائتي لغة في أعوام 6 ـ 1789م، وهذه الكلمات صنفها الألماني ب. س. بالاس P. S. Pallas الذي فهم عمله في إطار أوسع، حيث إنه عنونه بـ The comparative vocabularies of the languages of the whole world [17]. ومؤلف بالاس عرضه س. ج. كراوس C. J. Kraus في عام 1787م في مقالة تغطي المجالات المهمة التي يجب على علم اللغة المقارن أن يتطلع للتقدم فيها وهي الصوتيات والدلالة والتركيب القواعدي والموقع والتوزيع الجغرافيين للغات[18]. وبفضل كل من تاريخ هذه المقالة ومزاياها الحقيقية فإنها يمكن أن تظل قابلة للقراءة بوصفها مقدمة لدراسة علم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي.

كثير مما جمع من مواد اللغات المختلفة الذي تم في القرن الثامن عشر يبدو اليوم اعتباطيا نوعا ما وغير محكوم بنظرية شاملة أو موجهة، كما أن النظريات العامة الأخرى عن أصل اللغة وتطورها التي وضعت في نفس الفترة التي أشير إليها في الفصل السابق، تبدو تأملا عقيما إلى حد كبير

في ظل عدم وجود مادة مناسبة من لغات فعلية. ولكن هذين الاتجاهين المستقلين كليهما قد أخذا مكانهما في مجرى التاريخ، ووقعا عرضيا، ولكن لحسن الحظ، في السنوات السابقة مباشرة للاكتشاف الأساسي للعلاقات بين السنسكريتية ولغات أوروبا الرئيسية، الذي كان في الظروف الأكاديمية المواتية في بداية القرن التاسع عشر هو الدافع لتكامل النظرية والمادة في عصر التقدم المستمر.

في القرن الثامن عشر، وفي الواقع منذ عصر النهضة استمر التفكير الجدي والبحوث الحقيقية عن العلاقات التاريخية بين اللغات وعن الأسر التاريخية أو الوراثية التي يمكن اكتشافها وإقامتها على هذه الأسس، وظل الاهتمام الرئيسي مركزا في مقارنة مفردات وتراكيب اللغات الأوروبية الحديثة بمفردات وتراكيب اللاتينية، وفي الارتباط التاريخي الواضح بين اللاتينية واللغات الرومانسية مهما يكن وضوح هذا الارتباط.

هذه البحوث التاريخية قد رافقها - خاصة في القرن الثامن عشر - فحص جاد للأصل الممكن للكلام الإنساني وتطوره، وللغة في حد ذاتها بالرجوع من جديد لكل من المفردات والتركيب القواعدي. وكانت الإتملجيا وهي الدراسة التاريخية لمواد المفردات، والنمطية اللغوية كما تسمى اليوم، موضوعية للعرض النظامي في مقالات في الموسوعة الفرنسية التي نشرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فكانت هناك نمطية سابقة لنمطية القرنين التاسع عشر والعشرين قد أقامها الموسوعيون في تمييزهم الأساسي بين نمطين متقابلين أو ميلين نمطيين، وهما اللغات التحليلية langues analytiques ولغات النقل المكاني langues transpositives، وبشكل عام وبالترتيب هي تلك اللغات التي تشبه بعض اللغات الأوروبية الحديثة ذات الملامح الصرفية القليلة نسبيا، والتي تعتمد على ترتيب الكلمات القائم افتراضا على الترتيب الطبيعي للأفكار، وتلك اللغات مثل اللاتينية واليونانية القديمة اللتين تمتلكان نظاما صرفيا واسعا، واللتين يمكنهما أن تتهاونا مع التنوع الكبير في ترتيب الكلمات دون التأثير في قواعد جملهما. وقد فحص هؤلاء العلماء أيضا الانتقال مع الزمن بين نمط ونمط آخر[19].

ولكن يجب التأكيد على أنه رغم أن هذه الميادين من البحث كانت بشكل عام ذات توجه تاريخي فإنها لم تصنف بطريقة نظامية. وقد رفض

«الموسوعيون» اعتبار اللغة الفرنسية سليلة مباشرة للاتينية، لأن تركيبها القواعدي «"Le génie principal de langue" كان مختلفا بشكل كبير عن التركيب القواعدي للفرنسية، وفي المقابل اعتبرت الفرنسية استمرارا حديثا للغة سلتية أكثر قدما اندمج فيها كثير جدا من الكلمات اللاتينية في فترة الحكم الروماني[20]. وفي هذا الصدد فإن السير وليم جونز الذي ينظر إليه غالبا باعتباره المبشر بالمذهب التاريخي الذي قام في القرن التاسع عشر، على أساس فقرته الشهيرة التي تمجد اللغة السنسكريتية وتطرح قرابتها التاريخية لمعظم اللغات الأوروبية (صص 25 ـ 226 من قبل)، كان رجلا من رجال القرن الثامن عشر. وقد اعتمد في فقرته المستشهد بها على دليلين للأصل المشترك، وهما إتملجيا «جذور الأفعال»، والتركيب في «صور القواعد»، وفي مقالة أخرى أوضح أنه من بين الدليلين يعطي الأسبقية «للنظام القواعدي المتشابه» للغات التي تعتبر متصلة من الناحية الوراثية. وإضافة لهذا فهو جازم في حكمه على العلاقة التاريخية بين الهندية الحديثة والسنسكريتية، مثلما كان الموسوعيون جازمين بشأن العلاقات بين الفرنسية واللاتينية، فالتفاوتات بين التراكيب النحوية للغتين تستبعد علاقة انحدار الهندية من السنسكريتية على الرغم من حقيقة أن «خمس كلمات من كل ست مشتقة من السنسكريتية»، ولكن عدم الجزم المنهجي للعصر يتضح جيدا من التفسير المخالف تماما لنفس الحقائق الذي قدمه هلهد Halhed، بعد عامين فقط حيث قرر أنه على الرغم من الفروق التركيبية بين اللغتين، فإن الدليل الإتملجي دليل لا يمكن دحضه على أن السنسكريتية هي أصل الهندية: «فهي دون شك مشتقة من السنسكريتية... فنفس الأصوات تستعمل بثبات تقريبا في كلتا اللغتين لتدل على نفس الأفكار... وإن كانت التصريفات... وشكلا النظام القواعدي مختلفة بشكل كبير».

وفحص الأدبيات المتصلة بالقرنين السابع عشر والثامن عشر يظهر كيف استغلت وكيف فندت المقارنة النمطية والتشابهات الإتملجية، بشكل مختلف في تصنيف اللغات في أسر تاريخية. وقد كان إنجاز القرن التاسع عشر هو الفصل بوضوح بين النمطية والإتملجيا، وتقدير الدور الملائم لكل منهما[21].

كان علم اللغة في القرن التاسع عشر مركزا إلى حد كبير على الدراسة

التاريخية للغات الأوروبية، والتي تم فيها معظم التقدم والتطوير في المنهج والنظرية. وكانت هذه الفترة من علم اللغة محفوظة تقريبا للعلم الألماني، أما هؤلاء الذين عملوا في هذا الميدان من أقطار أخرى فإنهم إما درسوا في ألمانيا مثل الأمريكي و. د. ويتني W. D. Whitney أو كانوا خبراء ألمانا مثل ماكس مولر Max Müller في أكسفورد. وكما رأينا من قبل فإن الاكتشاف الأوروبي للسنسكريتية كان هو المصدر الأول لهذا التطور، وإن عددا من العلماء الأوائل في علم اللغة التاريخي كانوا أنفسهم من علماء السنسكريتيات، مثل الأخوين أ. و. و ف. شليجل (1767 ـ 1845 و 1772 ـ 1829) A. W. and F. Schlegel، وف. بوب (1791 ـ 1867م) F. Bopp، و أ. ف. بوت (1802 ـ 1887) A. F. Pott.

في عام 1808م نشر ف. شليجل بحثه On the language and the learning of Indians، الذي أكد فيه على أهمية دراسة «التركيبات الداخلية» للغات (أي صرفها) بسبب الضوء الذي يمكن أن تلقيه على علاقاتها الوراثية[22]. ويبدو أن مصطلح vergleichende Grammatik («القواعد المقارنة» الذي ظل يستعمل كثيرا عنوانا لعلم اللغة المقارن والتاريخي) قد وضعه شليجل. وفي الواقع كانت مقارنة الصرف التصريفي والاشتقاقي للسنسكريتية واللغات الهندوأوروبية الأخرى، وبشكل خاص اللاتينية واليونانية، هي التي ركز عليها علماء الدراسة المقارنة الأوائل. والمرء يمكنه أن يشير إلى أن عنوان مؤلف بوب المنشور عام 1816م هو On the conjugation system of sanskrit, in comparison with that of Greek, latin, Persian, and German والأكثر دلالة هو عنوان وصف ت. بنفي T. Benfey المتأخر لمؤلفات النصف الأول من القرن التاسع عشر وهو The history of linguistics and Oriental philology in Germany. وبعد ثلاث سنوات من هزيمة مدافع الإبرة البروسية للقوات النمساوية في كونجرانز، وقبل سنتين من إقامة الإمبراطورية الألمانية بعد الحرب الفرنسية ـ الألمانية، وفي إطار المد العالي للقومية الألمانية استطاع بنفي أن يكتب مقررا أن العاملين الأوائل في هذا الميدان ينتسبون إلى «النجوم الساطعة في سماء الفكر الألماني»، وأن مجموعة الرجال المبرزين الذين ساهموا في تطوير هذا الفرع من العلم، كانوا على وجه الحصر تقريبا أبناء لوطن الأسلاف (أي ألمانيا)[23].

ومع التسليم بصحة هذا الادعاء فإن المرء يمكنه مع ذلك أن ينبه إلى عملين رائدين عن العلاقة اللغوية، من خلال الدراسة المقارنة للتصريفات قد أعدا خارج الأسرة الهندوأوروبية من طرف عالمين غير ألمانيين في نهاية القرن السابق، ففي 1770م نشر سجنوفكس P. Sajnovics مؤلفه Proof that the languages of the Hungarians and the lapps are one and the same [إثبات أن لغة المجريين ولغة اللابيين لغة واحدة تماما]، وفي عام 1799م أثبت س جيارماثي S. Gyarmathi القرابة التاريخية للمجرية والفنلندية[24].

هناك أربعة من العلماء المعروفين جيدا في العلم اللغوي لبدايات القرن التاسع عشر هم دان ر. راسك (1787 ـ 1832) Dane. R. Rask، والألمان ج جريم (1785 ـ 1863) و بوب (1791 ـ 1867) و و. فون هومبولت (1767 ـ 1835). ويمكن القول بشكل صحيح إن الدراسة المقارنة والتاريخية للأسرة الهندوأوروبية قد بدأت مع راسك وجريم، كما أن المصطلح indogermanish (هندوجرمانية) قد ظهر لأول مرة عام 1823، واستعمله بوت عام 1833م، وقد ورد المصطلح Indo-European في الإنجليزية بداية من 1814م.

غالبا ما يقال وبشكل مسوغ إن راسك وجريم وبوب كانوا هم المؤسسين لعلم اللغة التاريخي العلمي. لقد كتب راسك أول قواعد نظامية للإسكندنافية القديمة والإنجليزية القديمة[25]، كما رحب بمؤلف جريم Deutsche Grammatik (القواعد الجرمانية وليس القواعد الألمانية)[26] بوصفه بداية علم اللغة الجرماني. والمصطلحان العموميان الحاليان قوي strong وضعيف weak المتعلقان بالتصريفات (شديد stark ورخو schwach)، والأبلوت Ablaut (تدرج الصائت) والأملوت Unlaut (تغير الصائت الذي يمكن أن يعزى لشروط سياقية سابقة) كلها مصطلحات فنية ابتكرها جريم. وعلى الرغم من وجود مجموعة مختلفة من التغيرات الصوتية في تاريخ اللغات المستقلة، أورده أ. تورجوت A. Turgot في مقالته عن الإتملجيا في الموسوعة الفرنسية عام 1756م[27]، فإن راسك هو أول من أوجد النظام في العلاقات الإتملجية بعرض مقارنات نظامية لصيغ الكلمات مضاهيا صوتا معينا في لغة معينة بصوت معين في لغة أخرى ممثلا في عدد من الكلمات المختلفة، وقد كتب: «إذا ما وجد بين لغتين اتفاق في صيغ كلمات أساسية لمدى كبير لدرجة أن قواعد تغيرات الحروف (الأصوات) يمكن اكتشافها في الانتقال من حرف

لآخر، عند ذلك تكون هناك علاقة أساسية بين هاتين اللغتين»[28].
والتماثلات المعروفة حاليا تحت عنوان «قانون جريم» كان قد صاغها وشرحها راسك لأول مرة في المؤلف الذي أوردناه منذ قليل.

ظهر «قانون جريم» لأول مرة في الطبعة الثانية لمؤلفه Deutsche Grammatik (1822م) في قسم طويل عن «الحروف» (von den Buchstaben) بعد قراءته لعلم راسك. وبالإدراك المتأخر ندرك الأهمية القائمة في تاريخ صياغة جريم بوصفها أول القوانين الصوتية التي كان لها أن تشكل الأسرة الهندوأوروبية والأسر الأخرى وتدعمها. ويبقى قانون جريم معروفا أكثر من كل مجموعات التماثلات الصوتية في الأسرة الهندوأوروبية، وبشكل أساسي في تضمنه للعلاقات بين أقسام صوامت ذات ثلاثة مخارج نطقية وثلاثة أنواع للانفراج في اللغات الجرمانية مقارنة باللغات الهندوأوروبية الأخرى. وهذه العلاقات أظهرها جريم في اليونانية والقوطية والألمانية القديمة العليا، وقد احتاجت هذه العلاقات إلى إضافة متأخرة عن طريق قانون فرنر Verner لتفسير النتائج المتباينة لمكان النبر الأولي للكلمة، وللدائرية التقليدية التي تظهر بها التماثلات، وقد اعتمد استعمال جريم لـ Kreislauf (دوران) لوصف التغيرات المتعاقبة، منذ مرحلة ما قبل الجرمانية التي تمثلها اليونانية مرورا بالقوطية إلى الألمانية القديمة العليا، اعتمد بشكل كامل على تعيين الانفجاريات الهائية مثل [p^h]، [t^h]، [k^h] مع مماثلاتها الاحتكاكية [f]، [θ]، [x] (أو h). وهذا التعيين لم يكن ممكنا بالتأكيد إلا عندما كانت دراسة التغير الصوتي لا تزال تباشر بوصفها دراسة الحروف. ولكن على الرغم من اصطلاح «تغيرات الحروف» وبعض الخلط فيه الذي استمر مع راسك وجريم، فإن أعمالهما تشير لتقدم محدد جدا في مجال الافتراضات التي كانت جزافية حتى ذلك الوقت حول إمكانية استبدال صوت (حرف) بآخر في تاريخ اللغات (أعاد جريم في الطبعة الثالثة - 1840 - لمؤلفه عنونة القسم بـ von den lauten (حول الأصوات)). وهناك ضرب لأمثلة مفصلة من لغات محددة في علاقتها بالأسر اللغوية المحددة، ودراسة نظامية متأخرة لأصول الكلمات التي قدمها بوت في مؤلفه Etomological investigations in the field of the indogermanic languages[29]، بدأ في ذلك الوقت يحل محل الافتراضات المسبقة العامة

لمفكري القرن الثامن عشر حول أصل اللغة وتطورها، مع مجموعات معززة بشكل متبادل من التماثلات المعجمية بين مجموعات خاصة من الكلمات والمرفيمات في مجموعات معينة من اللغات، وبعد حوالي قرن كان لوصف لغات أكثر فأكثر أن يشكل فحصا ضروريا قائما على الملاحظة ومصححا لتأملات «القواعديين العموميين» في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ومهما يكن فعلى المرء أن يحاول رؤية جهود هؤلاء اللغويين المقارنين التاريخيين الأوائل في إطار محيطهم المعاصر لهم أيضا، وليس فقط كما يمكن مطابقتها مع الصورة التالية التي لدينا لتطور علم اللغة. والمصطلح الفعلي «قانون جريم» عبارة عن مفارقة، فهو لم يستفد استفادة فنية من كلمة «قانون law» ليصف ما أشار إليه بوصفه تحولا للصوت (laut-verschiebung)، فقد لاحظ في فقرة كثيرة الورود أن : «تحول الصوت عبارة عن ميل عام، ولا يتبع في كل الأحوال»[30]. لقد كان جريم وبوب إلى حد بعيد ابنين لعصرهما، وقد تأثرا بالطابع التاريخي والقومي للعصر الرومانسي الذي عاشا فيه، وكانا منسجمين معه. وكان أ. و. شليجل هو المترجم الألماني لشكسبير، وقد نظر إليه من ذلك الحين باعتباره جزءا من الأدب الألماني (”unser shakespeare“) واعتبر على انسجام كبير في الروح مع الـ Sturm und Drang (العاصفة والضغط) ومع الحركة الرومانسية في الحياة الألمانية والأدب الألماني. وقد عمل جريم مع أخيه في جمع الحكايات الشعبية الألمانية التي كونت الأساس «لحكايات جريم للجنيات» التي يعرفها الأطفال ويحبونها على نطاق العالم. وهذا العمل إلى جانب الدراسات اللغوية الجرمانية لياكوب جريم ينتمي للتنامي العام والسريع للاعتزاز القومي باللغة الألمانية، الذي بدأ في أوائل القرن الثامن عشر عندما اقترح ليبنز تصنيف معجم لكل تنوعات اللغة الألمانية[31]، ويعتبر هذا ازدهارا ملحوظا في الأدب الألماني منذ ذلك الحين فصاعدا.

لقد طبق جريم أفكار هردر (ص 17 ـ 248 من قبل) عن العلاقة القوية بين الأمة ولغتها على البعد التاريخي للغة، ناظرا في الواقع إلى تحول الصوت الذي منحه اسمه باعتباره تأكيدا مبكرا للاستقلال من طرف أسلاف الشعب الألماني[32]، وهي التفسيرات القومية للظواهر اللغوية التي ظل يحملها هو و. شيرر W. Scherer أيضا لجيلين بعد ذلك[33].

شكلت التصورات اللغوية للقرن الثامن عشر كثيرا من خلفية الأعمال المبكرة للقرن التاسع عشر، فمؤلف Investigation لراسك كان بحثا نال جائزة من «الأكاديمية الدانمركية للعلم» لأنه بحث عن المصدر الذي يمكن أن تكون اللغة الإسكندنافية القديمة قد اشتقت منه بشكل أكثر تأكيدا[34]، على الرغم من أنه رفض الاعتراف بهذا «المصدر» في أي لغة موجودة أو لغة فعلية موثقة. وقد رأى بوب أن الغاية الرئيسية من عمله Conjugation system هو إعادة بناء التركيب القواعدي الأصلي للغة التي أنتج تحللها التدريجي اللغات الموثقة للأسر الهندوأوروبية[35]. ولقد فهم التغير اللغوي باعتباره تحللا لحالة اللغة الأصلية المتكاملة[36]، وفي تلك الفترة لم تعتبر اللغة السنسكريتية في الواقع هي لغة الأسرة الأصلية، ولكنها اعتبرت الأقرب إليها في التركيب الصرفي. وقد صرح مييه Meillet في تشبيه لافت للنظر بأن بوب في بحثه عن الوضع الأصلي للغة الهندوأوروبية، قد اهتدى لاكتشاف أسس القواعد المقارنة مثلما اكتشف كرستوفر كولمبس أمريكا في بحثه عن طريق جديد للهند[37]. وقد صرح بوب في مؤلفه الأخير Comparative grammar بأن غايته هي الوصف المقارن للغات المعنية، وبحث القوانين التي تحكمها، وبحث أصل صيغها التصريفية[38].

كان استعمال المقارنة باعتبارها مفتاحا للتاريخ المبكر، وتصور التغير باعتباره تحللا للتكامل القديم، كانا كلاهما خاصية للتفكير العلمي للعصر[39]. وقد احتفظ بوب في تحليله للصيغ التصريفية للغات الأسرة الهندوأوروبية بفكرتين أخريين من أفكار القرن الثامن عشر، فقد مال لاعتبار التصريفات عبارة عن نتيجة لزوائد قديمة لكلمات مساعدة مستقلة فيما مضى، وهي طريقة كان يستحسنها هورن توك بالفعل (ص 257 من قبل)، ومن هنا فقد حلل صيغ الماضي القوطي الضعيف مثل sokidédun (هم بحثوا) بوصفها تحتوي على فعل أصلي هو «يفعل to be»، وحلل زمني المستقبل والماضي الناقص اللاتينيين إلى -b- (amabo «سوف أحب»، amabam «كنت أحب»... إلخ) باعتبارهما مشتقين من الجذر bhu «يكون to be» (في fui «كنت»... الخ». وكما لاحظنا من قبل فمثل هذه العمليات لصياغة الكلمة تحدث بالتأكيد، وبعض تحليلاته الإتملجية مقبولة، ولكن تعميمه للعملية إلى حد تحليل الكلمة اللاتينية amaris «أنت محبوب» إلى أنها من amasis

بوصفها تحتوي على العنصر -S- القريب من الضمير التصريفي (s(é، وتحليل الماضي السجماتي (السيني) والمستقبل اليونانيين مثل luso, elüsa «أطلقت، سوف أطلق»، بوصفهما يحتويان على جزء من الفعل «يكون to be» (اليوناني es-، والسنسكريتي ـ as)، هذا التعميم عبارة عن فرض نظرية مسبقة في مقابل ما تثبته الحقائق. وفي الواقع فإن بوب أيضا يزعم أن المكونات الشكلية للجذر (نعت) وفعل الربط (المسند) والشخص (مسند إليه) توجد في الصيغ الفعلية المتصرفة بوصفها قاعدة عامة مستشهدا بمثال لاتيني مقبول في الظاهر هو possum «أنا قادر»، وببعض الأمثلة غير الممكن الدفاع عنها مثل amavi «أحببت» التي طابق فيها بين - V - والجذر bhu «يكون to be»[40]. وبينما كان الكثير من تحليلاته الإتملجية القائمة على هذه الأسس غير ممكن، فإن هدفه يمكن أن يفهم بوصفه محاولة إعطاء صياغة شكلية للتحليل المنطقي للأفعال، الشائع بين قواعديي بورت رويال وبين بعض القواعديين الآخرين في القرون السابقة[41].

ولكن بسبب كل ما قيل في الفقرة السابقة فإن اللغويين الذين كنا نتتبع أعمالهم وتفكيرهم في الصفحات القليلة السابقة، كانوا كلهم علماء ينتمون في الروح لأوائل القرن التاسع عشر، وكانوا يفكرون حسب المبادئ التي أصبحت منظمة وسائدة في بقية القرن. ولكن يجب علينا الآن أن نشير إلى رجل امتدت حياته في القرنين (1767 ـ 1835م)، وينتمي تفكيره في اللغة وفي مكانتها المهمة في الحياة الإنسانية إلى القرن الثامن عشر بشكل قوي، هذا الرجل هو فلهلم فون هومبلت.

لقد كتب بغزارة على مدى فترة طويلة من حياته المهنية عن موضوعات مختلفة في علم اللغة، وعن لغات مختلفة. وبقدر ما يمكننا اكتشاف الموضوع العام الذي يسود كتابته يبدو أنه كان معنيا بشرح الجانب الإبداعي بشكل غير محدود للغة، أي الجانب القواعدي والجانب المعجمي كليهما، والذين عن طريقهما يمكن أن نجعل الإمكانيات المحدودة بالضرورة المتاحة لكل متكلم، أن تستجيب لكل الحاجات التي يمكن أن يقابلها هذا المتكلم بوصفه فردا أو عضوا في أمة أو جماعة لغوية.

كانت هذه العناية بالجانب الإبداعي للغة هي التي قادته لتعريف اللغة بوصفها «طاقة energeia»، أي قدرة عند المتكلم ـ المستمع، وليس بوصفها

«عملا ergon»، أي وصف القواعديين المحدد الميت. وهذا هو ما قاده لمدى أبعد، وهو مفهوم الصيغة form اللغوية أي innere sprachform التي تحدد البنية الصوتية والقواعدية والمعجمية لكل لغة، كما قاده إلى تنميطه الثلاثي المشهور حاليا للغات، رغم أنه في الواقع تنميط غير أصيل، وكل نمط في نظره يجاهد من أجل الكمال الداخلي بوصفه وسيلة للتعبير عن روح الفرد وروح الأمة.

بهذه المجاهدة المفترضة من أجل التحسن والاكتمال من جانب اللغة، وهي إلى مدى معين عبارة عن تطبيق لغوي للتفكير الهيجلي، فإن همبولت ينضم لآخرين في عصره في مديحهم للغة السنسكريتية، بوصفها مثالا رائعا للبنية التصريفية. وكان مدركا تماما لأهمية السنسكريتية ولعلم اللغة الهندوأوروبي التاريخي ـ المقارن المتطور في ذلك الوقت، وهذا يشهد عليه ضمانه لتعيين بوب في جامعة برلين (ص 226 من قبل)، ولكنه أوضح أن اهتماماته الخاصة تنصب على اللغة بشكل عام بطريقة القرن الثامن عشر، وليس بالتركيز المنهجي الذي جاء بالضرورة مصاحبا لأعمال القرن التاسع عشر[42].

كان ولهلم فون همبولت واحدا من أكثر المفكرين عمقا وأصالة في المسائل اللغوية العامة في القرن التاسع عشر، وقد يتساءل المرء: ألم يكن من الممكن أن ينال مكانة مثل تلك التي نالها دي سوسير ـ de Saus sure باعتباره أحد مؤسسي التفكير اللغوي الحديث، لو كان أسلوبه أقل إسهابا، وكانت أفكاره أكثر تحققا وتمثيلا مما كانت عليه، وكانت أعماله الغزيرة معروفة أكثر ومقروءة بشكل واسع. لقد كان واحدا من اللغويين القلائل في القرن التاسع عشر الذين لم يركزوا بشكل كبير على التاريخ، ولم يميز بشكل حاد في الواقع بين جانبين لعلم اللغة: الجانب التزامني synchrony والجانب التعاقبي diachrony، واعتمد على معرفته هو وعلى ما قرأه عند بوب وعند آخرين في البحث عن إجابات للمسائل التي أثارها ذات الطبيعة اللغوية العامة أساسا.

وهمبولت، وهو أخو العالم الجغرافي والإثنوجرافي أ. فون همبولت الذى قام بدور مهم في الشؤون العامة لبروسيا، كان رجل أسفار إلى حد بعيد، وكان على معرفة بعدد من اللغات الغربية والشرقية، مع اطلاع معين

على قليل من اللغات الأمريكية الهندية، وقد نشر مقدارا كبيرا من الكتابات عن اللغة وعن اللغات، والتي من أكثرها أهمية مؤلفه: The variety of human language structure (تنوع بنية اللغة الإنسانية)، والذي نشر لأول مرة بعد وفاته بوصفه مقدمة مطولة لوصفه للغة كاوي القديمة، وهي لغة جزيرة جاوة[43]، وقد رحب به بلومفيلد بعد قرن باعتباره «أول كتاب عظيم عن علم اللغة العام».

ونظرية اللغة عند همبولت تؤكد على المقدرة اللغوية الإبداعية الكامنة في مخ كل متكلم أو عقله. واللغة يجب أن تتماثل مع القدرة الفعالة التي ينتج بها المتكلمون الأقوال وبها يفهمونها، ولا تتماثل مع النتاج الملاحظ لأفعال الكلام والكتابة، فهي حسب كلماته مقدرة إبداعية (energeia, Tatigkeit, Erzeugung)، وليس مجرد نتاج (ergon, Werk, Erzeugtes)[44]. وتبقى اللغة أقل تماثلا مع النتاجات الميتة لتحليل القواعديين. والمقدرة اللغوية عبارة عن جانب جوهري من جوانب العقل الإنساني، وعلى النقيض لا يمكن أن تنشأ اللغة نشأة بيئية تماما، واللغات ـ بطبيعة هذه المقدرة ـ يمكنها التغير والتكيف حسبما تتطلب الظروف، وبهذا الشكل فقط يمكن أن تفسر الحقيقة (والسر) المحورية للغة، فالمتكلمون يمكنهم أن يستخدموا إمكانيات اللغة المحدودة المتاحة لهم استخداما غير محدود في أي وقت، ولذلك فكيفما حلل المرء ووصف لغة معينة فسوف يبقى شيء ما من طبيعتها الأساسية لم يوصف، وهي نقطة ربما توجب على لغويي الوقت الحاضر الذين يعتمدون على همبولت في جانب من نظريتهم أن ينتبهوا إليها[45].

وعلى الرغم من أن المقدرة اللغوية مقدرة عامة فإن همبولت يتبع مبادئ تفكير هردر في التأكيد على شخصية كل لغة مختلفة بوصفها خاصية مميزة للأمة أو الجماعة التي تتكلمها (هنا تبرز دعاوى القرن التاسع عشر القومية القائمة على الهوية اللغوية)، والأساس النطقي للكلام أمر مشترك عند كل الناس، ولكن الصوت ليس له دور إلا بوصفه المادة السلبية للبنية أو التركيب الشكلي للغة (innere Sprachform)[46]. والـ innere Sprachform عند همبولت هو البنية الدلالية والقواعدية للغة معينة، والتي تنتظم العناصر والأنماط والقواعد المفروضة على المادة الخام للكلام. وهو جزئيا أمر مشترك لدى كل الناس وقائم في المؤهلات العقلية للإنسان، ولكن جزئيا

أيضا فإن الـ Sprachform المستقل لكل لغة يشكل هويتها الشكلية واختلافها عن كل اللغات الأخرى. وهذا المبدأ المنظم لكل لغة يحكم تركيبها المقطعي وقواعدها ومعجمها، والتمييز بين القواعد والمعجم تمييز ذو دلالة تعليمية فحسب[47]. والإمكانيات الأخيرة للـ innere Sprachform لكل لغة هي ساحة أدبائه، وما هو أكثر أهمية هو أن لغة الشعب المعين وتفكيره يتعذر الفصل بينهما. وهمبولت ينتقل بمفهوم هردر عن التطور المتوازي للتفكير واللغة لمدى أبعد «فلغة الناس هي روحهم، وروحهم هي لغتهم»[48].

وكل لغة عبارة عن نتاج لماضيها، وبعض اللغات تظهر تقدما أكثر من غيرها بوصفها أدوات وصورا للتفكير، وقد صرح - اتساقا مع العصر - بأن اللغة السنسكريتية هي اللغة الأكثر تطورا من أي لغة من اللغات التي كانت معروفة[49]. فالتفكير والإدراك يتحدان ويكونان قابلين للتوصيل من خلال اللغة فحسب، والتفكير واللغة يعتمد كل منهما على الآخر، ويتعذر الفصل بينهما، والكلمات ليست أوصافا مفردة أو أسماء، ولكنها في نفس الوقت تشير لشيء معين وتضعه في فئة متميزة من فئات التفكير[50]. وتنتظم كلمات كل لغة في كل منظم لدرجة أن نطق كلمة واحدة يفترض مسبقا كل اللغة بوصفها بنية دلالية وقواعدية، والكلمات المقترضة من لغات أجنبية فقط يمكنها أن تكون كلمات معزولة خارج النظام[51]. ولذلك فإن الاختلافات بين اللغات لا تتوقف فقط على أصوات الكلام المختلفة التي تستعملها تلك اللغات، ولكنها تشتمل على اختلافات في تفسير المتكلمين وفي فهمهم للعالم الذي يعيشون فيه (Weltansicht)[52].

وتأثير هذا الأسلوب من التفكير حول اللغة لم يتم الشعور به في حينه، وقد أشرنا إلى أنه بينما ينوه همبولت بمعاصريه بشكل صريح فلا يبدو أنهم قد استفادوا استفادة كبيرة من أفكاره[53]. ولكن عددا من الأفكار في أعمال أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين يمكن إرجاعه إليه، فقد اعتمد عليه هـ. شتينثال H. Steinthal (تلميذه) و و. وونت W. Wundt في تطويرهما لعلم النفس اللغوي وعلم النفس القومي (Volkerpsychologie)، كما طورت المدرسة الجمالية والمدرسة المثالية مذهبه عن الشخصية والإبداعية والطاقة الفنية الكامنة لكل لغة. وفي وقت أكثر حداثة ظهرت اتجاهات «همبولتية جديدة» في علم اللغة الأوروبي خاصة فيما يتصل

بعمل ل. فسجربر L. Weisgerber عن الألمانية، كما أن علاقة آراء همبولت بنظريات وورف في أمريكا ليست في حاجة إلى شرح، فهناك خيط مباشر في علم اللغة الأمريكي تم رسمه يمتد من همبولت. خلال د ج. برنتون D. G. Brinton (الذي ترجم بعض أعماله المنشورة) وف. بووز F. Boas و إ. سابير E. Sapir - إلى ب. ل. وورف B. L. Whorf مع إشارة خاصة لأعمال عن اللغات المحلية في أمريكا[54].

وفي الوقت الحاضر، ومع عناية اللغويين التوليديين بالإبداعية غير المحدودة للغة، ومع اتساع الاهتمام العام بالدراسات التنميطية، حظيت أفكار همبولت عن اللغة بالمكانة الجديرة بها تماما، وقد وجه اهتمام كبير لبعض المنابع الفلسفية المحتملة لأفكاره عن اللغة، فقد كان مطلعا اطلاعا واسعا على الفلسفة الأوروبية الكلاسيكية والحديثة، وعاش في الفترة التي كانت فيها الفلسفة الألمانية المتمثلة بشكل ممتاز في «مثالية» كانْت وهيجل في طريقها لكي تعتبر هي المؤثر الفلسفي المهيمن في أوروبا ككل.

والمرء قد يلاحظ أيضا كيف أن النظرية الكانتية نفسها كانت ذات تأثير على تفكير همبولت، ونظرية كانْت عن الإدراك تتضمن الإحساسات الناشئة عن العالم الخارجي والتي تنظمها المقولات أو «البدهيات» (Anschauungen) التي يفرضها العقل، والتي أبرزها مقولات المكان والزمان والسببية، وهذه النظرية كانت نظرية فلسفية كلية، وقد كيفها همبولت نسبيا ولغويا بجعل الـ innere Sprachform لكل لغة مسؤولا عن تنظيم مادة الخبرة ووضعها في فئات، بحيث إن متكلمي اللغات المختلفة يعيشون جزئيا في عوالم مختلفة، ولديهم أنظمة تفكير مختلفة، ويمكن للمرء أن يشير إلى استعمال همبولت للمصادر الثلاثة Anschauen و Denkon و Fühlen (إدراك وتفكير وإحساس) فيما يتصل بعمل اللغة[55].

وربما يكون همبولت معروفا أكثر في علم اللغة ببسطه للتنميط اللغوي الثلاثي، أي النمط العازل والنمط الإلصاقي والنمط التصريفي حسب التركيب السائد للكلمة بوصفها وحدة قواعدية[56]. ولكن هذا كان أساسا مشتركا عند عدد من المعاصرين، فـ ف. شليجل قسم اللغات إلى لغات تستفيد استفادة قواعدية من التغيرات الداخلية في صيغة الكلمة، ولغات تستخدم عناصر مرتبة بشكل متسلسل. وتعليقا على هذا أقام أ. و. شليجل

ثلاثة أنواع من اللغات، وهي اللغات العازلة واللغات الإلصاقية واللغات التصريفية، وهو النظام الذي عرضه بوب بشكل مختلف بعض الشيء[57].

إن الأفكار حول التطور التنميطي للغة كانت قد قدمت في القرن الثامن عشر (ص 274 من قبل)، وقد تصور همبولت خطته بوصفها خطة ذات علاقة بالجانب التاريخي رغم أن المسألة أساسا مسألة تصنيف تزامني، وفي عمله Origin of grammatical forms and their influence on the development of thought (1822)، رسم انتقال اللغات من الإشارة الصريحة للأشياء من خلال إلصاق العناصر المعنوية المساعدة إلى التصريف الحقيقي كما نراه في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية، ولكن في مؤلفه (1836) The variety of human language strueture فإن التنميط كان جانبا من جوانب الوصف والتصنيف، والقطبان التنميطيان هما اللغة الصينية واللغة السنسكريتية، وهما أنقى لغة تحليلية أو عازلة وأنقى لغة تصريفية على الترتيب، وكل اللغات الأخرى بما فيها اللغات الإلصاقية عبارة عن لغات تتدرج بين اللغتين السابقتين[58].

اعترف همبولت بقيمة تركيب أي لغة وإمكانياته، ولكنه كان يفضل اللغات التصريفية، تلك اللغات التي تتطلب تنوعات صيغ الكلمة القواعدية فيها، إما تغيرات داخلية في الجذر أو لواصق تتصل بالكلمة عن طريق تغيرات مرفوفونيمية لمرفيماتها المكونة لها (باستعمال مصطلحات متأخرة) بحيث تعزز الوحدة الشكلية للكلمة[59]. وفي الطرف التنميطي الآخر كان موقفه من اللغة الصينية موقفا فريدا، فهو - مثل آخرين كثيرين جدا في عصره (وفيما بعد) - قد نظر للصينية بوصفها لغة خالية من الأقسام أو التمييزات القواعدية الشكلية، ولكنها لهذا السبب تماما تملك تميزها الخاص كلغة. وقد تصور نشأة التصريفات وتطورها في المرحلة التصريفية للغة التي تبعها ضعف تدريجي لمصلحة نمط التركيب الأكثر تحليلية كالذي نراه في الإنجليزية، ولكن الصينية قد احتفظت بتركيبها الأصلي العازل عن طريق محافظتها اللغوية الكبيرة، وقد أشار همبولت بشكل عجيب تماما في تركيبها القواعدي عن الصينية التي لم يكن بها أي تصريفات (والواقع هو أن بعض علماء الصينيات اليوم يعتبرون أن الوضع الذي نعرف به الصينية اليوم عبارة عن نتيجة لفقدان نظام تصريفي مبكر)[60].

وفي قسم مستقل قسم همبولت تراكيب الجملة إلى ثلاثة أنماط أيضا: نمط من دون روابط قواعدية صريحة بين الكلمات كما في الصينية، ونمط تشير فيه صيغ الكلمات للعلاقات القواعدية كما في السنسكريتية، ونمط تمثله بعض اللغات الهندية الأمريكية يكون فيه التركيب الأساسي للجملة مندمجا في كلمة واحدة (اللغات المدمجة أو ذات التركيب المتعدد Polysynthetic). ولا يوجد أي نمط من أنماط صيغ الكلمة أو الجملة هذه خاليا تماما من الملامح الخاصة بالنمطين الآخرين. وينشأ التشوش عندما يندمج النمطان في نمط واحد مما يؤسس مصطلحا رابعا في تنميط صيغ الكلمة، حيث يتقاطع فقط التصريف والإلصاق[61].

وربما كان أكثر الشخصيات تأثيرا وأكثر أهمية من الناحية التاريخية في علم اللغة في منتصف القرن التاسع عشر هو أ. شليشر (21 ـ 1868) A. Schleicher، فقد كتب في حياته القصيرة نسبيا عددا من المؤلفات في علم اللغة التاريخي والنظرية اللغوية، ومؤلفه الأكثر شهرة منها هو Compendium of the comparative grammar of the Indogermanic languages[62]. والعنوان ذو دلالة، فعلم اللغة التاريخي والمقارن في المجال الهندوأوروبي قد اعتبر في ذلك الوقت موضوعا ملائما للعرض النظامي في كتيب يصف النظرية التي تم إنجازها حتى ذلك الوقت، ونرى التطوير الخاص به في مجال علم اللغة التاريخي في العنوان الفرعي: Outline of a phonology and morphology of the Indogermanic parent language (موجز عن فنلجيا وصرف أم اللغات الهندوجرمانية). وقد كان التوصل لمفهوم الأسر اللغوية المرتبطة تاريخيا هو إنجاز بداية القرن التاسع عشر، وكل أسرة تضم عددا محددا من الأعضاء التي تنتمي لسلف لم يعد موجودا (بدلا من البحث بين اللغات المعروفة عن اللغة «الأقدم» أو اللغة «الأصلية»). وقد وجه شليشر اهتمامه إلى طبيعة وأشكال هذا السلف المفترض وإلى العلاقات القرابية التي تربطها بسلالاتها المعروفة.

درس شليشر في شبابه عددا من اللغات الأوروبية، وقام بما يشبه الدراسة الميدانية للغة اللتوانية، وكان مؤلفه Handbook of the Lithuanian Language [كتيب اللغة اللتوانية] هو أول وصف علمي جيد لهذه اللغة، ولا يزال[63]. وقد كانت اهتماماته تضم الفلسفة (من النوع الهيجلي) والعلم

الطبيعي خاصة علم النبات، بالإضافة لعلم اللغة. ونموذج الـ Stammbaumtheorie، أو نموذج شجرة النسب الذي أقام عن طريقه العلاقات بين اللغة الأم وبين اللغات الهندوأوروبية المعروفة، يدين بشيء ما لمناهج التصنيف النباتي وفقا للأنواع والمجموعات في النظام اللينيوي Linnaean]نسبة لعالم النبات السويدي 1707 ـ 1778، المترجم[، ولكن هذا النموذج قد يكون متأثرا جزئيا في الواقع بالمنهج المقارن لإعادة بناء نسب المخطوطات الذي قدمه ف. رتشل F. Ritschl، وهو أحد أساتذة شليشر[64].

وقد جمعت اللغات الموجودة معا عن طريق امتلاك خصائص مشتركة متميزة (التشابهات المعجمية ونتائج التغيرات الصوتية) في أسر فرعية: جرمانية وإيطالوسلتية... إلخ، ولقد افترضت لكل منها لغة أم مشتركة Grundsprache (مثل اللاتينية المنطوقة المعروفة بوصفها أما للغات الرومانسية)، وأرجعت كل هذه الأسر الفرعية إلى Ursprache (لغة أصلية) واحدة تمتلك خصائص مشتركة بينها كلها، وهذا السلف المشترك للغات الهندوأوروبية يمكن إعادة بنائه عن طريق مقارنة الصيغ المتماثلة المدلل عليها في الأسر الفرعية المختلفة، كما أن النظام الكامل للغات في علاقاتها التاريخية قد أقيم في شكل الشجرة[65]. وهذه الصيغ المعاد بناؤها كانت بالطبع مختلفة عن الصيغ المعروفة (وعن الصيغ المخمنة في لغات معروفة بشكل جزئي كما في النقوش المهشمة). وقد شرع شليشر في ممارسة تمييزها بعلاقة نجمية (من هنا نشأ المصطلح المتأخر «صيغ منجمة»)، ولكنه ظل واثقا ثقة كافية في إعادة بنائه لدرجة أنه نشر بالفعل حكاية مؤلفه بالـ Ursprache، تماما مثلما يؤلف المرء اليوم فقرة بلغة ميتة، وهي مغامرة استمتع كتاب متأخرون بنقده بسببها[66].

والـ Stammbaumtheorie، كما يطلق غالبا على نموذج النسب عند شليشر، يمثل تطورا مهما في علم اللغة التاريخي الهندوأوروبي، وفي النظرية اللغوية التاريخية عموما، وهو يقدم طريقة واحدة لعرض أعضاء الأسرة اللغوية، وبالقراءة الهابطة من السلف المستنتج يحصل المرء على صورة معينة لتاريخ اللغات المستقلة ولعلاقاتها التاريخية. ولكن الأمر عرضة لاعتراضات معينة، وهذه الاعتراضات لا تطالب بالتخلي عن الأمر، ولكنها تطالب فقط بتفسير معقول لتمثيله للحقائق تمثيلا استعاريا بشكل حتمي، فاللغات لا تنقسم

بشكل حاد عند نقطة في الزمان تقابل انقسام خط في الشجرة، فعملية الانقسام تبدأ بانقسام لهجي بسيط، ثم تتقدم في طريق التشعب اللهجي المتزايد حتى يتأكد افتراض تمايز لغتين أو أكثر. وهذه عملية طويلة ومتدرجة، وتبقى النقطة التي تنتهي عندها كل مرحلة نقطة اعتباطية بالضرورة. وعلاوة على ذلك فمادام التجاور الجغرافي يسمح بالاتصال اللغوي بين المتكلمين، فإن اللهجات المختلفة بل حتى اللغات المختلفة يمكنها الاستمرار في التأثير إحداها في الأخرى (في هذا الجانب يكون تطور الأسرة اللغوية وتطور الأسرة النباتية عمليتين مختلفتين تماما، على الرغم من أن الاثنتين يمكن تمثيلهما في شكل شجرة). وهذه النقطة الأخيرة أدركها خلفاء شليشر بمن فيهم تلميذه ج. شميدت J. Schmidt، الذي سلم بأن مجموعات مختلفة من اللغات داخل الأسرة الهندوأوروبية كانت تشترك بشكل فريد - ولكنه مختلف - في مجموعات ملامح معينة، من هنا يبدو بطلان الانقسامات الأحادية للـ Stammbaumtheorie، وقد قام شميدت بإكمال هذا، بدلا من تبديله، بنظريته Wellentheorie أو نظرية موجات الابتداعات أي التغيرات اللغوية، بما فيها التغيرات الصوتية التي تنتشر على نطاق منطقة معينة من لهجة لأخرى وحتى من لغة لأخرى مادام الاتصال اللغوي باقيا[67].

ونموذج شليشر يعمل بشكل أفضل بوصفه تمثيلا حرفيا للتاريخ اللغوي، عندما تنتشر اللغة على نطاق مسافات تقتضي انفصالا تاما بشكل قوي بين المتكلمين، مثلما حدث في العصر التاريخي مع المستوطنين الهولنديين في جنوب أفريقيا، ولدى بعض الجماعات المعزولة المتحدثة بالإسبانية في العالم اللاتيني الجديد.

والاعتراض الرئيسي الآخر على التمثيل الحرفي التام لنموذج الشجرة هو أنه يشير إلى أن الانقسامات اللهجية، هي أحدث ملمح في التاريخ اللغوي مادامت اللهجات تقع في أطراف الشجرة. وليس لدينا معرفة معقولة عن الوضع اللهجي في اللغات الميتة إلا بصورة استثنائية كما في حالة اللغة اليونانية القديمة، كما أن الـ Ursprache واللغات الوسيطة المشتركة قد عينت بدقة على أساس ما يزعم أنه كان مشتركا في كل منها بالنسبة لكل المتكلمين، ولكن معرفتنا كلها عن ظروف اللغة تؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن الانقسام اللهجي قد ظهر في العصور السابقة على الأقل كما ظهر في العصور

اللاحقة (وربما أكثر). ويبدو أن مجموعة تماثلات معينة في اللغات الهندوأوروبية تستدعي التسليم ببعض الفواصل اللغوية التي قامت بالفعل داخل الـ Ursprache أثناء فترة الوحدة المفترضة. وبقدر ما يمكن أن يوضع التفسير الحرفي بدقة على النموذج فإنه يجب أن يطالع بشكل صاعد بوصفه جزءا من منهج اللغوي التاريخي، وليس بشكل هابط باعتباره صورة صحيحة للوقائع التاريخية.

أحد الملامح المهمة للـ Stammbaumtheorie هو أن السنسكريتية كانت قد بدأت عند ذلك الوقت تتخذ وضعها الصحيح في الأسرة، فقد خصص لها شليشر مكانا مثل أي لغة أخرى في المجموعة «الآرية» (الهندوإيرانية) رغم أنه زعم أن نظام الصوائت السنسكريتي /a/،/i/،/u/ (الصائتان /e/،/o/ للسنسكريتية قد نشآ فيما بعد من الصوائت المزدوجة diphthongs[68]) كان هو أيضا نظام الصوائت الهندوأوروبي الأصلي، والأنظمة الثلاثية من أي نوع ربما كانت انجذابا للتنشئة الهيجلية. وقد أظهرت دراسة لاحقة أن اللغة السنسكريتية قد خضعت لتغيرات منذ انفصال فرعها عن وضع التوحد الأصلي إلى مدى، مثل اللغات الهندوأوروبية الأخرى على الأقل.

والصورة التي وضع فيها شليشر اللغات سواء في شكل الشجرة أو في صيغ الـ Ursprache قد بقيت دون تغيير، ولكن دراسة أخرى قام بها اختصاصيون في الأسرة الهندوأوروبية قد غيرت تجميع اللغات داخل فروع الشجرة، وكذلك صيغ إعادة البناء والقائمة الفنلجية التي تنسب للـ Ursprache. وما بين عامي 1861م و 1891م استطاع ج فون دير جابلنتز G. von der Gabelentz أن يقول، إن هذه اللغة المعاد بناؤها قد خضعت لتغيرات كبيرة في صيغها[69]، كما أن اكتشاف القرن العشرين لعلاقة اللغة الحثية باللغات الهندوأوروبية قد غير الصورة أيضا. وهذه الموضوعات والبحوث المفصلة في مجموعات اللغات المختلفة داخل الأسرة الهندوأوروبية التي تلاحقت خلال هذه الفترة، عبارة عن أمور تتعلق بتاريخ علم اللغة الهندوأوروبي المقارن وليس بمجال علم اللغة العام ككل[70].

ومهما يكن العامل الأصلي المثير وراء نظرية شليشر في التاريخ اللغوي، فإنها تتوافق مع الأفكار السائدة عن التطور في النصف الأول من القرن التاسع عشر بمضمونها الغائي في التقدم نحو غاية الكمال التركيبي. وفي

سنوات شليشر الأخيرة بعد اطلاعه على الترجمة الألمانية لكتاب «أصل الأنواع» لدارون، الذي قدم نظرية التطور الأحيائي الكلاسيكية، وليس التطور الغائي، اعتبر مع ذلك أن ما كتبه بالفعل عن تاريخ اللغات وما قبل تاريخها يتفق بوضوح مع تفكير دارون نفسه، وفي عام 1863م نشر بحثا قصيرا عن «النظرية الدارونية وعلم اللغة»[71]، واعتبر نفسه عالما طبيعيا، ورأى أن موضوعه ـ اللغة ـ بوصفه نظاما من الأنظمة الطبيعية للعالم يجب أن يعالج بمناهج العلم الطبيعي[*]، وهو نظام له مراحل نشأة ونضج وتدهور بشكل مستقل عن إرادة متكلميه أو وعيهم[72]. ولقد تطلع إلى علم الأحياء في بحثه عن نموذج علمي لعلم اللغة التاريخي. وكانت هذه الأفكار سائدة بالفعل رغم أنها كانت قليلة الإتقان، فقد شبه ف. شليجل القواعد المقارنة بعلم التشريح المقارن،. وكتب بوب أن اللغات يجب أن ينظر إليها بوصفها كائنات عضوية طبيعية تنشأ حسب قوانين محددة، وتسير في مراحل تطور، وتفنى في النهاية[73]. وقد اعتقد شليشر أن نظرية دارون نظرية مناسبة بوجه عام للتاريخ اللغوي مثلما هي مناسبة للمملكة الحيوانية والمملكة النباتية، ورأى أن انتشار اللغات المختلفة على سطح الأرض واتصالها وصراعها يمكن أن يشبه بالصراع من أجل البقاء في دنيا الكائنات الحية، وفي هذا الصراع كانت اللغات الهندوأوروبية هي الظافرة[74].

ومقاربة شليشر البيلجية تحكم كلا من نظريته عن الـ Ursprache ومعالجته للتميط اللغوي، فلقد اعتبر الأنماط الثلاثة السائدة: النمط العازل والنمط الإلصاقي والنمط التصريفي، اعتبرها ممثلة للمراحل التاريخية في تطور اللغات نحو غايتها العليا في التنظيم، وقد عبر عن هذا الاقتناع أكثر من مرة في تصريحاته بأن الأنماط التركيبية اللغوية الموجودة تمثل نتاجات التطورات التاريخية المتعاقبة بنفس الطريقة التي تمثل بها اليوم الأنواع الموجودة في عالمنا البيلجي، الأسماك والزواحف والطيور والثدييات المتطورة بشكل متعاقب[75].

بهذه الطريقة أدمج شليشر في نظرية عامة عن التاريخ اللغوي كلا من

(*) هذه النظرة تجاوزها الزمن، فاللغة ليست نظاما «طبيعيا»، بل هي نظام اجتماعي عرفي، فهي ظاهرة اجتماعية، ولذا فمنهج دراستها يجب أن ينبع من طبيعتها، وليس من طبيعة أي علم آخر، ولكننا ـ في دراستها ـ نستعين بمعطيات علوم مثل التشريح وعلم النفس والأكستيكا والأنثروبلجيا... إلخ (المترجم).

أفكار القرن الثامن عشر وأفكار همبولت، عن الأنماط اللغوية والأفكار السائدة في القرن التاسع عشر حول الدراسة التاريخية المقارنة للأسر اللغوية. والأنماط الرئيسية الثلاثة التي تمثل بالنسبة لهمبولت تقدما عاما في مجال التحقق الكامل للطاقة الكامنة للغة (للـ Vollkommenheit الخاص بها)، قد عرضت في إطار عصر ما قبل تاريخ وتاريخ الأسرة اللغوية الهندوأوروبية والأسر اللغوية الفعلية الأخرى. لقد حدد شليشر مرحلة نمو اللغة فيما قبل التاريخ بقدر ما يتعلق بالأسرة الهندوأوروبية بالـ Ursprache الموحدة، كما أعاد هو بناءها ممثلة المرحلة الناضجة غير المشوهة، واعتبر التطورات التاريخية التالية بمنزلة مرحلة تدهور[76]. وهذا أمكن دعمه بدرجة معينة بتركيب أكثر تصريفية للغات الكلاسيكية القديمة بمقارنتها بسليلاتها المتأخرة، بل إن المرء يلاحظ إعجابا واضحا من جريم بالصرف التصريفي، وبشكل خاص في أنقى تجل له والذي يتمثل في الـ Ablaut بوصفها أفضل نموذج للمكون القواعدي. وقد يكون للشعور القومي بعض التأثير بشكل غير واع، والـ Ablaut عبارة عن عملية مكونية مهمة في اللغات الجرمانية، وهي تستخدم بشكل أكمل في الألمانية مما تستخدم في الإنجليزية على سبيل المثال (قارن الاستعمال التصريفي والاشتقاقي لتدرج الصائت في سلسلة كلمات مثل sprechen «تكلُّم»، sprach «تكلم»، gesprochen «متكلَّم»، sprich «يتكلم»، Gesprach «محادثة»، Spruch «قول، مثل»، Sprüche (جمع)).

لقد كتب جريم مبكرا عن التصريفات «القوية» (استعمال الـ Ablaut) للغات الجرمانية باعتبارها ملمحا فعالا ومميزا لهذه المجموعة، رغم أن الأبلوت - في الواقع - توجد في كثير من اللغات ذات التركيب المختلف تماما[77]. ولقد كان شليشر قاسيا على الإنجليزية فيما يتعلق بالتدهور التاريخي، وكتب مشيرا للتغيرات التي خضعت لها اللغة منذ انفصالها عن اللغات الأخرى بأنها تظهر لنا كيف يمكن للغة شعب مهم في التاريخ وفي التاريخ الأدبي أن تتدهور بسرعة[78].

كان الجدال اللغوي الرئيسي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر معنيا بما يشار إليه اليوم، بوصفه مذهب القواعديين الجدد أو القواعديين الشبان Junggrammatiker. وعندما يعالج المرء هذا الموضوع بوصفه جزءا

من تاريخ علم اللغة فإنه سوف يجد نفسه بالفعل في نطاق التاريخ المعاصر، فمبادئ القواعديين الجدد ومضامينهم عبارة عن، أو يجب أن تكون جزءا من، أي مقرر تعليمي في علم اللغة العام، وتقديمها يجب أن يوجد في الكتب الدراسية الجادة عن الموضوع(79).

وهذا ـ بالطبع ـ بعيد جدا عن القول إن وجهة نظر القواعديين الجدد تفهم وتدرس اليوم بالطريقة الصحيحة التي فهمها بها زعماؤها وحددوها، كما أنه بوصفه حدثا مهما ومتحديا فإن صياغته قد أثارت رد فعل مهما ومباشرا، وما هو أهم أنها دفعت لعدد من الاتجاهات المختلفة للبحث والتفكير في استجابة مباشرة لما تم قوله، وإن قدرا كبيرا من نظريتنا اللغوية، وبشكل خاص نظريتنا عن علم اللغة التاريخي لن يكون على الصورة التي هو عليها اليوم لولا اعتمادها المباشر على مذهب القواعديين الجدد أو الشبان، وبالتعامل مع هذا بوصفه المشهد اللغوي «نكون كلنا اليوم قواعديين جددا».

وعند تقييم دور القواعديين الجدد في تاريخ علم اللغة يجب أن نحاول النظر إليه في محيطه، عندما قدم القواعديون الجدد مبادئهم لأول مرة كرد فعل لما تم قوله وعمله من قبل، وفي وضعه باعتباره جزءا من النظرية اللغوية التالية، وبعبارة أخرى نريد أن نفهم كيف فسر القواعديون الجدد عملهم، وكيف يجد اللغويون اليوم أن من المفيد أن يفسروه ويستخدموه.

لم يكن القواعديون الجدد بأقل من شليشر في كفاحهم من أجل تأسيس عملهم في علم اللغة التاريخي ـ المقارن في إطار العلوم الطبيعية، ولكن في الوقت الذي اتجه فيه شليشر إلى البيلجيا، فإن القواعديين الجدد قد نظروا إلى العلوم الفيزيقية الدقيقة ذات الطبيعة غير الحية مثل الجيلجيا والطبيعيات بوصفها نماذج لهم.

وقد نشر أساس نظريتهم بشكل مختصر في عام 1878م في مقالة برنامجية في مجلة أسسها اثنان من أكبر أنصارها هما: هـ. أستوف H. Osthoff وك. بروجمان K. Brugmann، وفي هذه المقالة تم تقرير ما يلي: كل تغيرات الأصوات تحدث بوصفها عملية ميكانيكية حسب قوانين لا تسمح بأي استثناء (ausnahmslose lautgesetze) داخل نفس اللهجة وفي إطار فترة معينة من الزمن، ونفس الصوت في المحيط الواحد سوف يتطور دائما

بطريقة واحدة، ولكن التشكيل والابتداع القياسي لكلمات محددة بوصفها كيانات معجمية وقواعدية عبارة عن مكون عام للتغير اللغوي في كل فترات التاريخ وما قبل التاريخ(80).

كان هناك علماء مختلفون قد عبروا عن آراء مشابهة في السنوات السابقة، وقد تصادف لأستوف وبروجمان أن يعلنا هذه الآراء بشكل منهجي باعتبارها آراء أساسية لعلم اللغة التاريخي، وأن يقبلا بفرح لقب «القواعديين الجدد» (Junggrammatiker) بوصفه لقبا رسميا، وهو لقب ذو إيحاء سياسي أصلا أطلق على مجموعة من العلماء الشبان في ليبزج حيث كانوا يعملون.

ومفهوم القانون الصوتي كان متأخرا في الظهور، فجريم وبوب قد سلما بوضوح بالاستثناءات، وعلى الرغم من تأكيد شليشر على الاطراد فقد سلم بحدوث التطورات الشاذة بوصفها شواهد إتملجية. وقد أدرك القواعديون الجدد المتطلبات المنهجية لعلم اللغة التاريخي المقارن كما طبقت في نصف القرن الماضي، فلقد ظهر قليل من البحوث المهمة بالفعل في السنوات 76 ـ 1878م التي ميزت برنامج القواعديين الجدد(81).

وقد أصبح واضحا عند ذلك الوقت أن وجود علم اللغة التاريخي والمقارن باعتباره علما قد قام على افتراض الاطراد في التغير الصوتي. وتاريخ لغة ما يستشف من خلال تنوعات مدونة في صيغ ومعاني كلماتها، واللغات تثبت قرابتها بسبب امتلاكها لكلمات تحمل تماثلات في الشكل والمعنى فيما بينها، لا يمكن إرجاعها لمجرد المصادفة أو الاقتراض الحديث. وإذا كان التغير الصوتي غير مطرد، وإذا كانت صيغ الكلمات خاضعة لاختلاف عشوائي وغير قابل للتفسير ودون باعث على مسار الزمن، فإن هذه البراهين تفقد صلاحيتها، والعلاقات اللغوية يمكن إقامتها تاريخيا ـ مع ذلك ـ عن طريق الدليل وراء اللغوي، كالذي توافر في ميدان اللغات الرومانسية المنحدرة من اللغة اللاتينية.

وتقدم العمل العلمي دون صياغة دقيقة للنظرية التي ترتكز عليها صحته ليس حادثة استثنائية في تاريخ العلم، والمفاهيم الضمنية لعلم اللغة التاريخي والمقارن للقرن التاسع عشر قد عبر عنها لسكن Leskien في عام 1876م بقوله: «إذا ما سلم المرء بالتغيرات الاختيارية العارضة وغير المتصلة، فإنه يقرر بشكل أساسي أن هدف بحثه ـ أي اللغة ـ غير قابل للتقدير العلمي!»(82)

وقد تحدث آخرون حول نتيجة مشابهة، ولو أن ذلك كان أقل وضوحا، فقد أوضح فرنر Verner في عرضه لما يعرف الآن بقانون فرنر أن عددا كبيرا من الاستثناءات الواضحة في التحول الصوتي في المجموعة الجرمانية كما صاغها جريم، يمكن أن تفسر بشكل نظامي بالرجوع إلى موقع النبر في الكلمة في المراحل المبكرة للأسرة الهندوأوروبية (على سبيل المثال الكلمة السنسكريتية (في الفترة التي كان النبر الهندوأوروبي باقيا فيها) bhrata، والقوطية bropar «أخ»، أما pita ففي القوطية fadar «أب»))، وقد عنون مقالته بطريقة دالة «استثناء في التحول الصوتي الأول»، وكتب : «يجب أن تكون هناك قاعدة للاستثناءات عن القاعدة، والقضية الوحيدة هي أن نكتشفها». والمفهوم الضمني الآخر للنظرية هو أن التماثلات النظامية بين الأصوات في اللغات تظهر قرابتها، وليس مجرد حالة التشابه الخاصة في الصورة الصوتية الفعلية، وهذا ما قرره أ. مييه A. Meillet بوضوح فيما بعد[83].

كان جريم ومعاصروه واقعين تحت تأثير الحركة الرومانسية، وقد نظر شليشر إلى عمله في إطار البيلجيا، وفي إطار النظرية الدارونية فيما بعد، وقد أراد القواعديون الجدد أن يجعلوا علم اللغة التاريخي علما منضبطا متوافقا مع تلك العلوم الطبيعية التي حققت تقدما مدهشا في القرن التاسع عشر، وكان منها علم الجيلجيا على وجه ملحوظ. وقد آمن علماء القرن التاسع عشر بقوة بعمومية القوانين الطبيعية التي فهمت فهما صحيحا، كما أن اتساق الطبيعة كان دجمة dogma سائدة[84]. وفي ظل هذه الروح كتب أوستوف عن القوانين الصوتية التي تسير وفقا للضرورة العمياء، وبشكل مستقل عن إرادة الأفراد[85]، مع أن اللغة ليست كيانا عضويا فوق شخصي بنشأتها وحياتها كما أكد همبولت وشليشر من قبل ودي سوسير من بعد (تحت تأثير دوركايم)، فاللغة ببساطة تحقق وجودها من خلال الأفراد الذين يكونون جماعة لغوية، والتغيرات اللغوية عبارة عن تغيرات في عادات الأفراد الكلامية، والقواعديون الجدد في اهتمامهم بما اعتقدوا أنه نظرة علمية، قد وجهوا أنظارهم نحو المفاهيم السابقة والتأملية لسابقيهم مثل شليشر بتمييزه لفترة نمو قبل تاريخية وفترة تدهور تاريخية، وقد ادعوا - باستثناء طبيعة الدليل - أنه ليس هناك فرق بين هاتين الفترتين

بقدر ما يتعلق الأمر بالتغيرات اللغوية. وهم - في الواقع - قد صرفوا نظرهم عن الـ Ursprache بوصفها واقعا مفترضا قبل تاريخي، ووجهوه إلى المادة الموجودة في المدونات المكتوبة ولهجات الوقت الحاضر المنطوقة، وبالنظر لسوق stems القواعديين الجدد فإن مفهوم السوق الهندوأوروبية يكون مجرد صياغة formulae (مفترضة)، وليس كلمات أو مرفات morphs فعلية. وفي فقرة معبرة بدقة مؤلمة تماما هاجم أستوف وبروجمان أي تفكير وراء ما تثبته الحقائق على نحو دقيق: «اللغوي المقارن وحده هو الذي ينبذ جو الحلقات الدراسية المعبأ بالافتراضات الذي تتم فيه صياغة جذور الأسرة الهندوجرمانية، ويظهر في الضوء الساطع للواقع الحاضر الملموس من أجل أن يحصل من هذا المصدر على المعلومات التي لا يمكن أن تمنحه إياها النظرية الغامضة، ويمكنه بذلك الوصول إلى عرض صحيح لحياة الصيغ اللغوية وتحولاتها[86].

لم تكن هي المرة الأولى في العلم التي يوضع فيها توجيه المادة وتوجيه النظرية في تقابل خاص، وقد شغل القواعديون الجدد أنفسهم بالمادة وبالقوانين التي تحكم المادة المعتمدة على علم الفسيلجيا (في الصوتيات) وعلم النفس لتغطية مجالات التغير الصوتي والإصلاح القياسي أو المقاومة، وهذه الحركات الواقعية عبارة عن ضرورة مستمرة في العلم. ولكن تخلي القواعديين الجدد عن التفكير عديم الجدوى لمصلحة الاهتمام شديد التدقيق بالتفاصيل، كان على حساب التجاهل المؤقت لكثير مما كان مثمرا في أعمال اللغويين السابقين. والمفهوم البنائي للغة الذي اقترحه همبولت خاصة في نظريته للـ innere sprachform لم يجد له مكانا في أعمالهم، كما أن مجالات علم اللغة التي تقع خارج اهتمامهم قد عولجت من وجهة نظر تاريخية، «فأسس تاريخ اللغة (1880)» Principles of the history of language لـ هـ . بول H. Paul يمثل هذا الأمر (الفصل الرابع)، وهذا ما فعله م. بريال M. Bréal في عمله «بحث في علم الدلالة (1897)» Essay on semantics بشكل أكثر لفتا للنظر، مع أنه قد يكون له الفضل تاريخيا في إدراج مصطلح semantics (sémantique)[87]. وربما كان عبارة عن رد فعل لهذا التأثير وحيد الجانب على الدراسات اللغوية الذي مارسته المدرسة التاريخية، للفترة التي بلغت أوجها في مدرسة القواعديين الجدد التي سادت في نهاية

القرن، أن بعض بنائيي القرن العشرين ووصفييه لم يكلّوا من الإشارات المستخفة «لحفرة القواعديين الجدد» ولتذريريتهم atomism».

أصبحت المدرسة دون شك سائدة عن استحقاق رغم المعارضة التي أثارتها، وحل محل كتب بوب وشليشر المؤلف الصعب الذي أعده برجمان ودلبروك Delbrück تحت عنوان «المختصر في القواعد المقارنة للغات الهندوجرمانية Outline of comparative grammar of the Indogermanic languages (دلبروك هو المسؤول عن الأقسام الخاصة بالنحو). وقد عرض بول نظرية القواعديين الجدد في مؤلفه «الأسس Principles» مصرحا بأن معالجة اللغة معالجة علمية يجب أن تكون معالجة تاريخية، بينما طبق ما ير لوبكه W. Meyer Lübke النظرية على ميدان اللغات الرومانسية[88]. وقد تثقف كل من ج. رايت J. Wright في إنجلترا ومييه في فرنسا بعلم اللغة عند القواعديين الجدد، وكذلك فعل مؤسسو علم اللغة الأمريكي ف. بووز F. Boas و إ. سابير E. Sapir و ل. بلومفيلد ـ L. Bloomfield. وعمل الأخير عن الدراسة التاريخية المقارنة للأسرة الألجونكية Algonkian للغات الهندية الأمريكية، قد طبق النظرية والمنهج التاريخيين بشكل رائع، بالإضافة إلى قدراته]أي بلومفيلد[الوصفية، طبق هذا على أسرة لغات بعيدة ومتميزة بشكل كامل[89].

والقواعديون الجدد ـ كما أشير حديثا [90] ـ تركوا بصمتهم على مرحلة من المراحل المهمة فعليا في تاريخ علم اللغة في القرنين الماضيين، وكان تأثيرهم ثلاثي الأبعاد: في التشجيع الذي منحته مقاربتهم للعلم اللغوي، وفي ردود الفعل المباشرة للذين صدموا بهم، وفي ردود الفعل للأجيال المتأخرة.

والميدانان اللذان رأى القواعديون الجدد أنهما متصلان جدا بعلم اللغة التاريخي كما أرادوا له أن يمارس، هما علم الصوتيات وعلم اللهجات. وعلم الصوتيات الوصفي الذي يرجع تاريخه في أوروبا إلى عصر النهضة على الأقل (صص 199-201 من قبل) قد اتخذ خط تطوره الخاص في القرن التاسع عشر، والذي سوف يكون من المناسب أن نستعرضه في الفصل التالي، وقد تلقى هذا الخط تعزيزا قويا من تأكيد القواعديين الجدد على اللغات الحية، وعلى عدم ملاءمة حروف اللغات الميتة في إعطاء معلومات

عن نطقها الفعلي، ولم يعد ممكنا بعد هذا مطلقا وجود عذر للخلط بين الحرف المكتوب والصوت المنطوق. ومؤلف إ. سيفرز E. Sievers «أسس الصوتيات (1876) Principles of phonetics» يحمل عنوانا تفسيريا إضافيا هو «مقدمة لدراسة أصوات اللغات الهندوجرمانية Introduction to the study of the sounds of the Indogermanic languages»[91].

أصبحت اللهجات المنطوقة لأوروبا بؤرة الاهتمام اللغوي منذ أن قدست الحركة الرومانسية كل شيء يتصل «بالشعب»، ولكن القواعديين الجدد جعلوا هذه اللهجات ميدانا حيويا للبحث العلمي فيما يمكن أن تلقيه من ضوء على التغير اللغوي، ما دامت تمثل المرحلة الأخيرة في تنوع الأسرة الهندوأوروبية[92]. وقد بدأت الدراسات اللهجية والمسح اللهجي والأطالس اللهجية بشكل جدي في هذه الفترة، وإن بعضا من أقوى المناصرين لمذهب القواعديين الجدد كانوا يوجدون بين علماء اللهجات.

والطريقة المتحدية التي عرض بها القواعديون الجدد مبادئهم رغم أنها كانت موجودة ضمنا في مؤلفات القرن السابقة، أعطت وزنا أكبر لدراسة الكلمات المقترضة والاقتراض اللغوي بوصفه ملمحا عاما لتاريخ اللغات، وللقياس باعتباره ميلا ظاهرا دوما. وهذان العاملان كلاهما كانا معروفين من قبل في علم اللغة، فالكلمات المقترضة موجودة منذ العصور القديمة، كما أن القياس في النظرية القواعدية التزامنية اليونانية القديمة؛ أي اطراد الصيغ المتماثلة للتصريفات القواعدية قد فهم باعتباره أحد المبادئ التي توجه اللغة . ولكن هذين العاملين لم ينالا أهمية كبيرة حتى ذلك الحين، وقبل أن تظهر الحاجة بشكل واضح إلى تفسير الخرق الظاهر للقوانين الصوتية، وقد أكد و. شرر W. Scherer في 1868م على أهمية إعادة الصياغة القياسية، ولكن مصطلحه «القياس الخاطئ» قد أوضح المكانة الثانوية المخصصة لهذا الجانب في التغير اللغوي[93].

هذه التطورات كانت كلها متصورة ومقصودة، ولكن الاستجابات الانتقادية والمناوئة كانت استجابات مباشرة، وقد عبِّر عنها في إطار النظرية القائمة والمعرفة القائمة، بينما كانت هناك ردود فعل متأخرة نشأت عن إعادة فحص نظرية القواعديين الجدد، في ضوء التقدم الذي أنجز في نظرية علم اللغة العام وفي التقنيات الوصفية.

وقد اتخذ النقد عددا من الأشكال، فالاستياء الشخصي الذي نشأ بين بعض كبار السن من العلماء بسبب ما بدا لهم أنه تعبيرات قاسية من دون ضرورة من طرف القادمين الجدد (ولد أستوف و برجمان في عامي 1847 و 1849 على التوالي)، وهذا الاستياء أمر مفهوم، ولا يحتاج إلى أي مناقشة تاريخية (فظاظة الشباب شكوى متكررة في العلم كما هي في مجالات الحياة الأخرى)، وقد رأى بعض العلماء أن مبادئ القواعديين الجدد لم تأت بجديد، ولكنها مجرد صياغة لما كان يفعله اللغويون المقارنون والتاريخيون على أي حال، وهذا بمعنى ما واضح بشكل كاف، فالقواعديون الجدد كانوا إلى حد كبير ينطلقون مما كانت تتضمنه الخبرة الحقيقية بالموضوع، مميزين لها عن الافتراضات غير الضرورية والمضللة. وكان هذا فضلا في حد ذاته، كما هو الشأن في أي تقييم في النظرية العلمية والمنهج العلمي، فضلا عن أنهم ـ في تحديدهم للأسس التي يقوم عليها العلم ـ قد قطعوا شوطا طويلا نحو التأكيد على أن التفكير المشوش غير المنضبط، هو الذي يقبل الحجج الباطلة والصلات الإتملجية الزائفة.

ولكن أكثر الحجج أهمية وجوهرية ضد نظرية القواعديين الجدد كما وضعها أستوف وبرجمان وزملاؤهما، قد جاءت من طرف اختصاصيين في فرع اللغة الذي لم يأل القواعديون الجدد جهدا في تشجيعه، وهو دراسة اللهجات الحية، فالفحص التفصيلي لعمل اللغة في الجماعات الصغيرة نسبيا التي بحثت بدقة في هذا المجال، قد أظهر مدى تعقد الظواهر التي يغطيها مصطلحا «الانشقاق اللهجي» «والاقتراض اللهجي» على وجه الإجمال، فاللغة التي درست بدقة أكبر هي التي أظهرت أن الانقسامات اللهجية الجغرافية هي في حالة تقلب مستمر، وبعيدة عن وضوح المعالم حسبما يشير الوصف الأكثر إجمالا وسطحية. والفواصل اللهجية المتوافقة نسبيا والمطلوبة لتحديد لهجة يجب أن تكون تعسفية بذاتها، لأن المرء إذا تابع الخلافات في التفاصيل على كل المستويات، بما فيها النطق، لحدودها المنطقية فإن اللهجة عندئذ تصبح لهجة فرد.

فضلا عن ذلك فالحدود المؤقتة حدود غامضة مثلها مثل الحدود الجغرافية، والتغيرات الصوتية ـ مثل أي تغيرات لغوية أخرى ـ يجب أن تبدأ وتتوقف في إطار حدود زمنية معينة، وكذلك انتشارها في حدود جغرافية

معينة. ولكن الدراسة التفصيلية للأوضاع اللهجية الفعلية تظهر أن هذه الحدود، تحتمل تغير كلمات معينة قبل كلمات معينة أخرى مع استخدام نفس الأصوات، وأن الاختراق اللهجي للحدود اللهجية الرئيسية قد يبطل التطبيق العام للتحول الصوتي في منطقة معينة، والخرائط اللهجية مثل تلك التي عرضت في مؤلف بلومفيلد «اللغة» في صفحة 328، تُظهر نتيجة الإمساك بالتغير اللغوي الحادث ثم تجميده وصفيا.

ولا يكون المرء عند نهاية التنوع اللغوي بعد متابعة الانقسامات الجغرافية حتى اللهجة الفردية، فمعظم الجماعات اللغوية تتقاطع بانقسامات اجتماعية تتجلى جزئيا في الاختلافات في العادات الكلامية، كما تشهد المواقف اللغوية الشعبية «لتصحيح الكلام»، وهناك كثير من الأفراد يملكون في مقدرتهم اللغوية أكثر من لهجة اجتماعية مختلفة، ويملكون غالبا أكثر من لهجة إقليمية مختلفة تستعمل في الظروف المختلفة، وقد تكون هذه الاختلافات - بقدر ما تتصل بالنطق - نتيجة لعمل أو عدم عمل تغير صوتي معين.

والانقسام اللهجي كما فهم ببساطة نوعا ما، وإعادة الصياغة القياسية أو المحافظة على ما هو قائم كانا هما العاملين اللذين تصورهما القواعديون الجدد، بوصفهما يعملان بوضوح ضد عمومية القوانين الصوتية. ولكن الفحص الدقيق للفروق اللهجية قد كشف عن اعتبارات أخرى كانت تتصل بالبحث الإتملجي، لا تؤثر في فئات الأصوات في حد ذاتها بل في كلمات معينة بوصفها مواد معجمية مستقلة. وقد تكون صيغ الكلمات منحرفة عن تطورها الصوتي النظامي المتوقع بسبب التعارض الجناسي homonymic، والتقلص المفرط في الطول والاقتراب أو التطابق مع الكلمات المحظورة taboo والاشتقاقات الشعبية أو الفاسدة، والكلمات المقترضة من لهجة مجاورة لمكانتها العالية وبسبب عوامل أخرى. وهذه الوقائع وقائع فردية بالضرورة، ومتغيرة بدرجة عالية في وقوعها، وهي وقائع قابلة للتفسير بالمعرفة المحددة للظروف (التي لا تكون متاحة غالبا خاصة في الفترات المبكرة للغة)، ولكنها غير قابلة للتنبؤ بها.

من هنا فالأمر ذو دلالة أن كثيرا من النقد الأكثر جدية لتأكيد القواعديين الجدد على العمومية، قد جاء من الاختصاصيين في علم اللهجات، ومما

أطلق عليه الجغرافيا اللغوية. ويمكن للمرء أن يستشهد على وجه الخصوص بـ هـ. شوشارت H. Schuchardt الذي ضمت أعماله مقالة بعنوان «عن القوانين الصوتية: ضد القواعديين الجدد»، وج. جييرون J. Gilliéron المسؤول عن الأطلس اللغوي لفرنسا وعن دراسات كثيرة عن الاشتقاقات الفرنسية الفردية، بما فيها عمله المعروف جدا «أصل الكلمات عن النحلة Genealogy of the words for the bee»[94].

هناك تطور آخر للبحوث اللهجية التفصيلية اتخذ صورة دراسات «الكلمة والشيء» (Worter und Sachen) التي بحث فيها بدقة التاريخ والتوزيع الجغرافي لمفردات الثقافة المادية (الأدوات الزراعية والنباتات المزروعة... إلخ) والمفردات التي تتصل بها، وقد كان شوشارت شديد الاهتمام بهذا، وكذلك ر. ميرنجر R. Meringer المسؤول عن تأسيس مجلة Worter und Sachen في عام 1909م التي كرست بوضوح لهذا المجال.

يعتقد جييرون في المذهب الذي يبدو لأول وهلة معارضا بشكل تام لمذهب القواعديين الجدد ، وهو أن «لكل كلمة تاريخها الخاص». ولكن النظريتين ليستا متعارضتين تماما في الحقيقة، والتغيرات في نطق الكلمات تتطلب شيئين: الأول هو أن انتقال العادات النطقية من جيل لجيل يقوم على التعليم في الطفولة لمجموعة من الأصوات التي تسمع أولا في كلمات معينة، ولكن بمجرد أن تتم السيطرة عليها حتى تستعمل دون جهد في أي عدد من الكلمات، ولكن لأسباب مختلفة، وغير مفهومة تماما بطريقة ما تقع التغيرات في غضون الانتقال المتتابع بين الأجيال، والثاني هو أن تكرار عدد قليل نسبيا من الأصوات في المفردات غير المحدودة فعليا في لغة معينة يفسح الطريق لعمومية التغيرات الصوتية. ولكن الكلمات تتعلم أيضا بوصفها وحدات معجمية كاملة، وأي تأتأة أو تغير فردي أو أي خاصية أخرى في نطق وحدة معينة تتعلم أيضا، وربما يحتفظ بها وتنتشر في الأجيال التالية، وفي حديث الناس أثناء حياتهم. وكل كلمة لها تاريخها المستقل في دلالتها وقواعدها ونطقها، وتطورها الصوتي في معظم الحالات يمكن أن يوصف بالرجوع للتطور الصوتي للأصوات الواقعية فيها، ولكن في حالات معينة فإن صيغتها المنطوقة يجب أن تفسر بالرجوع إلى الظروف الخاصة الكامنة وراء تاريخها الخاص بها. وقد أكد القواعديون الشبان

على الاتساق الصوتي بينما أكد جييرون ومريدوه على كيانها الإتملجي.

رأى القواعديون الشبان أن اللغة ليس لها وجود بعيدا عن المتكلمين، وقد شدد جماعة من اللغويين يعرفون بالمدرسة المثالية أو الجمالية على أهمية المتكلم الفرد في إحداث ونشر التغير اللغوي من كل نوع، وكان زعيم هذه الجماعة من ميونخ، وهُوَ ك. فوسلر K. Vossler الذي استمد أفكاره حول طبيعة اللغة من همبولت، وبشكل أكثر مباشرة من الفيلسوف الإيطالي ب. كروتشيه B. Croce الذي كان صديقا حميما له لمدة نصف قرن.

ومن المهم أن نلاحظ أن هؤلاء اللغويين كانوا ذوي توجهات تاريخية مثل القواعديين الجدد المهيمنين، ولكنهم فهموا تاريخ اللغات بطريقة مختلفة بعض الشيء، وقد أكد فوسلر ـ مثل همبولت ـ على الجانب الفردي والإبداعي للمقدرة اللغوية للإنسان؛ فكل التغيرات اللغوية تبدأ بالابتداعات في عادات الفرد اللغوية، وتلك الابتداعات التي سوف تحدث تغييرا معينا في اللغة تقوم بهذا عن طريق تقليد آخرين لها، وبذلك تنشر نفسها. والقواعديون الجدد قد لا يعارضون هذا، ولكن المثاليين يصرون على الدور الواعي للفرد في العملية وليس على «الضرورة العمياء»، ويعطي كروتشيه أهمية كبيرة للحدس الجمالي بوصفه موجها لكل جوانب حياة الإنسان، على الرغم من أن المرء قد لا يكون واعيا بهذا في حينه، والفنان المتميز فقط هو الذي يتجاوز ما يقوم به كل إنسان طوال الوقت(95).

أكد المثاليون على أن اللغة تعبير ذاتي شخصي أساسا، وأن التغير اللغوي عمل واع للأفراد، وربما يعكس أيضا مشاعر قومية، والاعتبارات الجمالية اعتبارات غالبة في حوافز الابتداع. وهناك أشخاص معينون يكونون من خلال وضعهم الاجتماعي أو مكانتهم الأدبية العالية في وضع أفضل، يمكنهم من بدء تغييرات يتبناها آخرون وينشرونها في اللغة، كما أن أهمية الكتاب العظام في تطوير لغة معينة ـ مثل دانتي في اللغة الإيطالية ـ يجب ألا يبخس قدرها. وفي هذه الناحية وجه المثاليون اللوم للقواعديين الجدد لتركيزهم المفرط على الجوانب الميكانيكية والمبتذلة من اللغة، وهي التهمة التي وجهها فيما بعد ل. سبتسر L. Spitzer الذي كان هو نفسه متعاطفا بدرجة كبيرة مع فوسلر، ضد علم اللغة الوصفي لعصر بلومفيلد(96).

ولكن المثاليين في تركيزهم هم أنفسهم على اللغات الأدبية قد أسرفوا في

التأكيد على العنصر الأدبي أو الجمالي في تطور اللغات، وعلى عنصر الاختيار الواعي فيما هو ببساطة - بالنسبة لمعظم المتكلمين في معظم الأوقات - عبارة عن نشاط اجتماعي طائش يتعلم في الطفولة، وبالتالي يؤخذ كأمر مسلم به، ولا يؤخذ جانب من اللغة في تركيبها وعملها كأمر مسلم به أكثر مما يؤخذ نطقها الفعلي، وهو الجانب الذي ركز عليه القواعديون الجدد جهدهم تماما.

ومع ذلك فإن المدرسة المثالية قد فعلت خيرا بتبنيها للعوامل الإبداعية والعوامل الواعية في بعض مجالات التغير اللغوي، وللدور الذي يمكن للفرد أن يقوم به بشكل مقصود في هذه المسألة.

وبعض مبادئ اللغويين المثاليين - الجماليين قد ضمت للدراسات اللهجية المفصلة، لتنشئ في إيطاليا ما أطلق عليه المدرسة «اللغوية الجديدة» التي جعلت أحد اهتماماتها الرئيسية، العمليات التي عن طريقها تنتشر الابتداعات فوق المناطق الجغرافية (ومن هنا يستعمل أحيانا مصطلح «علم لغة المناطق» فيما يتصل بأعمال هذه المدرسة)، وكذلك الاستنتاجات التاريخية التي يمكن استخلاصها من مقارنة التطورات في المناطق المركزية، بالتطورات في المناطق الهامشية حيث من المرجح أن تحتفظ المناطق الهامشية بملامح أقدم لمدة أطول[97].

كان القواعديون الجدد حافزا لسلسلة مثمرة من البحوث اللغوية بسبب الصدمة التي سببها العرض القوي لآرائهم في المجتمع العلمي لذلك الوقت. ونتيجة لإعادة النظر فيما أخضع له مجمل مسألة العلاقة التاريخية بين اللغات، فإن مبادئهم الرئيسية يمكن النظر إليها بأنها يجب أن تعدل بعض الشيء، ويجب ألا تبطل مطلقا، ومفهومهم عن القوانين الصوتية العاملة في اللغات على أساس «الضرورة العمياء»، عبارة عن «تمدية» [جعل الشيء المجرد كالمادي] غير مرغوب فيها، مثلها مثل المراحل الأسطورية للنشأة والنضج والانحدار التي أيدها من قبل علماء سابقون.

وعدم الاستثناء في القوانين الصوتية يجب ألا يعتبر مقولة واقعية بدرجة كبيرة (رغم أن البحوث قد أظهرت أن هذا تؤيده الوقائع) بوصفه متطلبا منهجيا، فاللغوي يهيئ نفسه لئلا يقبل بشكل نهائي اشتقاقا معينا يبدو أنه ينتهك توافقات الأصوات القائمة في الكلمات الأخرى، في اللغة أو

اللغات التي تستخدمها حتى يكون قادرا على تفسير الانحراف الظاهر بطريقة معقولة نوعا، سواء، كما في قانون فيرنر، عن طريق تحسين الصياغة السابقة للتغيرات الصوتية، أو فيما يتصل باشتقاق معين واحد فحسب. وفي مثل تلك البحوث المستقلة يكون اللغوي مستعدا لإدراك تأثير العوامل النفسية والاجتماعية والجمالية، التي تبطل فيزيقيا أو فسيلجيا]الضرورة العمياء blinde Naturnotwendigkeit في الصياغة المبكرة للقواعديين الجدد. ومهما يكن فالنقطة الأساسية هي أن أي عامل مسوغ أو مدلل عليه يجب أن يكون قابلا لأي استثناء ظاهر، لانتظام التغيرات الصوتية حتى يكون مقبولا علميا.

وبينما لن نكون قادرين بالتأكيد على تفسير كل الاستثناءات الظاهرة، ولن نكون قادرين ـ في غياب المعرفة الكاملة ـ على أن ننكر بشكل مطلق وقوع «التغيرات الصوتية المتقطعة» التي أعطاها خصوم القواعديين الجدد أهمية كبيرة، فإننا ملزمون ـ ما دام علم اللغة التاريخي والمقارن باقيا علميا بأوسع معنى للمصطلح ـ بأن نطرح هذه الاشتقاقات غير المؤيدة بأي براهين لمصلحة علاقة القرابة بين اللغات.

والاعتراضات التي ألقينا عليها النظر حتى الآن، إلى جانب البحوث والتطور الذي كانت هذه الاعتراضات مسؤولة عنه جزئيا، قد نشأت من المرحلة التي كان قد وصل إليها العلم اللغوي في زمن القواعديين الجدد. ويمكن النظر بشكل مناسب في الفصل التالي لردود الفعل المتأخرة القائمة على وجهة نظر علم اللغة التزامني والبنائي، وفي نفس الوقت فإن الأمر جدير بإلقاء نظرة على نتائج علم اللغة التاريخي والمقارن للقرن التاسع عشر.

ومن أفكار السنوات السابقة المعزولة وغير المتطورة ـ رغم أنها ملهمة في بعض الأحيان ـ استنبط العلماء في القرن التاسع عشر نموذجا أمكن عن طريقه عرض تاريخ اللغات، ومنهجا أمكن للبحوث أن تعد وفقا له. وعلى الرغم من أن أعمال هؤلاء العلماء كانت إلى حد كبير مقصورة على الأسرة الهندوأوروبية التي وصلت إلى وضع محدد بوضوح في هذه الفترة، فإنها قدمت نموذجا يحتذى طبق بشكل مثمر ـ رغم النقد الصحيح نوعا ما ـ على أسر لغوية على نطاق العالم تضم بعض اللغات ـ مثل الأسرة

الألجونكية التي أشير إليها بالفعل ـ التي ليس لديها مدونات مكتوبة من عصور سابقة. وقد كان هذا إنجازا كبيرا بأي مقياس، وإن الشخص الذي يمكن أن ينسب إليه بشكل عام العلم اللغوي للجامعات الألمانية، يعد شخصا مشاركا في السمعة الطيبة التي تمتعت بها، بحق ، هذه الجامعات في القرن التاسع عشر.

مراجع إضافية

H. ARENS, Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/Munich (second edition) 1969, 155-399

T. BENFEY, Geschichte der Sprachwissenschaft und orientalischen Philologie in Deutschland, Munich, 1869.

G. BONFANTE, 'Ideas on the kinship of the European languages from 1200 to 1800', Cahiers d'histoire mondiale, 1953-4, 679-99.

K. BRUGMANN and B. DELBRÜCK, Grundriss der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen, Strassburg, 1886-1900.

K. BRUGMANN, Kurze vergleichende Grammatik der indogermanischen Sprachen, Strassburg, 1904.

H.H. CHRISTMANN (ed.) Sprachwissenschaft des 19. Jahrhunderts, Darmstadt, 1977.

D. DROIXHE (ed.), Genèse du comparatisme indo-européen', Histoire épistémologie language 6.2 (1984).

H. M. HOENIGSWALD, On the history of the comparative method, Anthropological linguistics 5 (1963), I - I l

W. VON HUMBOLDT, Uber die Verschiedenheit des menschlichen Sprachbanes, Berlin, 1836 (reprinted Darmstadt, 1949); tr. G.C. BUCK and F.A. RAVEN, Linguistic variability and intellectual development, Coral Gables, 1971.

____, GESAMMETTE SCHRIFTEN, Berlin, 1903 - 36

I. IORDAN, An introduction to Romance linguistics (tr. J. ORR), London, 1937 (revised edition, R. Posner, Oxford, 1970).

M. IVIC, Trends in linguistics, The Hague, 1965, chapters 112.

K. R. JANKOWSKY, The neogrammarians, The Hague, 1972.

O. JESPERSEN, Language, London, 1922, chapters 2-4

A. JOLY, (ed.) La linguistique génétique: histoire et théories, Lille, 1988.

L. KUKENHEIM, Esquisse historique de la linguistique française, Leiden, 1962.

W.P. LEHMANN (ed.), A reader in nineteenth century historical Indo-european linguistics, Bloomington, 1967.

M. LEROY, Les grands courants de la linguistique moderne, Brussels and Paris, 1963, 15-60.

M.L. MANCHESTER, The philosophical foundations of Humboldt's linguistic doctrines, Amsterdam, 1985.

A. MEILLET, Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes, Paris, 1922, Appendix 1.

H. PEDERSEN, Linguistic science in the nineteenth century (tr. J. W. SPARGO), Cambridge, Mass, 1931 (paperback, The discorery of language, Bloomington, 1962).

T. A. SEBEOK (ed.), Portraits of linguists: a biographical source book for the history of western linguistics 1746-1963, Bloomington and London, 1966.

____, Historiagraphy of linguistics, 607-716.

J. T. WATERMAN, Perspectives in linguistics, Chicago, 1963, 18 - 60.

ملاحظات ومراجع

1. JESPERSEN, 1922. 7. cp. H. PAUL, Prinzipien der Sprachgeschichte, Halle, 1920, 20-1.
2. Book I, chapter 9. See further G. BONFANTE, 'Ideas on the kinship of the European languages from A. D. 1200 to 1800', Cahiers d'histoire mondiale 1 (1953-4), 679-99; Robins, 'The history of language classification', Current trends in linguistics (ed. T. A. SEBEOK), 11 (1973), 3-41.
3. Book I, chapter 8.
4. E. BOURCIEZ, Eléments de linguistique romane, Paris 1946, § 320 c.
5. Book I, chapters 10-16.
6. Book I, chapters 4 and 6.
7. cp. J. C. GREENE, The death of Adam, New York, 1961, 623, 235.
8. Origines Antwerpianae, Antwerp, 1569.
9. 'Matricum vero inter se nulla cognatio est, neque in verbis neque in analogia', Diatriba de Europaeorum linguis (Opscula varia, Paris, 1610, 119-22).
10. Stockholm, 1671, (glossary) 78-9.
11. De lingua vetustissima Europae, Stockholm, 1686.
12. G. W. VON LEIBNIZ, Neue Abhandlungen, Frankfurt, 1961, volume 2, 20-1; ARENS, 1969, 94—104.
13. C. I. GERHARDT (ed.), Die philosophischen Schriften von G. F. Leibniz, Berlin 1882, volume 5, 263-4 Further, S. von der Senburg, Leibniz als Sprachforscher, Frankfurt, 1973.
14. ARENS, 1969, 102, 105 - 6.
15. Zurich, 1555; Berlin 1806 and 1817.
16. ADELUNG, Mithridates, volume 1, 149-150 Catherine also sought the help of King Charles III of Spain for information on native American languages (c. L. DE TOVAR, 'J. C. Mutis on American languages'; Historiographia linguistica II (1984) 21329)
17. Linguarum totius orbis vocabularia comparativa, St. Petersburg, 1786-9.
18. ARENS 1969, 136-46. For a survey of early work in comparative linguistics, see BONFANTE, 1953 - 4.
19. ROBINS, 'The history of language classification', in T. A. SEBEOK (ed.), Current trends in linguistics II (1973), 3-41 (see p. 14).
20. ROBINS, 'The life and work of Sir William Jones', TPS 1987, II; ibid., 10; ibid., 12.
21. cp. G. J. METCALF, 'The Indo-European hypothesis in the sixteenth and seventeenth centuries', in DELL HYMES (ed.), Studies in the history of linguistics, Bloomington, 1974, 233 57; H. HOENIGSWALD, 'Etymology against grammar in the early 19th century', in DROIXE, 1984, 95-

100; J. c. MULLER, ‘Saumaise, Monboddo, Adelung: vers la grammaire comparée’, in S. AUROUX et al. (eds), Matériaux pour une histoire des théories linguistiques, Lille, 1984, 38996. On the classification of the American-lndian languages P. S. Duponceau in the early years of the nineteenth century was particularly clear in this respect; his and other American work is documented by M. R. HAAS in ‘Grammar or lexicon? The American Indian side of the question from Duponceau to Powell’, IJAL 35 (1969), 239-55.

22. Uber die Sprache und Weisheit der Indier, Heidelberg, 1801. An English translation of parts of this text in Lehmann, 1967, 21-8. SCHLEGEL, Uber die Sprache, 28.

23. Uber das Conjugationssystem der Sanskrit Sprache in Vergleichung mit jenem der griechischen, lateinischen, persischen, und germanischen Sprache, Frankfurt, 1816; English translation of parts, Lehmann, 1967, 38-45.

___, BENFEY, 1869.

___, ‘... gehören zu den gläzendsten Gestirnen des deutschen Geisteshimmels’; ‘Die Genossenschaft ausgezeichneter Männer, welche zur Entwickelung dieser Wissenschaft beigetragen haben, sind fast ausnahmslos Söhne unsres Vaterlandes’, BENFEY, Op. cit., 15.

24. Demonstratio idioma ungarorum et Lapponum idem esse, Copenhagen, 1770; Affinitas linguae Hungaricae cum linguis Fennicae originis grammatice demonstrata, Göttingen, 1799.

25. Vejledning til det islandske eller gamle nordiske sprog, Copenhagen, 1811; A grammar of the Anglo-Saxon tongue (tr. B. THORPE), Copenhagen, 1830.

26. Göttingen, 1819-37.

27. M. E. DAIRE (ed.), Oeuvres de Turgot, Paris, 1844, volume 2, 724-52.

28. Undersøgelse om det gamle nordiske eller islandske sprogs oprindelse, Copenhagen, 1818 (L. HJELMSLEV, Ausgewählte Abhandlungen, Copenhagen, 1932, volume 1, 49-51); English translation of parts, Lehmann, 1967, 29-37.

29. A. F. POTT, Etymologische Forschungen auf dem Gebiete der indogermanischen Sprachen, Lemgo, 1833-6.

30. ‘Die Lautverschiebung erfolgt in der Masse, tut sich aber im einzelnen niemals rein ab’, Deutsche Grammatik (second edition), Berlin, 1870, volume 1, 503.

31. Unvorgreifliche Gedanken betreffend die Ausübung und Verbeserung der deutschen Sprache (Quellen und Forschungen zur Sprachund Culturgeschichte 23 (1877), 4492).

32. Geschichte der deutschen Sprache (fourth edition), Leipzig, 1880, volume 1, 292.

33. W. SCHERER, Zur Geschichte der deutschen Sprache, Berlin, 1868. On these aspects of Grimm’s work see v. WYSS, Die wilde Philologie: Jacob Grimm und der Historismus, Munich, 1979

34. PEDERSEN, 1931, 248 - 9.

35. Conjugationssystem, 8-11.

36. cp. RASK, Undersøgelse (HJELMSLEV, Ausgewählte Abhandlungen, volume 1, 48-9.

37. MEILLET, 1922, 458.

38. Vergleichende Grammatik des Sanskrit, Zend, Griechischen Lateinischen, Litauischen, Gotischen, und Deutschen, Berlin, 1833, III.

39. cp. COUNT DE BUFFON (1707 - 88), Natural history (tr. W. SMELLIE), London, 1785, volume 3, 216, volume 8, 62 - 3; J. F. BLUMENBACH (1752-1840), A manual of the elements of natural history (tr. R. T. GORE), London, 1825.

40. Conjugationssystem, 96, 151, 99, cp. 148; Analytic comparison of the Sanskrit Greek, Latin, and Teutonic languages (1820, reprinted in Internationale Zeitschrift fur allgemeine Sprachwissenschaft 4 (1889), 14-60), 23, 46-7, 53-6, 58.

41. cp. P. A. VERBURG, 'The background to the linguistic conceptions of Bopp', Lingua 2 (1950), 438-68.

42. cp. P. R. SWEET, Wilhelm von Humboldt, a biography, Columbus, 1980, volume 2, 394-5.

43. HUMBOLDT, 1949. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, 18

44. HUMBOLDT, Op. cit., 43 - 4.

45. 'Die Sprache muss von endlichen Mitteln einen unendlichen Gebrauch machen', ibid., 103. cp. N. CHOMSKY, Current issues in linguistic theory, the Hague, 1964, 17-21.

46. HUMBOLDT, Op. cit., 89 - 98, 269.

47. ibid., 48.

48. 'Ihre Sprache is ihr Geist und ihr Geist ihre Sprache', ibid., 41.

49. ibid., 92; 291.

50. ibid., 115.

51. W. von Humbolt, 190, 3-36 volume 4 (1905), 14, volume 3 (1904), 295.

52. HUMBOLDT, 1949,.26.

53. ARENS, 1969, 205 - 6.

54. W. WUNDT, Völkerpsychologie, Leipzig, 1905 - 6; IORDON, 1937, ch. 2; W. BUMANN, Die Sprachtheorie Heymann Steinthals, Meisenheim, 1965; L. WElSGERBER, Von den Kräften der deutschen Sprache, volumes 1-4, Dusseldorf, 1949-50; id., Das Menschheitsgesetz der Sprache, Heidelberg, 1964; H. BASILUS, 'Neo Humboldtian ethnolinguistics', Word 8 (1952), 95-105; J. B. CARROLL, Language, thought and reality: select writings of Benjamin Lee Whorf, New York, 1956; D. HYMES, 'Notes towards a history of linguistic anthropology', Anthropological linguistics 5 (1963), 59-103; T. BYNON, 'Leo Weisgerber's four stages in linguistic analysis', Man n.s. I (1966), 468-83; R.L. BROWN, Wilhelm von Humboldt's conception of linguistic relativity, The Hague, 1967.

55. HUMBOLDT, 1949, go. E. CASSIRER, 'Die Kantischen Element in Wilhelm von Humboldts Sprachphilosophie', Fertschrift P. Hensel, Greiz, 1923, los-27; U. V. SLAGLE, 'The Kantian influence on Humboldt's linguistic thought', Historiographia linguistica (1974), 341 - 50; MANCHESTER, 1985; L. FORMIGARl, De l'idéalisme dans les théories du langage: histoire d'une transition', Histoire epistémologie langage 10 (1988), 59-80.

56. HUMBOLDT, 1949, 114—26.

57. BENFEY, 1869, 366-7; BOPP, Vergleichende Grammatik, S 108.

58. HUMBOLDT, Uber das Entstehen der grammatischen Formen und ihren Einfluss auf die Ideenentwickelung, 1822 (STEINTHAL, 1883, 67-101); HUMBOLDT, 1949, 204, 124.

59. MANCHESTER, 1985, chapter 7.

60. HUMBOLDT, Op. cit., 292 - 3, 169, 258; B. KARLGREN, Le protochinois, langue flexionnelle', Journal asiatique 15 1920), 205-32. As recently as 1937 it was thought worthwhile writing an article under the title 'Has the Chinese language parts of speech?', TPS 1937, 99-119 (W. SIMON).

61. HUMBOLDT, 1949, 151-61; cp. c. E. BAZELL, Linguistic typology, London, 1958, 17-18.

62. Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen; kurzer Abriss einer Laut- und Formenlehre der indogermanischen Ursprache, Weimar, 1861 (pagination from 4th edn., 1876).

63. Handbuch der litauischen Sprache, Prague, 1856-7.

64. HOENIGSWALD, 1963.

65. Compendium, 7; fuller version, Die darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft (second edition), Weimar, 1873, ad fin.

66. Text in JEPERSEN, 1922, 81 - 2.

67. J. SCHMIDT, Die VermandschaftsverhUaltnisse der indogermanischen Sprachen, Weimar, 1872; cp. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, 314-19.

68. W. S. ALLEN, Phonetics in ancient India, London, 1953, 62-4.

69. G. VON DER GABELENTZ, Die Sprachwissenschaft (second edition), Leipzig, 1901, 170.

70. Brief details and references in PEDERSEN, 1931, esp. chapter 7.

71. Die darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft, Weimar, 1863 (second edition, 1873); I. P. MAHER, 'More on the history of the comparative method: the tradition of Darwinism in August Schleicher's work, Anthropological linguistics 8.3 (1966), 1-12. SCHLEICHER, Die Sprachen Europas (Linguistische Untersuchungen 2) Bonn, 1850 (edited with introductory essay by E. F. K. Koerner. Amsterdam, 1983.

72. Compendium, I-3; Sprachvergleichende (linguistische) Untersuchungen, Bonn, 1848-1850, volume 2, 21; Darwinsche Theorie, 6-7; Die deutsche Sprache (second edition), Stuttgart, 1869, 37, 47.

73. Uber die Sprache, 28; Vocalismus oder Sprachvergleichende Kritiken, Berlin, 1836, 1; 'Die Sprachen sind als organische Naturkorper anzusehen, die nach bestimmten Gesetzen sich bilden, ein inneres Lebensprinzip in sich tragend sich entwickeln, und nach und nach absterben.'

74. 'Das was Darwin für die Arten der Tiere und Pflanzen geltend macht, gilt nun aber auch, wenigstens in seinen haupisächlichsten Zügen, für die Organismen der Sprachen', Darwinsche Theorie, 13; op. cit., 31-2.

75. Sprachvergleichende Untersuchungen 1.4-5: 'was in der systematischen Betrachtung neben einander erscheint, das tritt in der Geschichte nach einander, auf' cp. op. cit., 2.9; T. BYRON. 'August

Schleicher, in T. BYNON and F. R. PALMER, Studies in the history of Western linguistics, Cambridge, 1986, 133.

76. Compendium 4; Sprachvergleichende (linguistiche) Untersuchungen, 2, 10 - 20.

77. Deutsches Wörterbuch, Leipzig, 1919, volume 10.2.1., 876.

78. Sprachvergleichende (linguistische) Untersuchungen 2, 231: '. . . wie schnell die Sprache eines geschchtlich und litterargeschichtlich bedeutenden Volkes herabsinken kann.'

79. e.g. L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935, chapter 18, 20, 21; L. R. PALMER, Introduction to modern linguistics, London, 1936, chapters 3, 4, 7.

80. H. OSTHOFF and K. BRUGMANN, Morphologische Untersuchungen I (1878), iii-xx; English translation, Lehmann, 1967, 197-209.

81. Grimm, see n. 30; BOPP, Vocalismus 15: 'Auch suche man in Sprachen keine Gesetze die festeren Widerstand leisten als die Ufer der Flüsse und Meere'; SCHLEICHER, Compendium 489-90; Quite rightly in 1978, the centenary of the neogrammarian manifesto published by Osthoff and Brugmann, the Philological Society devoted its Transactions for the year to a retrospective examination of the theory and the practice of the neogrammarians. See also A. M. DAVIES, 'Karl Brugmann and late nineteenth-century linguistics', and H. M. HOENIGSWALD, 'Nineteenth-century linguistics on itself', in T. R. PALMER (eds.), Studies in the history of western linguistics Cambridge, 1986, 150-71 and 172-88.

82. A. LESKIEN, Declination im Slawisch-Litauischen und Germanischen Leipzig, 1876, xxviii: 'Lässt man beliebige, zufällige, unter einander in keinen Zusammenhang zu bringende Abweichungen zu, so erklärt man im Grunde damit, dass das Objekt der Untersuchungen, die Sprache, der wissenschaftlichen Erkenntnis nicht zugänglich ist'.

83. 'Eine Ausnahme der ersten Lautverschiebung', Zeitschrift fur vergleichende Sprachforschung 23 (1877), 97-130 (101): 'Es muss eine Regel für die Unregelmässigkeit dasein; es gilt nur, diese ausfindig zu machen'; English tr., Lehmann, 1967, 13263; MEILLET, 1922, 470-1.

84. H. W. B. JOSEPH, An introduction to logic Oxford, 1916, chapter 19; T. C. CHRISTY, Uniformitarianism in linguistics Amsterdam, 1983. It may be noted that one of W. D. Whitney's brothers was a professor of geology.

85. Das Verbum in der Nominalkomposition Jena, 1878, 326: 'Die Lautgesetze der Sprachen geradezu blind, mit blinder Naturnotwendigkeit wirken.'

86. Morphologische Untersuchungen I ix-x: 'Nur derjenige vergleichende Sprachforscher, welcher aus dem hypothesentrüben Dunstkreis der Werkstätte in der man die indogermanischen Grundformen schmiedet, einmal heraustritt in die klare Luft der greifbaren Wirklichkeit und Gegenwart, um hier sich Belehrung zu holen über das, was ihn die graue Theorie nimmer erkennen lässt . . . nur der kann zu einer richtigen Vorstellung von der Lebensund Umbildungsweise der Sprachformen gelangen.'

87. H. PAUL, Prinzipien der Sprachgeschichte (fifth edition), Halle, 1920 (tr. H. A STRONG, Principles

of the history of language London, 1891), chapter 4; M. BRÉAL, Essai de sémantique Paris, 1897, (tr. m CUST, Semantics: studies in the science of meaning London, 1900).

88. BRUGMANN and DELBRÜCK, 1886—1900; PAUL, Op. cit., 20 - 2; W. MEYER-LÜBKE, Grammatik der romanischen Sprachen Leipzig, 1890-1902.

89. H. HOIJER (ed.), Linguistic structures of naive America New York, 1946, 85 - 129; c. F. HOCKETT, Implications of Bloomfield's Algonquian studies', Language 24 (1948), 11731.

90. HOCKETT, 'Sound change', Language 41 (1965), 185-204.

91. Grundzüge der Lautphysiologie: zur Einführung in das Studium der Lautlehre der indogermanischen Sprachen, Leipzig, 1876.

92. OSTHOFF and BRUGMANN, Morphologische Untersuchungen 1, viii—ix.

93. Zur Geschichte der deutschen Sprache, Berlin 1868.

94. Uber die Lautgesetze: gegen die Junggrammatiker 1885 (reprinted in L. SPITZER (ed.), Hugo Schuchardt-Brevier, Halle, 1928, 51-87); Généalogie des mots qui designent l'abeille, Paris, 1918.

95. K. VOSSLER, Positivismus und Idealismus in der Sprachwissenschaft, Heidelberg, 1904; B. CROCE, Esterica come scienza dell' espressione e linguistica generale, 1901 (ninth edition Bari, 1950), 18: 'Anchc niente più che una differenza quantitativa possiamo ammettere nel determinare il significato della parola genio, genio artistico, dal nongènio dall'uomo comune'; M. LEROY, 'Benedetto Croce et les études linguistiques', Revue internationale de philosophie, 7 (1953), 342-62.

96. 'Why does language change?', Modern language quarterly 4 (1943). 413 - 31; reply by BLOOMFIELD, Language 20 (1944), 45-55.

97. M. BARTOLI Introduzione alla neolinguistica, Geneva, 1925; G. BONFANTE, The neolinguistic position, Language 23 (1947), 344-75.

8 علم اللغة في القرن العشرين

القرون هي أكثر الطرق تعسفا في تقسيم التاريخ إلى عصور. ولكن في الحالات التي يركز فيها على نزعات معينة في قرون معينة، فإن تقسيم القرون قد يكون قيمة منشطة للذاكرة بعض الشيء، فبين عدد من الوقائع التاريخية والاتجاهات السابقة في علم اللغة، فإن القرن التاسع عشر قد غلبت عليه الدراسات التاريخية، ولكن بتتبعنا لبعض التطورات التي نشأت بشكل مباشر من أعمال القواعديين الجدد فإن هذا قد قادنا إلى القرن العشرين، وكذلك عند تتبع أصل النظريات والمواقف الحالية سوف نعود بفكرنا إلى القرن التاسع عشر والقرون السابقة، ليس من أجل الأسلاف الذين تأثر بهم العلماء، أو العلم الذي تلقوه، ولكن من أجل حركات التفكير المتميزة المتصلة بالعصر الحاضر أكثر مما تتصل بالاهتمامات السائدة للقرن التاسع عشر.

تمت بالفعل دراسة محيط القرن التاسع عشر الذي نشأ فيه علماء القرن العشرين الأوائل، والذي يمكن أن تميز فيه ثلاثة اتجاهات على الأقل: الأول هو التراث المتواصل للأعمال القواعدية والأعمال اللغوية الأخرى التي أعدها علماء أوروبيون بطرق

مختلفة منذ العصور القديمة، والثاني هو الفهم المتعاظم للعلم اللغوي الهندي خاصة في الصوتيات والفنلجيا، والثالث هو تمثل العلم اللغوي - وبشكل خاص في توجهه التاريخي - لمواقف عامة للقرن التاسع عشر، ولنظرية المقارنة ونظرية التطور والنظرية الوضعية للعلوم الطبيعية.

عند محاولة تمييز الاتجاهات التي تحرك ويتحرك فيها علم اللغة في القرن الحالي يكون المرء متعاملا مع «التاريخ المعاصر»، والموقف التاريخي هو نفس الموقف، ولكن المادة تختلف في كونها أكثر وفرة وأقل سهولة في الصياغة. والمرء - من ناحية - معني بالأشخاص والنظريات المألوفة بالفعل في المقدمات الأساسية لعلم اللغة، بدرجة أكبر مما هو معني ببعض أعمال القرن التاسع عشر، وبدرجة أكبر كثيرا بأعمال الفترات الأسبق. ومن ناحية أخرى فإن الاقتراب الشديد من المشهد يجعل تمييز الحركات والاتجاهات المحددة «والمدارس» المستمرة نسبيا أمرا أكثر صعوبة، فالمسافر الذي يترك عينيه تنظران للمشهد البعيد من المكان الذي يجتازه يستطيع أن يرى السهول والجبال والأنهار والغابات التي تكون التضاريس وتميزها، ولكن عندما ينظر لما هو قريب منه فإن التلال والحصباء والأشجار والجداول الصغيرة، لا تقدم غالبا صورة واضحة للكيفية التي سوف يبدو عليها المنظر الطبيعي من مسافة أبعد. إضافة لهذا فإن العلماء السابقين وأعمالهم قد خضعت لمحاكمات صارمة، وفي بعض الأحيان لظلم كبير من قبل معاصريهم ولاحقيهم المباشرين فيما يتعلق بما وجد أنه يستحق الإشارة والتطوير، ولكن هذا لم يبق كله، وبشكل خاص ما هو من الفترات المبكرة. ولقد قيل إن معظم علماء العالم على قيد الحياة الآن، وهذا صحيح بالنسبة لعلماء اللغة بالنظر إلى التوسع الضخم وغير المفحوص حتى الآن في الدراسات اللغوية في جامعات العالم. وأي عمل كالوصف الكامل للأعمال المهمة في علم اللغة الآن وفي الماضي القريب، حتى لو على نطاق شبيه بما أمكن في العصور القديمة والعصور الوسطى، سوف يكون متفاوتا في الطول بشكل فادح، كما أن الإشارة المختصرة لا تكاد تصل لأكثر من ممارسة للتبسيط الأكاديمي. وفي هذا الفصل فإن الغرض هو إلقاء النظر بشكل عام على بعض التطورات الحديثة والحالية في علاقاتها التاريخية بعضها ببعض، وليس تقديم وصف مختصر لكل تطور حيث إن هذا متاح بسهولة

في الكتب الدراسية[1].

الفرق الأساسي والأكثر وضوحا بين القرنين الأخيرين كان هو النهوض السريع لعلم اللغة الوصفي، في مقابل علم اللغة التاريخي، حتى كان له وضع السيادة الحالي. وكانت الشخصية الرئيسية في تغيير مواقف القرن التاسع عشر لمواقف القرن العشرين على نحو مهم هي اللغوى السويسري فردينان دي سوسير، الذي عرف أولا في المجتمع العلمي من خلال مساهمة مهمة في علم اللغة الهندوأوروبي المقارن، بعد دراسته في ليبزج مع أعضاء مدرسة القواعديين الجدد[2]. ومع أن دي سوسير قد نشر القليل بنفسه فإن محاضراته في علم اللغة في أوائل القرن العشرين قد أثرت كثيرا في بعض تلاميذه في باريس وجنيف، حتى أنهم نشروها في عام 1616م تحت عنوان «محاضرات في علم اللغة العام "Cours de linguistique générale"»، وهذا بقدر ما أمكنهم إعادة بنائها نقلا عن كراسات محاضراتهم ومحاضرات آخرين ومواد معينة كانت باقية بخط دي سوسير[3]. وفي تاريخ علم اللغة فإن دي سوسير يعرف ويدرس إلى حد كبير من خلال ما ذكره عنه تلاميذه.

اعتمد دي سوسير على نطاق محدود من اللغات هي غالبا لغات أوروبا المألوفة، ولكن تأثيره في علم اللغة في القرن العشرين الذي يمكن أن يقال إنه قد دشنه، لم يتفوق عليه أحد. وقد شبه نشر الـ Cours في موضوعه «بالثورة الكوبرنيكية»[4]. وإن عددا من الأفكار حول اللغة وحول دراستها المتوافقة إلى حد كبير مع أفكار دي سوسير، كان قد عبر عنها همبولت في الواقع قبل ما يقرب من قرن (صص 18 ـ 289 من قبل)، ولكن مدى تأثير دي سوسير المباشر بهمبولت مدى مشكوك في أمره على الرغم من افتراض صلة ما بينهما[5]. ونظرية همبولت اللغوية العامة لم تجذب إلا أقل عناية مباشرة ، لأن الدراسات التاريخية كانت مهيمنة في ذلك الوقت، ولكن نظرية دي سوسير جاءت في عصر وصل وقت مسار النظرية اللغوية التاريخية المقارنة مؤقتا، إلى وضع مستقر مقبول في مبادىء القواعديين الجدد.

ومن الناحية التاريخية يمكن لأفكار دي سوسير أن توضع تحت ثلاثة عناوين وهي: أولا : صاغ وأوضح ما اعتبره اللغويون السابقون أمرا مفروغا منه أو تجاهلوه، وهو البعدان الأساسيان الضروريان للدراسة اللغوية، والبعد

الأول هو الدراسة التزامنية Synchronic التي تعالج فيها اللغات بوصفها أنظمة اتصال تامة في ذاتها في أي زمن بعيد، والبعد الثاني هو الدراسة التعاقبية [التاريخية] diachronic التي تعالج فيها تاريخيا عوامل التغيير التي تخضع لها اللغات في مسيرة الزمن. ولقد كان إنجازا لسوسير أن يميز بين هذين البعدين أو المحورين لعلم اللغة: البعد التزامني أو الوصفي والبعد التعاقبي أو التاريخي، وكل منهما يستخدم مناهجه ومبادئه الخاصة به وأساسياته في أي مقرر تعليمي ملائم للدراسة اللغوية أو التدريس اللغوي. والمحاضرات التي ضمها الـ Cours يجب النظر إليها بوصفها عاملا رئيسيا في تطور الدراسات اللغوية الوصفية في هذا القرن.

ثانيا: ميز بين المقدرة اللغوية للمتكلم وبين الظواهر الواقعية أو مادة علم اللغة (المنطوقات) بوصفهما الـ langue والـ parole (سار هذان المصطلحان السوسيريان دون ترجمة في التداول الدولي مثل مصطلحات أخرى كثيرة جدا). وبينما يشكل «البارول» [والكلام] المادة التي يمكن الحصول عليها مباشرة، فإن الهدف الصحيح للغوي هو «لانج» [لغة] كل جماعة لغوية، أي المعجم والقواعد والفنلجيا المغروسة في كل فرد بسبب نشأته في المجتمع المعين وتنشئته على الأسس التي وفقا لها يتكلم لغة هذا المجتمع ويفهمها. وربما يكون دي سوسير قد بالغ - متأثرا كثيرا بالنظرية الاجتماعية لإميل دور كايم - في تقديره للواقع فوق الشخصي للغة langaue إضافة للواقع الفردي، وبشكل أخص عندما يعترف بأن التغيرات في اللغة تحدث بسبب التغيرات التي يحدثها الأفراد في كلامهم parole، بينما يصرح مع ذلك بأن اللغة لا تخضع لقدرة الفرد على التغيير[6].

ثالثا: أوضح دي سوسير أن أي «لغة» يجب أن ترى وتوصف تزامنيا بوصفها نظاما من العناصر المترابطة، أي عناصر معجمية وقواعدية وفنلجية، وليس بوصفها مجموع الكيانات مكتفية بذاتها (التي ضاهى بينها وبين مجرد التسمية nomenelature[7]). والمصطلحات اللغوية يجب أن تعرّف بالنسبة لبعضها البعض وليس بشكل مطلق. وهذه هي النظرية التي عبر عنها بقوله إن «اللغة» عبارة عن «صيغة وليست مادة a langue is forme, non substance، ووضح هذا باستعارتيه المعروفتين: قطع الشطرنج والقطارات التي تحدد وتعرف بمكانها في نظام اللعبة أو شبكة السكة الحديدية ككل،

وليس بتكوينها المادي الفعلي(8). وهذه العلاقات المتبادلة في اللغة تقوم على كل من البعدين الأساسيين للتركيب اللغوي التزامني: البعد الأفقي syntágmatic المنطبق على تتابع المنطوق، والبعد الرأسي (الترابطي associative paradigmatic المتمثل في أنظمة العناصر أو الفئات المتقابلة(9)).

وهذه المقولة للمقاربة البنائية في دراسة اللغة تشكل الأساس فعليا لمجمل علم اللغة الحديث، وتسوغ دعوى دي سوسير فيما يتعلق باستقلال علم اللغة بوصفه موضوع دراسة في حد ذاته(10). ومهما تكن التفسيرات التي قدمت للمعنى الدقيق «للبنائية» فإن قليلا من اللغويين الآن سوف ينكرون التفكير البنائي في أعمالهم.

ويمكن النظر لجلوسيماتية]التحليل شبه الرياضي للغة[يلمسليف بوصفها التأكيد السوسيري على الصيغة في مقابل المادة في «مستوى المعنى content plane» (الدلالة والقواعد) و«مستوى التعبير expression plane» (الفنلجيا)، وعلى تعريف الصيغة بوصفها العلاقات المتبادلة للعناصر. والانتقال بالمستويين لنهايتيهما المنطقيتين يعني أن تحليل المعنى يجب أن يكون مستقلا عن المعايير الوجودية فوق اللغوية، وأن تحليل التعبير (الفنلجيا) يجب أن يكون مستقلا عن المعايير الصوتية (فوق اللغوية المزعومة). والعلاقات بين العناصر، وليس العناصر نفسها، هي موضوع العلم. وبوضع هذا في المقدمة على نحو تام يمكن فقط أن يتحقق هدف دي سوسير في علم لغة مستقل لا يعتمد على علم آخر. وينظر لكل من المستويين باعتباره قابلا للتحليل لمكوناته النهائية (فكلمة mare مثلا تحلل إلى /ə/، /ɛ/، /m/ أو m, a, r, e على مستوى التعبير، وإلى «حصان»، «مؤنث»، «مفرد» على مستوى المعنى). والمستويان ليسا متشاكلين، لأنه لا يمكن تحديد علاقة بين الفونيمات المفردة أو الحروف وبين العناصر الصغرى للمعنى، ولكن المستويين كليهما يجب أن يحللا بطريقة متشابهة، كما أنهما متساويان ومتكافئان في نظام اللغة. وإنها بالضبط هي تلك الدعوى بالتكافؤ بين المستويين التي وجدها آخرون صعبة القبول، مادامت الفروق في التعبير قابلة للملاحظة بشكل مستقل في اللغة وتنتمي لمجال محدد بدقة، بينما تتكشف الفروق في المحتوى الدلالي (وهو غير محدود) فقط من خلال الفروق في التعبير في اللغة(11).

وفي مجال آخر في علم اللغة فإن الدراسة البنائية للمعاني باعتبارها معتمدة جزئيا على الوجود المتصاحب في اللغة، لعدد من المصطلحات المعجمية المترابطة في المجالات الدلالية، تمثل تحققا للأفكار التي جاء بها دي سوسير[12].

ولكن أكثر آثار نظرية دي سوسير البنائية للغة مباشرة، ومن أهمها من الناحية التاريخية كان في ميدان الفنلجيا، حيث اتفقت نظريته بشكل ملحوظ مع النظرية غير النهائية التي تم التوصل إليها في الصوتيات في نفس الوقت، نتيجة لجهود علماء الصوتيات في القرن التاسع عشر.

والصوتيات وما ارتبط بها من أنشطة وتطبيقات في الاختزال وتعليم اللغات وإصلاح الإملاء، قد لقيت اهتماما كبيرا في إنجلترا منذ عصر النهضة فصاعدا، وقد أشرنا في الفصل السادس للحافز العام للدراسات الصوتية منذ اكتشاف المؤلفات الصوتية الهندية في نهاية القرن الثامن عشر[13]. وقد جسد السير وليم جونز نفسه وأثار الاهتمام العظيم بمشكلات الكتابة الصوتية للغات مثل: السنسكريتية والفارسية والعربية التي لها تراث مديد من الكتابة في أنظمة كتابة مختلفة عن الحروف الرومانية. وفي «أطروحته عن كتابة الكلمات الآشيتية Asiatick بالحروف الرومانية»، أثنى على الملاءمة الفنلجية للكتابة المقطعية الدفاناجارية Devanagari والكتابة العربية في مقابل عدم ملاءمة الإملاء الألفبائي الإنجليزي. وعلى نقيض معظم معاصريه ميز بوضوح بين الحرف والصوت، واعترض بقوة على الإشارة التعليمية «للصوائت الخمسة» في الإنجليزية[14].

والمؤلف الصوتي للسير وليم جونز تمت دراسته بعناية في إنجلترا من جانب أ. ج. إليس A. J. Ellis الذي اشترك مع السير إسحاق بتمان Sir Isaac Pitman في إصلاح الأبجدية، وقد أدى الاهتمام الإنجليزي بفسيلجيا الكلام لنشر مؤلف س. ر. لبسيوس C. R. Lepsius «الأبجدية المعيارية Standard alphabet[15]»، وهو نتاج لتعاون إنجليزي أوروبي قام بوصف أنماط الأصوات الصائتة vowel والصامتة Consonant مصنفة حسب نطقها، ممثلة برموز متميزة، موضحة بأمثلة من عدد من اللغات المختلفة، وقد تبع هذا في 1889م أبجدية صوتية دولية International Phonetic Alphabet مراجعة من جانب ما أطلق عليه فيما بعد «الجمعية الصوتية الدولية». وهذه الأبجدية

التي تختصر إلى «IPA» ظلت تطبع وتخضع باستمرار لمراجعة دورية في ترتيبها ورموزها ومصطلحاتها.

ومع هجرة عائلة بل Bell العجيبة فإن هذا الاهتمام نفسه قد أثمر اختراع الهاتف في الولايات المتحدة، حيث إن اسم بل الأصغر (ألكسندر جراهام) تخلد ذكراه في اسم الشركة وهو Bell Telephone Company of America، وهو - مثل أبيه ألكسندر ملڤل (1819 - 1905) وجدِّه ألكسندر (1790 - 1856) - قد انشغل بتدريبات الكلام والتطبيقات العلاجية للصوتيات، وقد كان أ. م. بل هو المخترع لنظام «الكلام المرئي» على منوال محاولات سابقة (ص 201 من قبل) حيث تقابل كل عملية نطق مستقلة صورتها الكتابية الخاصة بها، وهذا النظام قد تبناه سويت في كتابه «تمهيد في علم الصوتيات «Primer of phonetics» مع إجراء تصحيحات وتعديلات معينة[16].

كان هنري سويت (1845 - 1912) أحد الرواد في دراسة الصوتيات ودراسة الإنجليزية القديمة والوسيطة والجديدة (الحديثة) في بريطانيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد مال بشكل مزاجي نحو الجوانب التزامنية الوصفية لعلم اللغة، وكان هذا بشكل جزئي بسبب وطنيته الشديدة نوعا ما، وعدائه للعلم اللغوي التاريخي السائد الذي ربطه بحق بألمانيا. وكما يحدث عند فساد الأمور الإنسانية فإن الاعتراف به عالما مبرزا كما كان، قد تحقق في الخارج، وبشكل بارز في ألمانيا، على نحو أسرع مما تحقق في وطنه، حيث منعه اتجاهه الانتقادي الصريح وشكوكه واستياؤه المسوغ في سنواته الأخيرة، من الحصول في أي وقت على درجة الأستاذية في أي جامعة بريطانية[17].

في القرن التاسع عشر اعتمدت المؤلفات الصوتية على التقدم في ميداني الفسيلجيا والأكستيكا المرتبطين بها، ومع نهاية القرن كانت البحوث التجريبية جزءا مقبولا من البحوث الصوتية، كما أن تطبيقات علم الصوتيات في إصلاح الإملاء وفي تعليم اللغات، قد اعتبرت ذات دور رئيسي في الجهود الجارية في سبيل التوسع في التعليم وفي قضية التقدم الاجتماعي بشكل عام[18].

شغل علماء الصوتيات أنفسهم حتى عصر سويت بإصلاح الإملاء بما في ذلك ابتكار رموز أبجدية إضافية وبأنظمة رموز صوتية عامة. وقد

أصبح واضحا في النصف الثاني من القرن أنه مع الزيادة في تعقيد البنية الصوتية فإن كل نظام كتابة - مهما تكن درجة إصلاحه - لابد أن يتجاهل كثيرا من الفروق الصوتية الملحوظة، وأن أي كتابة صوتية ضيقة تكون قريبة من الهدف المتعذر «رمز واحد للصوت الواحد»، سوف تكون شديدة التعقيد على نحو ميئوس منه فيما يتصل بالاستخدام الفعلي في كتابة لغة معينة. ومقاربة هذه المعضلة يمكننا أن نلاحظها في كتابات سويت المبكرة، فهي في مؤلفه «كتيب في الصوتيات Handbook of phonetics» (1877) ميز بين الأصوات التي تعتمد اختلافاتها في اللغة على محيطها الصوتي، ولذلك فهي غير مميزة، وبين الأصوات التي يمكن بنفسها أن تكون كلمتين بوصفهما مادتين مستقلتين معجميا، والفرق الصوتي نفسه يمكن - واقعيا - أن يكون مميزا في لغة وغير مميز في لغة أخرى، والفروق الصوتية المميزة تحتاج إلى تدوين مستقل في نظام كتابة صوتية واسعة للغة معينة[19]. وحيث إن الأصوات المميزة القليلة نسبيا في لغة معينة يمكن أن تمثل بسهولة بحروف رومانية إضافة لحروف قليلة أخرى، فإن سويت قد صاغ مصطلح «الرومية الواسعة broad romic» في مقابل الكتابة الصوتية الضيقة التي تحتاج إلى كثير من الرموز المتنوعة أكثر فأكثر.

وسويت لم يستعمل مصطلح «الفونيم phoneme» رغم أن أعماله ترتكز بوضوح على هذا المفهوم، ولكن التمييز الاصطلاحي المحدد بين الصوت أو الفون phone وبين الفونيم، كان من عمل العالم البولندي الذي كان يدرس في روسيا، وهو بودوان دي كورتناي Baudouin de Caurtenay الذي استخدم الكلمة الروسية fonema استخداما فنيا. وقد نشرت نظريته عن الفونيم في عام 1893م، ولكنه من الممكن أن يكون قد توصل إليها قبل ذلك على الأصح، وتقريبا في نفس الوقت مع سويت على الرغم من عدم وجود اتصال بينهما في ذلك الوقت[20].

وعلى أي حال لم يكتسب مصطلح «الفونيم» استعمالا واسعا قبل العقد الثاني من القرن العشرين بعد أن بدأت أفكار دي سوسير تحدث أثرها، وبعد ذلك أصبح بسرعة عمومية لغوية. وقد استعمل دي سوسير الكلمة الفرنسية phonème، رغم أن ذلك كان بوجه عام بمعنى الصوت الكلامي بوصفه واقعة صوتية، ولكن نظريته البنائية في اللغة في تطبيقها في

الفنلجيا قد صاغت بوضوح كبير مفهوم التمييز الفونيمي باعتباره واسطة العقد في الفنلجيا.

وقد جعل دانيل جونز Daniel Jones من الفونيم الأساس للكتابة الصوتية الواسعة، في مقابل الكتابة الصوتية الضيقة (المصطلحان اللذان استعملهما سويت بطريقة واضحة) في مؤلفه «مختصر الصوتيات الإنجليزية Outline of English phonetics» الذي نشر في عام 1918. وفي العشرينيات كان وضع الفونيم بوصفه وحدة لغوية أو بوصفه طائفة من الأصوات، محل جدال، فقد نظر إليه بشكل مختلف باعتباره وجودا entity نفسيا، أو وجودا فسيلجيا، أو وجودا مبهما [مفارقا] أو مجرد أداة مبتكرة للوصف[21]. ولكن أول تطور مهم في الواقع في تطور نظرية الفونيم كان في أعمال مدرسة براغ في العشرينيات والثلاثينيات.

ومدرسة براغ كانت مجموعة من العلماء التشيكيين والعلماء الآخرين بمن فيهم رومان ياكوبسن Roman Jacobson، الذين التفوا مذهبيا حول الأمير نيكولاي تروبتسكوي Nikolai Trubetzkoy الذي كان أستاذا في فينا 32 - 1938م، وكان من أعضائها ڤلم ماثسيوس Vilem Mathesius. وقد عقدت هذه المدرسة لقاءات منتظمة ونشرت «أعمال حلقة براغ اللغوية Travaux du cercle linguistique de Prague، وكانت عناية زعماء المدرسة الرئيسية تكمن في النظرية الفنلجية، وأهم عمل يرتبط بالمدرسة هو مؤلف تروبتسكوي Grundzüge der phonologie (أسس الفنلجيا) الذي ظل يعمل فيه حتى وفاته[22].

طبق تروبتسكوي وفنلجيو مدرسة براغ نظرية دي سوسير في تطوير مفهوم الفونيم، فأصوات الكلام تنتمي إلى الكلام parole، أما الفونيم فينتمي إلى اللغة langue. وفي دراسة اللغات بوصفها أنظمة من العناصر المترابطة داخليا، فإن علماء براغ لم يعاملوا الفونيم بوصفه مجرد طائفة من الأصوات أو بوصفه أداة للوصف، ولكن بوصفه وحدة فنلجية مركبة تتحقق عن طريق أصوات الكلام، وعلاقة التحقق (التمثيل أو الإنجاز) بين الوحدات على مستوى معين وبين الوحدات على مستوى آخر علاقة جوهرية في نظرية براغ، وكل فونيم يتكون من عدد من الملامح المميزة أو «وثيقة الصلة» المستقلة التي تميزه وحدها بوصفه كيانا لغويا، وكل ملمح مميز يقف في تقابل محدد مع غيابه أو مع ملمح آخر في فونيم واحد آخر على الأقل في

اللغة. وقد صنفت الأنظمة الفنلجية بطرق مختلفة وفقا للملامح التي تميز الفونيمات المكونة لهذه الأنظمة. من هنا فالفونيمات الإنجليزية /p/، /b/ و/t/، /d/ و/k/، /g/ تكون تقابلات الهمس والجهر في كل موقع نطقي، بينما تملك اليونانية القديمة نظاما انفجاريا ثلاثي الحدود يستخدم تقابلات الجهر وغيابه، والهائية وغيابها:

/p/ /t/ /k/

/p^h/ /b/ /t^h/ /d/ /k^h/ /g/

وتحليل أصوات الكلام إلى ملامح النطق المكونة لها لم يكن جديدا، ولكن تحليل الفونيمات الوحدات للمستوى الفنلجي، والتي تتحقق بواسطة أصوات الكلام، إلى مجموعات منظمة من التقابلات المحددة بين عدد صغير من الملامح المميزة كان خطوة واضحة إلى الأمام في النظرية الفنلجية والمنهج الوصفي[23].

إضافة لهذا فإن هذا التحليل لما هو أقل من الفونيم يكشف عن تعقد الأنظمة الفنلجية، والفونيمات لا ينظر إليها على أنها كلها أعضاء في طائفة واحدة غير مختلفة من الوحدات المتباينة في لغة معينة، ولكنها تدخل في أنظمة مختلفة من العلاقات في المواقع المختلفة، فالفونيمات الإنجليزية /P/ و /b/ و /t/ و /d/ و /k/ و /g/ تتباين بوصفها مهموسة ومجهورة، في مواقع البداية والوسط والنهاية في الكلمات الإنجليزية، ولكن بعد الفونيم /s/ الابتدائي فإن تقابل الجهر - الهمس لا يعمل أو «يحيد» بحيث لا يقع بعد /s/ إلا فونيم انفجاري واحد من كل مخرج[*]، والتقابل نفسه يحيد في الألمانية في الموقع الأخير من الكلمة حيث لا يوجد إلا الانفجاريات المهموسة في طائفة الأصوات الانفجارية، وقد تم التعبير عن هذا التحليل الأكثر تطورا في التقابل الفنجلي بوضع مصطلح «الفونيم الرئيسي archiphoneme» الذي يكون فقط الملامح التي تظل مميزة في هذه المواقع من التحييد neutralization (أي الشفهية [أو اللثوية أو الطبقية] والانفجار).

وقد طبقت عمليات تحليل مشابهة على ملامح أخرى غير الأجزاء الصوامت والصوائت التي بدأت بها النظرية الفنلجية، وهي ملامح المقطع

(*) الفونيم الذي يقع في هذا الموقع هو الفونيم المهموس كما في stem و sport و skin (المترجم).

المسماة بالملامح البرسودية (غير الجزئية) مثل الطول length والنبر stress وطبقة الصوت pitch (بما في ذلك التنغيم intonation)، وهذا يعتبر إضافة للفنلجيا الوصفية تتضمن ما هو مهم للمستقبل. وهناك نقلة مساوية مهمة ضمت للتحليل الفنلجي الوظائف الأفقية لوحدات صوتية معينة، بوصفها محددات للمقطع ولحدود الكلمة بالإضافة إلى وظيفتها الرأسية في تكوين فونيمات متميزة، وفي هذا الدور الأفقي والتحديدي يشار لهذه الوحدات الصوتية والملامح بوصفها Grenzsignale أو signes oristiques (علامات الحدود boundary markers)[24].

نشأ مفهوم الفونيم من خلال البحث عن نظرية للكتابة الصوتية الواسعة، ومع نتائج أعمال مدرسة براغ أصبح الفونيم عنصرا من العناصر الأساسية للنظرية اللغوية ككل، ومن الوصف والتحليل العلميين للغات.

وبينما كانت الجهود الرئيسية لمدرسة براغ موجهة لشرح مفهوم الفونيم وتطور النظرية الفنلجية، فإن أعضاءها قد قاموا بعدد من المساهمات في مجالات علم اللغة الأخرى، بما في ذلك موضوعات أكثر هامشية مثل علم الأسلوب stylistics، وقد تم نشر عدة دراسات نحوية، كما أن الأنماط النحوية المقارنة للغة التشيكية واللغات السلافية الأخرى، قد مثلت بقوة في أعمال اللغويين التشيك منذ 1945م[25]، وفي علم الصرف تمثل دراسة ياكوبسن عن نظام الحالة في اللغة الروسية ومحاولته أن يجرد منها محتوى دلاليا أساسيا لكل حالة، تمثل تطبيقا لنفس المنهج التحليلي في وصف الفئات القواعدية كما كان يطبق في الفنلجيا[26].

والنظرية اللغوية التي أنجزها تروبتسكوي ورفاقه من مدرسة براغ واضعين في الذهن، التحليل الفنلجي أساسا قد قادت إلى عدد من التطورات عظيمة الأهمية. وتحليل الوحدات اللغوية في صورة مجموعة من الملامح المميزة الذي مده ياكوبسن بالفعل إلى الصرف، قد طبقه أيضا في التحليل القواعدي عموما، وهو الآن تحليل مركزي إلى حد بعيد في القواعد التوليدية - التحويلية (ص359 فيما بعد)[27]، رغم أن المرونة الأساسية وعدم التحديد في المعاني المعجمية في كثير من الكلمات وربما في معظمها في اللغات الطبيعية، يجعلان إمكانية إنجاز شيء مثل التحليل الدلالي الكامل بهذه الوسائل وحدها أمرا بعيد الاحتمال[28]. وهذا النمط من التحليل قد مُدّ

إلى الدلالة على أمل أن يساعد هذا في تحديد المجال غير المحدود ظاهريا، للوظائف الدلالية أو المعاني التي تحملها المواد المعجمية في اللغات. والمجال الواضح لتطبيقه هو الأنظمة الفرعية المعجمية المحدودة لمصطلحات المجالات المحددة ثقافيا مثل مفردات القرابة، ففي الإنجليزية على سبيل المثال فإن كلمة aunt [عمة أو خالة] يمكن أن تحلل إلى «قرابة»، و«جيل صاعد من الدرجة الأولى»، وعدم مباشرة من الدرجة الأولى، و«مؤنث»، وتقابل uncle [عم أو خال] عن طريق ملمح الفرق في الجنس. وقد بذلت محاولات لمد هذا النوع من التخطيط المكوني إلى مجالات أخرى أوسع في معاجم اللغات.

وتحليل الملامح المميزة مع ارتباطها بالدراسات الآلية والأكستيكية لانتقال الكلام، قد أنجزت خطوات متقدمة مثيرة في مجال الصوتيات والفنلجيا. وقد ارتبط هذا التطور بياكوبسن بشكل خاص، وهو عضو من الأعضاء الأصليين لحلقة براغ، وهو الذي قرر في وقت مبكر نسبيا من عمله أنه يمكن إلقاء الضوء على بعض المسائل الفنلجية، عن طريق دراسة الملامح المميزة المكونة للفونيمات من وجهة النظر الأكستيكية ووجهة نظر المستمع، أكثر مما يمكن عن طريق وجهة النظر النطقية أو وجهة نظر المتكلم. وقد اعتمد ياكوبسن في هذه المقارنة على نتائج العلماء الأكستيكيين السابقين مثل هـ. فون هلمهولتز H. von Helmholtz و س. ستومف C. Stumpf بالنسبة للبعدين الثلاثيين الأساسيين:

/i/ /u/ /t/ /p/

/a/ /k/

اللذين يقابل فيهما بين الحدة acuteness والانخفاض gravity على نحو أفقي، وبين الانتشار diffuseness والتضام conpactness على نحو رأسي، على أساس الملامح الأكستيكية الناتجة عن تشكيلات الممر الصوتي المختلفة[29].

وقد انتقل ياكوبسن تحت ضغوط الحرب إلى الولايات المتحدة، وبالاشتراك مع علماء يعملون بأجهزة مثل الأسبكتروجراف]جهاز التحليل الطيفي[حلل التمييزات الأصلية inherent لفونيمات اللغات كلها، إلى مجموعات مؤتلفة تصل إلى اثني عشر تقابلا ثنائيا من الملامح الأكستيكية، عرفت على أساس توزع الطاقة في الترددات المختلفة (مكونات formants)

في موجاتها الصوتية، وليس في علاقتها بنطقها بشكل مباشر(30). وفي هذا النمط من التحليل تعرض الأنظمة الفنلجية في مصفوفة من تقابلات الملامح، حيث تشترك الفونيمات في أكثر من تقابل ثنائي واحد في علاقتها بفونيمات اللغة الأخرى، وهذا يظهر في الرسم البياني لياكوبسن ولوتز LotZ لنظام اللغة الفرنسية الفونيمي. والتحليل الملمحي الذي تعتبر فيه الوحدات الجزئية من الناحية النظرية مجرد مجموعات من الملامح المميزة المتزامنة، قد قدم طريقة واحدة للربط الفنلجي بين خرج output المكون النحوي والمنطوق المدون صوتيا في القواعد التوليدية - التحويلية (ص 359 من بعد)(31).

وفي علم اللغة التاريخي فإن نظرية الفونيم خاصة في تفسير مدرسة براغ لها، قد أدت إلى تطور مهم في نظرية القواعديين الجدد (ص 296 - 298 من قبل)، وقد كان على إنجازهم أن يحدد ويوضح مفهوم القانون الصوتي، والقواعديون الجدد كانوا معنيين بالأصوات بوصفها أجزاء صوتية مستقلة.

وعندما أعيد النظر في التغير الصوتي في ضوء نظرية الفونيم التي عن طريقها فهمت أصوات اللغات، باعتبار أنها أنظمة ذات علاقات متبادلة من التقابلات، فإن الاهتمام قد أعطي لتطور الأنظمة الفنلجية وليس لتغيرات الأصوات المفردة والمستقلة افتراضا. وهذه المقاربة يمكن أن تقام وأقيمت من اتجاهين مختلفين: الأول، وهو أن المحصلة النهائية لتغير صوتي معين هي نظام فنلجي مختلف ما لم يرتبط التغير بمجرد اختلاف صوتي في حدود مجموعة قائمة من التقابلات. ففي نظام صوائت ثُماني بأربعة فونيمات صوائت أمامية وأربعة خلفية، يستتبع اندماج صائتين خلفيين (مثل [ɔ] > [o]) فقدان التقابل /ɔ/ و /o/، وبهذا ينشأ نظام غير متساوق لأربعة صوائت أمامية وثلاثة خلفية. ويتتبع ياكوبسون الفونيمين /k/ و/g/ في اللتوانية اللذين تطورا إلى مغايرين أماميين قبل الصائتين الأماميين /i/ و [e]، [ts]، [dz]، وهذان المغايران أصبحا فونيمين مستقلين /dz/ts/ يقابلان /k/ و/g/ بعد أن أصبح الصائت المزدوج /ai/ صائتا مفردا /i/.

أما فور كويت Fourquet فقد أعاد فحص وتفسير التغيرات الصوتية الجرمانية التي تؤلف «قانون جريم» في إطار تطور الأنظمة، وليس في

إطار تغيرات الأصوات المعينة، وسعى إلى تفسير الظواهر التاريخية مع الإبقاء على التقابلات الفنلجية، تحت ضغط التغيرات العامة المتتابعة المؤثرة في النطق من طرف المتكلمين[32].

والاتجاه الثاني هو أن التغير الصوتي يمكن النظر إليه ليس باعتبار أثره النظامي، ولكن من وجهة نظر مسببه النظامي. وقد كان القواعديون الجدد حذرين جدا بالنسبة لأسباب التغير الصوتي، وقد تبعهم بلو مفيلد في التصريح بأن «أسباب التغير الصوتي غير معروفة»[33].

وأسباب التغير الصوتي ينظر إليها دائما في إطار الشروط التي ينتقل فيها الكلام بوصفه مقدرة يتم تعلمها اجتماعيا من جيل لجيل، ولكن هذه الأسباب متعددة ومعقدة بشكل مؤكد، فالعوامل الخارجية مثل الاحتكاك اللغوي والثنائية وآثار الخضوع لتفوق لغة أجنبية على جماعة لغوية، وتأثير أنظمة الكتابة عبارة عن أسباب يجب الاعتراف بها.

ولكن سببا مهما للتغيرات الصوتية يجب أن يكون موجودا في الأنظمة الفنلجية للغات ذاتها.

وقد ذهب دي سوسير بشكل غريب تماما لحد أن ينكر بصراحة أي ارتباط تعاقبي للبنية، بسبب تأكيده التام على أهمية التصور البنائي للغة في علم اللغة التزامني[34].

ولكن هناك عاملين يعملان بثبات داخل الأنظمة الفنلجية، فالاقتصاد في الجهد الناشىء عن الاستعمال المتعدد لكل تقابل ملمحي تتم السيطرة عليه في أي وقت، يميل نحو الإبقاء على التساوق أو توليده في الأنظمة الفونيمية (/p/، /t/، /k/، /d/، /g/ يتطلب ـ مثل ملامح نطق متقابلة كثيرة - نظاما أتم وأكثر تساوقا /p/، /t/، /k/، /b/ /d/، /g/)، ولكن عدم التساوق الفسيلجي للممر الصوتي يتدخل في تحقيق التساوق الدائم (في مسألة درجات التمييز لارتفاع اللسان في فونيمات الصوائت مثلا، هناك مجال أكبر لإبقاء الصوائت الأمامية متباعدة مما هو بالنسبة للصوائت الخلفية).

ويستشهد مارتنيه من باب التوضيح بانتقال /u/ إلى الأمام في برتغالية جزر الآزور، والذي وفقا له يفسح استغلال التقابل الأمامي - خلفي (أكستيكيا حاد - منخفض) في الفونيم الصائت المغلق المدور، يفسح مجالا أكبر للحفاظ

على التقابل الفونيمي بين بقية الصوائت الخلفية /a/(*)، /ɔ/، /o/(35).

والبحوث في هذه الاتجاهات وتوسيع نظرية علم اللغة التاريخي لكي تتضمن نتائج القواعديين الجدد، لا تبطل إصرارهم على اطراد التغير الصوتي بوصفه الأساس لعلم اللغة التاريخي، ولو أن هذه البحوث لم تأت لعلم اللغة التاريخي بأفكار أخرى مهمة أو وسائل بحث أكثر فعالية.

كان اللغويون الروس في القرن التاسع عشر على صلة بالتطورات الأوروبية العامة، وعلى ما يبدو فإن مفهوم الفونيم قد توصل إليه العلماء الشرقيون والعلماء الغربيون في نفس الوقت وبشكل مستقل (ص324 من قبل). وقد كان تروبتسكوي روسيًّا بالميلاد والتعليم، وقد اشتغل على بعض اللغات المحلية للإمبراطورية الروسية قبل ترك الوطن بعد الحرب العالمية الأولى. وقد جاءت الثورة البلشفية معها بخصام حاد مع العلم اللغوي لبقية العالم، ورغم أن الأعمال الفنلجية قد تواصلت، وتواصلت معها دراسة نظرية الفونيم في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، فإن علم اللغة السوفييتي قد غلبت عليه الدجمات الغربية للعالم السوفييتي ن. ج. مار (1864 - 1934).

ومار نفسه نصف جورجي بالميلاد، ومنذ شبابه المبكر كان موهوبا بقدرة ملحوظة على تعلم اللغات، ووجه عنايته في البداية مثل بعض العلماء الروس الآخرين، إلى اللغة الجورجية وإلى بقية اللغات القوقازية. ومن خلال بحث تاريخ اللغات القوقازية طور بالتدريج نظريته (أو نظرياته) عن التاريخ اللغوي. وقد استمد أفكاره - معارضا النظرية الهندوأوربية المقبولة - من معتقدات القرن الثامن عشر عن الأصل الإشاري للغة، ومن الرأي الخاص بمنتصف القرن التاسع عشر عن التنميط اللغوي بوصفه تعبيرا عن مراحل التطور اللغوي المتوالي، فاللغات «الجافتية Japhetic»، وهو مصطلح استعمله ليغطي به لغات القوقاز، تمثل مرحلة من تطور اللغة تجاوزتها بالفعل بعض اللغات الأخرى. واللغات كانت مترابطة تاريخيا، ليس في صورة أسر لغوية، ولكن عن طريق «طبقات» تطورية مختلفة للتركيب مترسبة من الامتزاج والتجميع، واللغات ليست ظواهر قومية، ولكنها ظواهر طبقية، وهي جزء من البنية الفوقية التي تتوافق تغيراتها مع التغيرات في القاعدة الاقتصادية

(*) هو في الأصل /a/، وهو رمز صوتي غير دقيق في حالتنا.

في النظام الاجتماعي للمتكلمين، وهو هنا يدعي المصاهرة النظرية للمارية والماركسية.

ومدعيا تفسير ما قبل التاريخ اللغوي وليس التاريخ اللغوي فحسب بنظريته، قفز مار سريعا فوق الآراء المؤيدة بالملاحظة وحدها، وصرح بأن كلمات كل اللغات يمكن أن ترد إلى أربعة عناصر أولية هي (ros) و (sal) و (ber) و (jon). وقد تمتع هذا التنظير غير المؤيد بدليل بالتشجيع الرسمي، وقد وجد كثير من العلماء الروس أنه من الفطنة أن يساندوا، بل حتى يشيدوا بآراء مار حتى 1950، عندما اعترض ستالين فجأة على الصرح الماري بمجمله مشيرا من بين مسائل أخرى إلى أن اللغة لا تعتمد على التنظيم الاقتصادي، مادامت اللغة الروسية نفسها قد كانت صالحة لكل من رأسمالية ما قبل الثورة وشيوعية ما بعد الثورة، وهو رأي على وضوحه لم يعلن على ما يبدو من قبل، وقد أنهى تدخل ستالين السيطرة الطويلة لنظرية مار كما لفت نظر العالم إليها[36]. ومنذ ذلك الوقت ومع تنامي التعاون الدولي في الدراسات اللغوية بعد الحرب، فإن اللغويين الروس قد شرعوا في العمل باحتكاك أقوى مع علماء أوروبا الغربية وأمريكا، وقد نوقشت التطورات الغربية الجارية بحماس وبشكل مثمر. وفي علم اللغة منحت عناية خاصة لصناعة المعجم تتفق مع منزلة مكون معين لعلم اللغة إلى جانب الفنلجيا والقواعد، وليس بكونها مجرد جانب من جوانب وصف اللغة. وفي علم اللغة التاريخي والمقارن فإن الدراسات السلافية التي أخمدتها أفكار مار الغريبة شهدت تطورا كبير ا جدا. وهناك أمل كبير في أن تستمر هذه النزعات، وأن تذكر المارية باعتبارها مجرد انحراف عقيم وتحذير مخيف، للحد الذي يمكن فيه للاستبداد الحديث أن يمجد بالوهم دون اعتبار للحقيقة. وفي محيط الدراسات الهندوأوربية التقليدية خاصة يجب أن ننتبه إلى إمكانية مراجعة بعيدة المدى، للآراء على أرض الوطن عن تفرق اللغات الهندوأوربية وبنائها نتيجة لافتراضات العالمين السوفييتيين جامكريلدزي Gamkrelidze وإيفانوف Ivanov[37].

وبعد نشر محاضرات دي سوسير بوقت قصير نشرت كتب أخرى في أوروبا تتعامل بشكل عام أو أساسي، مع علم اللغة التزامني مثل Language لأوتويسبرسن O. Jespersen و Theory of speech and Language لجاردنر، و

Sprachtheorie لـ ك. بوهلر K. Buhler، وهناك كتابان مهمان كتبهما يلمسليف قبل الاستنباط الكامل لنظريته الجلوسيماتية وهما: La Categorie de cas و Principe de grammaire générale[38]. وفي الوقت نفسه فإن اتجاهات معينة في التفكير الفلسفي دفعت المناطقة إلى الاتصال بمشكلات التحليل اللغوي اتصالا أقوى[39]، كما أن افتتاح سلسلة من المؤتمرات الدولية للغويين في 1928م عبارة عن مثل آخر لنمو الاهتمام بالبحوث اللغوية العامة.

ومهما يكن ففي أمريكا تلقى علم اللغة - وبشكل خاص علم اللغة الوصفي - اعترافا أكبر في الجامعات في العشرينيات، وقد مارس تقدم علم اللغة الأمريكي فيما بين الحربين تأثيرا عميقا وباقيا على تطور الدراسات اللغوية والتفكير اللغوي في العالم. وفي عام 1924م أنشئت الجمعية اللغوية الأمريكية بدوريتها Language التي تصدر سنويا.

هناك ثلاثة علماء بارزين وضعوا علم اللغة الأمريكي في مساره، وهم فرانز بووز وإدوارد سابير وليونارد بلومفيلد. وكان بووز هو الأكبر، وقد علم كثيرا من اللغويين الأمريكيين من الجيل التالي، وهو ما يشهد به بلومفيلد في إشارته إليه بوصفه «أستاذنا كلنا بمعنى أو بآخر»، وقد أشاد في نعيه إشادة كبيرة بفضل أعماله على علم اللغة الأمريكي[40].

ولم يكن هؤلاء الرجال الثلاثة منفصلين عن أسلافهم، فقد ولد بووز وسابير في أوروبا، وقد درس بلومفيلد علم اللغة التاريخي للقواعديين الجدد على يد لسكن وبروجمان (13 - 1914). كما كان هؤلاء على اطلاع حسن على أعمال اللغوي التاريخي الأمريكي وعالم السنسكريتيات السابق و. د. وتني W. D. Whitney، الذي تأثر هو نفسه كثيرا بفكر القرن التاسع عشر الأوروبي. والموقف الأساسي لبووز وسابير من اللغة في أواصرها القوية بمجمل طريقة حياة متكلميها وطريقة تفكيرهم، يمكن إرجاعه في جانبه الكبير إلي أفكار همبولت (ص 20 - 287 من قبل). ومما هو جدير بالملاحظة أن سابير في كتابه عن النظرية الفونيمية ونهجها قد اعتنق وجهة النظر النفسية عن الفونيم، مؤكدا على التماثل بين تجريد اللغوي وبين رد فعل ابن اللغة وحدسه نحو لغته[41].

وعلم اللغة الأمريكي، والنظرية اللغوية الأمريكية في فترة التكوين تلك كانت متأثرة بالوضعية الصارمة لعلماء النفس السلوكيين أو الميكانيكيين،

وكان التأثير قويا في بلومفيلد بشكل خاص، والذي في كتابته لكتابه القيم Language (نشر لأول مرة في عام 1933) قام بمراجعة صارمة لكتابه السابق Introduction to Linguistic science (المنشور في لندن ونيويورك عام 1914)، ليجعل أسسه النظرية متفقة مع النظرية الميكانيكية لميكانيكيين مثل أ. ب. ويس A. P. Weiss، والتي في إطارها يجب التعبير بشكل كامل عن الأفكار حول الخبرة الإنسانية والنشاط الإنساني، بطريقة تتصل - بقدر الإمكان على الأقل - بالظواهر الملاحظة في المكان والزمان من طرف أي ملاحظ وكل ملاحظ، وقول بلومفيلد: «حديث الإنسان لنفسه أو تفكيره» «والصور الذهنية والشعور وما شابه عبارة عن مجرد تعبيرات شائعة بين الناس عن حركات مادية مختلفة» قول نموذجي في التعبير عن موقفه هذا[42].

وعلى الجانب العلمي انعكس اهتمام بووز وسابير الأنثروبلجي في التعاون والارتباط القوي، بين الأنثروبلجيا وعلم اللغة في الجامعات الأمريكية. وقد واجه الأنثروبلجيون واللغويون تحديا مشتركا في المجال الواسع للغات الأمريكية - الهندية ما قبل الأدبية برمتها تقريبا، والمتناثرة بين جماعات متضائلة وصغيرة غالبا في أماكن كثيرة جدا في الولايات المتحدة وكندا. ومنذ العصر الاستعماري كانت البعثات التبشيرية والتجار والهواة المتحمسون قد ألفوا معاجم وكتب قواعد لعدد من هذه اللغات، وفي عام 1891م نشر ج. و. باول J. W. Powell أول تصنيف كامل لهذه اللغات[43]، وقد ركز بووز عمله على هذه اللغات، وإضافة لدراسات وصفية كثيرة فقد حرر، وبشكل جزئي كَتَب «كتيب اللغات الأمريكية - الهندية Handbook of American - Indian languages[44] ولا تزال «المقدمة التي كتبها بووز مقدمة ممتازة لعلم اللغة الوصفي.

وقد جعل بعض اللغويين الأمريكيين من هذه اللغات محط عنايتهم الأولى موسعين مجالهم ليشمل لغات أمريكا الوسطى والجنوبية (حيث كانت البعثات التبشيرية الإسبانية والبرتغالية وغيرها قد عملت هناك في قرون سابقة)، كما أعد آخرون كثيرون عرضا وصفيا للغة أمريكية محلية واحدة في إطار عملهم غالبا كأطروحات للدكتوراه، واللغات التي تم اختيارها كانت في معظم الحالات قد بذلت جهود قليلة سابقة لمعرفتها، وكان الدارس الميداني يتعلم اللغة في نفس الوقت الذي يقوم فيه بتحليلها، وهو وضع على

العكس تماما من الوضع الذي غلب على الدراسات المبكرة لمعظم اللغات الأوروبية، وكان على الدارس أن يحصل على مصادره الخاصة، وأن يقرر ويسوغ بنفسه كل تقرير وتصنيف يقوم به. وكان هذا - ولايزال - أعظم الجوانب قيمة للتدريب في علم اللغة. ويمكن للمرء أن يقارن مقدار الأعمال التي أنجزها اللغويون البلومفيلديون عن اللغات الأمريكية - الهندية، بمقدار التطوير المبكر لعلم اللغة التحويلي - التوليدي الذي أنجز إلى حد كبير في الإنجليزية أو في اللغات الأوروبية المألوفة.

كان سابير وبلومفيلد يقفان متقابلين، يكمل أحدهما الآخر في مقاربتيهما للموضوع، فقد كان بلومفيلد علميا بشكل صارم، وكان - في ضوء تفسيره الميكانيكي للعلم - مركزا على المنهجية وعلى التحليل الشكلي formal، أما سابير في المقابل فقد طاف خلال موضوعه وحوله مستكشفا علاقاته بالأدب والموسيقى والأنثروبلجيا وعلم النفس، ومعبرا عن آراء حول اللغة تشبه آراء بووز التي تذكرنا بآراء همبولت التي طورها وورف فيما بعد، وكل منهما يلح على التأثير الواسع للغة في الحياة الإنسانية. ولعل النظرة الخاطفة على الكتابات المختارة لسابير Selected writings تظهر لنا مدى اتساع مجال معرفته، كما أن مقارنة مؤلفه «اللغة» Language بمؤلف بلومفيلد Language تعطينا صورة منصفة عن الفروق في مقاربة كل منهما وفي موضوعه[45].

وقد هيمن تفسير بلومفيلد لعلم اللغة على مواقف ووجهات نظر معظم الجهود في علم اللغة الأمريكي أثناء الثلاثينيات والأربعينيات، بسبب مكانة كتابه «اللغة» بوصفه كتابا دراسيا للطلاب (رغم أنه أكثر كثيرا من هذا) ولتركيزه المتمعن على المنهجية. وكثير من الأعمال التي أنجزت في تلك السنوات قد نظر إليها العلماء الذين قاموا بها بوصفها توضيحا أو تطويرا لبعض الأفكار أو المقترحات التي عبر عنها بلومفيلد، وقد أصبحت الفترة التالية تعرف الآن بوصفها عهد بلومفيلد، رغم أنه لا يمكن القول إن كل خاصية من خصائصه يمكن إرجاعها مباشرة لتصورات بلومفيلد.

وكل عالم عبارة عن فرد، كما أن «المدارس» و «العهود» عبارة عن تجريدات تقوم بحكم مشكوك فيه على الأعمال والعاملين الذين ينضوون تحت هذه المدارس والعهود. ولكن علم اللغة البلومفيلدي - بنظرة كهذه - يمكن تناوله

بشكل معقول باعتباره وحدة، ولأن علم اللغة - في تلك الفترة (33 - 1957) - بوصفه فرعا معرفيا مستقلا بذاته، قد أصبح راسخا على نحو أقوى، وممثلا في جامعات الولايات المتحدة على نحو أوسع من أي مكان آخر، فإن تأثيرات بلومفيلد كانت تلمس عند المجتمع العلمي برمته في الدراسات اللغوية.

وقد ركز اللغويون الأمريكيون عنايتهم على التحليل الشكلي عن طريق عمليات ومفاهيم وصفية بشكل موضوعي، وهو ما كان بلومفيلد قد ألح على وجوبه. وكانت الوحدتان الأساسيتان للوصف هما الفونيم الذي وسع فيما بعد ليشمل كل الظواهر الصوتية المميزة (ص 25 - 339 من بعد) والمرفيم، وهو الوحدة الصغرى للتركيب القواعدي. وقد فسر التمييز بين الصوت الكلامي والفونيم بشكل عام بوصفه تمييزا بين عضو وفئة class، واستعمل الفون [الصوت] phone والألوفون [المغاير] allophone ليشير لأصوات الكلام. أما التحليل القواعدي فقد حذا حذو المنهج الفنلجي القائم فعلا، مستعملا المرف morph والألومرف allomorph [المغاير الصرفي] والمرفيم]الوحدة الصرفية[بنفس الطريقة(46).

ويمكن أن يقال بإنصاف إن الفنلجيا أصبحت هي القدوة في عهد بلومفيلد بقدر ما يتعلق الأمر بالنظرية الوصفية والمنهجية. وأقوى دافع لمراجعة النظرية والمفاهيم المرتبطة بها قد جاء إلى حد بعيد من التقدم في طريقة الملاحظة الصوتية والتحليل الفنلجي. والواقع هو أن مدرسة براغ والفيرثيين الأوائل قد كرسوا جل عنايتهم للمستوى الفنلجي من اللغة، فجونز نفسه قد وجه مجمل عنايته للفنلجيا والصوتيات، وفي أمريكا حققت النظرية الفونيمية خطوات للأمام في اتجاهها المقرر أكثر مما حققت النظرية القواعدية، والنظرية القواعدية للعصر مع اهتمامها الخاص بالتحليل المرفيمي قد سارت في أعقاب التقدم في النظرية الفونيمية. وفي تعليق على كتاب هوكيت Manual of phonology (1955) الذي نشر قرب نهاية الفترة، يمكن للمرء أن يقرأ ملاحظة مسوغة إلى حد بعيد وهي أنه حتى الآن لم يتصور وجود كتيب مشابه في القواعد(47).

رغم أن بلومفيلد كرس بعض العناية للتعريف الشكلي للكلمة بوصفها وحدة قواعدية، إلا أن اللغويين الأمريكيين المتأخرين لم يعطوه كبير وزن في

الوصف القواعدي، وقد وصف تركيب الجملة عن طريق تحليل المكونات المباشرة immediate constituent الذي تتصل فيه المرفيمات بعضها ببعض، في شكل أشجار تمثل الترتيب والتركيب الصاعد (مثل هذا التحليل كان متضمنا في «الإعراب والتحليل» للتعليم التقليدي» واستخدم جزئيا في نظرية المراتب ليسبرسن). وقد أقام بلومفيلد تمييزا أساسيا بين التراكيب المركزية والتراكيب اللامركزية، وفقا لما إذا كان التركيب نفسه بشكل عام مشابها أو غير مشابه نحويا لأي من مكوناته المباشرة. أما الأجيال التالية فقد أعطت الأفضلية للتقسيمات الثنائية للمكونات[48].

كان النموذج المفضل للعرض عموما في الفنلجيا وفي القواعد هو نموذج التوزيع، فقد تميز بعض اللغويين في هذه الفترة بوصفهم «توزيعيين distributionalists»، والوصف اللغوي الذي التزموا به هو تعيين العلاقات التوزيعية للفونيمات في التتابعات الفونيمية والعلاقات التوزيعية للمرفيمات في مجموعات المرفيمات والمكونات. من هنا فإن ز. س هاريس Z. S. Harris الذي يمكن النظر لكتابه Methods in structural linguistics بوصفه تطويرا لبعض جوانب البلومفيلدية لأقصى مداها أمكنه أن يكتب أن خطوات التحليل اللغوي، تجرى «بتطبيق مزدوج ذي خطوتين رئيسيتين هما: تعيين العناصر، وتعيين توزيع هذه العناصر بالنسبة لبعضها البعض»، وبشكل أعم في السنوات الأخيرة استعمل المصطلحان «البنائية Structuralism» «والبنائي structuralist» بشكل محدد ليشير إلى التحليل اللغوي الذي يحتذي تفكير بلومفيلد[49].

والتمييز التقليدي بين النحو والصرف في هذه الخطوات الإجرائية اتجهت أهميته للهبوط نوعا ما، كما أن المصطلحات التي تطلق على «العمليات» (التي ترتبط فيها الصيغ بشكل العمليات مثل تغير الصائت (Ablaut) أو تبدل الصامت) كان يتم تحاشيها بقدر الإمكان. وبشكل غير مألوف تماما كانت العملية الوصفية أحيانا تمزج بالعملية التاريخية مزجا احتجاجيا، وهو أمر غير مرغوب في علم اللغة التزامني[50].

والعلاقة بين مستوى القواعد (مرفيميات morphemics) والفنلجيا (فونيميات phonemics) كانت هي ميدان المرفوفونيميات morphophonemics، وهي حلقة الاتصال بين الجانبين الرئيسيين للتحليل اللغوي الشكلي (استعمل

لغويو براغ مصطلح مرفو فنلجيا morphophonalogy بمعنى مشابه)، وقد فهم هذا في البداية بوصفه علاقة التأليف composition، فالمرفيمات تتألف أو تتكون من الفونيمات. وهذه العلاقة يصعب تأكيدها في مواجهة التغير الألومرفي الذي تكون فيه التتابعات الفونيمية المختلفة، وأحيانا بشكل كامل، تكون متساوية مرفيميا. وفيما بعد فسر الكتاب عموما العلاقة بين الفونيم والمرفيم بوصفها علاقة تمثيل، فالفونيمات تكون المرفات، وهي بذلك تمثل المرفيم بوصفه فئة[51].

وقد اعتبر المستويان منظمين تراتبيا بمعنى أن التحليل المرفيمي يفترض مسبقا تحليلا فونيميا وليس النقيض بالنقيض، وقد أكد بعض اللغويين على مبدأ «فصل المستويات»، رغم أن هذا ليس كما يوجد عند بلومفيلد، ومن هؤلاء على سبيل المثال ج. ل. تراجر G. L. Trager الذي وصل لحد القول، إنه لا يمكن لأي تحليل قواعدي من أي نوع أن يستعمل بشكل صحيح في التحليل الفونيمي، وعلى النقيض فإن التحليل القواعدي يبدأ فقط عندما يكتمل التحليل الفونيمي في اللغة. والتخلي المتعمد عن هذه «المتطلبات القواعدية» بوصفها حدودا قواعدية للكلمات، قد أعطى وزنا كبيرا - ويرى البعض أنه مفرط - للفونيمات المفصلية التي تحدد الكلمات الفونيمية (التتابعات الفونيمية الشبيهة بالكلمة والتي يمكن تحديدها عن طريق المفصل)[52]. وبناء على هذا الرأي فإن الكتابة الفونيمية عند إتاحة تعيين مغايرات كل فونيمات اللغة يجب أن تكون مقروءة بشكل مباشر وغير ملتبسة (باستثناء التنوع الحر فقط من بين المغايرات)، وبالنقيض فإن أي نص منطوق يجب أن تكون له كتابة فونيمية واحدة، وواحدة فقط. وهذا المطلب النظري أشير إليه فيما بعد باعتباره مطلب «التفرد الثنائي biuniqueness». وتحديد د. جونز D. Jones للتحليل الفونيمي للظواهر الصوتية داخل حدود الكلمات، قد انتقد بوصفه تحديدا غير ملائم لمجرد أنه ينقصه التفرد الثنائي الذي يعترض عليه تشومسكي في الواقع الآن[53].

والتعيين القواعدي بطريقة توزيعية خالصة والمصوغ بطريقة مشابهة للتعيين الفونيمي التتابعي، يعلق أهمية كبيرة - في الطريقة الخاصة بقضية التحليل - على اللغات وأقسام اللغات التي يمكن أن تكون فيها المرفيمات المتتابعة متضاهية في علاقة واحد بواحد مع الفونيمات المتتابعة، أو

مجموعات الفونيمات، ويكون أفضل تغير ألومرفي بين الصيغ المقيدة (التحوير sandhi الداخلي) هو أقل تغير، ففي الإنجليزية تكون كلمتان مثل cats, baked قابلتين للتحليل مرفيميا بشكل أسهل من took و mice، ففي بعض الأحيان تقام مرفات صفرية لتقدم تتابعا نظريا عندما لا يوفر شكل الكلمة تتابعا، فكلمة took تحلل بوصفها + /tuk/" ø وتكون /tuk/ ألومرفا لـ /teik/، ويكون ø ألومرفا للاحقة الزمن الماضي مثل /d-/ أو /t-/ إلخ، وتحلل mice بوصفها ø + /mais/» وتكون /mais/ ألومرفا لـ /maws/ ويكون ø ألومرفا للاحقة الجمع مثل /s-/ أو /z-/ أو /iz-/ أو /n-/... الخ[54]. ولذلك يبدو أن التقييم التنميطي للتوزيعيين يرفع من شأن اللغات الإلصاقية، أكثر من اللغات التصريفية التي تستخدم التحوير الداخلي أو الصائتي Ablaut والتشكيلات المشابهة، تلك اللغات التي رفع من شأنها كثيرا تنميطيو القرن التاسع عشر (ص 289 و 25 ـ 297 من قبل).

وعلم اللغة البلومفيلدي كما تطور بشكل نهائي يعرضه عدد من الكتب الدراسية التي تم تأليفها قرب نهاية هذه الفترة من تاريخ الموضوع، مثل كتاب س. ف. هوكيت C. F. Hockett «محاضرات في علم اللغة الحديث Course in modern linguistics» وكتاب هـ. أ. جليسون H. A. Gleason «مقدمة في علم اللغة الوصفي Introduction to descriptive linguistics»، وكتاب أ. أ. هل A. A. Hill مقدمة في التراكيب اللغوية Introduction to linguistic structures[55]. وهناك مسح عام من الناحية التاريخية لهذه الفترة عن طريق نصوص مختارة في كتاب م. جوس M. Joos «قراءات في علم اللغة Readings in linguistics»، وقد تمت تغطية جوانب مختلفة لهذه الفترة من طرف بعض المساهمات في مؤلف «اتجاهات في علم اللغة الأوروبي والأمريكي 30-1960 Trends in European and American linguistics 1930-60[56]».

ونقطة التحول في علم اللغة في هذا القرن ترتبط عموما بعام 1957 عندما نشر لأول مرة، كتاب تشومسكي «التراكيب النحوية Syntactic struetures» الذي قدم على نحو بعيد الأثر للجمهور اللغوي في أمريكا في البداية، ثم في بقية العالم المتحدث بالإنجليزية، وأخيرا للمجتمع اللغوي برمته، قدم ما سمي بالقواعد التوليدية ـ التحويلية. وبمساعدة الإدراك المتأخر لأكثر من ثلاثين عاما يمكننا أن نتبين بعض الخطوط الرئيسية في

التدفق الهائل للمنشورات اللغوية من كل نوع.

والحركتان البارزتان في علم اللغة في منتصف هذا القرن وفي السنوات الأخيرة منه يمكن أن تتحددا بليونارد بلومفيلد من جانب، ومن جانب آخر بهؤلاء اللغويين الذين ناقضوا ـ لسبب أو لآخر ـ بعض أو كل مبادئه ومناهجه. ومن بين هؤلاء الأخيرين فإن تشومسكي والقواعديين التوليديين هم الممثلون لهذا وحدهم على الإطلاق، بل هم الأكثر بروزا إلى حد كبير، والأكثر تعددا، والمعروفون أكثر من غيرهم عن جدارة. وفي التناول التاريخي للأعمال اللغوية لهذا القرن من الأنسب أن نحاول وضع العلماء والمدارس الرائدة، في النطاق الأكبر لعلم اللغة البلومفيلدي «البنائي» وردود الفعل المختلفة له، بدلا من محاولة إعطاء وصف موجز للنظريات والمناهج المختلفة المتنافسة، وهو جهد أكثر مناسبة لكتاب مدرسي تمهيدي عام في الموضوع[57].

والالتزام الذي اشترك فيه كل المشاركين وآمنوا به بحماس كان وظل هو تصورهم وتطويرهم لعلم اللغة، بوصفه علما لدرجة أن اللغة الإنسانية يمكن أن تسهم، أو يمكن أن تدرس ضمن العلم الذي تسهم معه في التقدم العام الذي حققته العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد رأينا كيف أن دراسة اللغة في القرن التاسع عشر قد تساوت إلى حد كبير بدراستها التاريخية، أي «القواعد المقارنة» أو علم اللغة التاريخي ـ المقارن، وقد كان هذا جانبا من جوانب دراسة بلومفيلد ومعرفته الأولى، وقد اطلع على الدراسات اللغوية الألمانية عندما كان طالبا جامعيا وطالب دكتوراه، وقضى عامين يعمل تحت إشراف لسكن وبروجمان في ليبزج قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، وقد صرح بأن كتاب جريم Deutsche Grammatik كان «هو العمل اللغوي العلمي العظيم الأول في العالم المكرس للمعالجة العلمية للغة»[58]. وكان طموح بلومفيلد، وحسب تعبيره إنجازه، هو أن يخضع علم اللغة الوصفي للمعالجة العلمية الصارمة بطريقة مشابهة. وقد عرض تصوره للعلم وللمنهج العلمي في مجمل عمله الرئيسي «اللغة»، وفي أعمال منشورة قصيرة وكثيرة وفي عمله «الجوانب اللغوية للعلم Linguistic aspects of science»[59].

ولقد كانت المشكلة بالطبع ومازالت هي السؤال: ما هي معايير العلم

التي تطبق على علم اللغة بوصفه علما؟ وبالنسبة لبلومفيلد فلا مجال للشك في أن العلم هو الإمبريقية المفهومة والمطبقة بدقة شديدة. ومنهجه الإمبريقي منهج اختزالي يركز بشكل مدروس على تلك الجوانب من اللغة التي يمكن أن تعالج على نحو تام بناء على الأسس الإمبريقية كما فهمها هو، «فالعلم يتعامل فقط مع الوقائع التي يمكن الوصول إليها بسهولة في زمانها ومكانها من جانب أي ملاحظ وكل ملاحظ، أو يتعامل فقط مع الوقائع التي توضع في اتساق مع الزمان والمكان». وقاده هذا في التطبيق على العلوم الإنسانية إلى اعتناق المذهب السلوكي، وكان هذا هو المبدأ الذي منحه لمريديه، والذي حاول مريدوه عموما أن يتقيدوا به ويشرحوه. وقد تطلب هذا بشكل فعال التركيز على الصوتيات والتحليل الفنلجي والقواعد الشكلية مع التأكيد على الصرف، وهي كل المجالات التي يمكن أن يقوم فيها التحليل على الظواهر الملاحظة بشكل عام، وهي الكلام منطوقا ومسموعا ومسجلا، والكلمات والنصوص منطوقة أو مكتوبة. ومرتكزات هذا المبدأ كانت ومازالت قوية، وهي لا يمكن تحديها حسب تعبير البلومفيلديين، كما أن المعطيات عامة يمكن التحكم فيها بشكل عام، كما أن المناهج قد تم عرضها واتباعها بوضوح. ومما يلفت النظر في الواقع عدد الكتب الدراسية الكبير والمقالات الرئيسية الصادرة ما بين عامي 40 ـ 1956م، والتي تضم العرض النظري إلى جانب قواعد التحليل الناجح المصحوبة تماما بملاحظات ميدانية، جمعت في ظروف ميدانية في بحث لغات محلية أمريكية بحثت للمرة الأولى. وهذه القواعد تصف ما يطلق عليه «الخطوات الإجرائية للاكتشاف»[60].

والدلالة، وهي دراسة المعنى اللغوي، هي أقل جوانب علم اللغة خضوعا للمعالجة العلمية كما تفسر على أسس إمبريقية بشكل صارم، فبصرف النظر عن بعض المفردات الفنية المحدودة، تلك الشبيهة بالكلمات الدالة على الأشياء الكيميائية، فإن التحليل الكامل لما تعنيه الكلمة أو صيغة الجملة لابن اللغة يجب أن يشتمل على قدر كبير وغير محدود من المعرفة فوق اللغوية، ومن معرفة الكثير من المدركات والمشاعر والأفكار والعواطف والآمال والمخاوف الخاصة... إلخ، والتي يجب أن تبقى خاصة بالضرورة، والتى يمكن الوصول إليها بشكل مباشر من المرء نفسه، ويمكن استنتاجها

فقط عند الآخرين عن طريق ما يمكن أن يقولوه عنها أو عن طريق سلوكهم العام، وهذا هو تفسير ملاحظة بلومفيلد المتشائمة في كتابه «اللغة»: «تعيين المعاني هو النقطة الضعيفة في الدراسة اللغوية»، وهو تفسير لشرحه المتكلف بعض الشيء لكلمات المعاني العامة المعروفة على نحو تام مثل «الجوع» و «العطش»، بصياغات أخرى تشير إلى الظواهر العامة والممكن الوصول إليها بالفعل أو بالإمكان من جانب كل الملاحظين: «كانت جائعة، يعني أن بعض عضلاتها كانت متقلصة، وأن بعض السوائل كانت تفرز خاصة في المعدة»، «وهي كانت عطشى أيضا: كان لسانها وحلقها جافين»[61].

ورأي بلومفيلد الرافض لإمكانيات التحليل الدلالي بنفس الدرجة من الصرامة التي يطلبها في الجانب الشكلى من اللغة، قد شجع تقريبا جيلا من اللغويين على تجاهل مواصلة الدراسات الدلالية على أي مستوى، وحتى على استبعادها من الاهتمام الرئيسي اللغوي[62]. ولم تكن هذه هي غاية بلومفيلد، وقد استاء عموما من الإيحاء بأنه هو أو أي مجموعة أخرى ذات شأن من اللغويين، قد تجاهلوا المعنى أوسعوا لدراسة اللغة دون وضع المعنى في الاعتبار[63]. وكان ما طرحه هو أن التحليل الدلالي لا يمكن أن يطمع للوصول بأي حالة للدقة العلمية المتاحة للتحليل الشكلي للمادة اللغوية كما تلاحظ وتسجل، وأن أي تحليل للمعاني يتطلب معرفة واسعة من خارج علم اللغة نفسه، وأن المعاني الصحيحة أو المفترضة لا يمكن أن تستعمل بشكل صحيح بوصفها معايير في الخطوات التحليلية لهذه الأسباب فقط، ولصعوبة الوصول للدقة فإن التحليل يخفق، وبذلك تخفق المعايير، ومن السهل أن نجد أمثلة على ذلك: فالسؤال عما إذا كان «غروب الشمس» شيئا أو حالة أو عملية في الزمان سؤال يمكن الجدال حوله بلا نهاية، وكذلك وضع «حقل الحبوب» بوصفه فرديا أو جمعيا هو وضع غير محدد. ولكن الوقائع التوزيعية مثل «هذا غروب جميل this is a fine sunset» و «القمح ينمو بغزارة the wheat is doing well» والشوفان ينمو بغزارة the oats are doing well» عبارة عن وقائع حاسمة شكليا في تحليل الكلمة الإنجليزية sunset بوصفها اسما، وكلمتي wheat و oats بوصفهما اسما مفردا واسم جمع على التوالي. وهذا واضح تماما بالنسبة للمتكلم الإنجليزي سواء أكان قادرا على التمييز بين النوعين من نباتات الحبوب التي ترى نامية في الحقول.

لقد كان بلومفيلد عالما حسبما فهم هو متطلبات العلم، فاللغوي عليه أن يعالج ما يمكنه أن يعالجه بشكل أفضل في مجال علمه، معولا على مجموعة من العمليات الملاحظة عموما والقائمة على مادة ملاحظة على نحو عام. كانت هذه هي الشخصية persona التي اختارها لنفسه بشكل مقصود بوصفه عالما، ولكن هذه لم تكن شخصيته الخاصة مطلقا، فمن الواضح أنه بوصفه إنسانا كان حساسا ومتذوقا للفنون ومقدرا للأدب، وكان عموما مثقفا كأي شخص، وربما أكثر كثيرا من معظم الناس.

ولم تكن قراءاته مقيدة بأي حال بقيوده المنهجية، وقد أعلن أن كتاب Verschiedenheit لهمبولت (ص 285 من قبل) هو «أول كتاب عظيم في علم اللغة العام» رغم أنه لا الكتاب أو مؤلفه يتفق مطلقا مع ما اعتقده بلومفيلد بوصفه مبادئ المقبولية العلمية[64].

ومنذ عام 1940وحتى الوقت الحاضر فإن الجانب الأعظم من النظرية والممارسة اللغويتين، يمكن اعتباره إما استمرارا لتعاليمه أو لما اعتبر أنه كان تعاليمه، وإما ردود فعل ضدها في اتجاهات مختلفة. وسوف نقوم بدورنا بالنظر في النظريات الرئيسية لما بعد بلومفيلد، ولكن المهم تاريخيا هو أن نرى كيف قصدت هذه النظريات بدورها إلى توسيع نطاق العلم اللغوي، وبذلك تحريره على الأقل من بعض قيود بلومفيلد، وإلى إغنائه دون إفساد أسسه العلمية بشكل أساسي، وقد كانت الفكرة العامة هي أن بلومفيلد قد استبعد من الدراسة العلمية للغة أكثر مما كان ضروريا أو مرغوبا فيه.

ولكن إذا كان صحيحا أن كل المنظرين اللغويين في العصر الحديث ـ خلاف هؤلاء الذين استمروا في العمل بناء على مبادئ بلومفيلد طبعا ـ يتفقون على معارضتهم أو تجاوزهم ـ على الأقل ـ لبعض القيود التي فرضها بلومفيلد على نفسه، فإن تشومسكي هو الذي تحدى بصراحة ووضوح، معظم مجمل الأسس الفلسفية للمبادئ البلومفيلدية للعمل بقدر ما يتعلق الأمر بعلم اللغة.

ومفهوم بلومفيلد عن العلم كان مفهوما إمبريقيا بشكل قوى، أما تشومسكي فيصرح بتفسيره العقلي للعلم على الأقل فيما يتعلق الأمر بعلم اللغة، وهذا يتخذ صورتين من صور التفكير حول اللغة على طرف نقيض

من صور التفكير عن البلومفيلديين، ففي المقام الأول ينظر تشومسكي وهؤلاء الذين يتبعون مقاربته العامة، ينظرون إلى اللغة «من الداخل»، أي «مقدرة» ابن اللغة على استعمال وفهم لغته. والإمبريقيون ـ إخلاصا منهم لمبادئهم ـ قد نظروا للغة «من الخارج» كما تفعل العلوم الطبيعية، وشغلوا أنفسهم تماما بالظواهر التي في المتناول عموما للكلام والكتابة. والمثال الصارم للإخلاص لهذه المهمة نراه في القرار المقصود لـ س. س. فرايز C. C. Fries، أن يكتب وصفه لقواعد الإنجليزية الشكلية بشكل كامل على أساس تسجيلات شاملة لمحادثات بالإنجليزية دون الرجوع لمعرفته الخاصة باللغة واستعماله لها[65].

ووجهة نظر تشومسكي «الداخلية» تسمح له باللجوء بالضرورة إلى الإدراكات وردود الفعل الشخصية، والخاصة والفردية المعروفة للمتكلم ـ السامع على نحو مباشر (بما في ذلك بالطبع اللغوي الذي يدرس لغته)، ولتلك الإدراكات وردود الأفعال التي يستدل عليها في الآخرين من خلال كلامهم أو سلوكهم الآخر بشكل غير مباشر فحسب، وهذا من أجل تحديد المقبولية وعدمها، والصياغة المتساوية، والتكافؤ، والصياغة الصحيحة وغير الصحيحة، وأحكام المتكلمين الخاصة عن الفروق وظلال الفروق الدلالية، وتحديدهم للملاءمة السياقية للمفردات وصيغ الجمل. وعموما فالدليل المتعمق يمكن أن يقبل بقيمته الاسمية من الشخص نفسه أو من الآخرين. واللغة نفسها ـ بناء على هذا التفسير ـ عبارة عن مفتاح للفهم الجزئي للعقل أو المخ الإنساني، وهي وجهة نظر يشترك فيها ـ بشروط مختلفة ـ الرواقيون القدماء (صص 40 ـ 43 من قبل)، وفي أكثر من مناسبة عبر تشومسكي عن رأيه في علم اللغة بوصفه فرعا من علم النفس المعرفي[66].

وفي المقام الثاني ليس العقل أو المخ الإنساني صفحة بيضاء، أو وعاء فارغا للإمبريقيين، لا عمل له إلا انتظار الانطباعات والمعلومات التي تنطبع عليه من الخارج. فالعقليون ينظرون للمخ باعتباره مزودا وراثيا ببرنامج غني ومفصل بوضوح، لاستقبال وتفسير وتخزين واستعمال المعلومات العشوائية التي تزوده بها أعضاء الحس، وهذا يساوي «الأفكار الفطرية» عند العقليين الديكارتيين الكلاسيكيين في القرن السابع عشر (ص 193 من قبل). وفي ضوء هذا فإن تعلم اللغة الأولى هو العملية التي يقوم بها مخ

الطفل نحو التجربة العشوائية للكلام الذي يواجهه الطفل، سواء أكان الكلام موجها إليه أو منطوقا في حضوره، ويتم هذا من خلال نظام محدد بإحكام نوعا ما من «القواعد الموجودة»، نظام محدد من خلاله يجب أن يتم إدخال المعلومات وتخزينها وفهمها[67].

من هنا يرى اللغويون التوليديون التشومسكيون اكتساب اللغة الأولى باعتباره نشاطا ومقدرة خاصين على نقيض معظم أشكال التعليم الأخرى، وهذا النشاط يعتمد على مكون معين موجود في العقل أو المخ على نحو وراثي، وهو جهاز اكتساب اللغة (LAD) Language Acquisiton Device، وهو بشكل محدد جانب القواعد العمومية. وفي ضوء هذا فإن اكتساب اللغة الأولى الذي ينجزه كل الأطفال الطبيعيين دون ملاحظة غالبا، ودون تعليم منظم، يتميز بشكل محدد عن تعلم اللغة الثانية فيما بعد، وعن الدراسة المتعمقة في المدرسة للغة المرء الأولى، وهي عمل يباشره المرء بشكل واع ويتطلب تعليما من آخرين، أو هي على الأقل تعليم ذاتي متعمد. والإمبريقيون من ناحية أخرى ينظرون لتعلم اللغة الأولى باعتباره مماثلا لأشكال التعلم الأخرى، وباعتباره يقوم على التعرف على أنماط الجمل من خلال تكرار الجمل مع تغيير المفردات والفئات القواعدية... إلخ[68].

لقد كان تأكيد بلومفيلد على التحليل الشكلي المفصل للغات المختلفة هو الذي حدد رأيه في العموميات اللغوية أو القواعد العمومية، بوصفها ممارسة استقرائية بشكل خالص يجب أن تتبع فقط على أساس المعلومات المتراكمة، من أعداد ضخمة من اللغات أكثر كثيرا مما تم إنجازه حتى الآن. من هنا كانت معالجته الرافضة بعض الشيء للموضوع بوصفها مخالفة لتحديد تشومسكي للقواعد العمومية، بوصفها الفرضية المركزية لفهم بنية اللغة ومقدرتنا كلنا على أن نكتسب أو «ندخل في ذواتنا internalize»، هذا النظام الغني المركب الدقيق للقواعد rules من التعرض سنوات قليلة لكتلة عشوائية ومحدودة جدا من المادة اللغوية[69].

وفي السنوات الأخيرة طور ك. ل. بايك K. L. Pike ومساعدوه اتجاها متفرعا بعض الشيء من تحليل المكونات المباشرة البلومفيلدي في القواعد. وقد تمثل هذا بشكل أكبر في دراسات للغات أمريكا الوسطى والجنوبية التي أصبح هؤلاء اللغويون منشغلين بها بشكل طاغ. وهذا النظام من التحليل

الذي نشأ من نظرية أعم للسلوك الإنساني اقترحها بايك يعرف بالتجميميات tagmemics، بما أن التجميم tagmeme هو وحدتها القواعدية الأساسية. ومن الجدير بالذكر أن إجراءات الاكتشاف لا تزال مسألة ذات أهمية أولية بين التجميميين، مع اهتمامهم المهيمن بالدراسة الميدانية للغات الأمريكية المحلية[70]. والتجميم يوحد في وحدة واحدة وظيفة معينة في تركيب أكبر، وطائفة من العناصر items التي تنجز هذه الوظيفة، وقد عرف بوصفه «ارتباط وظيفة قواعدية أو حيز وظيفي slot بطائفة من العناصر التي يحل بعضها محل بعض تبادليا وتقع في هذا الحيز الوظيفي»[71]، «فالمسند إليه] بوصفه تجميما[الذي يعرض أو يملأ بالاسم»، و «المسند الذي يعرض أو يملأ بالفعل»، «والمفعول به الذي يعرض أو يملأ بالعبارة الاسمية هي كلها تجميمات. وهذه التجميمات تكون تركيبات أكبر كالعبارات clauses والجمل، والجمل لا تحلل إلى تتابعات من المكونات المباشرة (ثنائية عادة؛، ولكن إلى سلاسل من المكونات المتساوية callateral (من هنا يستعمل أيضا لقب «تحليل سلاسل المكونات» لهذه المقاربة)، والاسم المسند إليه والاسم المفعول به أو العبارات الاسمية ترتبط بالفعل بشكل متساو في كثير من التحليلات التجميمية، بينما يكون الاسم المفعول به نفسه جزءا من المجموعة الفعلية في تحليل المكونات المباشرة العادية والتحليل التوليدي ـ التحويلي.

وفي تحديد التجميمات تؤخذ الوظيفة الدلالية وكذلك الوظيفة النحوية في الاعتبار، ومادام معنى طائفة محددة يمكن أن يربط بطائفة محددة من العناصر الشكلية باعتبارها «مالئات fillers»، فإنه يمكن «للمسند إليه» «والموقع location» «والزمن» «والمعدِّل qualifier» وأمثالها أن تكون كلها ـ أحيزة أو وظائف تجميمية. وبتوظيف الدلالة تحليليا لهذا الحد، وتعديل تراكيب المكونات المباشرة بشدة في النحو، تُميِّز التجميمية تباعداتها الرئيسية عن التحليل القواعدي البلومفيلدي. وهذا الابتكار لوحدة تتضمن كلا من الوظيفة (الحيز) وطائفة العناصر (مالئة) التي تقوم بهذه الوظيفة، يبدو أنه أكثر فائدة في التعامل مع اللغات التي يمكن أن يقوم فيها تباين أقسام الكلام المختلفة شكليا بنفس الوظيفة (على سبيل المثال عندما يمكن للأقسام المختلفة صرفيا للاسم والصفة والفعل أن تكون كلها أخبارا)، أو على النقيض مع تلك اللغات التي يمكن فيها لنفس القسم أن يقوم بوظائف متباينة في

الجملة (على سبيل المثال الأسماء بوصفها مسندات إليها أو معدلات أو مفعولات بها)، وحيث تملأ طائفة واحدة من العناصر حيزا واحدا يكون هناك فائض في التعبير عن هذا بوحدة مركبة(72).

والنظرية التجميمية وتطبيقها يمثلان في جوانب كثيرة أقوى استمرار لعلم اللغة البلومفيلدي في عالم ما بعد بلومفيلد، وتركيزها على اللغات التي لم تحلل حتى الآن أو التي حللت بشكل غير ملائم، يقود التجميميين إلى العناية «البنائية» بإجراءات الاكتشاف. ومن بين المدارس الحالية في علم اللغة فإن أنصار التجميمية هم المسؤولون عن الكتب الوجيزة في المجال أكثر من أي أحد غيرهم. ودمجهم لمصطلحات دلالية مجردة في تكنيكاتهم الوصفية باعتبارها أوليات مثل المسند إليه والموقع والمعدل والمستفيد beneficiary... إلخ، والتي يبعد بعض البنائيين على الأقل أنفسهم عنها باعتبارها مفاهيم فوق لغوية وغير شكلية، هذا قد أجمله لونجكر Longacre بوصفه إعادة تأكيد للوظيفة في السياق البنائي(73).

والتجميميون على الرغم من قرابتهم المنهجية والنظرية من بلومفيلد، فإنهم يختلفون عنه اختلافا ملحوظا في أحد الجوانب المثيرة للانتباه وهو اهتمامهم العملي بدور اللغة في الأغراض التبشيرية المسيحية وترجمة الإنجيل، وهكذا يتبعون التقليد الذي بدأه أولفيلاس وسيرل ويثُديوس وقسم التبشير بالإيمان Propaganda Fide department بالكنيسة الرومانية (181 من قبل). أما بلومفيلد فقد كان ملحدا أو على الأقل لا أدريا فيما يتعلق بأمور العقيدة، وقد يكون هنا درس أيضا لهؤلاء الذين يحاولون أن يستنتجوا مبادئ سياسية من حقائق اللغة الإنسانية.

وعلى نحو مستمر جاء أول التحديات «لبنائية» بلومفيلد في أعمال ج. ف. فيرث J. R. Firth في إنجلترا، مع مجموعة من اللغويين العاملين معه في جامعة لندن في فترة الأربعينيات والخمسينيات. وقد وجه فيرث اهتماماته بشكل أساسي إلى الفنلجيا من ناحية، وإلى الدلالة من ناحية أخرى. وبصرف النظر عن بعض الملاحظات المعزولة لم يقل إلا القليل في النحو والصرف. وهذه المستويات من التحليل اللغوي قد شرع هاليداي في تناولها بعد وفاة فيرث، ونظام هاليداي الوصفي قد فهم باعتباره استمرارا وتطويرا لأفكار فيرث كما كان سوف يتابعها، وتمنى أن يعيش حتى يرى

اكتمالها (صص 22 ـ 351 من بعد).

كانت الدراسات اللغوية التزامنية في بريطانيا تركز في البداية على الصوتيات والفنلجيا. وقد تبنى د. جونز مذهب سويت ووسعه، وقد نشر كتابه «مختصر صوتيات الإنجليزية Outline of English phonetics» لأول مرة في عام 1914م، ونشر معجمه «معجم الإنجليزية الناطق English pronouncing dictionary» لأول مرة عام 1917م، وهما معروفان ويستعملان على نطاق العالم حاملين دراسة وتطبيق «النطق الصحيح received pronunciation (RP)»، إلى ما وراء الحدود الجغرافية والاجتماعية الضيقة نسبيا التى فيها يصف النطق الصحيح نطق لهجة محلية.

وقد عولجت مسائل لغوية أكثر عمومية في مؤلف جاردنر Gardiner «نظرية الكلام واللغة Theory of speech and language» (1932)، ولكن النظرية اللغوية المتميزة والاعتراف بعلم اللغة العام باعتباره موضوعا أكاديميا في بريطانيا، يدينان بالكثير لفيرث أستاذ علم اللغة العام في جامعة لندن من 1944 إلى 1956م، وأول حامل للقب في علم اللغة في هذا البلد. وقد كرس فيرث كثيرا من اهتمامه للفنلجيا التي قدم فيها نظرية التحليل البرسودي (صص 25 ـ 355 من بعد)، وهذا هو ما فهم من خلال نظريته العامة والتي يمكن أن يطلق عليها النظرية السياقية للغة.

وقد اعتمد فيرث ـ مثل اللغويين الأمريكيين ـ على عمل وتفكير الأنثروبلجيين. وفي حالته اعتمد بشكل خاص على تفكير ب. مالينوفسكي B. Malinowski الذي طور ـ مواجهته لمهمة ترجمة الكلمات والجمل المحلية، في النصوص الإثنوجرافية من جزء تروبرياند Trobriand إلى إنجليزية مفهومة ـ طور نظريته لسياق الحال والتي وفقا لها ترجع معاني المنطوقات (التي تؤخذ كمادة أولية) وكلماتها وعباراتها المكونة لها، إلى وظائفها المختلفة في سياقات الحال الخاصة التي تستعمل فيها[74].

وهذه المقاربة سحبها فيرث على اللغة بمعالجته للوصف اللغوي كله باعتباره تحديدا للمعنى، وبذلك يمد تطبيق معادلة «المعنى هو الوظيفة في سياق» ليغطي التحليل القواعدي والفنلجي. وعلى سبيل المثال فإن تحديد الاستعمالات النحوية لصيغة الحالة في لغة كاللاتينية هو تحديد لوظيفتها في السياقات القواعدية المختلفة، كما أن تحديد التباينات الفنلجية

والإمكانيات السياقية لصامت مثل [b] أو [n] في الإنجليزية، هو تحديد لوظيفته في السياقات الفنلجية المختلفة وفي سياق النظام الفنلجي للغة[75].

والمعنى بمعناه المعتاد للعلاقة بين اللغة وعالم التجربة قد تم تناوله بأسلوب الوظائف الدلالية للكلمات والعبارات والجمل، في سياقات الموقف المختلفة ذات الطبيعة الأكثر تجريدا من التفصيل الفعلي المرصود لمالينوفسكي، والتي تقدم إطارا للفئات يضم المقصود reference والمعنى الحقيقي denotation[76] اللذين يمكن عن طريقهما، أن تربط المنطوقات وأجزاؤها بالصور المتصلة بها وبالوقائع في العالم الخارجي. وقد أكد فيرث على التوازي بين السياقات الداخلية والشكلية للقواعد والفنلجيا وبين السياقات الخارجية للموقف، وبهذا يسوغ التوسيع المختلف والمتناقض ظاهريا في استعمال مصطلح المعنى. ويمكن أن يقال إن فيرث قد بخس أهمية الفروق بين التحليل الشكلي والتحليل الدلالي[77]، ولكن الانتقال في الدلالة بعيدا عن تجسد المعاني كما «يمثل» أو يشار إليه بشكل بسيط (مادام لا يوجد بسهولة مشار إليه معين لكثير من الكلمات) إلى تفسير المعنى بوصفه وظيفة (كيفية استعمال الكلمات وتركيباتها) هذا الانتقال كان انتقالا أعظم قيمة.

وبعزم هاليداي التلميذ آنف الذكر لفيرث على أن يقوم بما لم يقم به فيرث، وهو تقديم وصف واضح لنظريته في اللغة والتحليل اللغوي فإنه شرع في نشر كتابات متتابعة منذ 1961، لإعطاء وصف كامل ومتماسك ومصحوب بأمثلة لنظرية فيرث كما يفهمها هو، بما في ذلك نظرية الصرف والنحو التي لم يفعل فيرث بصددها شيئا أكثر من أنه مسها مسا خفيفا.

ومفهوم فيرث لسياق الحال بوصفه الوسيلة لتحديد المعنى وللفنلجيا بوصفها الصلة بين القواعد والصوتيات، يأخذ شكل الرسم التخطيطي التالي لعلم اللغة الوصفي[78].

والرسم السابق يصور مفهوم هاليداي حول علم اللغة بوصفه علما منظما متسقا، وقد تغير وتطور هذا المفهوم بشكل غير مدهش منذ عرضه الأول في عام 1961م[79]، ولكن الصورة المعروضة هنا تبقى كما كانت بشكل جوهري.

والنظرية اللغوية لهاليداي، كما أوضح بشكل متكرر، كانت غايتها استثمار

الصوتيات	علم اللغة			
المادة	←→	الشكل	←→	
المادة الصوتية	الفنلجيا	القواعد (نظام مغلق)	السياق	الحال خصائص غير لغوية
المادة المكتوبة	الهجاء	المعجم (نظام مفتوح)		

مفهوم فيرث في علم اللغة والبناء عليه، وأن تقدم لعلم اللغة الفيرثي ما لم ينجزه فيرث نفسه في الواقع، وأن تقدم بطريقتها نظرية للغة والتحليل اللغوي. ويبقى مدى نجاح هاليداي في هذا الهدف مسألة موضع خلاف. ولكن نظريته اللغوية قد جذبت كثيرا جدا من الانتباه وبشكل خاص في صورتها الحالية.

والنظرية في مراحلها الأولى حملت اسم «علم اللغة الفيرثي الجديد» الذي يفسر نفسه بنفسه، كما أطلق عليها أيضا «قواعد النظام والفئة»، واللقب الأخير مأخوذ من مجموعة من العناصر الأساسية السبعة للنظرية كما عرضت في عام 1961م، وهي ثلاثة أنظمة وأربع فئات[80]. وحاليا يشار لنظرية هاليداي بوصفها «القواعد النظامية» أو «علم اللغة النظامي» بما أن قواعد اللغة (بالمعنى الواسع «للقواعد») ينظر إليها باعتبارها مجموعة مركبة ودقيقة بدرجة عالية من أنظمة الاختيارات، وبعض هذه الأنظمة منظم تعاقبيا وبعضها منظم تزامنيا، وفي إطارها يجب على المرء (تشكيليا) أن يسير في صياغة منطوق معين، وفي إطارها يجب على المرء باعتباره مستمعا أن يفسر منطوقا معينا.

وهذه الشبكات المترابطة للاختيارات (ومصطلح «شبكة» عبارة عن مصطلح لهاليداي) يُفترض أنها تأخذ الشكل الذي تأخذه في كل اللغات حتى يمكن للمتكلمين والمستمعين أن يستفيدوا من لغتهم حتى تفي بمتطلباتهم كما يحددها الوضع الإنساني العام وكما تحددها ثقافتهم الخاصة. وهاليداي

ـ مثل فيرث ـ يربط بطريقته علمه اللغوي بأنثروبلجيا مالينوفسكي، ويقر بمحاولته المساعدة على إجابة السؤال: لماذا تكون اللغة على ما هي عليه؟ على اعتبار أن هذا هو الهدف المركزي لنظريته اللغوية[81].

وفي تحليل الشكل اللغوي ذاته فإن فيرث ـ مثل معظم اللغويين البريطانيين في زمنه ـ كان أكثر عناية بالفنلجيا من عنايته بالقواعد، وقد رأى الشكل اللغوي باعتباره مجموعة من التجريدات مثل المستوى المعجمي والقواعدي والفنلجي، وهذه التجريدات ترجع إلى الصور الفعلية ووقوعات المادة الصوتية التي تعمل باعتبارها الممثلات المختلفة لهذه التجريدات. والعناصر والفئات المجردة عند كل مستوى يرتبط بعضها ببعض في موازاة البعدين السوسيريين في التراكيب الأفقية syntagmatic والأنظمة الرأسية ـ paradigmatic (خصص فيرث المصطلحين تركيبstructure ونظام system ليشيرا بالتوالي لهذين البعدين للعلاقة اللغوية الداخلية)، «فصامت ـ صائت ـ صامت» «وحرف جر ـ اسم» عبارة عن تركيبين نموذجيين، بينما تكون الانفجاريات (أي الصوامت الانفجارية مثل [p] أو [t] [أوd] ... إلخ) في بداية المقطع أو الحالات الاسمية في اللغة، تكون أنظمة للعناصر أو الفئات المتقابلة، والمستويات عبارة عن مستويات تراتبية بشكل ضعيف بمعنى أن التجريدات الفنلجية، يمكن أن تعمل بشكل غير مباشر بوصفها ممثلات للتجريدات القواعدية، بينما لها هي في ذاتها ممثلات صوتية في المادة الصوتية، رغم أن التمثيل يمكن أن ينظر إليه بشكل مباشر أيضا باعتباره العلاقة بين التجريدات القواعدية والمعجمية وبين المادة الصوتية[82].

وأكثر الجوانب تميزا في أعمال فيرث اللغوية هو الفنلجيا البرسودية، وقد عرضت صورتها لأول مرة عام 1948م بشكل برنامجي، وطورت هذه الصورة في التطبيقات على عدد من اللغات في العقد التالي[83].

وفنلجيا فيرث البرسودية يجب وضعها في الاعتبار إلى جانب الأنظمة الأخرى للفنلجيا التي تطورت في الأربعينيات، كاستجابات للتحدي الذي واجهته الفنلجيا في الثلاثينيات باعتبارها قسما من أقسام علم اللغة الوصفي. وعلم الصوتيات، العلم الوصفي القائم على الملاحظة والذي ساعدته الآلات («علم الصوتيات التجريبي») المتطورة، كان قادرا في ذلك الوقت على تمييز وتسجيل الظواهر الصوتية المستخدمة في الكلام بدرجة

أعلى من الصحة عما كان قبل ذلك الوقت، وأدخل في ميدان إحكامه ملامح مثل مستويات النبر وطبقة الصوت والحركات المستخدمة في التنغيم، بالإضافة إلى الفروق الصوتية والحركات النطقية المرتبطة بها والتي ترتبط بالانتقالات بين المقاطع والكلمات والسلاسل الأخرى في المنطوقات ككل. وهذه الظواهر الصوتية أشار إليها سويت تحت عنوان «التوليف synthesis» (في مقابل «التحليل analysis» وهو وصف الصوامت والصوائت باعتبارها أجزاء تتابعية مستقلة)[84]، ولكن هذه الظواهر الصوتية قد تم تجاهلها إلى حد ما في النظرية الفنلجية، وجزئيا زودت هذه الظواهر الصوتية الـ Grenzsignale لمدرسة براغ بالمادة (ص 327 من قبل).

والنظرية البرسودية - في أحد جوانبها - خلقت أشد الخصومات جذرية مع النظرية القائمة. وقد ألح فيرث على الفصل بين متطلبات الكتابة الصوتية وبين بناء نظرية فنلجية ملائمة. وفي الواقع كان توادل Twaddell قد اقترح مثل هذا الفصل من قبل، ولكن هذا لم يؤثر إلا تأثيرا ضعيفا في النظرية الفنلجية لزمنه. والفونيم بوصفه وحدة نظرية عند فيرث له قيمته في استنباط وتسويغ الكتابات الصوتية الاقتصادية الواسعة، أما العرض الكامل للعلاقات الوظيفية المتبادلة للملامح الصوتية في المنطوق فيتطلب مجموعة مختلفة من المصطلحات وطريقة مختلفة من التحليل[85]. ومادام فيرث كان مناصرا قويا للرأي القائل إن المفاهيم التحليلية لا توجد إلا في الأنظمة التوصيفية للغوي وليس في اللغة ذاتها، فإن هذا الوجود لأنظمة المفاهيم المختلفة التي تخدم أغراضا مختلفة لايقدم أي نوع من الحرج بالنسبة لفيرث.

والتحليل البرسودي يستخدم نمطين من العناصر الأساسية، وهما الوحدات الفونيمية والبرسوديات. وكل من هذه العناصر يقوم في علاقة مع ملمح صوتي معين (أو مجموعة ملامح) يعمل ممثلا في مادة الكلام الفعليةالمنطوقة، والوحدات الفونيمية هي الصوامت والصوائت، وهي ترتب تسلسليا باعتبارها أجزاء، ولكن أي تركيب فنلجي (على سبيل المثال المقطع أو مجموعة المقاطع) قد يضم برسودية أو أكثر. والبرسوديات تنسب لتراكيب محددة، وليس لأماكن بين الوحدات الفونيمية، وهي تؤسس لمعالجة العلاقات الأفقية بين ملامح صوتية معينة. وبشكل عام توزع الملامح الصوتية على

البرسوديات وليس على الوحدات الفونيمية، سواء امتدت هذه البرسوديات على مجمل التركيب أو على الجزء الأكبر منه أو كانت محددة فيه موقعيا، ومن هنا تعمل محددا لهذا التركيب. ومن الأمثلة على ذلك فإن النغمات في اللغة السيامية (التاي) قد عوملت بوصفها برسوديات مقاطع بالمعيار الأول، والانفجار في هذه اللغة باقتصاره على الموقع الأول في المقطع ينظر إليه باعتباره برسودية مقطع (جزء part) بالمعيار الثاني(86). والأمثلة المشابهة لبرسوديات الكلمات بوصفها وحدات فنلجية هي قيود التوافق الصائتي (تصحب عادة بفروق متصلة بها في أنواع النطق الصامتي) في لغات مثل التركية والمجرية، وكذلك النبر المقيد بمكان ثابت في الكلمة، وبالتالي هو يعمل محددا لحدودها.

سوف نرى أن برسوديات فيرث وبرسوديات التحليل التي اتبعت هذه النظرية تعالج جزئيا نفس الظواهر التي عالجتها «جرنسجنالي» براغ والفونيمات فوق الجزئية لعلماء الفونيمية Phonemicists الأمريكيين، ومع ذلك هناك عدد من الفروق، فأي نمط لملمح صوتي يمكن أن يظهر ارتباطه أفقيا بأكثر من جزء مفرد يمكن أن يعامل بوصفه الممثل لبرسودية معينة، والفونيمات فوق الجزئية الأمريكية، بخلاف المفاصل، قد اقتصرت عموما على النبر والطول وطبقة الصوت، وهي الملامح التي لا تتطلب فرقا في شكل الموجات الصوتية(87)، ومثل هذه القيود لا تطبق في التحليل البرسودي، كما أن ملامح صوتية معينة تكون في أنظمة تحليل أخرى جزءا من فونيمات الصوامت أو الصوائت، يمكن نسبتها إلى البرسوديات (على سبيل المثال الالتوائية في السنسكريتية وفي بعض اللغات الهندية الحديثة، والنطق الغاري وغير الغاري في بعض تنوعات الصينية)(88)، ولنفس السبب فإن ممثلات بعض الوحدات الفونيمية قد تشتمل على ملامح صوتية أقل مما يكون للفونيمات المماثلة وثيقة الصلة في التحليل الفونيمي.

ومجموعة العناصر التحليلية وحيدة النظام مجموعة غير ضرورية فيما يتعلق بمتطلبات الكتابة الصوتية التي لم يعد لها الاعتبار الأول، فالتحليل البرسودي مهيأ لإقامة أنظمة مختلفة للوحدات الفونيمية، والبرسوديات في مواضع مختلفة في التراكيب، حيث إن هذا ييسر مسألة التحليل بشكل كبير. من هنا فإن الصوامت في بداية المقطع يمكن أن تشكل إلى حد بعيد

نظاما مختلفا عن نظام الصوامت في نهايته، ودون مماثلة لأعضاء نظام مع أعضاء النظام الآخر، مع أن ملامح صوتية معينة (ممثلات) يمكن أن تكون مشتركة بينها. وفوق ذلك، وعلى خلاف اللغويين «البلومفيلديين»، ولكن مثل اللغويين التوليديين ـ التحويليين (ص 359 من بعد) فإن الفنلجيين البرسوديين ينظرون للفنلجيا باعتبارها الصلة بين القواعد وبين المنطوق الفعلي، وبشكل أكثر تجريدا بين القواعد والصوتيات، والفئات القواعدية والتراكيب تتصل بشكل دقيق بالمستوى الفنلجي، في الوقت الذي يمكن للملمح الصوتي أو الملامح الصوتية أن تربط بها باعتبارها ممثلات لها[89]. ومن هنا جاء تمييز برسوديات الكلمة والجملة، وكذلك برسوديات المقطع، وأيضا إمكانية الأنظمة الفنلجية التي تختلف في جوانب معينة لكلمات من قسم معين في لغة معينة وكلمات من قسم آخر. والجانبان الأخيران اللذان يختلف فيهما التحليل البرسودي عن التحليل الفونيمي الموجه للكتابة الصوتية، قد أوجدا مصطلح «متعدد الأنظمة polysystemic» فيما يتعلق بالفنلجيا البرسودية. ونتيجة التحليل البرسودي ليست هي الكتابة الصوتية مسهلة القراءة، بل هي التمثيل التخطيطي للعلاقات المتبادلة للعناصر والملامح في سلسلة المنطوق التي يمكن أن توضع في علاقة مع التركيب القواعدي[90].

والنظريات المصوغة حديثا للفنلجيا ذاتية الأجزاء autosegmental والفنلجيا المترية metrieal التي تميز «طبقات tiers» مختلفة للملامح الفنلجية زيادة على الأجزاء والملامح الجزئية، هذه النظريات يمكن النظر إليها بطرق مختلفة بوصفها إحياء أو استمرارا للنظرية البرسودية لفيرث[91].

وهناك نظرية عامة للتحليل اللغوي استمدت بعض خصائصها من نظرية براغ هي نظرية «القواعد الطبقاتية stratificational» التي قدمها س.م.لامب S. M. Lamb (القواعد grammar تستعمل بمعناها الأوسع لتغطي التحليل الشكلي برمته، كما هو الشأن في الاستعمال التحويلي[92]. والمستويات والطبقات المختلفة مستويات مفترضة في التركيب اللغوي لتحليل الجمل، وعلى سبيل المثال مستوى الدلالة الذي تظهر فيه وحدات المعنى المميزة في اللغة في شكل شبكة من العلاقات (مثل «نمر» و «يمسك» و «مذكر» و «إنساني» و «عامل» و «هدف» و «ماض»)، ومستوى المعجم الذي تتصل فيه

الوحدات المعجمية المميزة مثل «(الـ ـ رجل أمسك بـ ـ الـ ـ نمر... إلخ»، تتصل معا في تركيب الجملة، والمستوى المرفيمي الذي تظهر فيه المرفيمات في سلسلة متتابعة، والمستوى الفونيمي الذي تؤلف فيه الحزم المتزامنة للملامح المميزة سلسلة من الوحدات الفونيمية (الرجل أمسك بالنمر)، وهذا يصور الانتقال من المعنى المقصود إلى الشكل المنظم تسلسليا وصوتيا.

والمستويات يتصل بعضها ببعض بطريقة تسلسلية هرمية، وتربطها معا علاقة التمثيل أو التحقق بكون المستوى المعجمي يمثل المستوى السيميمي (الوحدات الدلالية)، والمستوى المرفيمي يمثل المستوى المعجمي، والمستوى المرفيمي تمثله الملامح المميزة للمستوى الأدنى وهو المستوى الفونيمي. وتختلف طبيعة التمثيل من التمثيل البسيط عندما تمثل وحدة من المستوى الأعلى بوحدة على المستوى الأدنى التالي، إلى تلك التمثيلات المركبة كالتحييد (وحدتان أو أكثر لا تميزان بنائيا في التمثيل) والتمثيل المركب (وحدة واحدة تمثل بأكثر من وحدة مستوى كما في التمثيل الألومرفي المتعدد لمرفيم واحد) والتمثيل الصفري وتمثيل النحت... إلخ.

كانت هذه النظرية عبارة عن رد فعل ضد النظرية الخطية linearity السائدة لتوزيعية بلومفيلد، عن طريق عرض الأنماط المختلفة للعلاقة البنائية التي يمكن أن تستخدم في التحليل اللغوي، وعدد الطرق المختلفة التي يمكن أن يرتبط بها تركيب على مستوى معين (يحقق أو يمثل بـ) بتركيب معين على مستوى آخر. وعلم اللغة الطبقاتي يمثل نظاما عن طريقه يمكن أن تفسر عملية المتكلم ـ المستمع واستقباله للمعاني (الأفكار ـ الإدراكات ـ سير الأحوال... إلخ) من خلال الكلام. ولتوضيح المراد فإن نقطة انطلاق الجهاز الطبقاتي هي بوضوح نقطة انطلاق نفسية في توجهها، كما أن هناك صلة ممكنة ببعض العمليات العصبية الفعلية في المخ لم يتم استبعادها على الأقل بالنسبة لكاتب واحد في هذه المدرسة[93].

وبينما يمكن التأكيد على أن الجانب الأكبر من التطورات في النظرية اللغوية الوصفية وفي المنهج منذ الخمسينيات، كان متعلقا بردود الفعل من نوع أو آخر ضد ما اعتقد أنه قيود غير ضرورية، وضعها مفهوم بلومفيلد «البنائي» للموقف العلمي في الموضوع، فإن ما يمكن النظر إليه اليوم باعتباره بداية للحركة الأكثر جذرية وتأثيرا في النظرية اللغوية والممارسة اللغوية،

يمكن تحديده بعام 1957 عندما نشر تشومسكي كتابه «التراكيب النحوية syntactic structures» مدشنا بذلك علم اللغة التوليدى ـ التحويلي، الذي اكتسب اسمه من منهجه الأساسي المتميز ومن توجه العمل الذي شرع فيه.

والموقف الفلسفي العام في موضوع علم اللغة بوصفه علما والذي اعتنقه تشومسكي وأنصاره قد أشرنا إليه من قبل. والنظرية أو النظريات الفعلية التي نشأت عن أفكاره ومذهبه ومؤلفاته المنشورة قد شغلت كثيرا من العقول الأكثر نشاطا وتفكيرا في علم اللغة على مدى الثلاثين عاما الماضية. وعلم اللغة التشومسكي ـ منذ نشر «التراكيب النحوية» عام 1957، ومع احتفاظه عموما بالموقف العقلي العام الذي تمت مناقشته فعلا، قد مرّ بعدد من المراحل، واستمر واستجاب لعدد من المجادلات، وغير جوهريا تأكيده على الوصف كما يدل على ذلك توالي العناوين الشائعة: القواعد التحويلية، والقواعد التحويلية ـ التوليدية، والقواعد (أو علم اللغة) التوليدية.

وأحد الجوانب المميزة لـ «التراكيب النحوية» هو استعمال العلاقات التحويلية المشكلة في صورة قواعد rules، وصف الفروق بين جمل الأنماط المختلفة موضحة بأمثلة من الإنجليزية، ولكنها (أي القواعد) قابلة في الأساس للتطبيق على كل اللغات، فجمل النفي وجمل الاستفهام والجمل المبنية للمجهول قد عوملت كلها باعتبارها تحويلات transforms لنمط جملة «نواة kernel» أكثر أساسية تمثله الجمل الإخبارية المثبتة (أي أن القواعد التحويلية المختلفة تشتق من جملة مثل «جون يتذوق الموسيقى Jhon appreciates music» جملا مثل «جون لا يتذوق الموسيقى Jhon does not appreciate music» و «هل يتذوق جون الموسيقى؟ does John appreciate music?»، و «الموسيقى تتذوق من طرف جون music is appreciated by John»).

والعلاقات التحويلية بين جمل التراكيب النحوية المختلفة كان هاريس قد أدمجها في نمط «بلومفيلدي» مختلف بشكل أساسي، من الوصف اللغوي في مقالتين في عام 1952م وعام 1957م[94]، ويمكن لفت النظر إلى أن تشومسكي كان تلميذا لهاريس. وفي عام 1957م قدم تشومسكي مجموعة من القواعد التحويلية من أجل إيجاد قواعد أكثر فعالية ـ في نظره ـ من نموذج المكونات المباشرة أو النموذج التوزيعي («تركيب العبارة») غير المساعد والمأخوذ في الاعتبار. وفي هذا يلاحظ أن تشومسكي كان يعيد بطريقة

مصوغة بشكل أكثر دقة تقديم المفاهيم والعلاقات التي كانت جزءا من تدريس اللغات الأوروبية التقليدي عبر كل تاريخه، ومصطلح «القاعدة القواعدية grammatical rule» مصطلح مألوف لأي شخص تعلم لغة ثانية في المدرسة، وهذا المصطلح قد أسقط عن وعي من علم اللغة «البلومفيلدي» من أجل تحاشي أي أثر للانحراف الوصفي أو المعياري، يظهر في طريقة الوصف الموضوعي، والتحليل «التركيبي» وضع نصب عينيه بوضوح تحديد طبيعة «العناصر» وعلاقاتها التوزيعية بعضها ببعض (ص 337 من قبل)، وبعض النقاد الأمريكيين «للتراكيب النحوية» قد خلقوا كثيرا من هذا الخصام الجذري بشكل واضح مع الماضي القريب، عندما وضعوا قواعد القواعد grammar of rules» مكان قواعد القوائم grammar of lists»، ولكن النقاد الأوروبيين قد أعطوا اهتماما أكبر لاتصال قواعد تشومسكي بالتراث الأوروبي الأقدم خاصة فيما يتعلق بتدريس اللغة الثانية، وأنه يجب التأكيد على أن هذا كان أحد جوانب عمله التي يؤكد عليها تشومسكي نفسه تأكيدا كبيرا[95].

كان «التراكيب النحوية» معنيا على وجه الحصر تقريبا بالنحو والصرف (اللغويون التحويليون ـ التوليديون يستعملون عموما المصطلح «قواعد grammar» بمعنى واسع يضم الفنلجيا، ويميلون لمعاملة الصرف بوصفه مجموعة فرعية من «القواعد النحوية syntactic rules»). ويمكننا أن نرى الآن عامي 64, 1965م باعتبارهما مميزين لتطور رئيسي اقتضت فيه النظرية التحويلية ـ التوليدية ضم الدلالة والفنلجيا في نطاقها، ومن هنا كتب كاتز KatZ وبوستال Postal عام 1964م: «الوصف اللغوي للغة طبيعية عبارة عن محاولة لكشف طبيعة تمكن المتكلم طليق اللسان من هذه اللغة»[96]، وأي بحث آخر في البديهية اللغوية أو المعرفة العملية باللغة هو بصورة مثالية عبارة عن بحث غير ضروري وغير منطقي، لأن هذه البديهة ستكون واضحة ومتضمنة في وصف اللغة.

والهدف الذي وضعه هؤلاء اللغويون لأعمالهم هدف أكبر من ذلك الهدف الذي وضعته أي مجموعة سابقة من اللغويين، فهو لا يقل بحال عن عرض كل شيء في وصف اللغة تتضمنه الكفاءة اللغوية للمتكلم الأصلي للغة. وأهداف اللغويين التحويليين يمكن إحرازها بصياغة الأوصاف اللغوية في

شكل قواعد تجسد المقدرة الإبداعية لمتكلم اللغة الأصلي على إنتاج وفهم عدد لا نهائي من الجمل (كل الجمل القواعدية للغة فقط) التي لم ينطق معظمها أو يسمعه من قبل، وهذا عن طريق القواعد المتكررة والوسائل الأخرى في القواعد المصوغة للغات.

كان الجانب الإبداعي غير المحدود لمعرفة المتكلم الأصلي للغته هو الذي ميز فيه تشومسكي واللغويون التحويليون ـ التوليديون الآخرون، تصورهم للكفاءة عما اعتبروه التصور السوسيري الأكثر محدودية للغويين «البلومفيلديين»، وهو هدف لم يتخل عنه بالتأكيد الجيل البلومفيلدي(97). وإصرار هؤلاء على حقيقة أن مادتهم ـ رغم محدودية كتلتها corpus ـ كانت عينة كافية من اللغة، مكنهم من الادعاء أنهم أيضا احتاطوا للإبداعية غير النهاية للغة الطبيعية، رغم أنهم كانوا أقل إبرازا لهذه المفاهيم بوصفها تكرارا نحويا أو ابتداعا معجميا(98).

في عام 1965م مثل مؤلف «جوانب النظرية النحوية Aspects of the theory of syntax» في النظرية التحويلية ـ التوليدية، كما نعرف الآن، مثل المرحلة التي عندها أصبح ممكنا للمرة الأخيرة تأكيد وحدة أساسية داخل النظرية، ففي ذلك الوقت تم دمج الدلالة والفنلجيا في النظام الوصفي على غير ما كان عليه الأمر في «التراكيب النحوية». والتصور الجذاب للبنية العميقة المجردة نسبيا التي يقدمها التفسير الدلالي لمعنى الجملة وسلسلة التحويلات التي تولد البنية السطحية دون أي تغير في المعنى يكون متأثرا بهذه التحويلات وبالبنية السطحية التي هي الدخل imput، للقواعد الفنلجية التي يكون خرجها output هو الجملة المنطوقة. هذا التصور قد أعطانا على نحو مندفع عنوان «النظرية الموحدة standard theory». ومنذ عام 1965م، وعلى مدى السنوات التالية كان هناك اتفاق عام بين اللغويين التوليديين على مكانة وصورة الفنلجيا في الوصف القواعدي والنظرية القواعدية. وفي الجوانب الأخرى لم تبق النظرية طويلا دون تحدٍّ، واليوم تزودنا النتاجات المختلفة للاندفاعة التشومسكية الأصلية بتنوع نظري يبدو من غير المرجح أن ينتج لنا صورة واحدة للنظرية في المستقبل المنظور.

وبشكل عام تشتمل الفنلجيا على مجموعة قواعد أخيرة تحول التركيبات النحوية السطحية إلى سياقات منطوقة أو متحققة من الفونات. وهذا

يتفق مع الدور الفيرثي للفنلجيا، ولكنه بالطبع يتعارض مباشرة مع التعيينات ثنائية التفرد للفونيمية «البنائية» (ص 354 من قبل). ومنذ عام 1959م عندما نشر م. هالي M. Halle «النمط الصوتي للروسية Sound patten of Russian»[99]، فإن القواعد الفنلجية قد صيغت بشكل عام بأسلوب الملامح المميزة لمدرسة براغ، وكانت الملامح التي وضعها ياكوبسن (ص 328 من قبل) والمعرفة تعريفا أكستيكيا هي الملامح المستعملة على مدى عقد من الزمن، ولكن في عام 1968م عرض تشومسكي وهالي مبرراتهما للعودة لقائمة ملامح نطقية، هي بلا شك ليست ملامح تروبتسكوي ومدرسة براغ المبكرة، ولكنها مع ذلك قائمة أساسا على أشكال وحركات أعضاء النطق المستخدمة في إنتاجها[100].

ومفهوم الملمح المميز الذي تمت صياغته لأول مرة على يد تروبتسكوي ومدرسة براغ المبكرة، قد أثبت أنه واحد من أكثر المفاهيم التحليلية أهمية وبقاء في علم اللغة، كما أن نظرية الملامح المميزة لا تزال تبحث وتطور بشكل فعال، وإذا كان هناك أي مفهوم يملك مفتاحا لفهم التغيرات في النظرية اللغوية في القرن الحالي فهو هذا المفهوم.

والملامح المميزة في الفنلجيا هي بالطبع قائمة عمومية تختار منها اللغات اختيارات مختلفة في صورة تجمعات مختلفة مسموح بها. وقياس الملامح الفنلجية بالملامح على المستويات الأخرى، إلى جانب النزعات العقلية العمومية لمعظم اللغويين التحويليين ـ التوليديين قد شجع على استئناف البحث عن العموميات اللغوية في مكونات القواعد الأخرى[101]، وهناك اتفاق بشكل عام على أنه سوف توجد على مستوى النحو عموميات ذات شأن في البنية العميقة، أو في نظيرها في الصور الأخرى من النظرية. ومن اللافت للنظر أن «البلومفيلديين» الذين شددوا كثيرا على الفروق الفردية بين اللغات، قد ركزوا كل تحليلهم الشكلي على ما يسمى الآن بالبنيات السطحية، وهي بالضبط الجانب الذي يكون فيه اللغويون التحويليون ـ التوليديون أكثر استعدادا لاعتباره المجال الوحيد للاختلاف اللغوي.

كانت التحويلات دائما من بين الوسائل التي تخدم تحقيق الهدف، وهو الوصف التوليدي لما يستخدم في كفاءة المتكلم الأصلي للغة، ولكن الـ Aspects

رأى أن بداية العملية التي سارت بشكل صارم منذ ذلك الوقت هي الاختصار في أعداد ودور التحويلات، فقد عُلّم النفي في التركيب العميق بالعنصر المجرد «نف NEG» الذي يوجد تمثيلات سطحية خاصة بدلا من أن يكون تحولا ذا دلالة في ذاته، فالمشتقات الاسمية بالتالي مثل ,ignorance, departure arrival وهكذا قد فصلت عن صيغ المصدر المنتهي بـ ing ـ (,ignoring, departing arriving ... إلخ) على أسس دلالية ونحوية مختلفة ترجع للمعاجم بشكل مباشر إلى جانب الكلمات الجامدة، وتعلم قواعديا على نحو ملائم[102]. وقد احتفظت قواعد تشومسكي التوليدية في أحدث صورة لها بقاعدة تحويل واحدة فقط مقيدة بدرجة عالية وهي: «حرك ´α» أي «حرك ما يمكن أن يحرك في الحدود التي تفرضها بقية عناصر النظام».

هناك مثال لغنى النظام القواعدي يفترض القواعديون التوليديون الآن أنه نظام متأصل وعمومي، رغم ظهوره بشكل مختلف في اللغات المختلفة، وهذا المثال نراه في نظرية الحكم والربط الحالية Government and Binding (GB اختصارا).

وهذه النظرية تأخذ اسمها من مكونيها الفرعيين الأكثر أهمية أو من النظريات الفرعية لمجمل القواعد التي تعتبر هي نفسها متضمنة سبع نظريات فرعية. والحكم بشكل عام يعالج تحديد الأدوار القواعدية المحددة للكلمات ومجموعات الكلمات (لذلك يمكن النظر لهذا باعتباره توسيعا للمفهوم الكلاسيكي للحكم أو التأثير reaction، أما الربط فيحدد الشروط التي تفسر تحتها الضمائر وبعض الكلمات الأخرى تفسيرا مرجعيا مشتركا، أو لا تفسر (كما في «يعجبه he admires him ويعجب نفسه he admires himself»).

وهناك صورة أخرى من القواعد التوليدية، وهي «قواعد تركيب العبارة المعممة Generalized Phrase Shructure Grammar (GPSG)»، التي استغنت تماما عن التحويلات معتمدة على قواعد تركيب العبارة في مكون تركيب العبارة الموسعة لإنجاز الوصف القواعدي الشامل المطلوب. وهناك تخل مشابه عن القواعد التحويلية نراه أيضا في النظرية المعروفة عموما باسم «القواعد المعجمية الوظيفية Lexical Functional Grammar (LFG)»[103].

ودمج نظرية الدلالة في صورة أو أخرى في علم اللغة التحويلي ـ التوليدي،

عبارة عن مظهر واحد فقط من مظاهر الاهتمام الأكبر بعلم الدلالة من طرف كل اللغويين تقريبا في السنوات الأخيرة، وهذا الاهتمام متباين تباينا واضحا عن الممارسة الأمريكية المقبولة على الأقل في العهد «البلومفيلدي» السابق (ص 342 من قبل).

ولفترة من الزمن اعتقد بعض اللغويين أن المرء ـ كما هو الشأن في القواعد الطبقاتية ـ يمكنه أن يبدأ بالأفكار الدلالية شديدة الصغر التي تجمع بقواعد لتكون مواد معجمية (كلمات، والمثال المشهور هو - cause become - not - alivekill).

والصعوبات المختلفة التي صودفت في هذا الطريق قد أدت كثيرا أو قليلا إلى التخلي عن هذا النموذج من النظرية[104]. والدراسات اللغوية للمعنى قد وسعت لتشمل بشكل كبير ما يمكن أن يعتبره بعض اللغويين واقعا خارج ميدان الدلالة، وداخلا في مجال التداولية pragmatics، رغم أنه من الصعوبة رسم خط فاصل متفق عليه بين الاثنين، وحسب نظرية فيرث السياقية (صص 22 ـ 349 من قبل) فإن التمييز بينهما ليس بذي أهمية كبيرة. والمقتضيات الاجتماعية والظرفية، وأعراف المحادثة، وطبيعة «الأفعال الكلامية»، والفروق في التركيز والتأكيد المرتبطة بترتيب الكلمات، والتي يوجد عنها الآن قدر كبير من الكتابات، عبارة عن مظاهر لهذا الاتجاه في علم اللغة الحالي والذي لا يتقيد بحال بتلك الأعمال المنتجة في إطار النظرية التحويلية ـ التوليدية.

وإن العناية الحالية الكبيرة ـ في الواقع ـ بعلم لغة النصوص وأفعال الكلام ونظرية الوثاقة الدلالية وعلم اللغة الاجتماعي عموما، يمكن النظر إليها على نحو ملائم باعتبارها تطورات بعيدة النطاق في موضوعات واتجاهات البحث التي قدمها فيرث بشكل برنامجي، منذ جيل في مفهومه عن سياق الحال (ص 340 من قبل)[105].

بدأ علم اللغة التحويلي ـ التوليدي بوصفه جزءا من علم اللغة الوصفي التزامني، وظل هذا هو اهتمامه الأساسي، ولكن تصور القواعد بوصفها مجموعة من القواعد المنظمة قد أدى إلى إعادة الاعتبار لعلم اللغة التاريخي على الأقل بقدر ما يتعلق الأمر بتمثيل التغير اللغوي، ففي عام 1966م كتب ر.د. كينج R. D. King أول كتاب في علم اللغة التاريخي وفقا لهذه الاتجاهات،

التي تعتبر فيها التغيرات في اللغة عبارة عن تغيرات في المجموعة الفرعية للقواعد، أو في نظام تطبيق القواعد rules التي تكون قواعدها grammar (بالمعنى الواسع لهذا المصطلح).

والتوازى الممكن في النظرية القواعدية التوليدية بين التنظيم الوصفي لبعض القواعد الفنلجية والتعاقب التاريخي للتغيرات الصوتية الفعلية، لم يكن هو الدافع الوحيد وراء المواصلة النشيطة لعلم اللغة التاريخي في الوقت الحاضر.

واللغويون التاريخيون، مع بقاء فهم القواعديين الجدد «للقوانين الصوتية» وراءهم، قد نالوا تعزيزا لاهتمامهم ومناهجهم من تطور الدراسات اللهجية، وحديثا بالرجوع الخاص للهجات الحضرية المختلفة للمدن الكبرى، وكذلك من الدراسات اللغوية الاجتماعية عموما حيث يمكن للمرء أن يرى مصدرا للتغير التعاقبي في عدم التجانس التزامني[106].

ومشاركة تشومسكي في دراسة تاريخ علم اللغة قد نشأت من أقتناعه بأن كثيرا من مقاربته اللغوية هو أساسا، عبارة عن تطور مصوغ بشكل أفضل للممارسة الأوروبية التقليدية (والمرء يمكنه أن يضيف: وللممارسة الهندية السنسكريتية (ص 278 من قبل)).

ولم يكن هذا كله خاليا من الجدال الحاد، وهو ما زاد بالتأكيد من الاهتمام الحالي بتاريخ الموضوع[107].

والمؤرخ يجب عليه أن يتوقف عن السرد عندما يصل إلى الوضع المعاصر، ولكن التاريخ لا يظل واقفا عند ذلك. والمؤرخ يحاول أن يفهم الماضي ويفسره، ويرى الحاضر باعتباره محصلة للماضي، ولكن جهوده لا تسوغ له أن ينصب نفسه نبيا.

ومع ذلك فإن فهم تاريخ العلم اللغوي وتقديره التقدير الصحيح سوف يمكنان المؤرخ من التفكير في حركات المستقبل، وأنواع الجدال فيه بقدر أكبر من التعاطف والتسامح والبصيرة، وإن ربط اهتمامات المرء الآنية بآثار وإنجازات الزملاء العاملين في الموضوع في العصور الماضية سوف يؤدي لأحكام أكثر اتزانا ولحماسة أقل تطرفا.

ولعل هذا يسوغ أيضا اختيار المدرسة التوليدية لإنهاء هذا العرض لتاريخ علم اللغة، مادام كثير من أعضائها معنيين بالاكتشافات الجديدة

التي تمكنهم نظريتهم من القيام بها، وبصلات هذه النظرية بالبحوث اللغوية للأجيال السابقة. ولعل اللغة هي أكثر ملكات النوع الإنساني إنسانية على وجه الخصوص، والإنسان في سعيه لفهم اللغة ومعرفتها فإنه طوال تاريخه الفكري، كان يسعى تماما للوصول لمعرفة ذاته، وللعمل بالوصية التي تقابل الزائر لمعبد أبولو في دلفي(108) مركز العالم اليوناني القديم، حيث يوجد منبع حضارتنا، وهي:

« اعرف نفسك ΓΝΩΘΙ ΣΕΑΥΤΟΝ»

مراجع إضافية

H. ARENS, Sprachwissenschaft: der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart, Freiburg/Munich (second edition) 1969, 403-739.

L. BLOOMFIELD, Language, London, 1935.

N.CHOMSKY, Syntactic structures, The Hague, 1957.

____, Current issues in linguistic theory, The Hague, 1964.

____, Aspects of the theory of syntax, Cambridge, Mass., 1965.

____, and M. HALLE, The sound pattern of English, New York, 1968.

J. R. FIRTH, 'The English school of phonetics', TPS 1946, 92-132.

____, Papers in linguistics 1934-1951, Oxford, 1957.

Z.S. HARRIS, Methods in structural linguistics, Chicago, 1951.

E. J. A. HENDERSON (ed.), The indispensable foundation: a selection from the writings of Henry Sweet, London, 1971.

L. HJELMSLEV, Prolegomena to a theory of language (tr. F.J. WHITFIELD), Baltimore, 1953 (first published in Danish, 1943).

G.C. HORROCKS, Generative grammar, London, 1987.

M. IVIC, Trends in linguistics, The Hague, 1965, 69-242.

R. JAKOBSON, Selected writings 1: phonological studies, The Hague, 1962.

D. JONES, An outline of English phonetics (sixth edition), London, 1947.

____, The phoneme: its nature and use, Cambridge, 1950

____, 'History and meaning of the term "phoneme"', Maître phonétique July to December 1951, supplement.

M. JOOS (ed.), Readings in linguistics, New York, 1958.

M. LEROY, Les grands courants de la linguistique moderne, Brussels and Paris, 1963, part 3; English translation, Berkeley, 1967, chapter 7.

B. MALMBERG, New trends in linguistics (tr E. CARNEY), Stockholm, 1964.

C. MAHRMANN, A. SOMMERFELT. and J. WHATMOUGH (eds.), Trends in European and American linguistics 19301960, Utrecht, 1961.

C. MOHRMANN, F. NORMAN, and A. SOMMERFELT (eds.), Trends in modern linguistics, Utrecht, 1963.

F. J. NEWMEIER, Linguistic theory in America, New York, 1986.

____, (ed), Linguistic, theory: Foundations (Linguistics: the Cambridge survey), 1988.

F.R. PALMER (ed.), Prosodic analysis, London, 1970.

E. SAPIR, Language, New York, 1921.

____, Selected writings (ed. D.G. MANDELBAUM), Berkeley, 1951

F. DE SAUSSURE, Cours de linguistique générale (fourth edition), Paris, 1949

T A. SEBEOK (ed.) Portraits of linguists: a biographical source book for the history of western linguistics 1746-1963, Bloomington and London, 66.

____, Historiography of linguistics, 717-1209.

N. S. TRUBETZKOY, Grundzüge der Phonologie, TCLP 7 (1939) (translated by J. CANTINEAU, Principes de Phonologie, Paris, 1949. English translation by c. A. M. BALTAXE, Berkeley and Los Angeles, 1969).

J. VACHEK, The linguistic school of Prague, Bloomington, 1966.

C. L. WRENN Henry Sweet, TPS 1946, 177-201. Studies in linguistic analysis (various authors), special volume of the Philological Society, Oxford, 1957.

____, History of linguistics (articles by various authors), Anthropological linguistics 5.1 (1963).

ملاحظات ومراجع

1.Further details on prominent scholars and their work may be found in IVIC, 1965, LEROY, 1963, and MALMBERG, 1964, which are devoted to nineteenth- and twentieth-century linguistics, surveyed from a historical point of view.

2.Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues, indo-européennes, Leipzig, 1879.

3.DE SAUSSURE, 1949, preface to first edition: for more details, R. GODEL, Les source manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Paris, 1957 (ed.) R. ENGLER, Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale (edition critique), Wiesbaden, 1967. Further E. F. K. KOERNER, Ferdinand de Saussure, origin and development of his linguistic theory in western studies of language, Braunschweig, 1973; J. CULLER, Saussure, London, 1982.

4. P. A. VERBURG, Lingua 2 (1950), 441

5. J. T. WATERMAN, Perspectives in linguistics, Chicago, 1963, 67.

6. E. DURKHEIM, Les règles de la méthode sociologique (eleventh edition), Paris, 1950; DE SAUSSURE, 1949, 31, 37, 138; cp. the judicious comments of SAPIR, ‘Do we need a superorganic?’, American anthropologist n.s. 19 (1917) 4411

7. DE SAUSSURE, 1949, 34, 97.

8. ibid., 151-4, 157, 169.

9. ibid., part 2, chapter 5; de Saussure used the term associatif, but since it was first suggested by Hjelmslev (Acts of the fourth international congress of linguists, Copenhagen, 1936, 140-51), paradigmatic has become the more generally current word.

10. DE SAUSSURE, 1949, 317.

11. Glossematics, the title chosen by Hjelmslev for this theory of language and linguistic analysis, was a highly theoretical and personal version of de Saussure’s structural linguistics carried to its logical extreme. Because of its difficulties and the somewhat idiosyncratic nature of the terminology in which it has been expressed by Hjelmslev and others, it has not attracted all the attention that it probably deserves. For further details the following writings may be consulted: HJELMSLEV, 1953, id., ‘Structural linguistics, Studia linguistica I (1947), 69-78; H. SPANG-HANSSEN, Glossematics, MOHRMANN, SOMMERFELT, and WHATMOUGH, 1961, 128-64. Criticism of some aspects of glossematic theory in E. FISCHER-JORGENSEN, ‘Remarques sur les principes de l’analyse phonémique, TCLC 5 (1949), 214 - 234; B. SIERTSEMA, A study of glossematics, The Hague, 1955.

12. See further S. ULLMANN, Principles of semantics, Glasgow and Oxford, 1957, 152-70; J. LYONS, Semantics, Cambridge, 197, 250-69.

13. On the history of phonetics see further R. E. ASHER and E. J. A. HENDERSON (eds.), Towards a history of phonetics, Edinburgh, 1981.
14. Works, volume 3, London, 1807, 253-318 (264).
15. London, 1855.
16. A. M. BELL, Visible speech: the science of alphabetics, London, 1867; SWEET, Primer of phonetics, Oxford, 1890; cp. Sweet's general discussion of 'Sound notation', TPS 1880-l, 177-235.
17. WRENN, 1946. It is interesting to notice that Bernard Shaw, also knew Sweet and his work, took him as the model for Professor Higgins in Pygmalion; the same character appears again, of course, in the later musical adaption My fair lady.
18. cp. Sweet's Presidential Address, TPS 1877-9, 1-16.
19. SWEET, Handbook, 100-8, 182-3.
20. R. JAKOBSON, 'Henry Sweet's paths toward phonemics', In memory of J. R. Firth (eds. c. E. BAZELL, J. CATFORD, M. A. K. HALLIDAY, and R. H. ROBINS), London, 1966, 242 - 54; BAUDOUIN DE COURTENAY, Versuch einer Theorie phonetischer Alternationen (German translation), Strassburg, 1895; JONES, 1951; E. STANKIEWICZ, Baudouin de Courtenay and the foundations of structural linguistics. Lisse, 1976. The actual word phonème appears to have been first coined by the French scholar. A. Dufriche-Desguettes (E. F. K. KOERNER, Phonetica 33 (1976), 222-31).
21. SWEET, Handbook, 105; JONES, 1950, chapter 29; W. F. TWADDELL, On defining the phoneme, Baltimore, 1935, and further references therein.
22. TRUBETZKOY, 1939 (page references are taken from Baltaxe's English translation).
23. ibid., 3, 31-45, 66-89; VOCHEK, 1966, chapter 3. Like Hjelmslev, Trubetzkoy was greatly influenced by the structural and relational theory of de Saussure, but this did not lead him to reject phonetic criteria in phonological analysis.
24. TRUBETZKOY, 1939, 77 - 83, 228 - 41; id., 'Die Aufhebung der phonologischen Gegensätze', TCLP 6 (1936), 29-45. id., 1939, 170-207, 273-97; id., Anleitung zu phonologischen Beschreibungen, Brno, 1935.
25. 'Functional sentence analysis' or 'functional sentence perspective', the analysis of the syntactic expression of different aspects of sentence meaning, derived ultimately from K. Bühler, has played an important part in post-war Prague School linguistics, and is acknowledged by Halliday as a major influence on his systemic grammar (VACHEK, 1966; HALLIDAY, 'Options and functions in the English clause', Brno studies in English 8 (1969), 81-8. The Prague School was one of the most prominent centres of theoretical linguistic research in the inter-war years in Europe. It was reconstituted after the second world war; see VACHEK, 1966.
26. 'Beitrag zur allgemeinen Kasuslehre', TCLP 6 (1936), 240288; VACHEK, 1966.
27. cp. ROBINS, Distinctive feature theory, D. ARMSTRONG and c. H. VAN SCHOONEVELD (eds.), Roman Jakobson: echoes of his scholarship, Lisse, 1977, 391-402.

28. A.F.C. WALLACE and J. ATKINS, The meaning of kinship terms, American anthropologist n.s. 62 (1960), 58 80; E.A. HAMMEL (ed.), 'Formal semantic analysis', American anthropologist 67.5 (1965), part 2, special publication. This mode of semantic analysis bears some resemblances to the semantic field theories of European scholars, but componential analysis is primarily concerned with the analysis of the terms by reference to their semantic features, while field theory is concerned with the division of a semantic field among the terms (cp. p. 222, above).
29. JAKOBSON, 1962.
30. JAKOBSON and M. HALLE, Fundamentals of language, The Hague, 1956, 28-32.
31. JAKOBSON and J. LOTZ, 'Notes on the French phonemic pattern', Word 5 (1949), 151-8; CHOMSKY, 1964, 65 - 75; CHOMSKY and HALLE, 1968, 335-8. A valuable survey of phonological developments in this century is to be found in E. FISCHER-JØRGENSEN, Trends in phonological theory: a historical introduction, Copenhagen, 1975.
32. JAKOBSON, 'Prinzipien der historischen Phonologie', TCLP 4 (1931), 247-67 (and in JAKOBSON, 1962, 202-20 (French translation)); J. FOURQUET, Les mutations consonantiques en germanique, Paris, 1948.
33. BLOOMFIELD, 1935, 385.
34. DE SAUSSURE, 1949, 124.
35. A. MARTINET, 'Structure, function, and sound change', Word 8 (1952), 1 - 32; A. G. HAUDRICOURT and A. G. JUILLAND, Essai pour une histoire structurale du phonétisme français, Paris 1949.
36. E. I. SIMMONS (ed.), The Soviet linguistic controversy, New York 1951; L. C. THOMAS, The linguistic theories of N. J. Marr, UCPL 14 (1957), summary account in IVIC, 1965, 102-7.
37. T. A. SEBEOK (ed.), Current trends in linguistics 1: Soviet and East European linguistics, The Hague, 1963; F. KIEFER (ed.), Trends in Soviet linguistics, Dordrecht, 1973. The 'glottalic hypothesis', as this theory is sometimes called, must be left for future research. It has been set forth in T. V. GAMKRELIDZE and V. IVANOV, Indo-European and the Indo-Europeans, Moscow, 1968 (in Russian, but translations are in preparation into western European languages) See also GAMKRELIDZE, 'Language typology and linguistic reconstruction', Proc. 12th International Congress of Linguistics, Innsbruck, 1978, 480-2.
38. London, 1922; Oxford, 1932; Jena, 1934; Copenhagen, 1928; Aarhus, 1935.
39. cp E. CASSIRER, Philosophie der symbolischen Formen, Berlin, 1923-1929; BLOOMFIELD, 'Language or ideas?', Language 12 (1936), 89-95.
40. C. C. FRIES in MOHRMANN, SOMMERFELT, and WHATMOUGH, 1961, 218; Language 19 (1943), 198; see further P. Swiggers (The Boas-Bloomfield Correspondence; Münster, 1988.
41. 'Sound patterns in language', Language I (1925), 37-51, 'La réalité psychologique des phonèmes', Journal de psychologie normale et pathologique 30 (1933), 151 (in English in SAPIR, 1951, 46-60) On European influence on American linguistics, H. M. HOENIGSWALD (ed.), The European

background, Dordrecht, 1979.

42. WEISS, Theoretical basis of human behavior, Columbus, 1929, chapter 13; BLOOMFIELD, 1935, preface, 28, 142; id., obituary of A. P. Weiss, Language 7 (1931), 219-21.
43. Indian linguistic families of American north of Mexico (seventh annual report of the Bureau of Ethnology), Washington, 1891.
44. Washington 1911 (parts 1 and 2), New York 1938 (part 3).
45. SAPIR, 1921 and 1951; id., 'The status of linguistics as a science', Language 5 (1929), 207—14; S. NEWMAN, IJAL 17 (1951), 180 - 6; J. B. CARROLL (ed.), Language, thought, and reality: selected writings of Benjamin Lee Whorf, New York, 1956. See further W. COWAN et al (eds), New perspectives in language, culture, and personality, Amsterdam 1986; R. A, HALL (ed.), Leonard Bloomfield: essays on his life and work, Amsterdam 1987.
46. Critics were able to point out that the actual uses of these two types of unit were not as parallel as the theory suggested (C. E. BAZELL, 'Phonemic and morphemic analysis', Word 8 (1952), 33-8); the development of American linguistic methods during this period can be traced in JOOS, 1958.
47. R. E. LONGACRE, Language 32 (1956), 301.
48. BLOOMFIELD, 1935, 178 - 89, 167, 194 - 7; O. JESPERSEN, The philosophy of grammar, London, 1924, chapter 7; R. S. WELLS, 'Immediate constituents', Language 23 (1947), 81 - 117.
49. HARRIS, 1951, 6.
50. C. F. HOCKETT 'Two models of grammatical description', Word lo (1954), 210-34.
51. BLOOMFIELD, 1935, 161; HOCKETT, Manual of phonology (IJAL 21.4, part 1, 1955), 14-17; 'Linguistic elements and their relations', Language 37 (1961), 29-53.
52. G. L. TRAGER and H. L. SMITH, Outline of English structure (Studies in linguistics occasional papers 1, 1951); HOCKETT, 'A system of descriptive phonology', Language 18 (1942), 3-21. The term grammatical prerequisite is from K. L. Pike, who never accepted this restriction on phonemic analysis ('Grammatical prerequisites to phonemic analysis', Word 3 (1947), 155-72; 'More on grammatical prerequisites', Word 8 (1952), 106-21). On the separation of Levels, TRAGER and SMITH, Op. cit., 50, 53 - 4; HARRIS, 1951, 6.
53. H. L. SMITH, Language 28 (1952), 144 - 9; HARRIS, 1951, 16, CHOMSKY, 1964, 80.
54. So B. BLOCH, 'English verbal inflection', Language 23 (1947), 399-418.
55. New York, 1958; New York, 1955; New York, 1958.
56. JOOS, 1958; MOHRMANN, SOMMERFELT, and WHATMOUGH, 1961. A very useful account of this phase of American linguistics in D. HYMES and J. FOUGHT, American structuralism, SEBEOK, Historiography, 903-1176.
57. For a more detailed historical account of linguistics in this century, especially of work done or inspired by Chomsky, see NEWMEYER, 1986.
58. An introduction to the study of language, New York, 1914, 311.
59. Linguistic aspects of science, Chicago, 1939 (quotation from p. 76); ROBINS, 'Leonard Bloomfield:

the man and the man of science', TPS 86.1 (1988), 63-87. Many of Bloomfield's articles and reviews have been helpfully published in one volume, c. F. HOCKETT (cd.), A Bloomfield anthology, Bloomington, 1970.

60. cp. K. L. PIKE, Phonemics: a technique for reducing languages to writing, Ann Arbor, 1947; E. A. NIDA, Morphology, Ann Arbor, 1948.
61. BLOOMFIELD, 1935, 140, 23.
62. cp. B. Bloch and C. L. Trager, Outline of linguistic analysis, Baltimore, 1942, 8.
63. C. C. Fries in MOHRMANN, SOMMERFELT and WHATMOUGH . 1961 212-7.
64. 1935, 18.
65. C. C. FRIES, The structure of English, New York, 1952, 3-4.
66. cp. CHOMSKY, Language and mind, New York, 1972, 1, and Rules and representations, Oxford, 1980, 4, 48.
67. cp. the full title of N. BEAUZÉE'S eighteenth-century work, Grammaire générale ou exposition raisonnée des éléments nécessaires du langage pour servir de fondement à l'étude de toutes les langues, Paris, 1767.
68. cp. CHOMSKY, 'Principles and parameters in syntactic theory', in N. HORNSTEIN and D. LIGHTFOOT (eds), Explanation in linguistics, London, 1985, chapter 2. Contrast BLOOMFIELD, 1935, 276.
69. BLOOMFIELD, 1935, 20; CHOMSKY, Op. cit. in n. 68.
70. Language in relation to a unified theory of the structure of human behavior, Glendale, 1954-60; R. E. LONGACRE, Grammar discovery procedures, The Hague, 1964.
71. B. ELSON and V. PICKETT, An introduction to morphology and syntax, Santa Ana, 1962, 57.
72. V. WATERHOUSE 'The grammatical structure of Oaxaca Chontal', IJAL 28.2 (1962), part 2. See further R. E. LONGACRE, String constituent analysis', Language 36 (1960), 63-88; v. PICKETT, The grammatical hierarchy of Isthmus Zapotec (Language 36.1, part 2, 1960); ELSON and PICKETT, Op. cit.; W. A. COOK, Introduction to tagmemic analysis, New York, 1969; R. M. BREND, A tagmemic analysis of Mexican Spanish clauses, The Hague, 1968; id. (ed.), Advances in tagmemics, The Hague, 1974.
73. R. E. LONGACRE, 'Some fundamental insights of tagmemics', Language 36 (1960) 63-88 (quotation from p. 67); as an example of a tagmemic field manual, id., Grammar discovery procedures, The Hague, 1964.
74. MALINOWSKI, 'An ethnographic theory of language', Coral gardens and their magic, London, 1935, volume 2, chapter l; FIRTH, 'Ethnographic analysis and language with reference to Malinowski's views, Man and culture (ed. R. W. FIRTH), London, 1957, 93 - 118.
75. FIRTH, The technique of semantics', TPS 1935, 36 - 72.
76. The inclusion of reference and denotation within the relations comprised by a Firthian context of situation is disputed by J. LYONS, 'Firth's theory of "meaning"'. In memory of J. F. Firth, 288-

302; but it seems both compatible with his theory and, indeed, necessary, if the theory is to be sustainable.

77. F. R. PALMER, ‘Linguistic hierarchy’, Lingua 7 (1958), 225 - 41.
78. Based on HALLIDAY, ‘Categories of the theory of grammar’, Word, 17 (1961), 241-92.
79. HALLIDAY, Op. cit.
80. For the details of the theory at this initial stage HALLIDAY, ‘Categories’, should be consulted. A more popular account is given in HALLIDAY, A. MCINTOSH and P. D. STREVENS, The linguistic sciences and language teaching, London, 1964.
81. There is now quite an abundant literature on and by Halliday. His article, ‘Some notes on “deep” grammar’, Journal of linguistics 2 (1966), 57-67, constitutes a bridge between the early and the later versions of his theory; perhaps the most readily accessible presentation by him of systematic grammar is to be found in his ‘Language structure and language function’, New horizons in linguistics (ed. J. LYONS), London, 1970, 140 - 65. See also R. A. HUDSON, English complex sentences: an introduction to systemic grammar, Amsterdam, 1971. Hudson has recently set out what he calls ‘daughter-dependency grammar’, deriving in part from systemic grammar (Arguments for a non-transformational grammar, Chicago, 1976). Most recently HALLIDAY, An introduction to functional grammar, London, 1985.
82. FIRTH, ‘Synopsis of linguistic theory’, Studies in linguistic analysis, 1957, 1-32; ROBINS, ‘General linguistics in Great Britain 1930-60', C. MOHRMANN, F NORMAN, and A. SOMMERFELT, 1963, 11-37.
83. FIRTH, ‘Sounds and prosodies’, TPS 1948, 127 - 52; ROBINS, ‘Aspects of prosodic analysis’, Proceedings of the University of Durham Philosophical Society, series B (Arts), 1 (1957), 1-12.
84. SWEET, Primer, 41.
85. J. T. BENDOR-SAMUEL, The verbal piece in Jebero (Word 17, supplement, 1961), chapters 2 and 3.
86. E. J. A. HENDERSON, ‘Prosodies in Siamese’, Asia major n.s. (1949), 189 - 215; PALMER, 1970.
87. PIKE, Phonemics, Ann Arbor, 1947, 63.
88. W. S. ALLEN, ‘Some prosodic aspects of retroflexion and aspiration in Sanskrit’, BSOAS 13 (1951), 939-46; N. C. SCOTT, ‘A phonological analysis of the Szechuanese monosyllable’, BSOAS 18 (1956), 556-60.
89. This apparent anticipation by Firthians of the basic transformational-generative view of the place of phonology in a full linguistic description is discussed by D. T. LANGENDOEN, The London school of linguistics, Cambridge Mass., 1968, 59. Langendoen’s book contains a critical survey both of Firth’s semantic theory and of prosodic analysis from a transformational-generative position. Some of these criticisms are discussed in ROBINS, Language 45 (1969), 109-16.
90. e.g. HENDERSON, Op. cit.; further references in ROBINS, ‘General linguistics in Great Britain

1930-1960'; see also PALMER, 1970.

91. J. A. GOLDSMITH, Autosegmental and metrical phonology, Oxford, 1988.

92. Stratificational theory was first made public in two papers by LAMB, 'The sememic approach to structural semantics', American anthropologist 66.3 (1964), part 2, 57-78; id., 'On alternation, transformation, realization, and stratification', Monagraph series on languages and linguistics (Georgetown) 17 (1964), 105-22; id., Outline of stratificational grammar, Washington, 1966. See now D.C. BENNETT, Spatial and temporal uses of English prepositions: an essay in stratificational semantics, London, 1975; D. G. LOCKWOOD, Introduction to stratificational linguistics, New York, 1972. The connection between stratificational linguistics and Prague theory is pointed out in VACHEK, 1966.

93. D.G. LOCKWOOD, Introduction to stratificational linguistics, New York, 1972, 281-6.

94. Z. S. HARRIS, 'Discourse analysis', Language 28 (1952), 1-30; id., 'Co-occurrence and transformation in linguistic structure', Language 33 (1957), 283-340. On the relation between Harris's and Chomsky's uses of transformation, CHOMSKY, 1964, 62-3 (n. 2).

95. R. B. LEES, Language 33 (1957), 375 - 408; W. O. DINGWALL, Transformational grammar: form and theory', Lingua IZ (1963), 233-75; W. HAAS, Archivum linguisticum lo (1958), 50 - 4; CHOMSKY, 1964, 25: 'It should be obvious that its roots are firmly in traditional linguistics'.

96. An integrated theory of linguistic descriptions, Cambridge Mass., 1964, 1.

97. cp. HOCKETT, Language 18 (1942), 3: 'Linguistics is a classificatory science'.

98. On the corpus as a fair sample, HARRIS, 1951, 12-13.

99. The Hague, 1959.

100. CHOMSKY and HALLE, 1968.

101. CHOMSKY, 1965, 27-30, LYONS, 'Towards a "notional" theory of the "parts of speech"', Journal of linguistics 2 (1966), 209-36; E. BACH and R.T. HARMS (eds.), Universals in linguistic theory, New York, 1968

102. CHOMSKY, 1965, 132 'Remarks on nominalization', in R. A. JACOBS and P. S ROSENBAUM (eds.), Readings in English transformational grammar, Waltham, 1970, 184221.

103. A reader who may be unfamiliar with recent and current developments in generative grammar may usefully consult HORROCKS, 1987, and, for a more detailed account of transformational-generative theory from its earliest days, F. J. NEWMEYER, 1986. In view of the rapidity with which generative theory has developed over the past twenty years attention should be paid to the dates of first publication of books and articles listed in Horrocks's and others' bibliographies. On Government and Binding, Generalized Phrase Structure Grammar, and Lexical-Functional Grammar, see HORROCKS, 1987, chapters 2.3-4, 3, and 4.

104. G. P. LAKOFF, Linguistics and natural logic, Ann Arbor, 1970; id., 'On generative semantics', D. D. STEINBERG and c. A. JAKOBOVITS (eds.), Semantics, Cambridge, 1971, 232-96; R. M. KEMPSON, Semantic theory, Cambridge, 1977, chapter 9; ROBINS, Ideen- und Problem-geschichte

der Sprachwissenschaft, Frankfurt a. M., 1973, 134 - 41; HORROCKS, 1987, 29 - 30.

105. See FIRTH, ‘Personality and language in society’ (1950), in his Papers in linguistics 1934-51, London, 1957, 182. On relevance theory, D. Sperber and D. Wilson, Relevance, Oxford, 1986.

106. 1969. T. BYNON, Historical linguistics, Cambridge, 1985, chapters 1, 2, and 3 give accounts of the interpretations of language change by the neogrammarians, by structural linguists of the Prague School, and by T-G grammarians, respectively; chapter 3 covers much recent work and has more up to date references than King. See also v. WEINREICH W. LABOV, and M. 1. HERZOG, Empirical foundations for a theory of language change’ in (eds.) W. P. LEHMANN and Y. MALKIEL, Directions for historical linguistics, Austin, 1968, 95—

107. CHOMSKY, Cartesian linguistics: a chapter in the history of rationalist thought, New York, 1966 (review by v. G. SALMON, Journal of linguistics 5 (1969), 165 - 87); H. AARSLEFF, ‘The history of linguistics and Professor Chomsky’, Language 46 (1970), 570-85; E. COSERIU, ‘Semantik, innere Sprachform und Tiefenstruktur’, Folio linguistica 4 (1970), 53-63.

108. Gnothi seautón (know thyself), PAUSANIAS 10-24-1; JUVENAL 11.27; BLOOMFIELD, An introduction to the study of language, New York, 1914, 325: ‘Linguistic science is a step in the self-realization of man’.

المؤلف في سطور:

روبرت هنري روبنز

* هو أستاذ علم اللغة في جامعة لندن، والسكرتير الشرفي للجمعية الفلسفية.

* له مساهماته في النشاط العلمي اللغوي في الولايات المتحدة منذ الخمسينيات، كما ساهم بكثير من المقالات في الدوريات العلمية، مثل مجلة الجمعية الفلسفية ومجلة Bulletin الخاصة بمدرسة الدراسات الشرقية والأ فريقية (SOAS).

* من أهم مؤلفاته كتاب General Linguistics: An Introductory Servey الذي طبعت منه عدة طبعات لأهميته، وهو يعتبر تكملة لهذا الكتاب.

المترجم في سطور

د. أحمد عوض

* من مواليد الغنايم - أسيوط، جمهورية مصر العربية، عام 1940.

* حصل على ليسانس دار العلوم - جامعة القاهرة، 1962.

* قام بتدريس العربية في مصر والجزائر وليبيا ونيجيريا.

* نال درجة الماجستير بتقدير ممتاز في دراسة فنلجية لصوامت الهوسا والسواحلية من جامعة القاهرة، كما حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من الجامعة



الطريق إلى المريخ

تأليف: م. سعد شعبان

نفسها عام 1989، في النظام الصائتي في العربية والهوسا (دراسة أكستيكية).

* نشر عدة بحوث في الصوتيات واللغويات.

* يعمل في الوقت الحالي أستاذا مساعدا للغويات بمعهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

هذا الكتاب

يقدم المؤلف في هذا الكتاب وصفا موجزا لتاريخ الدراسات اللغوية حتى بداية النصف الثاني من هذا القرن، ويركز وصفه - أساسا- على تاريخ علم اللغة في أوروبا، ولكنه في الوقت نفسه لا يتجاهل المساهمات التي تلقاها هذا العلم من خارج القارة.

وإذا كان المؤلف يهدف من هذا الكتاب إلى سد حاجة المدرسين والدارسين في هذا الميدان، لتعميق فهمهم لما قد أنجز في دراسة اللغة، ولاقتراح مجالات مفيدة لأبحاث أخرى في الوقت نفسه، فإننا نرى أن هذا الكتاب يهم المثقفين والقراء العرب بشكل عام، فالمثقف العربي عموما قد يكون- إضافة إلى تخصصه- على دراية، بدرجة أو بأخرى، بالفلسفة والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفنون... الخ، ولكنه فيما يتعلق بعلم اللغة قد لا يكون على دراية كافية، وقد يكون مفهومه عن اللغة وطبيعتها وعلاقتها بالمجتمع وبالفكر أقرب إلى المفهوم الأسطوري أو الفلكلوري. وفي هذه الحالة فإن مواقفه تجاه لغته ولغات الآخرين، وبالتالي نحو الآخرين ونحو العالم، لن تكون صحيحة تماما، أو ناقصة ومشوهة في أحسن الأحوال. وقد يسهم هذا الكتاب في سد هذه الحاجة لدى المثقف والقارئ العربيين.